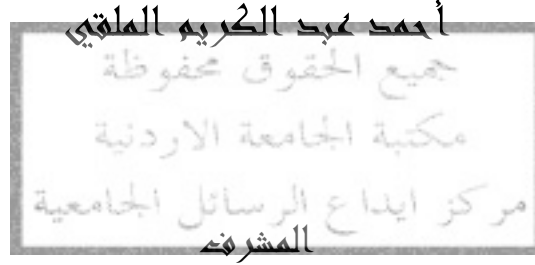


المرأة في أدب التنوخي دراسة في الرؤية والتشكيل

إعداد



الأستاذ الدكتور ياسين خليل عايش

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في
اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا
الجامعة الأردنية

كانون الثاني، 2005

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

الإهداء

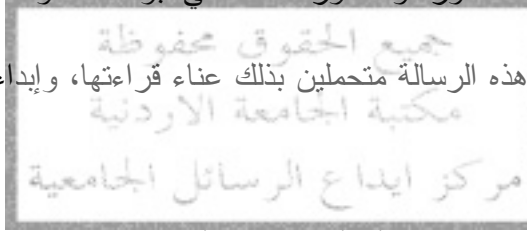
أهدي هذه الرسالة إلى والدي ووالدتي
الحبيبين وإلى أخوتي العزيزين عامر وحمزة، مقدراً
لهم جميعاً ما تحملوه معي طيلة حياتي الدراسية
فأوطنني إلى حيث وصلت بغيرهم ومساندتهم.

مكتبة الجامعة الأردنية
مركز أبحاث الرسائل الجامعية

شكر و تقدير

ظل قلمي صامتاً طويلاً حين هممت بكتابة هذه الورقة فمستحقو الشكر كُثُر، ومهما بلغت كلماتي فلن توفيهم حقهم أبداً.

وأبدأ هنا فأشكر الأستاذ الدكتور ياسين خليل عايش على ما قدمه لي من النصيحة العلمية طيلة مدة إشرافه على رسالتي هذه، فقد وجدت أبواب مكتبته مفتوحة على مصراعها فنهلته منها علماً وافرأ مكنني من إتمام هذا العمل. كما أشكر الأساتذة: الأستاذ الدكتور صلاح جرار، والدكتور حمدي منصور، والدكتور محمد علي أبو حمدة، والدكتور محمد الدروبي لتفضلهم بقبول مناقشة هذه الرسالة متحملين بذلك عناء قراءتها، وإبداء ملاحظاتهم الثرية عليها فجزاهم الله كل خير.



وأجد من الواجب علي هنا أن أشكر جميع أساتذتي الذين بذلوا الغالي والنفيس حتى وصلت إلى ما أنا عليه الآن، وأخص بالشكر أستاذي خضر قبطان وعائلته الكريمة؛ فمعلمتي السيدة الفاضلة سهام عليان كانت ولا تزال تبذل جهداً عظيماً في سبيل تقدمي العلمي والفكري فلها جزيل الشكر والتقدير.

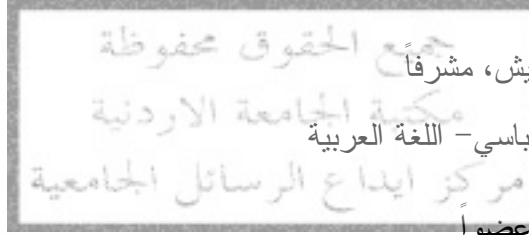
أسرتي الحبيبة، زملائي الأعزاء أشكر لكم دعمكم ومساندتكُم، وأعدكم بأن تكون هذه البداية التي ستبشر بمستقبل مشرق إن شاء الله.

نوقشت هذه الرسالة/ الأطروحة (المرأة في أدب التنوخي، دراسة في الرؤية والتشكيل)
وأجيزت بتاريخ 6-1-2005.

أعضاء لجنة المناقشة

التوقيع

.....

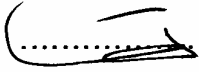



الدكتور ياسين خليل عايش، مشرفاً

أستاذ مشارك الأدب العباسي - اللغة العربية

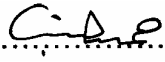
الدكتور صلاح جرار، عضواً

أستاذ دكتور الأدب العباسي - اللغة العربية

.....


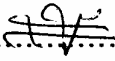
الدكتور حمدي محمود منصور، عضواً

أستاذ مشارك الأدب الجاهلي والإسلامي - اللغة العربية

.....


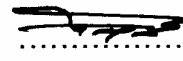
الدكتور محمد علي أبو حمدة، عضواً

أستاذ مساعد الأدب والنقد - اللغة العربية

.....


الدكتور محمد محمود الدروبي

أستاذ مساعد الأدب العباسي، اللغة العربية (جامعة آل البيت)

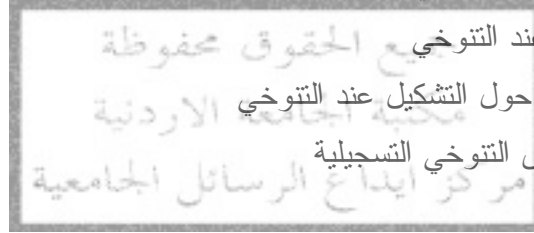
.....


فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
ب	قرار لجنة المناقشة
ج	الإهداء
د	شكر وتقدير
هـ	فهرس المحتويات
ح	الملخص
1	المقدمة
10	الفصل الأول: صورة المرأة عند من سبقوا التنوخي (الجاحظ وابن قتيبة وابن عبد ربّه نموذجاً)
10	التوطئة
12	الصفات المادية (الخلقية)
27	الصفات الشخصية (المعنوية والسلوكية)
42	مكانة المرأة:
44	1. التعليم:
44	أ. القراءة والكتابة
45	ب. الأدب والشعر والخطابة
46	ج. حفظ القرآن
49	2. الأهلية القانونية
53	3. مكانة المرأة الاجتماعية:
53	أ. العزلة والانفتاح
56	ب. المرأة والشأن العام
59	ج. منعة حقوق المرأة
61	4. شبهات تتعلق بمكانة المرأة:
61	أ. الطلاق ومكانة المرأة
63	ب. الرق ومكانة المرأة
64	ج. حرية المرأة في استخدام جسمها كما تشاء
66	د. القيود على الزواج

66	هـ. المهر
68	و. العنف ضد المرأة
72	الخلاصة
76	الفصل الثاني: صورة المرأة في أدب التنوخي
76	التوطئة
77	التنوخي:
77	اسمه ونسبه
77	مولده ونشأته
78	ثقافته ومذهبه
79	شيوخه ومؤدبوه
80	الوظائف التي شغلها التنوخي
81	مكانته العلمية
81	مؤلفات التنوخي وأهميتها:
82	1. نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة
85	2. كتاب الفرج بعد الشدة
87	3. المستجاد من فعاليات الأجواد
88	4. ديوان الشعر
89	وفاته
90	جسم المرأة في كتب التنوخي
92	صفات المرأة المعنوية المسلكية:
92	1. حسن التدبير والدهاء
98	2. الوفاء والإخلاص في مقابل الغدر والخيانة
103	3. حب المرأة لبذل المال والكرم في مقابل حبها لجمع المال والشح
107	4. النزعة الجرمية لدى المرأة عند التنوخي
111	ملاحظات إجمالية حول صفات المرأة في أدب التنوخي
114	مكانة المرأة في أدب التنوخي:
114	1. التعليم

116	2. الأهلية القانونية
119	3. مكانة المرأة الاجتماعية في أدب التنوخي
122	صورة المرأة الإجمالية مستخلصة من أدب التنوخي
124	صورة المرأة بين التنوخي ومن سبقوه (الجاحظ وابن قتيبة وابن عبد ربّه نموذجاً)
127	الفصل الثالث: التشكيل في أدب التنوخي المتعلق بالمرأة
127	التوطئة
131	السردي في قصص التنوخي الإخبارية
145	الشخص في أدب التنوخي
157	الحبكة والعقدة عند التنوخي
163	الحل والخاتمة عند التنوخي
168	ملاحظات عامة حول التشكيل عند التنوخي
174	خصائص قصص التنوخي التسجيلية
178	الخاتمة
182	الملحق
291	قائمة المصادر والمراجع
302	الملخص باللغة الإنجليزية



المقدمة

الدهشة والذهول صنعا تطلعات هذا البحث، وحفزا خطواته توصلًا إلى نهاياته. في السنوات الأخيرة من القرن العشرين، وفي مدينة عمان بالذات، بلغني أن رجلاً في أواسط العقد السادس من عمره قد اشترى لنفسه كفنًا وهو في كامل صحته، واحتفظ به في بيته، وثار أولاده على ذلك و شعروا بالكثير من السوداوية والتشاؤم من فعلة الوالد. ولما بلغني الخبر دهشت من عمل الوالد و ذهلت منه، ورثيت لحال زوجه وأبنائه. وبعد أن انتهى إلي هذا الخبر من مصادره الموثوقة كان أن اطلعت على قصة نباشة القبور التي أوردها التنوخي، فزاد ذهولي؛ لأن هذه الفتاة لم تحتفظ بكفن واحد بل بثلاثمائة كفن، ولم تشتريها من تاجر، وإنما جمعتها من مقبرة المدينة، ولم تحصل عليها نهاراً، بل نبشت القبور ليلاً من أجل الحصول عليها. وكان أن تعاضم في نفسي التساؤل عما إذا كان هذا الأديب مغرماً برسم الصور الغربية لذاتها، وما إذا كان يريد أن يقول شيئاً عن المرأة بالذات، فأقبلتُ على دراسته، وفي نفسي تلك التساؤلات، فأثارت القراءة الأولى تساؤلات أخرى حول أسلوبه الأدبي وخصائصه التشكيلية.

و لما أن هدأت سَوْرَةَ الدهشة والذهول أخذت تتبلور لدي خطوات بحثية أدبية تأملت أن أتوصل من خلالها إلى إجابات عن تساؤلاتي حول المرأة في أدب التنوخي وحول أسلوبه، و خصائصه التشكيلية، فكان أن قرأت كتب التنوخي الثلاثة، واستخرجت منها تلك الأخبار التي تبرز فيها المرأة فاعلة مؤثرة، واستبعدت تماماً الأخبار التي كانت المرأة فيها شخصاً مغيباً أو غير فاعل. فكان أن توافر لي ثمانية وثلاثون خبراً من هذا القبيل، أوردتها في الملحق متوالية، غير مُبَوَّبة ولا

مصنفة، تماماً كما فعل التنوخي ذاته، وقد آثرت أن لا أورد ضمن هذه القصص المنتقاة أخبار الأنبياء صلوات الله عليهم؛ خيفة أن يختلط علي أمر الأحكام الشرعية، ويمتزج بالتحليل الأدبي، كما آثرت أن لا أورد أخبار الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين إلا عندما كانوا يتصرفون بوصفهم أشخاصاً عاديين لا ينقلون حكماً شرعياً، ولا يجتهدون استنباطاً للحكم الديني في مسألة من المسائل.

و كان أن عرض لي بعدها سؤال كبير وهو: إن كنت باحثاً عن صورة المرأة في أدب التنوخي أو في أدب غيره فماذا تعني كلمة الصورة؟ أي ذلك المظهر الخارجي الذي يظهر للعين؟ أم أنه أيضاً ذلك البناء الداخلي وذلك الموقع الاجتماعي الذي يحظى به صاحب الصورة؟ فأقبلت على المراجع أملاً في أن تساعدني في تشكيل مفهوم لهذه الكلمة يصلح أن يكون أساساً لهذا البحث. ثم إنني رأيت أن الصورة لا تكتمل حتى تقارن بصورة أخرى أو أكثر؛ لأن الأشياء إنما تتضح حين تقارن بالنظائر والأضداد. فاخترت ثلاثة من الأدباء نموذجاً، واخترتهم لأنهم كتبوا مباشرة عن المرأة، فكان أن اصطفيت من كتابات الجاحظ رسائله الثلاث: مفاخرة الجواري والغلمان، والقيان، والنساء، ومن كتابات ابن قتيبة كتاب النساء الذي يشكل جزءاً من كتابه عيون الأخبار، ومن عقد ابن عبد ربّه المرجانة الثانية وأخبار الوافدات على معاوية، لكي تكون الصورة المستخلصة من أدبهم مناط المقارنة مع صورة المرأة التي ستستخلص من أدب التنوخي.

و هنا فاجأني سؤال خطير: ما جدوى هذا البحث؟ أهو بحث يعقد لمجرد الفضول مدفوعاً بالدهشة والذهول؟ أم أنه بحث مفيد يلقي الضوء على جانب من جوانب المعرفة الإنسانية؟ وقادني هذا السؤال إلى سلسلة من الأفكار تواردت على ذهني فيما دون الجهر أحياناً، وجرت على لساني

بصوت عالٍ أحياناً آخر، فكان لزاماً أن أرتبها، وأن أسوقها في هذه المقدمة حتى تبقى في تفاصيلها هادية لي في عمليات إتمام هذا البحث.

و أين الأدب في هذا الخضم الزاخر من التنظير والبحث والاستقصاء؟ لا بد أن يتمسك الأدب بدوره من حيث هو نشاط إنساني يتصل اتصالاً مباشراً بالذات الإنسانية، يكشفها من جانب، ويغذيها من جانب ويسمو بها إلى أعلى عليين. ولا يجوز للأدب أن يتنازل عن دوره في إغناء المعرفة الإنسانية كما يراها ليضيف بذلك إلى سائر العلوم والمعارف فهماً صادراً عن منظور مكمل لسائر أشكال النشاط الإنساني، ولا يجوز للأدب كذلك أن يتراجع أمام جموح العلوم الطبيعية التكنولوجية، بل يجب عليه أن يستجمع قوته ليفعل شيئاً في قادم الأيام؛ لأن الناس سيعودون إليه وإلى سائر الأجناس الفنية.

ولماذا التتوخي؟ لأنه إخباري جاء وسيطاً ما بين الإخباريين، سبقه على سبيل المثال كل من الجاحظ وابن قتيبة وابن عبد ربّه، وأتى بعده ابن القيم الجوزية والمالقي وغيرهما، ومن هذا الموقع الوسيط قد يكون التتوخي قادراً على إلقاء الضوء على فكر من سبقوه متأثراً بهم، كما قد يكون قادراً على إلقاء الضوء على فكر من لحقوه بعد أن مهد لهم.

وهكذا دخلت إلى نفسي الطمأنينة، فهذا بحث لا يقوم على مجرد الفضول المتطفّل، وإنما يسعى إلى تقديم إضافة متواضعة على فهم جانب من جوانب المشهد الإنساني في مدة محددة من التاريخ في بقعة محددة من الجغرافيا. صحيح أن الدهشة والذهول كانا منطلق هذا البحث، ولكن المنهجية الأدبية حلت في محلها الصحيح، وهي التي حرصت جاهداً على أن تقود خطوات هذا البحث حول صورة المرأة التي شغلت الرجال والنساء، منذ أول إشراقة وعي على الذات عرفتها البشرية.

وفي ضوء هذه الطمأنينة، وانطلاقاً من الأفكار التي تبلورت رسمت لهذا البحث أن يمر بإجراءات كان أولها: الاطلاع على الأدبيات المتصلة بالموضوعات التي يتكون منها البحث، ولا سيما مفهوم الصورة، وأساليب استخلاص مقوماتها، وتحديد مفهوم التشكيل، وما يتفرع عنه من مفاهيم. وبعد ذلك رسمت لهذا البحث أن يضع خلاصة استعراضية تحليلية لما تكشف عنه الأدبيات المتصلة بموضوعات البحث، لينتهي الأمر إلى تدوين النتائج، وتحليلها، والتوصل إلى النتائج الختامية.

و قد تطلب إعداد هذا البحث الاطلاع على ما تيسر في المكتبة العربية من دراسات وبحوث

على شكل كتب منشورة، أو مقالات في مجلات، أو رسائل جامعية غير منشورة تتصل بشكل مباشر أو غير مباشر بمحور أو أكثر من محاور هذا البحث.

و أبدأ أول ما أبدأ بالأدبيات والدراسات المتصلة بالتنوخي، فقد حظيت مصنفات التنوخي

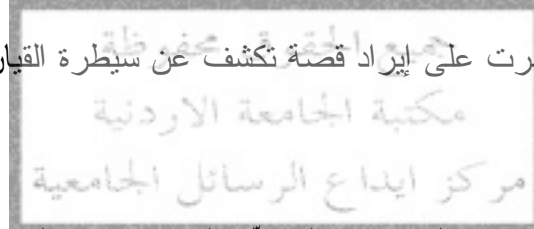
بعناية عدد من الدارسين المحدثين، غير أن أيّاً منهم- في حدود ما أعلم- لم يقف على بيان صورة المرأة في الحكايات والطرائف والأخبار والأشعار التي حشدت في تلك المصنفات الثلاثة. وأبرز تلك الدراسات والمؤلفات:

*كتاب " الفاضي التنوخي وكتاب النشوار " لبديري محمد فهد، المكتبة الأهلية، بغداد، 1966. وفيه يقدم وصفاً موجزاً لكتاب النشوار ومادته، ثم يورد فهرس عامة للخلفاء والأمم والقبائل والأشعار ممّا ورد في النشوار، ولا سيما في الجزء الأول منه.

*كتاب " الفرج بعد الشدة " لمحمد حسن عبد الله، مكتبة وهبة، القاهرة، 1993. والكتاب قسمان، الأول دراسة لعصر التنوخي، وشخصية مؤلفه، ومصادره في اجتناء القصص والأخبار، ومحاور اهتمامه، وخصائصه الفنية. والثاني مختارات من القصص والأخبار، والطرائف مُستلة منه.

وثمة رسائل جامعية عنيت بمصنفات التنوخي ومنها:

*دراسة لسلوى درويش بعنوان " المحسن بن علي التنوخي، حياته ودراسة تحليلية لآثاره "، التي قدمت لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها من الجامعة الأردنية عام 1994. وهي تعرض في بدايتها صورة لمجتمع التنوخي وبيئته التي نشأ فيها، مؤدياً بها ذلك إلى الحديث عن سيرة حياته، إلا أنها تصبّ اهتمامها وجهودها على تحليل نتاج التنوخي، الذي كان كما تراه رساماً مبدعاً، يرسم ويصور بكلماته حالة المجتمع بكل طبقاته من الخلفاء والقضاة والتجار والجواري واللصوص، ويرصد أفكارهم وأحاسيسهم، فأعماله كانت ترجمة لدقائق المجتمع وتفاصيله. لكنها لم تجعل للمرأة في عملها نصيباً، بل اقتصر على إيراد قصة تكشف عن سيطرة القيان والمغنيات في ذلك العصر على الشباب.

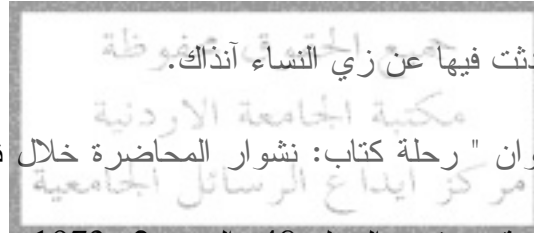


*دراسة لخولة شخاترة بعنوان " الخبر عند المحسن التنوخي، بين القصّ والتأريخ"، التي قدمت لنيل درجة الدكتوراة في اللغة العربية وآدابها من جامعة اليرموك عام 2000. وهي تفصّل في بدايتها جهود المعاصرين في دراسة التنوخي من حيث تحقيق أعماله، والدراسات التي تناولته، وينصب اهتمامها على دراسة تداعي الأخبار وتواردها عنده، ولم يرد فيها شيء عن صورة المرأة في هذه المصنفات.

*دراسة لمحمد القدحات بعنوان " القاضي التنوخي وآثاره، دراسة في منهجه ومصادره"، قدمت لنيل درجة الدكتوراة في التاريخ من الجامعة الأردنية عام 2000. وقد قدّم الدارس في بدايتها للأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية، وتحو هذه الدراسة منحى بعيداً عن الدراسات الأدبية، إذ تصب اهتمامها على الترجمة لسيرة حياة التنوخي، ومن ثم تحدث عن المصادر التي استقى منها مؤلفاته:

مكتوبة كانت مثل الشعر والأدب والأنساب، أم شفوية مثل القضاة والمحدثين والشعراء والتجار والعامّة والنساء، إلا أن حديثه عن النساء اقتصر على ذكر أسماء اللاتي كنّ مصدرًا لأخباره.

*دراسة لرولا النجار بعنوان "صورة المجتمع الإسلامي في القرن الرابع الهجري في مصنفات التتوخي: (الفرج بعد الشدة، والمستجاد من فعلات الأجواد، ونشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة) " قدمت لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها من الجامعة الأردنية عام 2001. وعرضت في بدايتها للحديث عن حياة التتوخي وذكر مصنفاته، وقد حاولت هذه الدراسة أن تعيد رسم صورة المجتمع سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً في ذلك العصر من مصنفاته، ولم تتطرق فيها لذكر



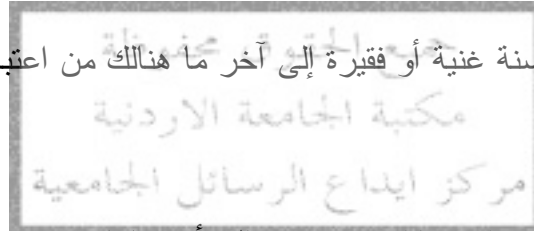
المرأة سوى في جزئية تحدثت فيها عن زي النساء آنذاك.
*مقالة لشكري فيصل بعنوان "رحلة كتاب: نشوار المحاضرة خلال نصف قرن ويزيد"، نشرت في مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، المجلد 48، الجزء 2، 1973. ويقف الباحث في هذه المقالة على صور الاهتمام بكتاب النشوار منذ أن نشر المستشرق الإنجليزي مرجليوث جزءه الأول عام 1921. إذ جعل المقالة في قسمين: الأول منها وهو بعنوان "النشوار مع مرجليوث"، وأما الآخر فهو "النشوار مع عبود الشالجي"، ويناقش فيها الأخطاء التي وقع بها المحققان، إذ ينكر على مرجليوث تسمية ما نشره بالجزء الأول، وهو نفسه يقول في وصف المخطوطة المحققة "وليس فيها ما يدل على أنها أول جزء من أجزاء عدة". أما الشالجي فينكر عليه قوله بتتبع الفقرات الضائعة من الكتاب، فالضائع من النشوار ليس فقرات إنما هو أجزاء.

وعلى ذلك فإن صورة المرأة في أدب التتوخي لم تتل الاهتمام الكافي في هذه الدراسات جميعاً، فجاءت هذه الدراسة لتعنى بهذا الجانب الإنساني وتبرزه، وتبيّن مقدار حضوره في مسيرة المجتمع العربي في تلك الأعصر.

وأشير بعد ذلك إلى الدراسات المتعلقة بالمرأة وصورتها، فأبين أنّ أياً منها لم تتناول صورة المرأة بالشكل الذي عرفه هذا البحث بمفهوم الصورة، حتى ولو استعملت هذه الكلمة في عناوينها وفي متونها. والملاحظ أنّ هذه الدراسات تصدت في معرض رسم الصورة إلى تناول مرحلة عمرية مثل مرحلة المراهقة، كما هي الحال في دراسة محمد السباعي الموسومة باسم " صورة المرأة في روايات إحسان عبد القدوس "، أو بدور من الأدوار الاجتماعية مثل دور الأم والبنات والزوجة كما هو الحال في دراسة ناهدة الكسواني الموسومة باسم " صورة المرأة في روايات حنا مينا "، ودراسة ضياء الكعبي الموسومة باسم " صورة المرأة في السرد العربي القديم: دراسة في كتب الجاحظ والأغاني والسيرة الشعبية"، ودراسة محمد صبحي الموسومة باسم " المرأة في الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين ". كما أنّ ثمة دراسات ربطت المرأة بالوظائف الشعرية، كأن تتخذ رمزاً أو أنموذجاً للجمال كما يتبين من دراسة وضاح الحاحلة الموسومة باسم " صورة المرأة في العصر العباسي الثاني في العراق "، ودراسة أمل عوامل الموسومة باسم " صورة المرأة في الأدب الشعبي الأردني والفلسطيني "، ودراسة طه غالب الموسومة باسم " صورة المرأة المثال ورموزها الدينية عند شعراء المعلقات "، ودراسة اعتدال خليل الموسومة باسم " صورة المرأة في شعر البلاط البويهبي فضلاً عن دراسات أخرى مبنوثة في طيات هذه البحث.

و بعد أن فرغت من الاطلاع على الأدبيات السابقة تبلور لدي مفهوم للصورة ومفهوم للتشكيل سأعرض له تفصيلاً في موقعه من هذا البحث، وأصبح متاحاً لي البدء بتدوين النتائج التي توصلت إليها. وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة وملحق واحد. وقد تناول الفصلان الأول والثاني معالجة رؤية صورة المرأة، وعالج الفصل الثالث التشكيل وخصائصه في أدب التنوخي.

أما الفصل الأول فعقد لغايات استخلاص صورة المرأة كما ارتسمت في نموذج مختار من الأدباء الإخباريين الذين سبقوا التنوخي وهم: الجاحظ وابن قتيبة وابن عبد ربّه. وقد اختيرت ثلاث من رسائل الجاحظ هي رسالة القيان، ورسالة المفخرة بين الجوّاري والغلمان، ورسالة النساء. واختير من أعمال ابن قتيبة ذلك الفصل المسمى " كتاب النساء "، الوارد في كتابه عيون الأخبار. كما اختيرت المرجانة الثانية من العقد الفريد، إضافة إلى أخبار الوافدات على معاوية. وقد جرى استخلاص هذه الصورة من خمسين خبراً جمعت من المصادر السابقة، وجرى تمحيصها للتعرف من خلالها على صورة المرأة في أدب هؤلاء، مع التركيز على كونها امرأة من غير اعتبار لكونها حرة أو جارية، شابة أو مسنة غنية أو فقيرة إلى آخر ما هنالك من اعتبارات لا تنفي عن المرأة أنها امرأة.



وعقد الفصل الثاني لاستخلاص صورة المرأة كما ارتسمت في أدب التنوخي من خلال ثمان وثلاثين خبراً سمي كل منها قصة، وجرى تمحيصها للتوصل إلى مقارنة الصورة المرتمسة في القصص المنتقاة مع الصورة التي ارتسمت في أدب الإخباريين الأنف ذكرهم.

وعقد الفصل الثالث لدراسة خصائص التشكيل الأدبي عند التنوخي، ومحاولة تبين ما اتصفت به قصصه المنتقاة من سمات في السرد، وفي الشخص، وفي الحكمة، وفي العقدة، وفي الحل، وفي الخاتمة مع تركيز على الخصائص اللغوية التي عرضت من خلالها هذه القصص الإخبارية والتسجيلية. أما الملحق فخصص لإيراد القصص المنتقاة جميعاً من أدب الجاحظ، وابن قتيبة، وابن عبد ربّه، والتنوخي، فبلغت ثمانياً وثمانين قصة، منها خمسون اختيرت من أدب الذين سبقوا التنوخي وثمان وثلاثين اختيرت من أدب التنوخي ذاته.

ويلاحظ أن عدد القصص والأخبار عند التنوخي كان أقل من عددها عند من سبقوه ممن وقع عليهم الاختيار، وذلك لا يقلل من قيمة النتائج التي توصل إليها البحث الذي انعقدت عليه هذه الدراسة، لأنها تظل مؤشراً صالحاً يمكن معه استخلاص الصورة الإجمالية للمرأة عند التنوخي. و أسأل الله تعالى التوفيق فيما سعيت إليه من إلقاء ضوء على موضوع هذا البحث، إنه ولي التوفيق.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

الفصل الأول

صورة المرأة عند من سبقوا التتوخي

(الجاحظ وابن قتيبة وابن عبد ربّه نموذجاً)

توطئة

كانت المرأة وستظل دائماً محطَّ اهتمام الرجل في مختلف العصور، وفي مختلف الحضارات. ودون العرب اهتمامهم بها منذ بواكير نتاجهم الأدبي، وذلك مائل في شعر الغزل الجاهلي والإسلامي والأموي والعباسي، ولا سيما في قصص العشاق. إن دراسة هذا النتاج الشعري والنثري أمرٌ عسير، وقد تكلف باحثون كثيرون في التأليف في هذا الميدان كما سبق بيانه في المقدمة. غير أنه يغدو من المفيد الوقوف على نماذج نثرية لثلاثة من أعلام النثر العباسي ممن سبقوا التتوخي؛ لرؤية ما يمكن أن تكون مؤلفات التتوخي قد أضافته إلى مؤلفات من سبقوه في رسم صورة المرأة.

ويبدو واضحاً من هذه المقدمة أن الذين عنوا بالمرأة عناية مباشرة أو غير مباشرة من بين شعراء العرب وأدبائهم أكثر من أن يحيط بهم بحث مثل هذا، ولذلك اختير ثلاثة من رواة الأخبار الذين كرّسوا للنساء جزءاً وافراً من كتاباتهم. وهم: الجاحظ في رسائله، وابن قتيبة في كتابه عيون الأخبار، وابن عبد ربّه في كتابه العقد الفريد. ويتميز هؤلاء جميعاً بأنهم جمعوا الأخبار مع عناية شديدة بتقصي صحة السند وعدم انقطاعه ما أمكنهم ذلك، وربما ورد الخبر نفسه عند غير واحد من هؤلاء، الأمر الذي يزيد الخبر دقة في أن يكون شاهداً على عصر من العصور من زاوية رؤيته للمرأة كما استوعبها راوية الخبر.

وقد جُمعت من أخبارهم- لغايات هذا البحث- خمسون قصة، كان معظمها معنياً عناية مباشرة بالنساء، كما صرّح بذلك الراوية نفسه. وقد تناولت أخبارهم نساء من ذوات الشهرة في التاريخ العربي من أمثال هند بنت عتبة زوج أبي سفيان أم معاوية، والخنساء، وعائشة بنت طلحة ونائلة بنت الفرافصة زوج عثمان رضي الله عنه، وسعدى زوج الوليد بن عبد الملك، وفي مقابل هؤلاء النسوة ثمة نساء لم تذكر أسماءهنّ، الأمر الذي يوحي بأن هؤلاء الرواة تناولوا شرائح مختلفة من النساء مستخلصين بذلك صورة نمطية لهنّ، متمثلة في من يُنظر إليها على أنها المرأة الأنموذج، كما عرضوا لخصائص النساء القبيحات خلقاً وخلُقا. وقد خُصص هذا الجزء من البحث لاستخلاص الصورة العامة للمرأة الأنموذج جمالاً وقبحاً، وللمرأة من حيث صفاتها السلوكية ومن حيث أهليتها الاجتماعية كما رسمها هؤلاء الرواة. وسوف يجري أولاً تناول المرأة من حيث جسمها، ثم من حيث صفاتها توصلاً في النهاية إلى أهليتها الاجتماعية.

الصفات المادية (الخلقية)

لعل أوضح ما قالته العرب بشأن المرأة الأنموذج في جسمها ما قالته عصام في وصف أم إياس حين وصفتها لعمر بن حجر جد امرئ القيس، إذ أرسلها لتتنظر في أمر خطبة أم إياس⁽¹⁾، فقد أفاضت عصام في وصف جسم أم إياس حتى إنها لم تدع شيئاً إلا وصفته وصفاً جمالياً مؤثراً، صارفة النظر عن العورة الصريحة مع إشارة ذكية إليها. ويستشف من هذه القصة- على وجه الخصوص- أن جسم المرأة الأنموذج يتصف بما يلي: لاردنية

1. الطول الفارع والضخامة في مختلف أعضاء الجسم باستثناء الخصر والقدمين.

2. رقة البشرة ونعومتها.

3. التناسق العام بين مختلف أعضاء الجسم.

4. البياض والوضاءة في الجبهة والبشرة والأسنان.

5. الحمرة في الشفتين والخددين.

6. السواد الحالك والطول في الشعر.

7. الريح الطيب والنضارة واكتمال الأعضاء والتمتع بالصحة.

وقد تأيدت هذه الصفات الجسمية في مواضع عديدة من القصص المندرجة في الملحق ومن،

الأمثلة على ذلك قول القائل:

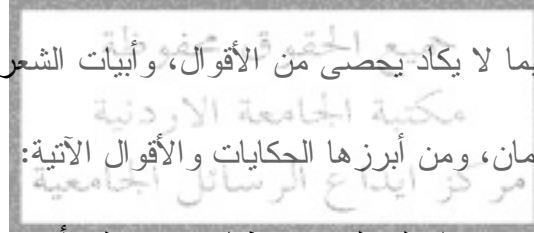
(1) انظر الملحق، قصة 39.

كأن مجامع الرَبَلات منها فَنَامٌ ينهضون إلى فَنَامٍ⁽¹⁾

و يصف القائل هنا ضخامة مجامع الفخذين عند هذه المرأة حين شبهها بجمهرة كبيرة من الناس تلتقي بجمهرة أخرى مماثلة لها حجماً.

وهام بعضهم بنعومة ملمس المرأة وجسدها، كما يبدو ذلك في التثاء على رقة جلد ابنة أردشير حتى أنه تأثر تأثراً كبيراً بورقة آس⁽²⁾. كما أغرموا ببياض جسم المرأة فملاءة بنت زرارة بن أوفى الحرشي⁽³⁾ ظهر بياض جسمها حتى وهي مرتدية ثوبها⁽⁴⁾.

و تأيّد ذلك أيضاً بما لا يكاد يحصى من الأقوال، وأبيات الشعر، ونصائح الحكماء العارفين بشؤون النساء في ذلك الزمان، ومن أبرزها الحكايات والأقوال الآتية:



" قال عبد الملك بن مروان لرجل من غطفان: صف لي أحسن النساء. فقال: خذها يا أمير

المؤمنين ملساء القدمين، درماء الكعبيين⁽⁵⁾، مملوة الساقين، جماء الركبتين⁽⁶⁾، لفاء الفخذين⁽⁷⁾، مقرمة

(1) انظر الملحق، قصة 25.

(2) انظر الملحق، قصة 28.

(3) هي الملاءة بنت رزان الحرشية، كان أبوها فقيها محدثاً من التابعين، وهي التي شبب الفرزدق بها وبعاتكة بنتها. انظر الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، (ت764). الوافي بالوفيات، 29م، (تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى) دار إحياء التراث، بيروت، 2000، ج26، ص38.

(4) انظر الملحق، قصة 38.

(5) الدرماء التي لا تستبين كعوبها ولا مرافقها من السمنة. انظر ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي، (ت711). لسان العرب، ط1، 15م، دار صادر، بيروت، 1968. مادة درم.

(6) جماء العظام كثيرة اللحم عليها. انظر ابن منظور، اللسان، مادة جمم.

(7) اللفاء المكتنزة الضخمة الفخذين. انظر ابن منظور، اللسان، مادة لفف.

الرُفْعَيْن (1)، ناعمة الأليتين (2)، منيفة المأكمتين (3)، بداء الوركين (4)، مهضومة الخصرين (5)، ملساء المنكبين، مشرفة، فعمة العضدين (6)، فخمة الذراعين (7)، رخصة الكفين (8)، ناهدة الثديين (9)، حمراء الخدين، كحلاء العينين (10)، زجاء الحاجبين (11)، لمياء الشفتين (12)، بلجاء الجبين (13)، شماء العرنيين (14) شنباء الثغر (15)، حالكة الشعر، غيداء العنق (16)، عيناء العينين (17)، مكسرة البطن (18). فقال: ويحك! وأين تجد هذه؟ قال: تجدها في خالص العرب أو في خالص الفرس. (19)

- (1) المقرمة الرفعين الضيقتهما، وذلك لالتفاف فخذيهما واكتناز بايديها. انظر ابن منظور، اللسان، مادة قرمد.
- (2) الألية بالفتح العجيزة للناس وغيرهم. انظر ابن منظور، اللسان، مادة ألي.
- (3) ناف الشيء ارتفع وأشرف والمأكمتين هما لحمتان وصلتا ما بين العجز والمنتين. انظر ابن منظور، اللسان، مادة نوف ومادة أكم.
- (4) البداء من النساء الضخمة، وقيل كثيرة لحم الفخذين. انظر ابن منظور، اللسان، مادة بدد.
- (5) اللطيفة الكشحين، ويقال امرأة هضمام وهضم. انظر ابن منظور، اللسان، مادة هضم.
- (6) ممتلئتهما، ويقال للمرأة فعمة التي استوى خلقها وغلظ ساقها. انظر ابن منظور، اللسان، مادة فعم.
- (7) ضخمة. انظر ابن منظور، اللسان، مادة فخم.
- (8) ناعمة البشرة رقيقتها، ورخاصة أناملها لينها. انظر ابن منظور، اللسان، مادة رخص.
- (9) نهد الثدي إذا ارتفع عن الصدر وصار له حجم. انظر ابن منظور، اللسان، مادة نهد.
- (10) التي تراها كأنها مكحولة وإن لم تكحل. انظر ابن منظور، اللسان، مادة كحل.
- (11) الدقيقة الحاجبين الممتدتهما. انظر ابن منظور، اللسان، مادة زجج.
- (12) سمراء الشفة. انظر ابن منظور، اللسان، مادة لما.
- (13) البلج إذا تباعد ما بين الحاجبين، وقيل إذا كان نقياً من الشعر. انظر ابن منظور، اللسان، مادة بلج.
- (14) الشمم أن يطول الأنف ويدق مع حسن استواء القصبية وارتفاعها. انظر ابن منظور، اللسان، مادة شمم.
- (15) الشنب رقة الأسنان واستواؤها مع بياض وبريق. انظر ابن منظور، اللسان، مادة شنب.
- (16) الغيداء المرأة المنتنبة من اللين وغيداء العنق التي تميل لرقتها. انظر ابن منظور، اللسان، مادة غيد.
- (17) الواسعة العين، انظر ابن منظور، اللسان، مادة عين.
- (18) الكسر هو العضو الوافر، وقيل هو العضو الذي على حدته لا يخلط به غيره. انظر ابن منظور، اللسان، مادة كسر.
- (19) ابن عبد ربّه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي، (ت328). العقد الفريد، 5م، شرحه وضبطه وعنون

وقال الحجاج: " لا يحسن نحر المرأة حتى يعظم ثدياها "(1). وقال علي بن أبي طالب (

كرّم الله وجهه): " لا تحسن المرأة حتى تروي الرضيع، وتدفي الضجيع "(2).

وقال خالد بن صفوان(3): " حسبي من جمالها أن تكون ضخمة من بعيد، مليحة من

قريب ".(4)

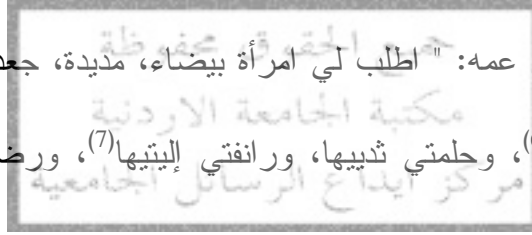
وقال أبو العباس السفاح لخالد بن صفوان: " يا خالد، إن الناس قد أكثروا في النساء فأيهنّ

أعجب إليك؟ قال: أعجبهنّ يا أمير المؤمنين التي ليست بالضرع الصغيرة، ولا الفانية الكبيرة،

وحسبك من جمالها أن تكون فخمة من بعيد، مليحة من قريب، أعلاها قضيب، وأسفلها كثيب "(5)

وقال أعرابي لابن عمه: " اطلب لي امرأة بيضاء، مديدة، جعدة، تقوم فلا يصيب قميصها

منها إلا مشاشة منكبيها(6)، وحلمتي ثدييها، ورانفتي إلبتيها(7)، ورضاف ركبتيها(8). إذا استلقت



موضوعاته أحمد أمين وأحمد الزين و إبراهيم الابياري)، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1996، ج2، ص87.

(1) ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم، ت(276). عيون الأخبار، ج4، (تحقيق محمد الإسكندراني)،

دار الكتاب العربي، بيروت، 1994، ص320-321؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج2، ص86.

(2) انظر المصدر السابق، ص86.

(3) العلامة البلّغ فصيح زمانه أبو صفوان البصري، كان في أيام التابعين إذ وفد على عمر بن عبد العزيز، وهو

القائل ثلاثة يعرفون عند ثلاثة: الحليم عند الغضب، والشجاع عند اللقاء، والصديق عند النائية. الذهبي، أبو عبد الله

محمد بن أحمد بن قايمز، (ت 748). انظر سير أعلام النبلاء، ط9، 23م، (تحقيق شعيب الأرنؤوط و محمد نعيم

العرقسوسي)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1992، ج6، ص226.

(4) انظر ابن قتيبة، عيون الأخبار، م4، ص296.

(5) انظر ابن عبد ربه، العقد الفريد، المرجانة الثانية، ص86.

(6) المُشاشُ رُؤسُ العظامِ مثلُ الركبتين والمرفقين والمنكبين. انظر لسان العرب مادة مشش.

(7) الرانفة أسفل الألية وطرفها الذي يلي الأرض من الإنسان إذا كان قائماً. انظر لسان العرب مادة رنف.

(8) الرّضفةُ طبّقٌ يموّجُ على الرُّكبة، وقيل الجلدة التي على الركبة. انظر لسان العرب مادة رصف.

فرميت تحتها بالأثرجة العظيمة نفذت من الجانب الآخر" (1).

وقالوا في صفات شعر المرأة الكثير، وأكثر ما يروقه منهم أن يكون أسود حالكاً و لا سيما

إذا كانت صاحبه بيضاء البشرة، وفي ذلك يقول الشاعر:

بيضاء تسحب من قيام شعرها و تغيب فيه وهو جدل أسحم⁽²⁾

فكانها فيه نهار ساطع و كأنه ليل عليها مظلم⁽³⁾

و عبر العرب أيضاً عن عنايتهم بجمال جسم المرأة، واشتهر عنهم أنهم شبهوها

بالظبية والغزال، وشبهوا شعرها بالليل وبالعناقيد، وشبهوا وجهها بالبدر وطلعتها بطلعة

القمر، وشبهوا عينيها بعيون المها، ووصفوها بأنهما دُعاوتين⁽⁴⁾، وأنَّ نظرهما عليلٌ

وسنان، وشبهوا قدها بالغصن، وعنقها بإبريق الفضة، وشبهوا ساقها بجمارة النخلة⁽⁵⁾،

وشبهوا نهديتها بحقين من عاج يملآن يد الملامس، وشبهوها بالمرانتين، وكل هذه

التشبيهات تعبر عن حس جمالي لدى العرب فكل مثبه به هو رمز عندهم من رموز

الجمال من حيث وجه الشبه. هذا إضافة إلى كلمات كثيرة تحمل معها الإيحاء بالجمال كأن

يقال: هي غادة⁽⁶⁾، وأملودة⁽⁷⁾، وطَفلة⁽⁸⁾، وهيفاء⁽⁹⁾، وشنباء.

(1) انظر ابن قتيبة، عيون الأخبار، م4، 297.

(2) أسحم أسود. انظر ابن منظور، اللسان، مادة سحم.

(3) انظر ابن قتيبة، عيون الأخبار، م4، ص317. ولم يعز البيتين فيه لقاتل.

(4) شِدَّة السواد مع سعة المقلة. انظر ابن منظور، اللسان، مادة دعج.

(5) قلب النخلة وشحمتها، وشبهت بها الساق لبياضها. انظر لسان العرب مادة جمر.

(6) الفتاة الناعمة اللينة. انظر ابن منظور، اللسان، مادة عيد.

(7) يقال رجل أملود وامرأة أملود وأملودة ناعمة. انظر ابن منظور، اللسان، مادة ملد.

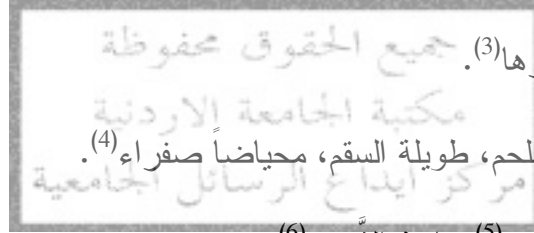
(8) هي الرخصة الناعمة الرقيقة البشرة، وقيل إذا كانت صغيرة. انظر ابن منظور، اللسان، مادة طفل.

(9) الضامرة البطن رقيقة الخصر. انظر ابن منظور، اللسان، مادة هيف.

ولا تكتمل الصورة إلا بمقارنتها مع نقيضها، فالمرأة القبيحة في جسمها قد نالت هي الأخرى تركيزاً شديداً عند العرب، وإذا كانت القصص المنتقاة لا تتعرض لقبح المرأة في جسمها فإن أقوال العرب وحكمهم ونصائحهم تعج بمثل هذه الإيماءات الدالة على القبح.

ومن مظاهر القبح في جسم المرأة عند العرب ما يلي:

1- أن يكون في جسمها شيء من الزوائد والفضول⁽¹⁾ ولا تدخل الشامة ضمن مثل هذه الزوائد المستكرهة، بل إنها من المحسنات⁽²⁾.



2. أن يكون قد شاب شعرها⁽³⁾.

3. أن تكون نحيفة قليلة اللحم، طويلة السقم، محياضاً صفراء⁽⁴⁾.

4. أن تكون حديدة العرقوب⁽⁵⁾، بادية الذنوب⁽⁶⁾.

5. أن تكون سفعاء⁽⁷⁾ ورهاء⁽¹⁾.

6. أن تكون برشاء⁽²⁾ أو عمشاء⁽³⁾.

(1) الجاحظ، عمرو بن بحر، (ت255). رسائل الجاحظ، 4م، (تحقيق عبد السلام هارون)، دار الجليل، بيروت. 1991، ج1، ص158.

(2) انظر ابن قتيبة، عيون الأخبار، م4، ص312.

(3) انظر المصدر نفسه، ص312.

(4) انظر ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج2، ص90.

(5) العرقوب وهو الوتر الذي خلف الكعبين من مفصل القدم والساق، من ذوات الأربع، وهو من الإنسان فويق العقب. انظر ابن منظور، اللسان، مادة عرقب.

(6) انظر ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج2، ص90. والذنوب لحم المتن، وقيل الألية والمآكم. انظر ابن منظور، اللسان، مادة ذنب.

(7) السفع السواد والشوب. انظر ابن منظور، اللسان، مادة سفع.

7. أن تكون وقصاء⁽⁴⁾ أو لثغاء⁽⁵⁾. وقد شدد العرب على قبح هذه الصفة الجسمية في المرأة، لأنهم كانوا يكرهون أن تتجب المرأة ولداً ألتغ، ذلك لأن هذا الولد اسوأ حالاً في نظرهم حتى من الولد الأعمى.⁽⁶⁾

8. أن تكون زرقاء العينين. فقد قال أحدهم:

أحبك إن قالوا بعينك زرقه
جميع الحقوق محفوظة

9. أن لا يكون جسمها مطابقاً للجمال الأنموذج كما هو موصوف أنفاً.
مركز أبحاث الرسائل الجامعية
مكتبة الجامعة الأردنية

وقد تفنن العرب في وصف المرأة القبيحة وفي وصف مشاعرهم تجاهها. ومن ذلك قول

أحدهم في عجوز تزوجها:

لها جسم برغوث وساقا بعوضة و
وجه كوجه القرد بل هو أقبح

و تبرق عيناها إذا ما رأيتها
و تعبس في وجه الضجيع وتكلح⁽⁸⁾

(1) انظر ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج2، ص90؛ والورهاء الخرقاء بالعمل. انظر ابن منظور، اللسان، مادة وره.

(2) في لونها نقط مختلفة. انظر ابن منظور، اللسان، مادة برش.

(3) انظر ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج2، ص91. والعَمَشُ ضَعْفُ رُؤْيَةِ الْعَيْنِ؛ انظر ابن منظور، اللسان، مادة

عَمَش.

(4) قصيرة العنق كأنما رُدَّ في جوف الصدر. انظر ابن منظور، اللسان، مادة وقص.

(5) الألتغ هو الذي لا يُبَيِّنُ الكلام. انظر ابن منظور، اللسان، مادة لثغ.

(6) انظر ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج2، ص91.

(7) انظر ابن قتيبة، عيون الأخبار، م4، ص347.

(8) تكشر في عبوس. انظر ابن منظور، اللسان، مادة كلح.

و تفتح - لا كانت - فما لو رأيته
 توهمته باباً من النار يفتح
 فما ضحكت في الناس إلا ظننتها
 أمامهم كلباً يهـر وينبح
 إذا عين الشيطان صورة وجهها
 تعود منها حين يمسي ويصبح
 و قد أعجبتها نفسها فتملحت⁽¹⁾
 بأي جمال - ليت شعري - تملح⁽²⁾

و من ذلك أيضاً قول أحدهم في وصف امرأة قبيحة بشعر فيه إقواء:

أعوذ بالله من زلاء⁽³⁾ فاحشة
 كأنما نيط ثوباها على عود
 لا يمسك الحبل حقواها إذا انتطقت
 و في الذنابي⁽⁴⁾ وفي العرقوب تحديداً
 أعوذ بالله من ساق لها حنّب⁽⁵⁾ كأنها من حديد القين⁽⁶⁾ سفود⁽⁷⁾

و من ذلك أيضاً، أن أعرابية دخلت على حمدونة بنت الرشيد، فلما خرجت سئلت عنها فقالت: " وما حمدونة؟ والله لقد رأيتهما وما رأيت طائلاً، كأن بطنها قربة، وكأن ثديها دبة، وكأن إسنها رقعة، وكان وجهها وجه ديك قد نفش عفرته⁽⁸⁾ يقاتل ديكا ".⁽⁹⁾

غير أن العرب - من ناحية أخرى - كانوا يرون في توافر بعض الصفات الجمالية ما يشفع

-
- (1) من الملاحه وهو الحسن. انظر ابن منظور، اللسان، مادة ملح.
 - (2) انظر ابن قتيبة، عيون الأخبار، م4، ص323. ولم تغز هذه الأبيات إلى قائل.
 - (3) الزلاء وهي الرسحاء خفيفة الوركين. انظر ابن منظور، اللسان، مادة رسح.
 - (4) منبت الذنب. انظر ابن منظور، اللسان، مادة ذنب.
 - (5) الحنّب والتحنّب أعوجاج في الساقين. انظر ابن منظور، اللسان، مادة حنّب.
 - (6) القين الحداد. انظر ابن منظور، اللسان، مادة قين.
 - (7) انظر ابن قتيبة، عيون الأخبار، م4، ص232. و السفود بتشديد الفاء حديدة ذات شُعب معقفة يشوي به اللحم. انظر ابن منظور، اللسان، مادة سفد.
 - (8) عفرية الديك ريش عُنقه. انظر ابن منظور، اللسان، مادة عفر.
 - (9) انظر ابن قتيبة، عيون الأخبار، م4، ص323.

للمرأة إذا كانت مفتقرة إلى صفات أخرى من صفات الجمال الأنموذج، ومن ذلك ما قاله أبو الأسود
الدؤلي في جارية حواء عاتبته في شرائها زوجها وظلت تشاره في ذلك حتى قال:

يعيبونها عندي ولا عيب عندها سوى أن في العينين بعض التأخر

فإن يك في العينين سوء فإنها مهفهفة⁽¹⁾ الأعلى رداح⁽²⁾ المؤخر⁽³⁾

و من ذلك أيضاً موقف الفرزدق من مكية ابنته من جاريته الزنجية التي هدد زوجها النوار

بأنه سيستغني عنها بسبب هذه الفتاة إذل هي أصرت على الانتقاص منها وفي هذا يقول:

وكنتم زعمتم أنها ظلمتكم كذبتم وبيت الله بل تظلمونها

فإلا تعدوا أمها من نسائكم فإن أباهما والدد لن يشينها

وإن لها أعمام صدق وأخوة و شيخا إذا شئتم تأيم دونها

فقال النوار: إنا لا نشاء.

و قال الفرزدق في أمته الزنجية تلك:

ياربُ خود⁽⁴⁾ من بنات الزنج تتقل تنوراً شديداً الوهج

أعسن مثل القدح الخنج⁽⁵⁾ يزداد طيباً بعد طول الهرج⁽¹⁾

(1) ضامرة البطن. انظر ابن منظور، اللسان، مادة هفف.

(2) ثقيلة الأوراك. انظر ابن منظور، اللسان، مادة رداح.

(3) انظر الملحق، قصة 21.

(4) الفتاة الحسنه الخلق الشابه ما لم تصر نصفاً. انظر ابن منظور، اللسان، مادة خود.

(5) الخنج شجر تتخذ من خشبه الأواني. انظر ابن منظور، اللسان، مادة خنج.

و روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: " لا يمنعكم من تزوج امرأة قصيرة

قصرها، فإن الطويلة تلد القصير، والقصيرة تلد الطويل ".⁽²⁾

و مع أن العرب كانوا يفضلون العربيات على غيرهنّ، فإن رجلاً من أهل المدينة قال:

لا تشتمن امرأ في أن تكون له أم من الروم أو سوداء عجماء

فإنما أمهات الناس أوعية مستودعات وللأحساب آباء

و رُبَّ واضحة ليست بمنجبة و ربما أنجبت للفحل سوداء⁽³⁾

و يبقى ضرورياً هنا الإشارة إلى ملاحظات عامة تتعلق بشكل أو بآخر بجسم المرأة، ومن

ذلك ما يلي:

1. لم تكن العرب ترى بأساً في أن تنتقل المرأة إلى عدة أزواج؛ لا تنتهي عن ذلك إلا إن

يدركها الموت أو يزهد فيها الرجال.⁽⁴⁾

ومن النساء اللاتي تنقلن من زوج إلى آخر ضباعة بنت عامر بن قرط بن عامر بن

صعصعة⁽⁵⁾، وابنة ذي الجدين⁽⁶⁾، وهند بنت عتبة⁽⁷⁾، وأم إياس⁽¹⁾، وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن

نفيل⁽²⁾، والفارعة أم الحجاج⁽³⁾،

(1) انظر الملحق، قصة 37.

(2) انظر ابن قتيبة، عيون الأخبار، م4، ص294.

(3) انظر المصدر السابق، ص300.

(4) انظر الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج1، ص158.

(5) انظر الملحق، قصة 1. وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد خطبها إلى ابنها سلمة بن هشام فقال حتى

استأمرها فقيل للنبي إنها قد كبرت فأتاها فقالت وفي النبي تستأمرني، ارجع فزوجه فرجع. انظر الصفدي،

الوافي بالوفيات، ج16، ص201.

(6) انظر الملحق، قصة 10.

(7) انظر الملحق، قصة 35.

وهند بنت النعمان⁽⁴⁾. إلا أن الجاحظ يشير إلى أن الناس بدأت تكره ذلك للنساء وأخذوا يستسمجونه منهنّ، ويعاقبون المرأة الحرة إذا كانت قد نكحت زوجاً واحداً ويلزمون من خطبها العار ويلحقون به اللوم ويعيرونها.⁽⁵⁾

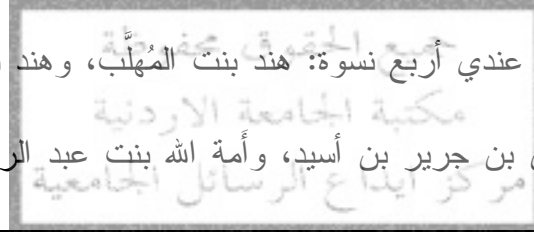
2. لم تكن النساء تكره الضرائر إلى درجة الحقد والضغينة، فقد قال هشام بن المغيرة لضباعة وهو يقنعها بالزواج به: "ونسائي أكثر نساء رجل من قريش".⁽⁶⁾

" وكان للوليد بن عبد الملك أربع عوائل: لبابة بنت عبد الله بن عباس، وفاطمة بنت يزيد بن

معاوية، وزينب بنت سعيد بن العاص، وأم جحش بنت عبد الرحمن بن الحارث".⁽¹⁾

و قال الحجاج: " عندي أربع نسوة: هند بنت المهلب، وهند بنت أسماء بن خارجة، وأم

الجلّاس بنت عبد الرحمن بن جرير بن أسيد، وأمة الله بنت عبد الرحمن بن جرير بن عبد الله



(1) انظر الملحق، قصة 39.

(2) انظر الملحق، قصة 2. كان قد تزوجها عبد الله بن أبي بكر واشتدت محبته لها فشغلته حتى عن صلاة الجمعة، فقال له أبوه: طلقها فإنها قد فتنتك، فلم يزل أبوه حتى طلقها، فلم يصبر عنها، فرق له فراجعها، ولم تزل عنده حتى أصابه سهم في الطائف فمات فرثته، ثم تزوجها عمر بن الخطاب، ثم قتل عنها، فرثته، ثم تزوجها بعد ذلك الزبير فقتل عنها، فرثته، ثم إن علي بن أبي طالب خطبها بعد انقضاء العدة ولم تتزوج، وتزوجها الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان آخر من ذكر من أزواجها. انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 16، ص 318.

(3) انظر الملحق، قصة 41. كانت الفارعة تحت الحارث بن كلدة الثقفي حكيم العرب، فطلقها، فتزوجها بعده يوسف عقيل الثقفي، فولدت له الحجاج، وقيل إنها كانت امرأة المغيرة بن شعبة، وهو الذي طلقها. انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 11، ص 238.

(4) انظر الأبيشي، شهاب الدين بن محمد. المستطرف من كل فن مستظرف، 2م، (تحقيق عبد الله أنيس الطباع)، دار القلم، بيروت، ص 79-81. وتعرف هند بحرقة ويقال حريقة، دخلت على خالد بن الوليد لما افتتح الحيرة لكنها رفضت أن تسلم وبقيت على نصرانيتها. انظر البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي، (ت 487). معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمعاجم، ط 3، 4م، (تحقيق مصطفى السقا)، عالم الكتب، بيروت، 1982، ج 2، ص 604. ودير هند بالحيرة، وهند هذه شاعرة، تزوجها روح بن زبناح. انظر ابن منظور، اللسان، مادة هجن.

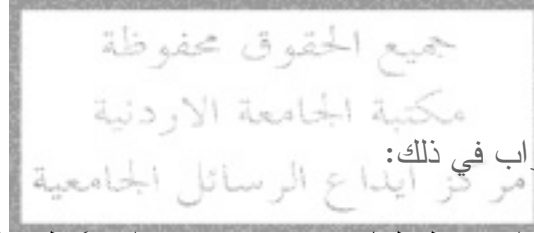
(5) انظر الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج 1، ص 158.

(6) انظر الملحق، قصة 1.

البجلي". (2)

و لعل من أطرف ما يروى في هذا المجال أن رجلاً طلق في ساعة واحدة خمس نسوة، خامسهن امرأة جاره الذي أجاز الطلاق، الأمر الذي يستدل منه أن النساء لم يكن شديداً على ضرائهنّ بدليل أن كل واحدة من النساء الأربع حاولت الدفاع عن ضرائرها في مواجهة الزوج (3).

3. كانت العرب تحب النسوة وهن في شبابهنّ. وقيل: "شباب المرأة من خمس عشرة سنة إلى ثلاثين سنة وفيها من الثلاثين إلى الأربعين مستمتع، وإذا اقتحمت العقبة الأخرى حسلت (4) ولم يعد فيها متعة لمستمتع" (5).



و قال بعض الأعراب في ذلك:

لا تتكحن عجوزاً إن دعوك لها و إن حبوك على تزويجها الذهبا

و إن أتوك وقالوا إنها نصّف (6) فإن أطيب نصفها الذي ذهبها (7)

4. كانت العرب تنتظر باهتمام إلى الطيب والنظافة، ومن ذلك ما سمعته أم إياس من والدتها عندما أهديت إلى عمرو بن حجر إذ قالت الوالدة في نصيحتها لابنتها: أن تتفقد لمواضع عين زوجها

(1) انظر ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج2، ص84.

(2) انظر المصدر نفسه، ص84.

(3) انظر الملحق، قصة 40

(4) الحسيل الرذال من كل شيء، وحسّلت أبقّت بقية رذالاً. انظر ابن منظور، اللسان، مادة حسل.

(5) انظر ابن قتيبة، عيون الأخبار، م4، ص336.

(6) النصف بالتحريك المرأة بين الحدّة والمُسِنَّة أو التي بلغت خمساً وأربعين ونحوها. انظر ابن منظور، اللسان، مادة نصف.

(7) انظر ابن قتيبة، عيون الأخبار، م4، ص332.

وأنفه، فلا تقع عينه منها على قبيح ولا يشم منها إلا أطيّب ريح. (1)

و قال عامر بن الظرب (2) لزوجته أن تأمر ابنتها إلا تنزل مفازة إلا ومعها ماء؛ فإنه للأعلى

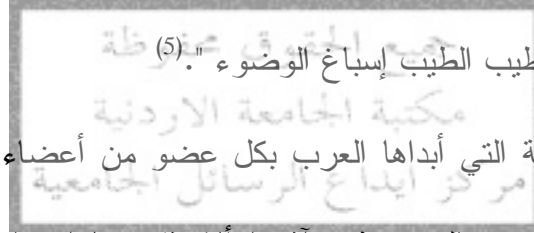
جلاء وللأسفل نقاء. (3)

وقال الفرافصة الكلبى لابنته نائلة حين جهزها إلى عثمان رضي الله عنه: " يا بنية إنك

تقدمين على نساء قريش، وهنّ أقدر على الطيب منك فلا تُغلبى على خصلتين: الكحل والماء،

وتطهري حتى يكون ريحك ريح شنّ أصابه مطر". (4)

وقال أبو الأسود الدؤلي لابنته فيما قال لها عند زواجها: " وعليك بالزينة، وأزين الزينة



الكحل. وعليك بالطيب وأطيّب الطيب إسباغ الوضوء". (5)

5. على الرغم من العناية التي أبدتها العرب بكل عضو من أعضاء جسم المرأة، إلا إنهم عَفُوا

تماماً عن الإشارة إلى العورة الصريحة، وآثروا ألا يذكروها احتراماً لخصوصية المرأة، ولعفة

الرجل في آن معاً. فليس في القصص المنتقاة وصف أو تغزل أو تشبيب بعورة المرأة صراحة.

ويكفي من ذلك ما قالته عصام في وصف أم إياس إذ قالت: " فأما ما سوى ذلك - أي من أعضاء

جسم أم إياس - فتركت أن أصفه. غير أنه أحسن ما وصفه واصف بنظم أو نثر" (1). ومن الجدير

(1) انظر ابن عبد ربّه العقد الفريد، ص 86.

(2) العدوانى أحد فرسان بني حمان بن عبد العزى وفي الصحاح أحد حكام العرب. انظر ابن منظور، اللسان، مادة ظرب.

(3) انظر ابن قتيبة، عيون الأخبار، م 4، ص 363.

(4) انظر المصدر السابق، ص 363. والشَّنُّ و الشَّنَّةُ الخَلْقُ من كل آنية صُنِعَتْ من جلد. انظر ابن منظور، اللسان، مادة شنين.

(5) انظر المصدر نفسه، ص 364.

العورة من غير توسع في وصفها، والإفاضة في أي صفة من صفاتها. وليس في القصص المنتقاة شيء يشبه ما أورده ابن القيم على لسان أبي نواس في هذا الخصوص⁽²⁾، علماً أن ابن القيم متأخر عن التتوخي، وبالتالي فإن أخباره لم تدخل ضمن البحث إلا استثناساً.

6. يستفاد من القصص المنتقاة أن العرب كانوا يكتفون بالأوصاف العامة للمرأة عندما يتعلق الأمر بزوجة أو معشوقة، فيكتفون على سبيل المثال بأن يقولوا:

لها خُلُقٌ سهلٌ وحسنٌ ومنصبٌ
وخلقٌ سويٌّ ما يُعابُ ومنطقٌ⁽³⁾

و شبيهه بذلك أن خالد الحذاء اكتفى بوصف امرأة من بني أسد بأنها: "شابة جميلة".⁽⁴⁾

ومن ذلك وصف الحكم بن صخر الثقفي لجارينتين من بني عقيل بأن قال: " فلم أرَ أحسن منهما وجهاً، ولا أظرف أسنة، ولا أكثر علماً وأدبا ".⁽⁵⁾ وكذلك وصف رجل خرج في طلب إبل له ضلت، فرأى جارية، فوصفها قائلاً: " فإذا بفتاة أعشى نور وجهها نور بصري ".⁽⁶⁾ و نحو ذلك وصف شريح⁽⁷⁾ لزينب بنت جرير التميمية بقوله: " إنها أحسن ما رأيت من الجواري ".⁽¹⁾ واكتفى

(1) انظر الملحق، قصة 39.

(2) انظر الجوزية، ابن القيم. أخبار النساء، طبعة خاصة، 1ج، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، 2001، ص182

(3) انظر الملحق، قصة 2.

(4) انظر الملحق، قصة 6.

(5) انظر الملحق، قصة 15.

(6) انظر الملحق، قصة 16.

(7) كان أعلم الناس بالقضاء ذو فطنة وذكاء ومعرفة وعقل وورصانة، واستقضاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الكوفة، تزوج امرأة من بني تميم تسمى زينب، فنقم عليها شيئاً فضربها ثم ندم، توفي سنة سبع وثمانين للهجرة وهو ابن مائة سنة. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، (ت681). وفيات الأعيان و أنباء أبناء

رجل أصاب جارية اشتراها بوصفها: "بأنها وضيئة".⁽²⁾

أما ما ورد على لسان عصام بشأن أم إياس من وصف مفصل، فإنما ورد على لسان

امرأة و لم يرد على لسان رجل⁽³⁾، وكذلك قول ضباعة حين طافت بالبيت عريانة وهي تنشد:

اليوم يبدو بعضه أو كله

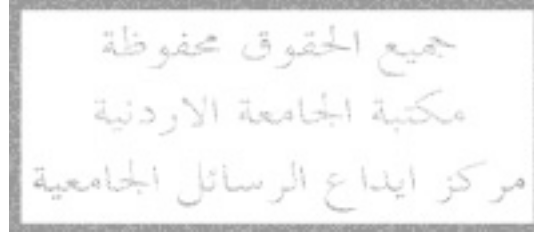
فما بدا منه فلا أحله

الناظر فيه فما يمله

أختم⁽⁴⁾ مثل القعب⁽⁵⁾ بادِ ظله⁽¹⁾

فهذا أيضاً ورد على لسان امرأة تصف نفسها، ولم يرد على لسان رجل يصف زوجة أو

معشوقة أو جارية له.



الزمان، 8م، (تحقيق إحسان عباس)، دار الثقافة، بيروت، 1971. ج 2، ص 460.

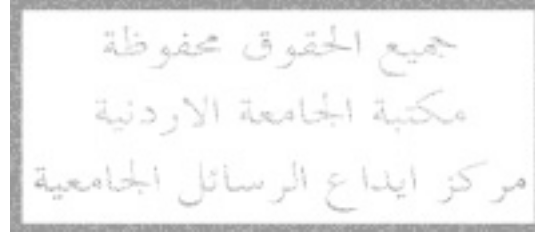
(1) انظر الملحق، قصة 36.

(2) انظر الملحق، قصة 20.

(3) انظر الملحق، قصة 39.

(4) المرتفع الغليظ. انظر ابن منظور، اللسان، مادة ختم.

(5) القَدَح الضَّخْم، الغليظ الجافي، وقيل قَدَح من خَشَب مُقَعَّر. انظر ابن منظور، اللسان، مادة قعب.



الصفات الشخصية (المعنوية والمسلكية)

لا تتضح صورة امرئ أياً كان حتى تتبين بجلاء صفاته المعبرة عن شخصيته الناطقة ببنائه القيمي والخلقي والوجداني، وهذا ينطبق بطبيعة الحال على المرأة كما ينطبق على الرجل. بيد أن مسألة تبيين الصفات مسألة شائكة يعترضها الكثير من المصاعب، فالصفة قد تكون سطحية معبرة عن جوانب لا تتطرق ببواطن النفوس، كأن يوصف إنسان بأنه غني أو فقير، أو بأنه من طبقة عاملة، أو بأنه يحمل جنسية من الجنسيات، أو ينتمي إلى عرق من الأعراق، فهذه

الصفات هي صفات طارئة عارضة لا تشف عن داخل الإنسان أو باطنه(1).

و من ناحية أخرى فهناك صعوبة في استخلاص الصفة من السلوك، لأن السلوك الواحد قد يدل على هفوة من الهفوات أو على سوء تقدير أو على ردة فعل لموقف من المواقف. فإذا شوهد طفل يركل كلباً فإن سلوكه هذا قد يدل على عدوانيته، وقد يدل على كرهه للكلاب نتيجة موقف من المواقف، وقد يدل على خوف الطفل من الكلب، وقد يدل على أن الطفل أخطأ في التقدير إذ كان يريد المداعبة فلم يتحكم في نفسه(2).

و تحرراً من الوقوع في التعميم الخاطئ، فلن تؤخذ قصة واحدة من القصص المنتقاة دليلاً على صورة المرأة عامة إلا إذا تأكدت تلك الصفة في مجموعة من القصص جملة، وعندئذ تنسب الصفة المستخلصة إلى النساء المذكورات في القصص، ومن ثم تعمم على صورة النساء.

و يقصد بالصفة هنا لغايات هذا البحث السجية أو النقيصة التي تتحكم في السلوك الذي يتجدد كلما طرأ موقف يحتكم فيه إلى هذه السجية أو النقيصة. والصفات بهذا المعنى هي التي يصفها علماء النفس الاجتماعي بأنها الصفات العميقة المتجذرة التي تقابل الصفات السطحية العارضة(1).

و تحسن الإشارة هنا إلى أنه لم توضع مسبقاً قائمة من الصفات ليجري البحث عنها لإثبات وجودها أو عدمه ضمن تركيبية صورة المرأة، وإنما درس كل سلوك منسوب إلى المرأة في كل قصة من القصص المنتقاة، واستخلصت منه ومن سائر ما نسب إلى المرأة من صفات ضمن

(1) Cook، Mark: Perceiving Others- The Psychology Of Interpersonal percbtion، 1979، Methuen And Co. Ltd London، p22.

(2) انظر المرجع نفسه، ص27.

المحددات المذكورة آنفاً.

لقد كشفت دراسة القصص المنتقاة عن أربع صفات برزت واضحة في النساء، وكل صفة من هذه الصفات تراوحت ما بين قمة ووسط وحضيض، و توزعت النساء على طول هذا المحور. وهذه الصفات هي الوفاء في القمة، والغدر في الحضيض، ثم الثبات في القمة، والتلون في الحضيض، ثم الوضوح في التعبير عن الموقف في القمة، والغموض في التعبير في الحضيض، وأخيراً الحكمة في القمة والطيش والخرق في الحضيض.

أما عن الوفاء في مقابل الغدر، فقد بدا في قصة نائلة بنت الفرافصة حين رفضت الزواج من معاوية بن أبي سفيان بعد وفاة عثمان بن عفان رضي الله عنه فهتمت فإها بفهرٍ وقالت: " والله لا قعد أحد مني مقعد عثمان أبداً".⁽²⁾ وقريباً من ذلك قصة تلك المرأة التي ردت الخاطب من بني أسد إذ خطبها خاطب بعد أن توفي عنها زوجها فقالت في حرقة ولوعة:

كنا كغصنين في أصل غداؤهما	ماء الجداول في روضات جنات
فاجتث خيرهما من جنب صاحبه	دهر يكر بترحات وفرحات
قد كان عاهدني إن خائني زمن	ألا يضاجع أنثى بعد مثنواتي
و كنت عاهدته إن خانته زمن	ألا أبوء ببعل طول محياتي
فلم نزل هكذا والوصل شيمتنا	حتى توفي قريباً من سنيّاتي
فأقبض عنانك عن ليس يردعه	عن الوفاء خلاف بالتحيات ⁽³⁾

(1).Cook، 'perceiving Others'، p27.

(2) انظر الملحق، قصة 17.

(3) انظر الملحق، قصة 16.

و في مقابل وفاء هذه المرأة وإخلاصها لذكرى زوجها تقع ضباعة وعاتكة وأم هشام اللاتي تعهدن ألا يتزوجن بعد الطلاق أو الترميل، ولكنهن لم يلتزمن بما عاهدن به أزواجهن وتزوجت كل واحدة منهن رجلاً أو أكثر بعد أن طلقت من زوجها أو بعد أن توفي عنها.⁽¹⁾ و تقع في حضيض هذا المحور تلك المرأة التي خانت زوجها المجاهد الغازي في سبيل الله في غيبته.⁽²⁾

فصورة المرأة إذاً هي ليست صورة المرأة الوفية المتفانية في وفائها، ولا صورة المرأة الغادرة الممعة في الغدر، بل هي على الأغلب الأعم في المنازل الوسيطة ما بين الوفاء والغدر، ويبدو أن التفسير المنطقي لهذه الصورة أن الذين سبقوا التنوخي كانوا يرسمون صورة لكل امرأة على حدة، ولم تكن لديهم صورة موحدة تنتظم جميع النساء فتضعهن في القمة أو في الحضيض، وإذا صح ذلك - ويبدو أنه صحيح - فإن هؤلاء الكتاب لم يقعوا تحت ما يسميه علماء النفس (بالأنماط الجامدة) المضروبة مسبقاً لكل فئة من فئات الناس، ويحكمون بالتالي على الداخلين في هذا النمط الجامد حكماً مسبقاً لا يبقي ولا يذر.

و أما عن الثبات في مقابل التلون، فلا بد من القول إن مزاج الإنسان قد يتغير من حين إلى حين، لسبب أو لآخر مدرك أو مخفي، فهو مرة حزين مكتئب، وهو مرة مسرور منشرح، وهو مرة متبرم متذمر، وهو مرة متسامح سهل لين، وهو مرة واثق مطمئن، وهو مرة أخرى متشكك قلق. فإذا كان التبدل قد أحدثه سبب معقول فالأمر مقبول، ولا ينم عن صفة ثابتة متأصلة في باطن الإنسان، أما إذا كان لسبب واهٍ، فهو يدل على عدم ثبات المزاج على حال، ولا سيما إذا كان ذلك سريعاً كثير التقلب، وإذا نتج عن التقلب في المزاج تقلب في علاقة الإنسان بالناس وبالأشياء من

(1) انظر الملحق، القصص 26، 2، 1 على التوالي.

(2) انظر الملحق، قصة 25.

حوله كان ينبغي التوقف عنده، لأنه صفة تشف عن داخل إنساني لا يدعو المراقب إلى الاطمئنان، و لعل ذلك هو الذي دفع الشعراء الصعاليك إلى أن يشبهوا المرأة في هذه الحالة بالغول لما قد وقر في أذهانهم واعتقاداتهم من لزوم صفة التلون والتبدل فيها في آن معاً.⁽¹⁾ ومع ذلك فإن في هذه القصص أنموذجين متباينين للمرأة فسلمى زوج صخر⁽²⁾ أنموذج للمرأة التي أبدت ثباتاً في المشاعر، وأم جعفر⁽³⁾ مالكة الجارية سكر أنموذج مضاد للمرأة المتلونة.

والمرأة تبدي ثباتاً في المشاعر والمزاج حين تكون أماً، ولكنها قد لا تكون كذلك حين تكون زوجاً أو عاشقةً أو معشوقةً، وتعد قصة أم صخر في مقابل زوجة سلمى مثلاً دالاً على ذلك،

ويعبر صخر عن هذا التباين بين الأم والزوج في أبياته التي يقول فيها:

أرى أم صخر لا تمل عيادتي
و ما كنت أخشى أن أكون جنازة
و ملت سليمانى مضجعي ومكاني
عليك ومن يغتر بالحدثان

فأى امرئ ساوى بأماً حليلاً
فلا عاش إلا في أذى وهوان⁽¹⁾

و يبدو من الأمثلة التي وقع عليها هؤلاء الكتاب أنهم كانوا ميالين إلى الإكثار من القصص والأشعار التي تظهر النساء ميالات إلى التلون، ومن الأمثلة التي استحضروها في هذا السياق قول أحد الشعراء وقد أساء الظن بالمرأة إلى أقصى حد:

تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن
عليك شجاً يؤذيك حين تبين

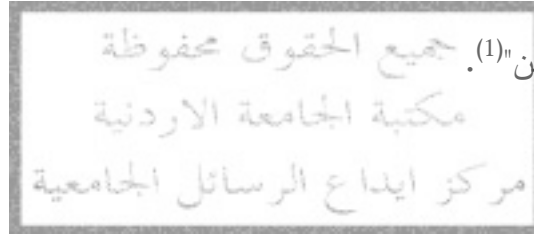
(1) انظر كفاي، منذر ذيب كفاي، (1998). صورة المرأة في شعر الصعاليك و اللصوص حتى نهاية العصر الأموي. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، ص152.

(2) انظر الملحق، قصة 27.

(3) انظر الملحق، قصة 5. وأم جعفر هي زوجة الرشيد زبيدة بنت جعفر بن المنصور، وكان في قصرها من الخدم والحشم ومائة جارية كلهن يحفظن القرآن؛ انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج14، ص118.

وإن هي أعطتك اللبان فإنها
 وإن حلفت لا ينقضى النأي عندها
 ومن ذلك أيضاً قول علقمة بن عبدة:
 فإن تسألوني في النساء فإنني
 إذا شاب رأس المرء أو قل ماله
 يردن ثراء المال حيث علمنه
 بغيرك من خلانها ستلين
 فليس لمخضوب البنان يمين⁽²⁾
 خبير بأدواء النساء طبيباً
 فليس له في ودهن نصيب
 وشرخ الشباب عندهن عجب⁽³⁾

ونقل ابن قتيبة عن ابن المقفع أنه قال في سياسة النساء: " إياك ومشاورة النساء، فإن رأيهنّ



إلى أفن، وعزمهنّ إلى وهن⁽¹⁾.

وخلاصة القول إن النساء لا يوصفن وصفاً واحداً ضمن إطار جامد مضروب مسبقاً، ولا يوصفن بالتلون على وجه العموم، بل إن هنالك تبايناً ما بين أسباب التلون وبين التلون حين يغدو سمة عامة في النساء جملة.

أما التعبير عن الرأي - وهو قمة الصفة الثالثة - فسلوك دال على صفات عميقة متجذرة في باطن الإنسان وفي صميم وجدانه، فإذا كان من سماته الوضوح في التعبير فذلك دليل على استقرار وأمن وسكينة. وأما إذا كان من سماته الغموض والاستتار وراء العبارات المضللة

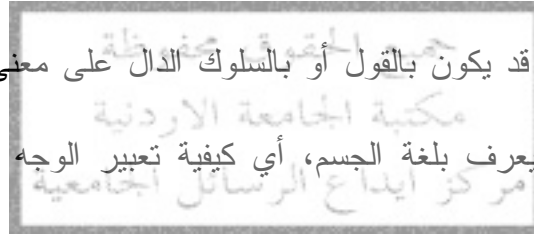
(1) انظر الملحق، قصة 27.

(2) انظر ابن قتيبة، عيون الأخبار، م4، ص399.

(3) انظر المصدر نفسه، ص334.

والسلوك الباهت، فهذا دليل على عدم الصحة داخل الكيان الإنساني. ولا يتبادرنّ إلى ذهن أحد أن الوضوح مرتبط بالثبات الذي مر ذكره، ولا يظننّ أحد أن الغموض مرتبط بالتلون، فهذان محوران مختلفان تمام الاختلاف. أما المحور المتصل بالثبات والتلون فأمر مزاجي عاطفي، وأما المحور المتصل بالوضوح والغموض في التعبير فمحور يغلب عليه طابع التمازج ما بين العقل والعاطفة وتوظيف التجربة لخدمة المواقف المستقبلية.

ويكون التعبير منصّباً على المشاعر الخاصة بالإنسان، ويكون أيضاً منصّباً على ما يريد أو ما لا يريد، وربما انصب أيضاً على أسباب القبول أو الرفض، وينصب كذلك على المواقف من الأشياء والناس، والتعبير قد يكون بالقول أو بالسلوك الدال على معنى واضح لا يحتمل التأويل، ويكون بالإيماءة أو بما يعرف بلغة الجسم، أي كيفية تعبير الوجه وسائر الجوارح عما يريد الإنسان.



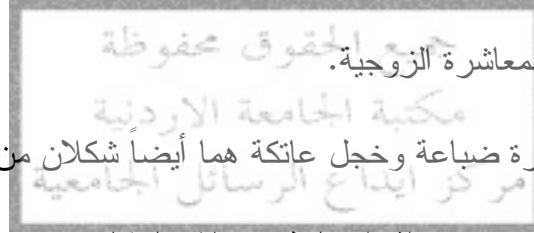
و ليس بعسير على من يتفحص القصص المنتقاة أن يتعرف من غير عناء على نساء كنّ مثلاً بالغ الدلالة على الوضوح في التعبير، بل إن النساء في الأغلب الأعم كنّ قدرات على التعبير عن أنفسهنّ وتحديد مواقفهنّ بشكل لا يحتمل الأخذ ولا الرد. فالخنساء على -سبيل المثال- بينت بوضوح أنها ما كانت لتقبل الزواج من رجل لا يستطيع الوفاء بحاجات النساء من أزواجهنّ، حتى ولو كان الخاطب بطلاً كدريد بن الصمة⁽²⁾. و كانت غاية في وضوح التعبير عن نفسها تلك الجارية التي سكت عيّا عن أن يجيبها الحكم بن صخر الثقفي، فقد عرض عليها الحكم أن يتزوجها

(1) انظر المصدر نفسه، ص365.

(2) انظر الملحق، قصة 18. ودريد هذا هو من شعراء العرب وشجعانها وذوي أسنانها عاش نحو مائتي سنة حتى سقط حاجباه على عينيه. انظر الصفدي، الوافي بالوفيات ج14، ص9.

بعد أن ثبت له أنه لم يدرك أختها، وذلك حين وصفت هذه المرأة نفسها بأنها نظيرة أختها في حسبها وجمالها⁽¹⁾.

وقد كانت النساء في ذلك العصر بليغات في تعبيرهنّ عن حاجتهنّ شعراً أو نثراً. فالشعر الذي قالته المرأة في نصر بن الحجاج⁽²⁾ مثل واضح يعبر صراحةً عن مشاعرها ورغباتها⁽³⁾. ومثل ذلك يقال عن أم أبان التي ردت من ردت من الصحابة بعبارات واضحة لا تحتمل اللبس⁽⁴⁾. وكذلك يقال عن الخنساء التي ردت دريد بن الصمة⁽⁵⁾. وكذلك كان تعبير الفتاة الكارهة للزواج من الشيخ واضحاً في دلالاته واصفاً لمشاعرها وموضحاً لموقفها⁽⁶⁾. ولم تكن بعض النساء تتحرج من الخوض



في شؤون حساسة كأمر المعاشرة الزوجية. وقد يقال إن مناورة ضباغة وخجل عاتكة هما أيضاً شكلان من أشكال التعبير الصريح عن الموقف، إلا أن ذلك لا يستقيم؛ إذ إنهما لم تقولا ما كان يجب أن يقال من أجل وضوح التعبير ووصول مؤداه، وهما على كل حال المرأتان الوحيدتان اللتان لم تعبيرا بوضوح عما كان

(1) انظر الملحق، قصة 15.

(2) أقصاه عمر بن الخطاب من المدينة، ونزل على مجاشع بن مسعود، فعشق امرأته شميلة، ورضي من حبها، فبلغ مجاشعاً، فعاده، فوجده بالياً لما به فقال لشميلة: قومي إليه فمريضه. ففعلت وضمته إلى صدرها، فعادت قواه، فلما فارقتة عاد إلى مرضه، ولم يزل يتردد فيه حتى مات. فقال أهل البصرة أدنف من المتمني فذهبت مثلاً وقيل إنه بقي إلى أن مات عمر رضي الله عنه وركب راحلته وأتى المدينة. انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج27، ص38.

(3) انظر الملحق، قصة 12.

(4) انظر الملحق، قصة 11.

(5) انظر الملحق، قصة 18.

(6) انظر الملحق، قصة 19.

ينبغي أن نقولاً دفعا للشبهة.(1)

و قد يقال أيضاً إن سلوك المرأة من بني أسد التي أكلت وشربت وجلست على جلد أسد على مرأى ممن تقدم إليها يخطبها(2) هو تعبير نتج عنه نفور الخاطب، وعلى ذلك فهو يعد ضعفاً في التعبير لا قوة فيه، إلا أن الأرجح أن المرأة أرادت أن تكون واضحة مع هذا الرجل فيما لو أقدم على خطبتها حتى لا تختل حياتهما لجهله حقيقة مخطوبته، وإذا فهم من هذا السلوك أنه كان تنفيراً للخاطب فقد أفلحت المرأة في ذلك دون أن تقول شيئاً يجرح شعوره.

ويستحق وصف تلك المرأة لبعض الصحابة عناية خاصة لأنها تحدثت هنا عن شخصيات

عامة لاصلة لها فيها بزواج أو خطبة أو أي علاقة مباشرة، وهي من ناحية أخرى امرأة لم يرد لها اسم حتى يقال إنها اكتسبت جراتها أو فصاحتها من مكانة أهلها أو من مكانتها(3)، وتذكر هذه القصة بالمرأة الأعرابية التي وصفت حمدونة بنت الرشيد بأسلوب قد يثير حفيظة ذوي السلطان إذ قالت في وصفها: " وما حمدونة ؟ والله لقد رأيتها وما رأيت طائلاً. كأن بطنها قربة، وكأن ثديها دبة، وكأن استها رقعة، وكأن وجهها وجه ديك نفش عفريته يقاتل ديكاً ".(1)

و لربما كان لقاتل أن يقول إن هذه الأعرابية كانت حسنة التعبير، ولكن حديثها كان قطعاً مفتقراً إلى الحكمة، أنه غير منسجم مع المنظومة القيمية الخلقية السائدة في البيئة التي وقعت فيها الحادثة، وإذا صح أن هذه الأعرابية كانت طائشة أو مفتقرة إلى الحكمة، فإن سائر النساء الوارد ذكرهن في القصص المنتقاة قد اتصفن بالحكمة في معالجة المواقف التي مررن بها، الأمر الذي

(1) انظر الملحق، القصتين 1 و 2 على التوالي.

(2) انظر الملحق، قصة 6.

(3) انظر الملحق، قصة 14.

يجعل هذه الصفة الرابعة من صفات النساء صفة شائعة بينهنّ. وتعدّ قصة الملاءة بنت زرارة بن أوفى الحرشي مثالا واضحا على حنكة المرأة في مواجهة خاطب يقدم نفسه على أنه حفيد من أحفاد خال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ضربت لهذا الخاطب مثلا أسكته وجعله يخرج من بيتها مذهولاً من قوة حجتها⁽²⁾. وأما الوافدات على معاوية فقد تحدثن بحكمة ورياسة في مواجهة رأس الدولة آنذاك، الأمر الذي جعله يضعف أمام كل واحدة منهنّ حتى في معرض تفضيل علي بن أبي طالب عليه، والإشادة بمناقبه أمامه.

سلوك المرأة إذاً كما هو مبيّث في القصص المنتقاة يوحي بأن النساء يختلفن في مدى وفائهنّ وثباتهنّ وقدرتهنّ على التعبير وحكمتهنّ في التصرف، وهذا يعني أن الجاحظ وابن قتيبة وابن عبد ربّه لم يكونوا متأثرين بنمط واحد يقمّون فيه جميع النساء كما هو الميل العام لدى من يطلقون أحكامهم من منظور التجربة الضيقة، ومع أن الرجال ليسوا محور هذا البحث، إلا أنه لا يظهر أن النساء مختلفات عن الرجال في الاتصاف بهذه الصفة أو تلك، فليس هنالك وفاء ذكري وآخر أنثوي، أو حكمة للرجال وأخرى للنساء، فالبعد الخاص بصورة المرأة المتصل بصفاتها يقدم للباحث نساء مستقلات بأشخاصهنّ لا نساء مندرجات ضمن نمط اجتماعي موحد. وربما يتساءل متسائل عن غياب صفات غلب على الناس الإحساس بوجودها عند المرأة كالرفقة والرفق والانقياد للعاطفة دون العقل، وله أن يستغرب من أن هذا البحث لا يتطرق إلى شيء من ذلك، ولكنه لو عاد إلى القصص المنتقاة لعسر عليه أن يلحق بالنساء مثل هذه الصفات أو نقائضها إلا أن يتعرض النص إلى تأويل وإعادة تفسير بما يخدم تأكيد حكم

(1) انظر ابن قتيبة، عيون الأخبار، م4، ص 328.

(2) انظر الملحق، قصة 36 .

مسبق، إن هذا البحث لم يضع قائمة من الصفات افتراض وجودها أو عدمه مسبقاً، ولكنه عمد إلى تمحيص النصوص؛ كي يكشف السلوك عن الصفة التي تستخلص منه، ولم يتوصل هذا البحث-على أي حال- إلى أن النساء جميعاً خجولات إلى حد الانطواء، أو جريئات إلى حد العدوانية، ولم يجد النساء وفيات في قمة الوفاء، ولا وجدهن غادرات ينحدرن إلى حضيض الخيانة، بل كل واحدة منهن مخلوق له ما يميزه وما يمس بقوته بحيث تكون شخصاً عادياً ضمن ما هو مألوف. ويبدو أن هنالك صفات أو أخلاقيات لم تكن تعني ذلك العصر كثيراً لأنها كما يبدو كانت من المسلّمات التي لا تحتل الأخذ والرد، فلم يرد في القصص المنتقاة ما يشير إلى طاعة المرأة واستسلامها لزوجها، ولم يرد عنها ما يشكل عصياناً ولا عدواناً على الرجل، ويذكر في هذا السياق أن الزبير طلب إلى زوجته عاتكة ألا تخرج إلى المسجد بليل فقالت له: " لا أزال أخرج أو تمنعني" وكان يكره أن يمنعها لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تمنعوا إماء الله مساجد الله"⁽¹⁾. ويستدل من ذلك أنها ما كانت لتعصي أمره إذا أمر، وما كانت لتعتبر أمره إذلالاً لها أو انتقاصاً من شأنها. وبلغ الأمر بالقاضي شريح أنه قال بشأن

زوجه زينب بنت جرير التميمية: "فمكثت معي عشرين سنة لم أعتب عليها في شيء إلا مرة واحدة، وكنت لها ظالماً". وشهد في ختنته فقال: "أما والله لقد أدبت فأحسنت الأدب، ورضت فأحسنت الرياضة"⁽²⁾. وهذا دليل على أن المرأة وأما كانتا تعتبران الطاعة أمراً مفروغاً منه.

(1) انظر الملحق، قصة 2.

(2) انظر الملحق، قصة 36.

وفي مقابل ذلك ليس في هذه القصص جميعاً ما يشير إلى تغول امرأة على زوجها ولا تغول زوج على امرأته، وإن كانت كل واحدة منهنّ تتمتع بكيانها وقدرتها على الإفصاح عن مشاعرها في حدود شخصيتها. وينسب الكثيرون إلى المرأة أنها شديدة الغيرة، بيد أن القصص المنتقاة تبرز الغيرة على أنها سلوك يشترك فيه الرجل والمرأة، ولكن الغيرة لا تبدو على كل حال ظاهرة شديدة التفشي بين الرجال والنساء، فالقصص التي تشير إلى غيرة المرأة قليلة لا تكاد تعطي مدلولاً⁽¹⁾.

وربما قفز إلى ذهن البعض قصة امرأة العزيز وصويحباتها إذ راودن يوسف عن نفسه، وأن العزيز أطلق عليهنّ القول بأنّ واجه امرأته قائلاً: "إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم"⁽²⁾، وإن هؤلاء النسوة اعترفن آخر الأمر بأنهنّ ما علمن على يوسف من سوء، ومن ثمّ أقرت امرأة العزيز بأنها هي التي راودت يوسف عن نفسه. ربما تقفز هذه القصة إلى الأذهان فتوحي بأن المرأة ميالة إلى المراودة شديدة القبول لها.

وما من شك في أن القصص المنتقاة تشير إلى شيء من ذلك، فعلى سبيل المثال قصة

الرجل الذي كان يتعهد أهل أخيه عند غيابه، فهويت امرأة الغائب أخت زوجها، فراودته عن نفسه فامتنع، فلما قدم أخوه الغائب سألها عن حالها فقالت: "ما حال امرأة تراود في كل حين" فقال الأخ العائد: "أخي وابن أمي فإني لا أفصحه، ولكن الله علي ألا أكلمه أبداً"⁽³⁾.

(1) انظر الملحق، القصتين 21 و37.

(2) سورة يوسف، آية 28.

(3) انظر الملحق، قصة 29.

ومن ذلك أيضاً ما كان من أمر سلامة المغنية⁽¹⁾ بمكة التي وقعت موقعاً عظيماً في نفس القس⁽²⁾ حتى إذا اختلت به قالت له: "أنا والله أحبك، فقال: وأنا والله أحبك، فقالت: وأنا أحب أن أضع فمي على فمك، قال وأنا والله، قالت: وأنا والله أحب أن أضع صدري على صدرك، قال: وأنا والله. قالت فما يمنعك؟ والله إن الموضع لخال. فأطرق ثم قال: إني سمعت الله يقول: (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين)⁽³⁾ وأنا والله أكره أن تكون الخلة بيني وبينك عداوة يوم القيامة".⁽⁴⁾

ويتبين من قصة يوسف عليه السلام ومن هاتين القصتين أن المرأة فشلت في مراودة

الرجل عن نفسه، وأن الرجل يذكر ربه في هذه المواقف كما هو مدلول هذه القصص. وفي مقابل ذلك دخل نصر بن حجاج فأتى مجاشعاً بن مسعود السلمى⁽⁵⁾ -والي البصرة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه- وكانت عند مجاشع في المجلس حينها امرأته شميلة، وكان مجاشع أمياً، وكانت شميلة كاتبة قارئة، فكتب نصر على الأرض (أحبك حباً لو كان فوقك لأظلك، ولو كان تحتك لأفلك) فكتبت رداً على ذلك (وأنا والله كذلك).⁽⁶⁾

(1) من قيان أهل المدينة وكانت حاذقة في الغناء والشعر وسلامة مشددة اللام وقيل مخففة. انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج15 ص207.

(2) هو عبد الرحمن بن عبد الله، كان فقيهاً عابداً من عباد مكة فسمي القس لعبادته، وشغف بسلامة الجارية حتى اشتهر بها إذ تعرف بسلامة القس. انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج8، ص97.

(3) سورة الزخرف، آية 67.

(4) انظر الملحق، قصة 34.

(5) من أصحاب رسول الله، قتل يوم الجمل سنة ست وثلاثين وهو من المهاجرين. ابن حيان الأنصاري، أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر، (ت369). طبقات المحدثين بأصبهان، ط2، 4م، (تحقيق عبد الغفور البلوشي)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1992، ج1، ص266.

(6) انظر الملحق، قصة 13.

ومن ذلك قول بعضهم:

فدخلت مختفياً أصراً ببيتها	حتى ولجت على خفي المولج
قالت وعيش أخي ونعمة والدي	لأنبهنّ الحي إن لم تخرج
فخرجت خيفة قولها فتبسّمت	فعلمت أن يمينها لم تُخرَج
فأثمت فاها قابضاً لقرونها	شرب النزيف ⁽¹⁾ ببرد ماء الحشرج ⁽²⁾
فتناولت رأسي لتعرف مسه	بمخضب الأطراف غير مشنّج ⁽³⁾ .

ومن ذلك أيضاً أن رجلاً تعشّق جارية، فدخل عليها وهي نائمة بين إخوتها فأيقظها فقالت:

انصرف وإلا أيقظت إخوتي فقتلوك، واستمرت القصة حتى تمكن من أن يرشف شفيتها برغبتها على أن ينصرف حتى لا يعود، ولكنها وقعت في حبه، ورتبت لقاء بينهما خارج بيوت الحي ليلاً.⁽¹⁾

وتدل هذه القصص على أن الرجل تمكن بمرآودته من الحصول على استجابة من المرأة، وليس من دليل على أن مرآودة الرجال انصبت على أكثر من تبادل الحب والقبل، في حين كانت مرآودة امرأة العزيز ومرآودة المرأة لأخي زوجها منصبة على المعاشرة، وهنا يجدر التنويه بما كان رائجاً بين الناس بحق المسامرة بين الرجال والنساء، والتعبير عن الهوى، والإقدام على تبادل القبل، فقد قال الجاحظ: "وقد استثنى الله سبحانه وتعالى اللّم فقال: (الذين يجتنبون كبائر الإثم

(1) النزيف هو المحموم الذي مُنع من الماء. انظر ابن منظور، اللسان، مادة نرف.

(2) الحشرجُ النفرة في الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو أو كوز صغير لطيف. انظر ابن منظور، اللسان، مادة حشرج.

(3) انظر الملحق، قصة 23. والشنّج تَقْبُضُ الجِدِّ والأصابع وغيرهما ومشنّج منقبض. انظر ابن منظور، اللسان، مادة شنّج.

والفواحش إلا اللّم إن ربك واسع المغفرة) (2). قال عبد الله بن مسعود عندما سئل عن تأويل هذه الآية: "إذا دنا الرجل من المرأة فإن تقدم ففاحشة وإن تأخر فلمم" وقال غيره من الصحابة في تفسير اللّم: "القبلة واللمس" وقال آخرون: "الإتيان فيما دون الفرج" (3).

"ومع ذلك يلقي أحدكم عشيقته، فيرتشفها، ويعانقها من دون الثياب، ويمنع التكرم ويحجزه الورع عن وطئها وإن أمكنته، وكانوا يقتصرون على الحديث والقبل واللمس" (4).
ونقل ابن القيم عن ابن هرمة (5) قوله:

ولرب لذة ليلة قد نلتها وحرامها بحلالها مدفوع

قال: "وكان الشرط بين العاشق ومعشوقته إذا خلوا أن يكون له نصفها الأعلى من صرتها إلى قمة رأسها يصنع فيه ما يشاء، ولبعها من صرتها إلى أخصها" (6). وقال الأصمعي: "قلت لأعرابية من بني عذرة أنتم أكثر الناس عشقاً، فما تعدون العشق فيكم؟ قالت: الغمزة والقبلة والضمة ثم قالت:

ما الحب إلا قبلة غمزة كف وعضد

ما الحب إلا هكذا إن نكح الحب فسد (7)

(1) انظر الملحق، قصة 33.

(2) سورة النجم، آية 32.

(3) انظر الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج1، ص164.

(4) انظر ابن القيم، أخبار النساء، ص52.

(5) إبراهيم الفهري المعروف بابن هرمة الشاعر نديم المنصور، كان شيخ الشعراء في زمانه و مقدم في شعراء المحدثين وقدمه بعضهم على بشار وأبي نواس توفي بعد المائة والخمسين تقريباً. انظر الصفدي، الوافي بالوفيات ج6، ص40.

(6) انظر ابن القيم، أخبار النساء، ص79-81

(7) انظر المصدر السابق، ص79-81

ويستفاد من هذه الشواهد أن العرب كانت مجمعة على أن القبلة فما دونها كانت مما لا يعيب المرأة حتى ولو كانت ذات بعل، فإذا صح هذا لم يكن غريباً أن تستجيب المرأة لمرأودة من يتعشقها فتمكنه مما كان مباحاً. وليس من شأن هذا البحث أن يتطرق إلى الحكم الشرعي والتعمق في قضايا أصول الفقه استنباطاً للحكم الشرعي، فهو يكتفي بما كان رائجاً بين قطاعات مجتمعية مختلفة من بينها الأعراف، فالمرأة إذا ما استجابت للمرأودة في هذه الحدود لا تقدم على محذور اجتماعي، الأمر الذي يعني أن استجابتها للمرأودة لم تكن تدل على سوء خلق أو ضعف في الشخصية أو خيانة للزوج والوالد والإخوة.

خلاصة القول إن النساء كما صورهن الأدباء الذين سبقوا التتوخي كن يعشن حياة موافقة لقيم المجتمع السائدة، وكل منهن تتصرف وفق تركيبتها الشخصية من الناحية التربوية والسيكولوجية، من غير أن يشكلن قطاعاً مجتمعياً ذا أخلاقيات أو سمات مختلفة عن أخلاق الرجال وسماتهم.

مكانة المرأة

من الأبعاد المميزة لصورة أي إنسان مكانته في مجتمعه وفي أسرته وبين الذين يتعامل معهم، وتتمثل المكانة في مدى المناظرة أو المساواة بينه وبين الأقران، وتمتعه بحرية الإرادة من

حيث التصرف في مصالحه وفي ممتلكاته وفي سائر حقوقه، وكثيراً ما يعبر الإنسان عن حرية إرادته بإبرام العقود أو إقالتها أو فسخها إضافة إلى الدفاع عن حقوقه والمطالبة بها.

ومن أبرز مقومات مكانة الإنسان أن يكون قادراً- إذا شاء- على التعامل مع القيادات المجتمعية من غير تهيب، وقدرته على أن يساهم- إذا شاء- في مناقشة الشؤون العامة، وإبداء رأيه في مختلف المسائل التي تتصل بقناعاته. غير أن كل ذلك مرتبط في الوقت نفسه بضوابط اجتماعية لا يمكن للمرء الفكاك منها إلا أن يعرض نفسه رجلاً كان أو امرأة إلى الردع أو العقاب الذي يرتضيه مجتمعه في مواجهة الخروج على المؤلف.

ولقائل بعد ذلك أن يقول إن المجتمع الفلاني يضيق أو يوسع على أفرادهِ أو يرفع سقف الحريات- كما يقال في هذا الزمان- أو يخفضه، بيد أن هذا البحث ليس معنياً ببحث الحريات العامة، بل هو معني ببحث مكانة المرأة مقارنة بالضرورة بمكانة الرجل الذي يناظرها كأن يقارن ما بين الأخ والأخت والزوج والزوجة والأب والأم والعبد والأمة إلى آخر ما هنالك من تصنيفات. ولسوف يكون لزاماً في هذا المقطع من البحث أن تختلف الآلية في الاستشفاف قليلاً عما اتبع في استقصاء صورة المرأة من حيث الجسم ومن حيث الصفات، ذلك أن الرضا وعدم إثارة النزاع وما شاكل هذه الأنماط من السلوك ولو كانت صامتة إلا أنها منبئة - ولا شك- ببعد أو بآخر من أبعاد مكانة المرأة. فإذا لم يكن المسرح الاجتماعي مشغولاً بمسألة تعدد الزوجات أو بمسألة الطلاق أو بمسألة العنف ضد المرأة؛ فهذا يعني بالضرورة أن هذه المسائل لم تكن تشغل الناس لأنها لا تشكل في نظرهم مشكلةً تتطلب حلاً، أو لأنها عدت من وقائع الحياة العادية التي ارتضاها الناس وعدّوها أمراً واقعاً لا يثير عندهم أي درجة من درجات الضيق أو الغضب أو الإحساس

بالدونية.

ومن ناحية أخرى كان لا بد من البحث عن مقومات دالة على مكانة المرأة، واستقصاء كيفية تعبير القصص المنتقاة عنها ضمن مفاهيم المجتمع السائدة آنذاك على المستوى الخلقي والديني والاجتماعي.

ولعل كلمة الحقوق السياسية التي يطالب بها الناس في هذا الزمان للمرأة هي الدليل في نظر الكثيرين على مدى احترام المرأة، وعلى قياس مكانتها وسويتها في المجتمع، والحقيقة أنه لا بد من التنبيه أن الشؤون السياسية كانت في ذلك الزمن قائمة ولا شك، لكن عدد المسيسين أو نسبتهم في المجتمع كان من القلة بمكان. وهذا البحث معني بتبين مدى ما كان متاحا للمرأة من المشاركة في الشؤون السياسية إذا رغبت في ذلك.

وإذا عقد هذا البحث أي مقارنة متعلقة بهذا الموضوع فلن تكون الغاية منها تشكيل أحكام تقييمية على ذلك المجتمع، بل ستكون الغاية توضيح معالم الصورة ذلك لأنه بظدها تتبين الأشياء. في ضوء هذه الضوابط سوف يتناول هذا البحث في الصفحات التالية معالم مكانة المرأة في البيئة المحيطة بالأدباء الذين سبقوا التوخي، متمثلة في التعليم والأهلية القانونية والمكانة الاجتماعية.

1. التعليم :

أ. القراءة والكتابة:

إن أهم مظاهر التعليم أن يكون المرء قادراً على القراءة والكتابة، ويتبين من استعراض القصص المنتقاة أن عدداً لا يستهان به من النساء قد روي عنهنّ أنهنّ كتبن أو قرأن، ولم يرد في مقابل ذلك أي دليل على أن سائر النسوة المذكورات بالقصص كن أميَّات لا يقرأن ولا يكتبن، فإذا أرسلت إحداهنّ رسالة شفوية كما فعلت سعدى مطلقاً الوليد بن عبد الملك فإن ذلك لا يعني أنها لم تكن تجيد القراءة والكتابة⁽¹⁾، ومع هذا لم تعتبر هي وسائر من ورد عنهنّ مثل هذا أنهنّ كنّ يقيناً أميَّات أو قارئات كاتبات، أما من ثبت أنها كتبت أو قرأت باللفظ الصريح فقد اعتبرت يقيناً كاتبة قارئة⁽²⁾.

ومن تدقيق هذه القصص تتبلور حقائق لافتة للانتباه، فالجارية سُكَّر كانت تتقن الكتابة كمالكتها أم جعفر⁽³⁾. وشميلة كانت متمكنة من القراءة والكتابة، في حين أن زوجها مجاشعاً، كان أمياً

رغم أنه كان والي البصرة⁽⁴⁾.

وتستوقف المرء كثيراً ما فعلته ابنة ملك السواد التي كتبت رسالتين مطولتين إلى أردشير كلاً منهما على نشابة، وتلقت منه جواباً على رسالتها الأولى على نشابة فقرأتها⁽⁵⁾.

وهذا دليل على تمكنها من القراءة والكتابة بكفاءة عالية، وربما كتبت إليه بالفارسية الأمر الذي يزيد من قدرتها على استخدام هذه المهارة، ولا يقال طبعاً إن ذلك مردود إلى كونها ابنة ملك،

(1) انظر الملحق، قصة 42.

(2) انظر على سبيل المثال الملحق، القصص 5، 13، 28، 38.

(3) انظر الملحق، قصة 5.

(4) انظر الملحق، قصة 13.

(5) انظر الملحق، قصة 28.

فسكر المذكورة سابقاً كانت جارية مملوكة.

ب - الأدب والشعر والخطابة:

مما ميز العرب عموماً سرعة الخاطر في قول الشعر، وسعة المحفوظ منه من أشعار الآخرين، وتقدم القصص المنتقاة أدلة كثيرة على أن المرأة كانت تقرض الشعر، وتستشهد بشعر الآخرين، وقد تكون ماهرة في الخطابة⁽¹⁾.

ومن تفحص المواقف التي قالت المرأة فيها شعراً مصنوعاً أو مأثوراً يتبين أن ثمة مواقف في بعض القصص قالت المرأة فيها شعراً. وذلك ما فعلته كل من ضباعة والجارية التي حاولت إقناع الحكم بن صخر الثقفي بتزوجها بعد أن فاته الزواج من أختها، والمرأة التي بقيت على وفائها لزوجها بعد موته⁽²⁾. ويفهم من ذلك أن النساء في بعض المواقف كنَّ هنَّ المتفوقات أدبياً وحفظاً. ومع أن الخنساء في قصة خطبتها من قبل دريد بن الصمة لم تقل شعراً⁽³⁾ إلا أنه من المعروف أنها شاعرة متميزة بين من قرضوا الشعر العربي رجالاً ونساءً.

و من الواضح أن ما قالته النساء من الشعر ضمن القصص المنتقاة لم يكن أقل جودة من الشعر المنسوب إلى الرجال، فما قالته المرأة التي سلا عنها زوجها بجارية كان شعراً بليغاً حقاً، فقد هز الزوج، فعاد إليها من فوره شديد التأثير مستفسراً⁽¹⁾.

وكذلك كان وقع القصائد والخطب التي تفوهت بها النساء اللواتي وفدن على معاوية عظيماً

(1) انظر الملحق، القصص 1، 2، 16، 20، 30، ومن القصة 43-50.

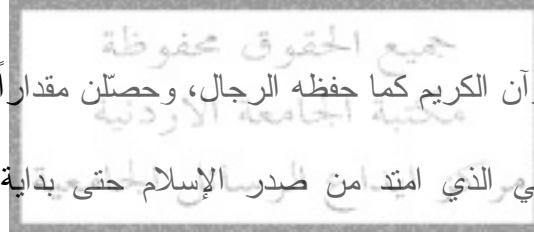
(2) انظر الملحق، القصص 1، 15، 16 على التوالي.

(3) انظر الملحق، قصة 18.

في نفسه حتى إنه أبدى هو وجلساؤه انفعالاً شديداً من استنكار ما نسب إلى هؤلاء النسوة حتى بعد أن استقر الأمر له، وتمكن من السيطرة على أزمّة الأمور⁽²⁾.

ولو كان ضعيفاً ما قالتها أيهنّ لذهب أدراج الرياح وانطمس من الذاكرة، ولكن الجلساء كانوا يحفظون المنظوم والمنثور من أقوال هؤلاء النسوة حتى بعد سنين من سماعهم لما قلن، وقد أقر معاوية في مجالسه المختلفة مع الوافدات بانفعاله وتأثره بما قلن في غيابه وحضرته.

ج - حفظ القرآن:



حفظت النساء القرآن الكريم كما حفظه الرجال، وحصلن مقداراً صالحاً من المعارف الدينية في ظل المجتمع الإسلامي الذي امتد من صدر الإسلام حتى بداية العصر العباسي، ومع أن القصص المنتقاة لا تشير إلى وجود فقيهاً أو متخصصات في رواية الحديث أو متمكنات من سائر العلوم المتصلة بأصول الدين وعلم الكلام وأصول الفقه، إلا أن التأثر بالإسلام وبالقرآن على وجه الخصوص كان واضحاً في مجموعة من القصص المنتقاة فالمرأة التي تقول لمن ضلت إبله: " الذي أعطاهنّ أذهنّ، وإن شاء ردهنّ، فسله عن طريق اليقين لا عن طريق الاختبار"⁽³⁾. كانت تتحدث بمنطق إسلامي واضح لا لبس فيه، يحمل إرهاصات التصوف وبعض مصطلحاته. وقول نائلة لعثمان رضي الله عنه: " أذهبت شبابك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في خير ما ذهبت به

(1) انظر الملحق، قصة 20.

(2) انظر الملحق، القصص من 43-50 على التوالي.

(3) انظر الملحق، قصة 16.

الأعمار⁽¹⁾ هو قول فيه استجابة واضحة لإحساس إسلامي عميق تأصل في وجدان امرأة حديثة عهد بالإسلام ، وإصرار عاتكة على الذهاب إلى المسجد بليل⁽²⁾ إنما هو دليل على تمسك هذه السيدة بالدين.

أما القرآن الكريم فآثاره واضحة في مجموعة أخرى من القصص المنتقاة، فالملاءة بنت زرارة كانت تقرأ القرآن من المصحف حين أقبل عليها عبد المجيد الزهري يخطبها⁽³⁾. والزرقاء بنت عدي استشهدت بمعنى آية من القرآن الكريم أثناء خطبتها في التحريض على معاوية إذ قالت: "ودمغ الحق باطله"⁽⁴⁾ وهذا هو معنى الآية الكريمة (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق)⁽⁵⁾، أما عكرشة بنت الأطرش⁽⁶⁾ فقد استشهدت بقوله تعالى: (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذ اهتديتم)⁽⁷⁾، وبقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم)⁽⁸⁾ واستشهدت أم الخير بنت الحريش⁽⁹⁾ بقوله تعالى: (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم)⁽¹⁰⁾،

-
- (1) انظر الملحق، قصة 17.
 - (2) انظر الملحق، قصة 2.
 - (3) انظر الملحق، قصة 38.
 - (4) انظر الملحق، قصة 45.
 - (5) سورة الأنبياء، آية 18.
 - (6) انظر الملحق، قصة 47.
 - (7) سورة المائدة، آية 103.
 - (8) سورة المائدة، آية 101.
 - (9) انظر الملحق، قصة 49.
 - (10) سورة الحج، آية 1.

وقوله تعالى: (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم)⁽¹⁾، وقوله تعالى: (كأنهم حُمُرٌ مستنفرة فرّت من قَسْوَرِهِ)⁽²⁾، وفي هذا ما يدل على أن القرآن كان حاضراً في أذهان النساء طيلة الوقت.

ومن المثير للدهشة أن زينب بنت جريز قالت للقاضي شريح ليلة زفافها حينما همّ أن يمد يده إليها: "الحمد لله أحمده وأستعينه وأصلي على محمد وعلى آله. .. وقد ملكت فاصنع ما أمرك الله به (إمسك بمعروف أو تسريح بإحسان)⁽³⁾ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولك"⁽⁴⁾. في هذا الموقف الغريب قالت زينب هذا القول وكانت قد صلت قبل ذلك ركعتين كما صلى القاضي شريح عملاً بالسنة المشرفة، ولقد عجب القاضي ذاته من تصرف زينب وردّها عليها بخطبة مماثلة دلت على أن القرآن والأحكام الإسلامية كانت ماثلة حتى في مثل هذا الموقف.

ولعل رواة الأخبار لم يكتفوا من تسجيل المواقف المنطلقة من الفهم الإسلامي؛ لأنه كان من الأشياء المسلم بها، فإن يصلي الناس ويصوموا ويقرأوا القرآن ويتصدقوا فذلك من مستلزمات المسلم والمسلمة، فعاتكة على سبيل المثال تصدقت بالمال الذي أعطاها إياه عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن زوجها الأول عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما⁽⁵⁾. وإنما وردت هذه الإشارة إلى الصدقة لأنها من تمام وضوح الموقف، وكيفية الخروج من التزامها بعدم الزواج بعد موت عبد الله رضي الله عنه.

(1) سورة محمد، آية 31.

(2) سورة المدثر، الآيتين 49-50.

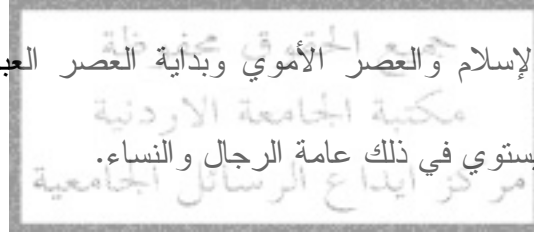
(3) سورة البقرة، آية 229.

(4) انظر الملحق، قصة 36.

(5) انظر الملحق، قصة 2.

ولعل من أهم ما يجب التنبيه عليه أن القرب من الإسلام واستحضار القرآن الكريم في حياة الناس أوجد مناخاً يقتضي أن يتم تعليم المرأة للغايات نفسها التي يتم من أجلها تعليم الرجل، فلا فرق بين هذا وهذه.

وخلاصة القول إن النساء كنّ كالرجال بصورة عامة ذوات دين وتمسك بنواهي الله وإعراض عن المحرمات، وهذا لا يعني أنه لم يكن ثمة نساء ارتكبن المعاصي، فثمة امرأة كانت تمارس القوادة فحبسها الوالي⁽¹⁾، وكذلك سمحت امرأة أخرى لنفسها أن يواقعها رجل أثناء غياب زوجها في الجهاد⁽¹⁾. وهذه هي طبيعة المجتمعات إذ لا تخلو من الخارجين عن المألوف، ولكن غالبية الناس في صدر الإسلام والعصر الأموي وبداية العصر العباسي كانت تتمسك بالإسلام وتتذكر القرآن والحديث، يستوي في ذلك عامة الرجال والنساء.



2. الأهلية القانونية:

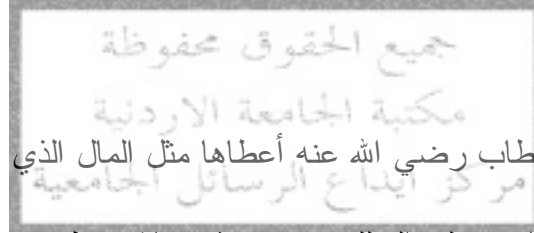
المقصود بالأهلية القانونية: القدرة على أن يدير الإنسان شؤونه بنفسه وأن يبرم العقود وينهيها، وأن يتصرف بممتلكاته دون وصاية أحد، ولكي يتسنى ذلك لأي إنسان فلا بدّ من استقلال إرادته وحريتها ولا بدّ من حماية قانونية لهذه الحرية.

وتجنباً للدخول في أي تفاصيل قانونية فسوف تعالج هذه النقطة من منظور الشخص العادي غير المتخصص في القانون، وفي حدود ما تبرزه القصص المنتقاة والاقتباسات المعززة لها.

(1) انظر الملحق، قصة 24.

ولا بدّ من التنبه على أن الجاحظ وابن قتيبة وابن عبد ربّه لم يكونوا معنيين من قريب ولا من بعيد بإثبات أو نفي قدرة المرأة على شيء مما ذكر آنفاً ، ولذلك قامت عملية استخلاص الأهلية القانونية للمرأة من أفعال عرضية أنفذتها المرأة فدلّت على أنها تتمتع بشيء من الأهلية القانونية، وقد اختيرت التصرفات الدالة دلالة واضحة واستبعدت التصرفات التي تحتل أكثر من وجه.

وتدل القصص بوضوح على أن المرأة كانت قادرة على التملك المستقل كما يستفاد مما ورد في قصة عاتكة بنت زيد التي نحلها زوجها عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما قطعةً من ماله سوى الإرث⁽²⁾، فدل ذلك على أنها تقبل الهبة وتمتلكها وأنها تملك أيضاً ما يؤول إليها من الإرث.



ثم إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أعطاهما مثل المال الذي أخذته من عبد الله رضي الله عنه، فدل ذلك على أنها قادرة على التملك من غير قيد ولا شرط . ويستفاد من قصة أم جعفر أنها كانت مالكة للجارية سكر ملكيةً مستقلة⁽³⁾، ويستفاد من قصة المرأة التي سلا عنها زوجها بجارية أصابها أن الزوجة كانت مالكة لغلام ملكيةً مستقلةً من غير أن تكون لزوجها علاقة بهذه الملكية⁽⁴⁾. وتدل قصة سعدة مطلقه الوليد بن عبد الملك أنها كانت مالكة للبساط الذي أعطته لأشعب مكافأةً له على نقل رسالتها الجوابية إلى الوليد⁽⁵⁾. ويستفاد من قصص الوافدات على معاوية أنه أعطى ثلاثاً

(1) انظر الملحق، قصة 25.

(2) انظر الملحق، قصة 2.

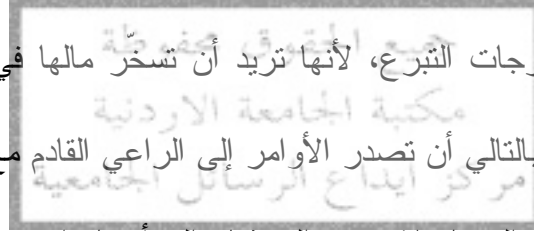
(3) انظر الملحق، قصة 5.

(4) انظر الملحق، قصة 20.

(5) انظر الملحق، قصة 42.

منهنّ جوائز قيمة تمتلكها كل منهنّ ملكاً مباشراً⁽¹⁾. أما دارمية الحجونية فقصتها تمثل دليلاً قوياً على مدى قدرة المرأة على الاستقلال في ملكها، فقد حصلت من معاوية على مائة من الإبل طلبتها منه لتستثمرها في صالح الناس⁽²⁾.

ولا يقتصر الأمر على قدرة المرأة على التملك المستقل، وإنما ثبت من القصص المنتقاة أن المرأة أيضاً كانت قادرة على التصرف بمالها من غير وصاية أحد بما في ذلك القدرة على التبرع، وهو أعلى درجات التصرف في المال، أما عاتكة فإنها تصدقت عن عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما⁽³⁾. وأما أم جعفر فقد أعتقت الجارية سكر، والإعتاق شكل من أشكال التبرع⁽⁴⁾. وفي قصة الدارمية الحجونية أبلغ درجات التبرع، لأنها تريد أن تسخر مالها في خدمة الآخرين كأنه وقف تتولى هي إدارته، وتملك بالتالي أن تصدر الأوامر إلى الراعي القادم مع الإبل⁽⁵⁾.



ومع أن القصص المنتقاة لا تشير إلى قيام المرأة بإبرام عقود كالإجارة أو الإعارة أو الوكالة أو الكفالة، إلا أنها دلت على أن المرأة كانت بصورة عامة سيدة نفسها في عقود الزواج، فقد ظهرت بمظهر القدرة على التفاوض بشأن الزواج وعلى رد الخاطب أو قبوله وإبرام العقود معه، ولعل من الأمثلة البالغة في دلالتها أن أم أبان رفضت الزواج من ثلاثة من الصحابة المتميزين هم عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، والزبير، رضي الله عنهم جميعاً، ثم خطبها طلحة فأجابت

(1) انظر الملحق، القصص 45، 46، 49.

(2) انظر الملحق، قصة 48.

(3) انظر الملحق، قصة 2.

(4) انظر الملحق، قصة 5.

(5) انظر الملحق، قصة 48.

فتزوجها⁽¹⁾. وتقدم الملاءة بنت زرارة مثلاً آخر بالغ الدلالة على أن المرأة قادرة على التفاوض ورد الخاطب إذا لم تقتنع به، فقد وجه أبوها القاضي زرارة خاطبها إليها وهي فتاة بكر، ففاوضت الخاطب وناقشته في أمر ما يملك من الأموال حتى إذا تبين لها أنه لا يملك مالاً حاضراً ردت، وكان قولها في هذا الأمر حاسماً لم يتدخل فيه حتى أبوها القاضي⁽²⁾. وفي قصة زينب بنت جبريل أن القاضي شريحاً قال لأُمها: "زوجينيها" مفترضاً بالضرورة أن الأم قادرة على ذلك، فقالت له الأم بما معناه أنها تفعل إن كان لها كفواً⁽³⁾. وأقدمت سكر بعد تحررها على تزويج نفسها من الخليفة المأمون⁽⁴⁾. وليس في هذه القصص جميعاً موقف واحد أكرهت فيه المرأة على الزواج ممن لم ترضه من الرجال، فهند بنت عتبة هي التي حددت أنها تتزوج أبا سفيان بن حرب بدل سهيل ابن عمرو فاستجاب أبوها لذلك.

وأما الفتاة التي خطبها الحارث بن سليل الأسدي فإن أباهم لم يكرهها، ولم يعمل على إكراهها ولكنه قال لأُمها: "أريدي ابنتك على نفسها"، فحاولت الأم حتى غلبت الجارية على نفسها، وتزوجت من الحارث الذي كان شيخاً من غير إكراه⁽⁵⁾.

خلاصة القول إن المرأة كانت تتمتع وفق القصص المنتقاة بدرجة عالية من الأهلية القانونية مكنتها من التبرع بمالها. الأمر الذي يعني أنها كانت قادرة على إبرام عقود التبرع الأخرى كالإعارة، كما أنها كانت قادرة أيضاً على إبرام أخطر العقود وهو عقد الزواج، وإذا كان هذا

(1) انظر الملحق، قصة 11.

(2) انظر الملحق، قصة 38.

(3) انظر الملحق، قصة 36.

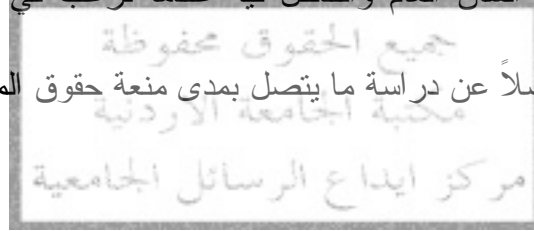
(4) انظر الملحق، قصة 5.

(5) انظر الملحق، قصة 35.

الوصف بالأهلية القانونية وصفاً مقتضياً، فإنه يدل على قيام المرأة بأعلى ما تتطلبه وتسفر عنه أهليتها القانونية الكاملة في شؤون أخرى في الحياة دون هذه الدوائر في القيمة الأهلية.

3. مكانة المرأة الاجتماعية

سوف يعمد هذا البحث إلى استخلاص مكانة المرأة من مؤشرات منتقاة هي العزلة أو عدم العزلة، والقدرة على فهم الشأن العام والتدخل فيه عندما ترغب في ذلك، والقدرة على مخاطبة المسؤولين والتأثير فيهم فضلاً عن دراسة ما يتصل بمدى منعة حقوق المرأة في وسط المجتمع.



أ- العزلة والانفتاح:

سبقت الإشارة إلى مدى تمتع المرأة بحق التعليم، وأنها كانت تتلقى - إذا رغبت في ذلك - العلوم التي كان يتلقاها الرجل وحيث إن الشعر والخطابة كانا من أبرز فنون ذلك الزمان، وحيث إنهما لا يزدهران إلا بتفاعل مبدع مع المتلقي، فقد كان لزاماً ألا تعيش المرأة في عزلة إذا أريد لها أن تستوعب ما قيل، وأن يستوعب الناس ما قالت.

والمقصود بالعزلة هنا هو أن توضع المرأة في ظروف لا تسمح لها بالاتصال بالأحداث العامة، وتحديد دائرة معرفتها ونشاطها وتفاعلها في وسط محدد معلوم مستقل تتحرك فيه وحيدة، أو مع أفراد أسرته، أو مع النساء فحسب. وتدل القصص المنتقاة على أن المرأة لم تكن محصورة في أفق محدد مسبقاً كالحياة المنزلية أو الأوساط النسائية، فقد كانت في تفاعل

دائب مع الرجال من غير أقاربها ومن غير أفراد أسرتها. فالمرأة التي وصفت مجموعة من الصحابة الكرام كانت وبلا شك على اطلاع بكل واحدٍ منهم، وقالت ما قالته بحق كل منهم على مسمع من الرجال والنساء⁽¹⁾.

والمرأة التي دلت الرجل من بني أسد على كيفية الاستدلال على إبله الضالة لم تكن تتحدث في شأن أسري مع أفراد بيئتها، بل كانت تتحدث في شأن خاص لرجل غريب يبدو أنها التقت به بعيداً عن الوسط الأسري كله⁽²⁾، والنساء الثماني الوافدات على معاوية بن أبي سفيان يقدمن أمثلة ناصعة الدلالة على أن المرأة لم تكن محصورة في أفق خاص يقل سعة عن أفق تحرك الرجل⁽³⁾.

أما حوار المرأة مع الرجل بخصوص مصلحة تتعلق بها، فذلك واضح في كل قصة تقريباً من القصص المنتقاة، فضباعة كانت تحاور هشام بن المغيرة بشأن طلاقها من زوجها الأول عبد الله بن جدعان وترتيبات زواجها من هشام بعد الطلاق⁽⁴⁾، وكان الحسن بن علي، وعاصم بن عمر ابن الخطاب رضي الله عنهم جميعاً يجلسان إلى حفصة بنت عبد الرحمن⁽⁵⁾ حتى بعد زواجها من المنذر بن الزبير⁽⁶⁾. ولم يكن مصعب بن الزبير يضرب ستاراً حول زوجه عائشة بنت طلحة بحيث

(1) انظر الملحق، قصة 14.

(2) انظر الملحق، قصة 16.

(3) انظر الملحق، القصص من 43-50 على التوالي.

(4) انظر الملحق، القصة 1.

(5) حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم جميعاً توفيت في حدود الثمانين للهجرة. انظر الصفي، الوافي بالوفيات، ج 13، ص 67.

(6) انظر الملحق، قصة 3. والمنذر ولد زمن عمر، يكنى أبا عثمان، قتل سنة أربع وستين. انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 3، ص 381.

لا يراها من الناس أحد ولا ترى منهم أحداً، ولا يجري لها حوار أو نقاش⁽¹⁾.

وأما حضور شميلة مجلس زوجها مجاشع والي البصرة، فدليل على أن المرأة لم تكن محجوبة ولا محتجبة⁽²⁾. والمناظرة التي جرت بين رجل من آل جعفر بن أبي طالب والجارية أنموذج لخروج المرأة من دائرة حوار ضيق إلى دائرة حوار منقّف، ولو بدلالات متصلة بقضايا

شخصية من خلال التلميح والتبادل الثقافي⁽³⁾.

ولا يكاد المرء يجد امرأة واحدة من اللواتي تحدّثت عنهنّ القصص المنتقاة معزولة قصراً استجابة لأنموذج اجتماعي مضروب مسبقاً للنساء، وربما كانت قصة زينب بنت جريير أقرب ما تكون إلى الحديث عن امرأة انحصرت نشاطها وتفاعلها في النطاق الأسري⁽⁴⁾، وخامسة النساء الخمس اللواتي طلقن في يوم واحد تبطل الظن بأن المرأة كانت معزولة في نطاق بيتها⁽⁵⁾، فمع أن السياق يوحي بأن النسوة الأربع كن يتحركن في نطاق بيوتهنّ إلا أن تدخل الخامسة أكد أنها لم تكن مجرد متلقية غير مشاركة حتى في شأن لا يتصل بها.

خلاصة القول إن المرأة لم تكن معزولة كما يستشف من القصص المنتقاة، ومع أن معظم

(1) انظر الملحق، قصة 4.

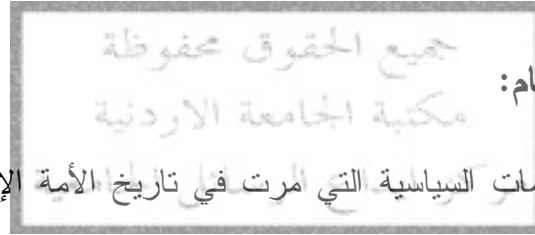
(2) انظر الملحق، قصة 13.

(3) انظر الملحق، قصة 22.

(4) انظر الملحق، قصة 36.

(5) انظر الملحق، قصة 39.

النساء في هذه القصص كنّ معنيات بشؤون لا ترقى إلى الشأن السياسي أو الفقهي أو الفلسفي أو العلمي، فإن نظراءهنّ من الرجال لم يكونوا في الغالب أوسع أفقاً، ولا أكثر علماً، مع استثناء الصحابة رضوان الله عليهم. ولعل هذا هو وضع الرجال والنساء في مختلف المجتمعات الإنسانية، ففتح المجال لا يعني دخول الجميع ضمن الباب المفتوح، وليس ثمة من دليل على أن امرأة حاولت أن تمارس نشاطاً معيناً فمنعت من ذلك أو استهجن المجتمع فعلها، وليس من الحكمة إقحامها قسراً في وسط لا ترغب فيه، وإلا استلبت حرية إرادتها.



ب- المرأة والشأن العام:

من أبرز الخصومات السياسية التي اُمرت في تاريخ الأمة الإسلامية تلك الفتنة التي نشأت بين معاوية بن أبي سفيان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وقد انقسمت الأمة حول هذه القضية فنتج عن ذلك ثلاث طوائف أساسية هي السنة، والشيعية، والخوارج. وقد استتبت الخلافة بعد علي بن أبي طالب لمعاوية بن أبي سفيان الذي تمكن من السيطرة على الأمور والتحكم بأزمة الدولة كما هو معروف. وتمثل قصص الوافدات الثماني على معاوية برهاناً قاطعاً للدلالة على الفرصة المتاحة لتعامل النساء مع الشأن العام إذا رغبن في ذلك، وتنطق قصص الوافدات على معاوية⁽¹⁾ بحقائق ناصعات تتصل بمقاربات النساء للشأن العام في ذلك الزمان. ومن أبرز ما يتبين من هذه القصص أن النساء الوافدات لم يكنّ في معزل عما يجري حينها من خصومة وجدل حول الخلافة، بل كانت كل واحدة منهنّ على دراية واسعة

(1) انظر الملحق، القصص من 43-50 على التوالي.

بالمحادة الدائرة بين المعسكرات المتنازعة، بل إن كلا منهنّ تجاوزت مرحلة القناعة إلى مرحلة العمل لنصرة علي على معاوية إلى درجة أن مناصرة كل منهنّ بقيت في أذهان الناس حتى بعد أن هدأت الساحة السياسية، ولم يعد ثمة مجال لاحتدام الخصومة، وقد كانت كل واحدة منهنّ متمكنة من أساليب التعبئة لصالح المعسكر الذي تناصره، وكن شاعرات أو

خطيبات أثرن في النفوس حتى حفظ أعداؤهنّ عنهنّ ما قلنه بعد سنين من استتباب الأمر، وكانت مواقف هؤلاء النسوة مبنية على معايير واضحة صرحنّ بها أمام معاوية، فقلن على وجه الإجمال إنهنّ يرين علياً أولى بالخلافة، وكنّ يعرفن في علي العدل والحكمة ومخافة الله، ولكنهنّ مع ذلك كنّ يرين في معاوية رجلاً متفوقاً على سائر من أحاطوا به من أمثال مروان ابن الحكم، وسعيد بن العاص وسائر الجلساء، وأصرت معظم هؤلاء النسوة على أن تلبية حاجتهن أو حاجة أقوامهنّ لا تسوغ حلول معاوية محل علي في القلب، ولا تسوغ مساواة معاوية بعلي.

وتضرب دارمية الحجونية مثلاً على مفاضلتها ما بين علي ومعاوية، فهي قد طلبت من معاوية مائة من الإبل، فيها فحلها، ومعها راعيها لتوظيفها في خدمة الصالح العام، فذكرها معاوية بسؤال تقريره بأن علياً ما كان ليجيبها إلى طلبها لو كان هو المخاطب، فأيدت قوله وذكرت أن علياً ما كان ليعطيها ولا وبرة من مال المسلمين⁽¹⁾، وهذا يعني أنها كانت تعلم يقيناً وبشكل مسبق، كيف يتصرف كل من الرجلين في موقف كهذا، وعادلت بذلك في فهمها فهم معاوية لشخصية ابن

(1) انظر الملحق، قصة 48.

أبي طالب وفي فهمه للشأن العام المتصل بمال الأمة. وكانت محاجة أروى بنت عبد المطلب⁽¹⁾ لمعاوية وجلسائه مثلاً من أمثلة العلم بأحداث الساعة وتوظيف معرفتها لاتخاذ الموقف من الحدث، ويتجلى ذلك في مناقشتها لعمر بن العاص حول نسبه ومكانة أمه بين النساء⁽²⁾. ولم تُبد أي من الوافدات خوفاً أو رهبةً من مجالسة معاوية حتى وهو القابض على زمام الأمور، فإذا استثيرت إحداهن كانت تتاديه باسمه فنقول يا معاوية، من غير الإشارة إلى أنه خليفة أو أمير المؤمنين، فدارمية الحجونية ردت عليه حين استثارها بخصوص اكتناز لحمها، وامتلاء جسمها، وعظم عجزتها، بأن هنذاً أم معاوية كانت مضرب المثل في كل ذلك، الأمر الذي جعل معاوية يتراجع ويهادن ويعتذر بلباقة⁽¹⁾، ثم إن معاوية استدعى بعضهن دون رغبة منهن، فأطعن باعتبار أنه حصل على بيعة، وأصبح الخليفة المتمتع بعهد المسلمين له.

وقد تكلمت الوافدات فيما يرين أنه أساس من أسس الحكم، فذكرن سعة الحلم، وكريم العفو، ووجوب أخذ الصدقات من الأغنياء لترد على الفقراء، وضرورة الانتباه عن الغفلة، والعودة إلى التوبة، وعدم الاستعانة بالخونة، وعدم استعمال الظلمة، وذكرن أن على الحاكم أن يحفظ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يحب المساكين، وأن يعظم أهل الدين، وألا يسفك الدماء، وألا يجور في القضاء، وألا يفتتن بالملك، وألا ينشغل بما أصابه من نعمة.

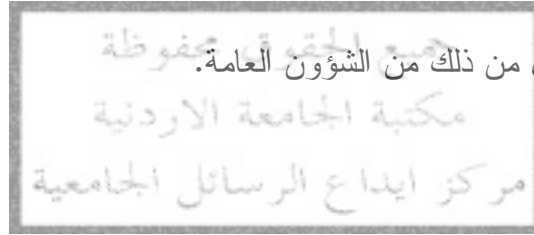
إن مجمل هذه المظاهر من التصدي للشأن العام تثبت أن المرأة لم تكن ممنوعة من مخاطبة المسؤول، ولا قاصرة إذا شاءت عن مواجهته ومجاوبته، ولم تكن تخاطبه بالمسكنة والتذلل، وإنما

(1) عمة النبي، اختلف في إسلامها، فقال ابن اسحاق إنه لم يسلم من عمات النبي غير صفية، وقال غيره: أروى وصفية، وقيل إنها توأمة عبد الله. انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج8، ص236.

(2) انظر الملحق، قصة 50.

تتوجه إليه بالحق، وبالحكم الشرعي، بل إن معاوية نفسه قد أبدى رغبته كما سلف في أن يستمع إلى أقوال بعضهم لسبب أو لآخر، حتى في مسألة بغضهن له ومحبتهن لعلي، وما كان ليفعل ذلك لولا أن هؤلاء النسوة كن على درجة عالية من سداد الرأي، وحسن التفكير، وعمق التأثير، ولم يكن الأمر متعلقاً بامرأة واحدة حتى يقال إنها قضية امرأة فرد، لا يعول عليها، ولم يكن كلام أي منهن

هزياً حتى يضرب عنه صفحاً، فينسى ويذهب جفاء أو رمادا تذروه الرياح. وما دامت المرأة قادرة على مواجهة الخليفة، وعلى مواجهة رجل بذكاء معاوية وسلطانه فالراجح أن تكون قادرة



ج - منعة حقوق المرأة:

لعل أفضل طريقة لتبيين مدى رسوخ مكانة المرأة أو زعزعتها دراسة آثار بعض عوامل التمييز التي تدعو الناس إلى الرفض أو التحيز أو النبذ، حتى إذا صح أن مكانة المرأة لا يزرعها عامل من هذه العوامل، تبين أن هذه المكانة راسخة عميقة الجذور، في حين أن زعزعتها تعني استحقاق المكانة لعوامل تتصل حصراً بأنوثة المرأة لا بسائر مقومات شخصيتها.

وتنهض القصص المنتقاة لترسم واقعاً ملموساً مفاده أن ثمة من يعيب على المرأة شيئاً من مقومات شخصيتها، ولكنه لا يلبث على ذلك طويلاً حين ينبه إلى غفلته، صحيح أن هذا يعني أن المرأة قد تتعرض إلى الإساءة، ولكنها بالنتيجة لا تهتمش في مجتمعها، ولا تغرب عنه، ولا تقصى،

ولا يشعر مناصر المرأة أن مكانته قد انتهكت، أو أن حكمته قد انتقصت، أو أن أخلاقه قد وصمت، ولكنه على عكس ذلك يبدو قوياً قادراً على إسكات خصومه.

وليس من دليل على أن هذا التعبير بشائبة أو أخرى، يمس الرجل دون المرأة، بل إن الواضح أن هذه النزعة الاجتماعية لا تضع الرجل في منزلة أفضل من المرأة، بل لعل العكس هو الصحيح، فعندما خطب عبد الملك بن مروان لابنه يزيد ابنة عقيل بن علفة⁽¹⁾ قال هذا الأخير لعبد الملك: "إن كنت فاعلاً فجنبني هُجاءك"⁽²⁾ أي أبناء الأعمميات.

وفي مقابل ذلك قال رجل من أهل المدينة ناصحاً نصيحة عامة:

لا تشتمن امرأً في أن تكون له
فإنما أمهات الناس أو عية
مستودعات وللأحساب آباء

ورب واضحة ليست بمنجبة
وربما أنجبت للفحل سوداء⁽³⁾

ويتعزز هذا الموقف من الدفاع عن مكانة المرأة حتى ولو لم تكن مسلمة فقد قال أحدهم:

يقولون نصرانية أم خالدٍ
فقلت دعوها كل نفسٍ ودينها

و إن تك نصرانية أم خالد
فقد صوّرت في صورة لا تشينها⁽⁴⁾

و كان المجتمع الموصوف في القصص المنتقاة غير متشنج ولا متزمت ولا متطرف، تعيش

(1) كان شاعراً مجيداً فصيحاً مقدماً في شعراء الدولة الأموية، وكانت قريش ترغب في مصاهرته، وتزوج يزيد

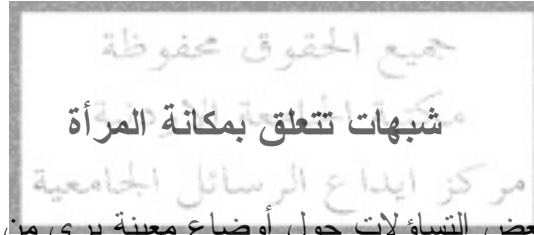
ابن عبد الملك ابنته الجرباء. انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج20، ص64.

(2) انظر ابن قتيبة، عيون الأخبار، م4، ص302.

(3) انظر المصدر نفسه، ص300.

(4) انظر المصدر نفسه، ص347.

المرأة فيه متمتعة بمكانة لا تقل عن مكانة الرجل. فإذا ما نظر إلى المرأة سواء كانت زوجةً أو أمًّا أو ابنةً ضمن صورتها ومنزلتها التي لم تكن تفتقر في حالات كثيرة عن دور قرينها الرجل، صح الحكم أن دورها في النسيج الاجتماعي الإسلامي كان يناظر دور نظيرها من الرجال في أحيان كثيرة.



لمتشكك أن يثير بعض التساؤلات حول أوضاع معينة يرى من خلالها أن مكانة المرأة في تلك الحقبة التي تعرض لها الدراسة ليست على ما وصف أنفاً من الرقي والرسوخ، وقد يتخذ من تركيز الاهتمام على جسم المرأة حجة تدحض ما قيل بشأن مكانتها في المجتمع الإسلامي العربي، وقد يثير هذا المشكك مسائل عدة يرى منها شواهد على تدني مكانة المرأة في المجتمع العربي الإسلامي من بينها: مسألة الطلاق، ومسألة الرق، ومسألة حرية المرأة في استخدام جسمها كما تشاء، ومسألة القيود على الزواج، ومسألة المهر، ومسألة العنف ضد المرأة حججاً، ومن الجلي أن كل واحدة من هذه المقولات تحتمل تفسيرات مختلفة، ومن هنا فسوف تعالج كل واحدة من هذه المسائل في ضوء القصص المنتقاة مع التعويل على شواهد منثورة هنا وهناك تعزز هذا الاتجاه أو ذاك.

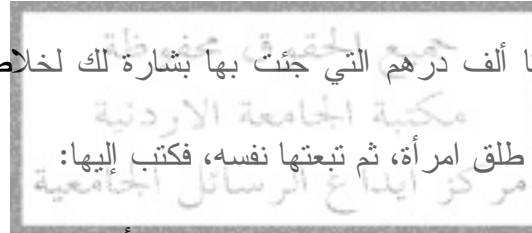
أ- الطلاق ومكانة المرأة:

لدى تمحيص القصص المنتقاة يتبين أن النساء اللواتي طلقن لم يتأثرن كثيراً بالطلاق، فقد تزوج معظمهن بعد ذلك، وربما تزوجت الواحدة منهنّ مرتين أو أكثر، ولم يكن الزوج الثاني أو الثالث يعيب على المطلقة أنها طلقت، بل ربما سعى إليها بنفسه، وربما رفضت إعادته عرضاً للزواج من واحد من عليّة القوم كما فعلت أم إبان⁽¹⁾. ولم يرد في أي من القصص المنتقاة أن أيّاً من النساء قد حزنت، أو اكتأبت، أو أصابها عنت بسبب الطلاق. بل إن كل واحدة منهنّ اعتبرت أن الطلاق أمر عادي يحدث كما يحدث الزواج، وكما يحدث أي شيء مستجد في العلاقات الإنسانية، وإذا كان الطلاق ثقيل الوطأة على المرأة أو على الرجل في هذه الأيام إلى درجة تجعل المعنيين بالعلوم الإنسانية شديدي القلق من هذه الظاهرة، فإنها لم تكن لتعني شيئاً ذا بال في مجتمع ذلك الزمان، وينبغي قياس مكانة المرأة في ضوء قيم ذلك الزمان، لا في قيم غيره، وفي قيمة ذلك المجتمع بعينه، لا بقيم غيره من المجتمعات. فإذا كان الرجل يحترم المطلقة كما يحترم البكر، ويعاملها بذات الطريقة مع بعض التفضيل للمطلقة في بعض الأحيان، فلا يجوز التأويل إلى غير هذا المعنى المستخلص مباشرة من الأحداث الثابتة، ولا يجوز الاعتماد على القصص المشكوك في صحتها، ولا على القصص التي حدثت في العصر الجاهلي؛ لأن الإسلام أحدث تغييراً نوعياً في مكانة الإنسان عموماً، وفي العلاقات ما بين البشر. ولعل أبلغ دليل على أن المجتمع الموصوف في القصص المنتقاة كان ينظر إلى الطلاق نظرة خالية من التشنج، أن أيّاً من القصص المنتقاة لا تشير إلى نزاع حدث بين المرأة ومطلقها حول الحقوق الزوجية كالمهر، ونفقة العدة، وحضانة الأطفال،

(1) انظر الملحق، قصة 11.

وما شابه ذلك من الحقوق.

وإذا كان الطلاق الذي وقع على امرأة مستقرة في زوجها لم يؤثر عليها سلباً، فقد كان الطلاق أحياناً علاجاً لمشكلة كانت المرأة قد وقعت فيها بمعرفتها، أو بسوء تقديرها، أو عن غير وعي منها، وذلك كما حدث في قصة كل من ضباعة، وابنة علقمة بن خفصة الطائي، وقصة الفارعة الثقفية⁽¹⁾، إضافة إلى ما حدث مع هند بنت النعمان، إذ أرسل إليها الحجاج عبد الله بن طاهر ليوقع عليها الطلاق، أو يبلغها به، ولينفذ إليها مؤخر مهرها البالغ مائتي ألف درهم فلما دخل عبد الله على هند قال لها: "كنت فينت" فردت عليه قائلة: "أعلم يا ابن طاهر، أنا والله كنا فما حمدنا، وبنّا فما ندمنا، وهذه المئتا ألف درهم التي جئت بها بشارة لك لخلاصي من كلب بني ثقيف"⁽²⁾.



وكذلك روي أن الأصمعي طلق امرأة، ثم تبعها نفسه، فكتب إليها:

وهل رأيتم بعدنا مثلاًنا فما رأينا بعدكم مثلكم⁽³⁾

و لم يرد في أي من القصص المنتقاة أن أبناء المطلقات وبناتهن تعرضوا إلى العنت والضياع ولم ينظر أحد إلى زوج أمه نظرة الكراهية، ولا عاب على أمه أن تتزوج بعد الطلاق؛ للفناعة التامة بأن الأمر أمر عادي جداً، ولا يشكل مساساً بشرف المرأة أو قيمتها.

وقد يبدو غريباً في هذا الزمان أن الطلاق كان في كثير من الأحيان مؤلماً للرجل الذي أوقعه دون أن يؤثر على المرأة التي طلقت، ويتبين ذلك جلياً في قصة كل من حفصة بنت عبد الرحمن التي تبعها رجلان، كان كل منهما ابن أحد الخلفاء الراشدين، وفي قصة الفارعة التي ندم

(1) انظر الملحق القصص 1، 20، 41 على التوالي.

(2) انظر الأبشيهي، المستطرف، ص 79-81.

(3) انظر ابن قتيبة، عيون الأخبار، م4، ص409.

المغيرة بن شعبة ذو المكانة المرموقة في التاريخ الإسلامي على طلاقها، وفي قصة سعدة التي تبعثها نفس الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي⁽¹⁾.

وخلاصة القول إن الطلاق برضى الزوجة أو بدون رضاها لم يكن ليمس مكانتها في مجتمعها.

ب - الرِّق ومكانة المرأة:

وردت الإشارة إلى الرقيق في بعض القصص المنتقاة، وتبين من تدقيقها جميعاً أنه لم تنشأ منازعات بين حرة وجارية، أو بين حرة وزوجها مالك الجارية، أدت إلى هدم كيان الأسرة أو أدت إلى طلاق أو فراق، وقد دافع مالك الجواري عنهن حتى في مواجهة الزوجات الحرائر، كما فعل أبو الأسود الدؤلي والفرزدق⁽²⁾. وقد أدركت كل من الحرّتين حدودهما فتراجعتا عن شغبهما من غير أن تتأثر مكانة أي منهما. وكانت الجواري قادرات على مخاطبة أعلى القيادات السياسية ببسر وثقة تكاد تصل إلى المناظرة، فقد تمكنت سكرّ من الاستحواذ على قلب المأمون حتى إنه اشتراها وتزوجها وعتقها⁽¹⁾.

ولو أن الرق يمس مكانة الأمة فإنه يمس مكانة الرجل كذلك، وربما كان حل معاشرته الإمام شفيحاً لهنّ، وسبباً لحظوة أعلى لدى المالكين الذكور، في حين أن ملكية الرقيق الذكر لا تقربه إلى شيء من ذلك، بل يبقى أمر عتقه منوطاً بطلب الثواب أو بالافتداء.

و خلاصة القول إن الرق لم يكن يمس مكانة المرأة خاصة، بل ربما أعطى الجواري

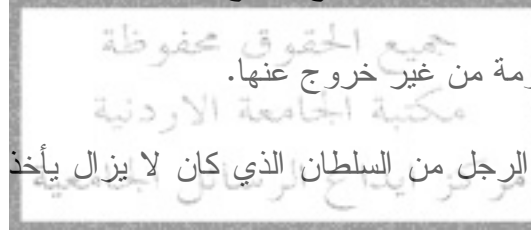
(1) انظر الملحق، القصص 3، 41، 42.

(2) انظر الملحق، القصصين 21 و 27 على التوالي.

سلطاناً على الرجال في قراراتهم، وفي أموالهم، وفي حسن معاملتهم.

ج - حرية المرأة في استخدام جسمها كما تشاء:

يثير بعض المتحمسين لحرية المرأة أن من تمام حريتها واحترام مكانتها الاجتماعية أن تصنع بجسدها ما تريد، وأن يتوقف المجتمع عن إلقاء الوصمة على من يستخدم أجسادهن بما لا يتوافق مع التقاليد الاجتماعية. وبما أن هذا البحث ملتزم منهجياً بأن يقيس كل شيء في حدود المنظومة الخلقية التي ارتضاها ذلك المجتمع لجميع أفرادها رجالاً ونساءً، فإن محاكمة هذه المسألة ستتم على هدي هذه المنظومة من غير خروج عنها.

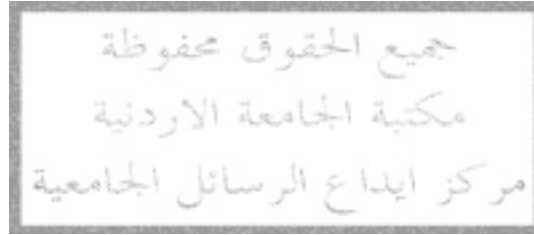


ويستفاد من قصة الرجل من السلطان الذي كان لا يزال يأخذ قوادة فيحبسها، ثم يأتيه من يشفع فيها، أنه كان ينفذ أمر صاحب شرطته فيكتب قصتها، ويقرأها على من يشفع فيها لكي يستحي الشفيع من شفاعته، ويضرب صفحاً عنها⁽¹⁾. وعلى أية حال فإنه لا يتصور أن تمارس هذه المرأة نشاطها إلا في مجتمع يبيح للمرأة أن تضع جسمها إذا شاءت تحت تصرف الرجال بأجر أو بدون أجر، ولما كان مثل هذا الفعل مرفوضاً، فقد حرم على الرجال والنساء معاً، فصار الرجل من السلطان في هذه القصة يتهم الشفيع بالزنا. إن هذا أمر يعف عنه كل رجل وتأباه كل امرأة في ذلك المجتمع، إلا أن تمارس الفاحشة سراً بعيداً عن أعين سائر الناس، فهذا الموقف الحازم من استخدام المرأة لجسمها واستخدام جسمها من قبل الوسطاء في فعل الفاحشة أمر معاقب عليه إذا ثبت ضمن القاعدة الشهيرة التي تقرر أنه ما حرم إعطاؤه حرم أخذه، وما حرم بيعه حرم شراؤه، وما حرم

(1) انظر الملحق، قصة 5.

قبوله حرّم طلبه.

و خلاصة القول إن محاربة القوادة، وتحديد كيفية استخدام المرأة لجسمها وحصر ذلك في نطاق الزواج، وفي نطاق معايشرة الجوّاري هو أمر يعنى بحماية المجتمع كله دون أن يضع الرجل في موقع متميز فيتمتع هو، ويعاب ذلك على المرأة، فمكانة المرأة من هذه الناحية معادلة لمكانة الرجل ضمن منظومة القيم التي ارتضاها ذلك المجتمع في ذلك الزمان.



د- القيود على الزواج :

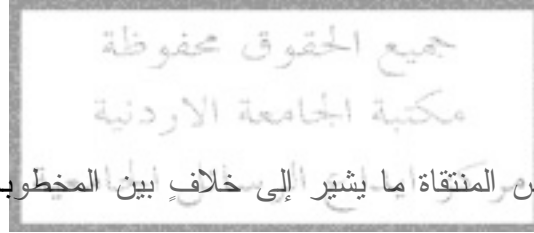
ورد في القصة التي رواها محمد بن قيس الأسدي⁽²⁾ أنه شاهد في طريقه إلى المدينة رجلاً طريحاً ومعه أمه التي بينت أن ابنها يكاد يموت من شدة عشقه لابنة عم له تربي معها، ثم حجبت عنه بعد أن تعلق قلبه بها، ولما خطبها إلى أبيها أباي، لأنه من العيب في منظومة القيم الأعرابية أن يتزوج الرجل امرأة كان بها مغرماً⁽³⁾.

(1) انظر الملحق، قصة 24.

(2) يكنى أبا قدامة، من متقني أهل الكوفة وكان فاضلاً ورعاً. انظر البستي، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد، (ت354). مشاهير علماء الأمصار، (تحقيق فلايشهمر)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1959، ج1، ص168. عينة عمر بن عبد العزيز قاضياً وكان ثقة. انظر الفسوي، أبو يوسف يعقوب بن سفيان، (ت277). المعرفة والتاريخ، 3م، (تحقيق خليل المنصور)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999، ج 3، ص 185.

(3) انظر الملحق، قصة 31.

و يستفاد من هذه القصة أن هذا العاشق وابنة عمه المعشوقة قضايا من شدة العشق فماتا ودفنا لشدة ما أصابهما، وهذا دليل على أن الرجل والمرأة واقعان تحت مظلة هذا المنع، وواقع الأمر أن جميع المجتمعات تضع قيوداً في الزواج لا تسمح لأحد أن يتخطاها، فالمجتمعات المختلفة في هذه الأيام تحرّم الزواج من الأخت مع أن هذا كان مسموحاً به في المجتمعات القديمة، أما وقد حرّم المجتمع ذلك فقد حرّمه على الرجل والمرأة على حد سواء، فلا يعتبر ذلك مساساً بأهلية المرأة الاجتماعية دون أهلية الرجل إذا صح أن هذا جزء من الأهلية الاجتماعية.



هـ - المهر:

لم يرد في القصص المنتقاة ما يشير إلى خلاف بين المخطوبة وخاطبها على قيمة المهر ونوعه، كما لم يرد فيها ما يشير إلى نزاع بين المرأة ومطلقها حول هذه المسائل، فقد تزوج المأمون الجارية سكرّ على عشرة آلاف درهم⁽¹⁾، وساق ذو الجدين قيس بن خالد مهر ابنته عن لقيط بن زرارة⁽²⁾ الذي خطبها، وحاورت الملاء بنت زرارة خاطبها عبد المجيد بن سهل بن عبد الرحمن الزهري في شأن مركزه المالي توصلاً كما يظن إلى الحديث عن مهرها فيما لو تمت خطبة وانعقد النكاح، ولكنها لم تذكر شيئاً صريحاً بخصوص المهر.⁽³⁾

(1) انظر الملحق، قصة 5.

(2) انظر الملحق، قصة 10. ولقيط يكنى أبا نهشل، انظر ابن منظور، اللسان، مادة نهشل. وقيل أبا دخنتوس ودخنتوس ابنته وكان قد سماها باسم ابنة كسرى. انظر ابن منظور، اللسان، مادة أفك. تزوج قذور بنت قيس بن خالد الشيباني وطلقها فتزوجها بعده رجل من قومها فقال لها يوماً أنا أجمل أم لقيط فقالت ماء ولا كصداء أي أنت جميل ولست مثله. انظر ابن منظور، اللسان، مادة صدأ.

(3) انظر الملحق، قصة 38.

وذكر ابن قتيبة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمهر أم كلثوم ابنة علي بن أبي طالب رضي الله عنه أربعين ألف درهم، وأصدق عبد الله بن عمر ابنة أبي عبيد عشرة آلاف درهم، وأصدق محمد بن سيرين⁽¹⁾. امرأته السدوسية عشرة آلاف درهم⁽²⁾.

وكان مهر هند بنت النعمان مائتي ألف درهم دفعها الحجاج إليها مع عبد الله بن طاهر حين وقع عليها الطلاق⁽³⁾.

ويبدو من هذه الشواهد أن الرجل كان يدفع المهر أو يقدره ويلزم نفسه به، فلا تكلف المرأة نفسها أمر المفاوضة، ولا تتزيد فيما فرضه لها الزوج، وهذا خلاف ما جرى به العرف هذه الأيام من المفاوضة على المهر أو من مبادرة أهل الزوجة إلى تحديد المهر المطلوب من الزوج.

وقد يتساءل بعض العامة بين حين وآخر عن الفرق ما بين المهر وثن السلعة مشيرين، بذلك إلى أن المرأة ليست أكثر من سلعة تباع بالمهر وتشتري به، فكأنها أمة لزوجها أو سلعة له أن يتصرف بها وفق هواه، وإذا صح ذلك فإن هذا تقليل من مكانة المرأة دون مكانة الرجل، ولكن الشواهد آنفة الذكر تنفي هذا الزعم بدليل أن الرجل كان يفرض للمرأة ما يفرض معبراً عن اعتزازه بها، ثم يدفعه إليها من غير أن يضطرها إلى المخاصمة والنزاع والمقاضاة، وربما كان ذلك تأثراً بما ورد في القرآن الكريم بهذا الخصوص في قوله تعالى: "وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئاً مريئاً"⁽⁴⁾.

(1) أحد فقهاء البصرة مذكوراً بالورع وله اليد الطولى في تعبير الرؤيا كانت ولادته لسنتين بقيتا من خلافة عثمان وتوفي سنة عشر ومائة . انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج:4 ص:181.

(2) انظر ابن قتيبة، عيون الأخبار، م4، ص359.

(3) انظر الأبشيهي، المستطرف، 79-81.

(4) سورة النساء، آية 4.

ويبدو جلياً أن هذه النظرة إلى المهر نابعة من القيم الدينية التي أشربها المجتمع وقضت باحترام حقوق المرأة فيه، ويتأكد ذلك من حسن المعاملة التي كانت تحظى بها المرأة مهما ارتفع مهرها أو انخفض، فالمهر ليس ثمناً وإنما هو إمارة إكرام وإعزاز، ولو كان غير ذلك لقامت نزاعات مطولة في هذا الشأن تحط من كرامة المرأة ومن كرامة الرجل، وهذا لم يبد شيء منه في قصص هذه الدراسة.

و - العنف ضد المرأة :

كثير في هذا الزمان الحديث عن العنف ضد المرأة الذي يمارسه عليها زوجها أو أبوها أو ابنها وسائر الرجال في السلم والحرب، وفي مرحلة المفاوضات لحل المنازعات، وفي مرحلة التعمير والبناء بعد أن تضع الحرب أوزارها، وهو مظهر يمارسه عليها الرجال حين تكون مسالمة، وحين تكون محاربة، وحين تكون طالبة للجوء، وحين تعتبر لاجئة وفق القانون الدولي، وحين تكون من طائفة المبعدين عن ديارهم أو داخل أوطانهم.⁽¹⁾

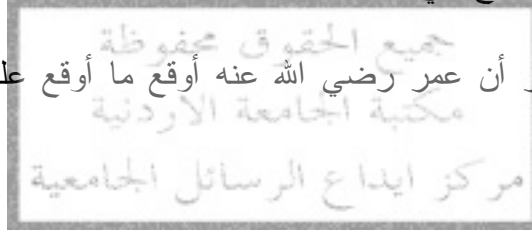
ويراد بالعنف هنا ما يلحق المرأة من أذى جسماني أو معنوي. وسوف يلتزم هذا البحث بدراسة العنف الجسدي الذي تهان به المرأة من غير جرم تعاقب عليه بالضرورة.

أما قصة صخر بن الشريد وزوجته سلمى بنت كعب، وقصة أردشير وابنة ملك السواد⁽¹⁾، فقد وقعتا في مجتمع غير إسلامي فوجد من الحكمة استبعادهما من الدلالة على أي شيء يتعلق

(1) United Nations: Women, peace And Security- Study Submitted By Security Council, (United Nations) 2002 (Hyine General Pursuant To Security Council Reselution 1325/ 2000, Nations Puplecation Sales, NO. E. 03.IV.1 ISBN 9211302226.

بمسألة العنف ضد المرأة، ولو أنهما أخذتا دليلاً على أي شيء لتبين أن أردشير قتل ابنة ملك السواد لما تبين له مدى خيانتها لأبيها الذي كان قد أحسن إليها كل الإحسان، وأنه ما كان ليبلغ شأو أبيها في ذلك، وأما صخر فهّم بالعنف ولم يقدر عليه حين كان يسمع استخفاف امرأته به.

أما في الإسلام، فقد خفق عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالدرة تلك المرأة التي أبدت تشوقها لمعاشرة نصر بن حجاج وهي ليست على ذمته⁽²⁾، فكان ذلك منه رضي الله عنه عقاباً تعزيراً على جريمة رأى ولي الأمر أنها تستوجب العقاب، ولو فعلها رجل لنال العقاب نفسه، ودليل ذلك أن نصر بن حجاج نفي من المدينة بعد حلق رأسه من غير أن يكون قد بدر منه فعل منافع لخلق أو لدين. غير أن عمر رضي الله عنه أوقع ما أوقع عليه انقضاء للفتنة وسداً للذرائع الموصلة إليها.



وفي المقابل نجا الرجل الذي قتل يهودياً زنا بزوجة أخيه من القصاص، لأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عدّ حادثة قتل اليهودي دفاعاً مشروعاً عن العرض، لأن صيانة العرض من أغراض الشريعة التي تمثلها المجتمع الإسلامي واحترمها⁽³⁾.

ويقال الشيء ذاته في شأن ذلك الرجل الذي شيعته زوجته فألقت خلفه روثه وبعرة وحصاة داعية عليه ألا يعود إليها أبداً، فلما بلغه ذلك عنها، عاد إلى منزله فوجدها مع رجل أجنبي فقتلها جميعاً⁽⁴⁾.

(1) انظر الملحق، القصتين 27 و28 على التوالي.

(2) انظر الملحق، قصة 12.

(3) انظر الملحق، قصة 25.

(4) انظر الملحق، قصة 30.

ويلاحظ أن المرأة في القصة الأولى لم تقتل، وأن المرأة في القصة الثانية قتلت، وتبين القصة الأولى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أقر ما فعله قاتل الزاني المتطفل على بيت أخيه، بينما لا تبين القصة الثانية ما فعل ولي الأمر، والقتل على كل حال وقع على حدود الدفاع المشروع فيخرج بالتالي عن العنف الجسدي المقصود به إهانة المرأة.

و قد يستغرب المرء المفارقة ما بين موقف أم أبان وموقف هند بنت عتبة من العنف، ففي حين أن أم أبان رفضت الزواج من الزبير بحجة أن له يداً على قرونها، ويداهاً أخرى في الصوت، فضلت هند بنت عتبة الزواج من أبي سفيان بن حرب مع أن أباهما وصفه لها بأنه لا يرفع عصاه عن أهله⁽¹⁾.

و في قول شريح أبين دليل على أن الكرماء من الرجال هم الذين يحترمون أنوثة المرأة، وأن الشريرين وحدهم هم الذين يضربون نساءهم؛ وهم لذلك مذمومون.

رأيت رجالاً يضربون نساءهم فشلت يميني حين أضرب زينب⁽²⁾

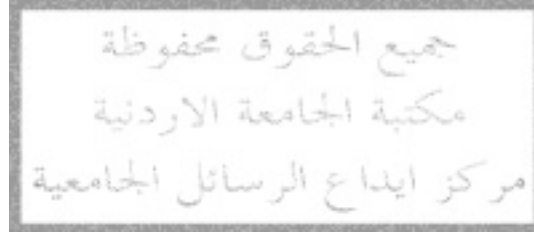
و في مقابل هذا القول يلاحظ أن ختنة شريح نصحته قائلة له في ذات القصة: (فإن رابك ريب فعليك بالسوط، فوالله ما حاز الرجال في بيوتهم شراً من المرأة المدللة). وقولها هذا يذكر بما أورده الفيلسوف الألماني (نيتشه) قالت العجوز: "أماض أنت إلى مقابلة المرأة؟ إذاً فلا تنس أن تأخذ معك السوط"⁽³⁾.

(1) انظر الملحق، القصتين 11 و 35 على التوالي.

(2) انظر الملحق، قصة 36.

(3). Nietzsche, Friedrich: Thus Spake Zarathustra—A Book For All And None, Translated By Thomas Common, 1923, T. N. Foulis Ltd, Edinburgh And London, p76.

وخالصة ما تدل عليه هذه المشاهد أن العنف الجسدي المقصود به إهانة المرأة لم يكن شائعاً، وأنه لا يعنف بها إلا مذموم، ولا يوقع بها الأذى إلا شرير، وأمّا الأذى الناجم عن تنفيذ حكم شرعي فلا علاقة له بالأذى المطلق.



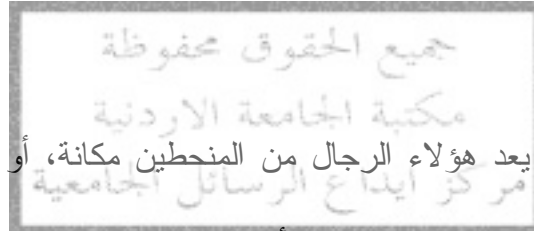
الخلاصة

"لسنا نقول ولا يقول أحد ممن يعقل أن النساء فوق الرجال أو دونهم بطبقة أو بطبقتين أو بأكثر"⁽¹⁾، لعل هذا القول هو العنوان الرئيس لصورة المرأة التي يمكن استخلاصها من أدب الذين سبقوا التتوخي فلم يرد في القصص المنتقاة ما يدل على عكس ذلك، وإن كانت البيئة المحيطة بهؤلاء الأدباء قد شابتها شوائب لا تتكرر من الافتتات على المرأة، ولكن الرائج بين أهل الفضل من الناس أن المرأة شقيقة الرجل مشتقة من ذات مادته، مساوية له في الحقوق والواجبات والأهلية

(¹) انظر الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج3، ص151.

والمكانة.

ويلاحظ مما أورده هؤلاء الأدباء أن أخبار النساء التي أوردوها كانت في الحقيقة أخبار الرجال ومدى انشغالهم بالنساء وبأمورهنّ وبالتعلق بهنّ، الأمر الذي يؤكد مكانة المرأة، فالرجل الذي قضى صريعاً ورأسه في حجر أمه لوعة على عدم زواجه من ابنة عمه التي كان يحبها، وقصة الرجل الذي كتم عشق زوجة أخيه إلى أن انكشف أمره ففرّ حياء ولم يعد إلى ديار قومه، وعباس الذي قتل عشيقته، وهو على المرقب ظاناً إياها والجارية التي معها من أعدائه، ثم قتل نفسه لوعة على ما فعل حين عرف الحقيقة، وتعلق القسّ بسلامة، هي دلائل على ما كانت النساء تفعله بالرجال⁽¹⁾.



ولم يكن المجتمع يعد هؤلاء الرجال من المنحطين مكانة، أو الضعفاء في الشخصية، أو المنظور إليهم بعين الزرارية، بل إن معاوية بن أبي سفيان قد روي عنه أن صعصعة بن صوحان قد سأله يوماً "كيف ننسبك إلى العقل وقد غلب عليك نصف إنسان؟ يريد غلبة امرأته فاختة بنت قرضة عليه، فقال معاوية: إنهنّ يغلبن الكرام ويغلبهنّ اللئام"⁽²⁾.

ويروى عنه أيضاً أن زوجته سألت عنه الأحنف بن قيس فقالت: "أين الفاسق؟ فأوماً الأحنف إلى البيت الذي كان فيه معاوية يماجن وصيفة من الوصائف، فأخرجته ولحيته في يدها، فقال لها الأحنف: ارفقي بأسيرك رحماك الله، فقالت: يا قواد، وتتكلم أيضاً، فقال معاوية: "يغلبن الكرام

(1) انظر الملحق، القصص من 31-34 على التوالي.

(2) انظر ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج2، ص86.

ويغلبهنّ اللئام"⁽¹⁾. وذلك إن لم تكن هذه القصة موضوعة .

أما الحجاج بن يوسف الثقفي المعروف بشدة بأسه وقسوته فسئل يوماً عما إذا كان يمازح أهله، فقال: "إن تروني إلا شيطاناً و والله لربما قبلت أخص إحداهن"⁽²⁾.

هذه الشواهد وكثير غيرها تدل على مدى تعلق الرجل بالمرأة، وعلى مكانتها عنده، وعلى عدم كتمان ما يشعر به لها من محبة ومودة واحترام، وتمثل قصص الوافدات على معاوية⁽³⁾ شعوراً آخر لدى الرجال، قوامه الرهبة، وتقدير العقل، واحترام التجربة لدى النساء، أما أن يشار إلى المرأة بأنها نصف إنسان كما ورد في قصة معاوية وفاخته، فذلك من قبيل الإشارة إلى مسألة

شهادة المرأة في الديون، و توثيقها انسجاماً مع الأمر الإلهي الذي نص عليه في قوله تعالى: " واستشهدوا شاهدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى"⁽⁴⁾.

والناظر إلى الصورة المستخلصة من أدب الذين سبقوا التتوخي يجد أنه لم يفترض نمطاً مسبقاً أو أنموذجاً أو قالباً جامداً ألبستهُ النساء، ولم ينظر الرجال إليهنّ ضمن منظور موضوع مسبقاً بحيث يحكمون على المرأة من خلال ذلك القالب أو المنظور، وليس من خلال مشاهداتهم الشخصية، ونتج عن ذلك بالضرورة أنهم لم يصفوا امرأة واحدة بل نساء متعدّدات يختلفن في كل

(1) انظر ابن القيم، أخبار النساء، ص210-211.

(2) انظر ابن قتيبة، عيون الأخبار، م4، ص367.

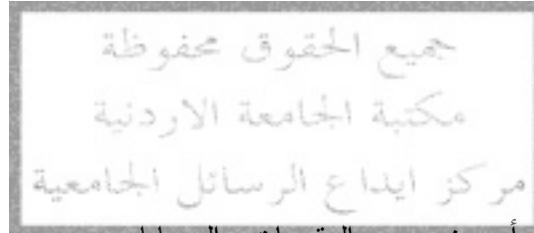
(3) انظر الملحق، القصص من 43-50 على التوالي.

(4) سورة البقرة، آية 282.

شيء في حدود الفروق الفردية، فهنّ من حيث الجسم يتراوحن ما بين أوصاف أم إياس⁽¹⁾، وتلك المرأة التي وصفت بأن لها جسم برغوث وساق بعوضة⁽²⁾.

وهنّ يتراوحن في الوفاء ما بين نائلة بنت الفرافصة وزينب بنت جرير من ناحية، وما بين المرأة التي غدرت زوجها الذي ذهب غازياً، وتلك التي ألفت خلف زوجها المفارق حصة وروثة وبعرة أملاً في ألا يعود أبداً⁽³⁾.

وهنّ يتراوحن في اهتمامهنّ بالشأن العام ما بين الوافدات على معاوية⁽⁴⁾، وما بين الجارية التي كانت تتكلم رفناً في الحج، فلما سئلت عن ذلك قالت: "لست حاجة وإنما يحج الجمل"⁽⁵⁾. فالمرأة



العادية كان يمكن أن تكون أي مزيج من المقومات والسجايا.

وأثر عن العرب كثيراً أنهم صنفوا المرأة أصنافاً ولم يكتفوا بأن يستتجوا أن كونها أنثى يستتبع بالضرورة أن تكون نسقاً واحداً معروف الصفات، صحيح أن بعض الشعراء وبعض من اعتبروا من الحكماء حاولوا أن يضربوا مثل هذه الأمثال ويطلقوا مقولات النمط الجامد، إلا أن القصص المنتقاة توحى بأن العرب لم يكونوا يتعاملون مع المرأة هكذا، وتفسير هذه الظاهرة أن

(1) انظر الملحق، قصة 39.

(2) انظر ابن قتيبة، عيون الأخبار، م4، ص323.

(3) انظر الملحق، القصص 17، 36، 25، 30 على التوالي.

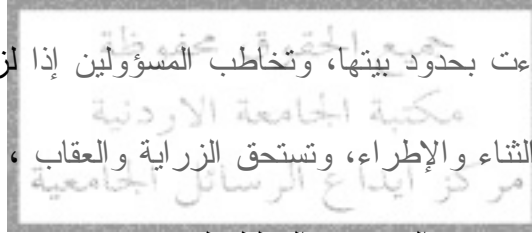
(4) انظر الملحق، القصص من 43-50 على التوالي.

(5) انظر الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج1، ص98.

الرجل إذا تحدث بالمطلق أرسل شعارات تصطبغ بالتعميم، حتى إذا تعامل مع امرأة بعينها، أو إذا تحدث عن امرأة خصصها باسمها فإنه يتحدث عنها بمعزل عن التعميم والحكم المسبق.

ولا بد من التأكيد أن القصص المنتقاة لا يمكن أن تكون كافية لتستخلص منها صورة المرأة في العصر الجاهلي، أو في صدر الإسلام، أو في العهد الأموي، ولكنها تصلح أن تكون صورة للمرأة عند الكتاب الذين وقف على شيء من نتائجهم.

فالمرأة في هذه الأخبار و القصص المنتقاة إذاً كانت تتحرك ضمن معطيات شخصيتها وقواعد المجتمع المرعية آنذاك، تحب وتكره، وتقبل وترفض، وتفتقر وتغتني، وتقارع من أجل الشأن العام، وتقعن إذا شاءت بحدود بيتها، وتخاطب المسؤولين إذا لزم الأمر بثقة وحكمة، وهي تخطئ وتصيب وتستحق الثناء والإطراء، وتستحق الزرابة والعقاب، تلك هي الصورة التي يمكن استخلاصها من كل ما سبق من العرض والتحليل لقصص من سبقوا التنوخي وهي تصلح أن تقارن بصورة المرأة التي سوف تستخلص لاحقاً من أدب التنوخي.



الفصل الثاني

صورة المرأة في أدب التنوخي

توطئة

بعد أن اتضحت صورة المرأة كما ارتسمت في أدب الذين سبقوا التنوخي أصبح سائغاً

استخلاص صورتها من أدب التنوخي بذات الأسلوب المنهجي الذي اتبع آنفاً.

ويبدو ضرورياً هنا تركيز العناية على أن المقصود بأدب التنوخي، هو تلك الأخبار التي

جمعها في طيات كتبه النشوار والفرج والمستجد، وحيث إن التنوخي لم يتحدث عن المرأة

بشكل مباشر كما فعل الجاحظ في رسائله، وكتبه على سبيل المثال، فسوف يكون مهماً تبين

صورة المرأة في القصص التي نقلها التنوخي حتى يتبين ما إذا كن نظيرات للنساء الموصوفات

لدى الذين سبقوه في النماذج التي سبقت الإشارة إليها.

التتوخي

اسمه ونسبه:

هو أبو علي المحسن⁽¹⁾ بن أبي القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم التتوخي نسبة إلى

تتوخ، وهو اسم لعدة قبائل، اجتمعوا قديماً بالبحرين، وتحالفوا على التآزر والتناصر؛ فسموا
تتوخاً.

مولده ونشأته:

ولد المحسن بالبصرة، ليلة الأحد لأربع بقين من شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين

وثلاثمائة، ونشأ بها إذ كان أبوه قاضياً فيها⁽²⁾، ولعل أول ما يذكر عن نشأته الأولى سماعه
للحديث في سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة للهجرة⁽³⁾.

نشأ التتوخي في بيت علم وأدب، فقد قال فيه القرشي: المحسن التتوخي الأديب، ووالده

(1) قال ابن خلكان المحسن بضم الميم وفتح الخاء المهملة وكسر السين، وبعدها نون. انظر ابن خلكان، وفيات
الأعيان، ج4، ص159؛ انظر الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، (ت748). العبر في خبر من
غير، 4م، (تحقيق أبو هاجر محمد السعيد زغلول)، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2، ص166.

(2) انظر التتوخي، أبو علي بن المحسن بن علي (ت327-384 هـ). نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة،
ط2، ج8، (تحقيق عبود الشالجي)، بيروت، دار صادر، 1995، ج1، ص108؛ انظر ابن الجوزي، أبو الفرج
عبد الرحمن بن علي بن محمد، (ت597). المنتظم في أخبار الملوك والأمم، (ج5-ج10)، مطبعة دائرة
المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، 1357-1359 هـ، ج9، ص4249؛ انظر الخطيب البغدادي، أبو
بكر بن علي البغدادي، (ت463)، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، 14م، دار الكتاب العربي، بيروت، ج13،
ص157.

(3) انظر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج13، ص157.

علي، وكذلك ولده عليّ بن المحسنّ أهل بيت فضلاء قضاة⁽¹⁾، ثم نزل بغداد وأقام بها وحدث إلى حين وفاته وكان سماعه صحيحاً، وكان أديباً، شاعراً، إخبارياً⁽²⁾.
ومن الجدير ذكره أن التنوخي لم يتحدث عن إخوته كما تحدث عن جده وأبيه وعمه؛ فالأرجح أنه كان وحيد أبويه. أما عن عدم ذكره لأمه فإنه قد سار في ذلك على نهج من تقدمه أو عاصره من المؤرخين والأدباء الذين لم نعرف عن أمهاتهم شيئاً.

ثقافته ومذهبه:

بحكم عمل والده قاضياً عاش التنوخي بين الأهواز والأنبار، وقد كان لهذا التنقل أثره الهام؛ إذ وجّه التنوخي (الصبي) نحو العلم، كما كان له أبلغ الأثر في اتساع مدى إدراكه نتيجة اطلاعه على نماذج بشرية مختلفة⁽³⁾.
وقد نشأ التنوخي وترعرع في أسرة عربية عرفت بالعلم والأدب والتأليف⁽⁴⁾، ووصفه ابن الأثير: "بأنه كان كريماً فاضلاً، ذا عقل ومروءة"⁽⁵⁾.

مات والده وهو في الخامسة عشرة من عمره. ومن شيوخه الفقيه⁽⁶⁾ والمحدث⁽⁷⁾،

-
- (1) انظر القرشي، أبو محمد محي الدين عبد القادر بن الوفاء، (ت775). الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، 5م، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993، ج2، ص151.
 - (2) انظر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج13، ص157.
 - (3) انظر القدحان، محمد عبد الله أحمد، (2000). القاضي التنوخي وآثاره: دراسة في منهجيته ومصادره. رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ص33-34.
 - (4) انظر أمين، أحمد، (1969). ظهر الإسلام. (ط5). بيروت: دار الكتاب العربي، ج1، ص241.
 - (5) انظر ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين، (ت630). الكامل في التاريخ، 19م، (تحقيق خليل مأمون شيحا)، دار المعرفة، بيروت، 2002، ج7، ص204.
 - (6) انظر التنوخي، النشوار، ج4، ص13.
 - (7) انظر التنوخي، النشوار، ج2، ص339، و ج4، ص339.

والأديب والشاعر⁽¹⁾. وقد كان التتوخي حنفياً على مذهب والده⁽²⁾، ثم انتقل إلى الاعتقاد بمذهب المعتزلة⁽³⁾ متأثراً بوالده أيضاً.

شيوخه ومؤدبوه:

تلقى التتوخي العلم على عدد من الشيوخ والمؤدبين، كان لهم الأثر الأكبر في صقل موهبته، ومنهم: أبو العباس محمد بن أحمد بن حماد بن إبراهيم بن تغلب⁽⁴⁾ المعروف بالأثرم المقرئ البغدادي،⁽⁵⁾ وأبو محمد واهب بن يحيى بن عبد الوهاب المازني،⁽⁶⁾ والحسن بن محمد بن عثمان بن الحارث النسوي الكوفي الفقيه والمحدث⁽⁷⁾، ومحمد بن الفضل بن حميد الصيمري وهو مؤدبه،⁽⁸⁾ وأبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس المعروف بالصولي، أحد العلماء بفنون الأدب وطبقات الشعراء وأخبار الملوك والخلفاء، وقد ذكر ابن خلكان أن التتوخي كان قد سمع منه.⁽⁹⁾

(1) انظر التتوخي، النشوار، ج4، ص10.

(2) انظر ابن الجوزي، المنتظم، ج9، ص4249.

(3) انظر ابن الجوزي، المنتظم، ج9، ص4249.

(4) انظر الذهبي، العبر، ج2، ص166؛ انظر ابن العماد، عبد الحي بن أحمد الحنبلي، (ت1089). شذرات

الذهب في أخبار من ذهب، ج3، (تحقيق مصطفى عبد القادر عطا)، دار الكتب العلمية، بيروت، ج4، ص446.

(5) انظر التتوخي، أبو علي بن المحسن بن علي، (ت327-384 هـ). الفرج بعد الشدة، ج5، (تحقيق عيود

الشالحي)، دار صادر، بيروت، 1978؛ انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص159.

(6) انظر التتوخي، الفرج، ج1، ص118؛ انظر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج13، ص157.

(7) انظر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج13، ص157؛ انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص160.

(8) انظر التتوخي، النشوار، ج2، ص229.

(9) انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص159.

الوظائف التي شغلها التنوخي:

في سنة 346هـ تولى التنوخي الإشراف على دار الضرب بسوق الأهواز⁽¹⁾، ثم تولى القضاء من قبل قاضي القضاة أبي السائب عتبة بن عبد الله، ولم يتجاوز عمره عشرين عاماً، ثم ولاة الخليفة المطيع لله سنة 363هـ القضاء بعسكر مكرم وأيذج ورامهرمز، وتقلد بعد ذلك أعمالاً كثيرة في نواح كثيرة.⁽²⁾

ومن الجدير ذكره أن المصادر التاريخية القريبة من عصره، لم تهتم بأن ترتب هذه الوظائف زمانياً، مع أهمية ذلك في تحديد أطوار خبراته العلمية وعلاقة هذه الخبرات بنشاطه التألّفي.⁽³⁾

استقر القاضي التنوخي بعد ذلك ببغداد، وشملته رعاية الوزير أبي محمد المهلبى، فأصبح من ملازمي مجلسه، واستمر التنوخي بعمله في بغداد سبع سنوات متصلة بين عامي 349هـ-355هـ، وذلك يظهر من مجموعة روايات وردت في النشوار حدد فيها زمنها ومكانها.⁽⁴⁾

وقد كان للتنوخي في بلاط عضد الدولة مكانة خاصة، إذ كان ينادم عضد الدولة⁽⁵⁾، الذي عينه والياً على الموصل بعد أن استقر له الأمر فيها، وبعد خمس سنوات من ذلك الودّ أي في عام 371هـ، تعرض التنوخي لسخط عضد الدولة، فعزله عن جميع مناصبه، وألزم الإقامة

(1) انظر المصدر السابق، ج4، ص159.

(2) انظر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج13، ص157؛ انظر ابن الجوزي، المنتظم، ج9، ص4249.

(3) انظر القدحان، القاضي التنوخي وآثاره، رسالة دكتوراة، ص43.

(4) انظر المرجع نفسه، ص44.

(5) انظر التنوخي، النشوار، ج4، ص488.

في منزله؛ ولم يكن ذلك غريباً، فعضد الدولة عزل ونكب كثيراً من خاصته ووزرائه في ذلك العهد.⁽¹⁾

مكانته العلمية:

حظي التنوخي بمنزلة اجتماعية وعلمية سامية قلما يصل إليها عالم، وقد أشار عدد غير قليل من العلماء إلى مكانته العلمية، فالثعالبي قال في وصفه: "هلال ذلك القمر، وغصن هاتيك الشجر الشاهد العادل لمجد أبيه وفضله، والفرع المثل لأصله والنائب عنه في حياته، والقائم عنه بعد وفاته".⁽²⁾

أما القرشي فقال في وصفه ووصف عائلته: "وهم فضلاء قضاة"⁽³⁾، ولا نجد من العلماء من يحاول الحط منه ومن قدره، إلا ابن الأثير عندما تحدث عن عزل التنوخي من جميع مناصبه بقوله: "وكان حنفي المذهب شديد التعصب على الشافعي، يطلق لسانه فيه، قاتله الله".⁽⁴⁾

مؤلفات التنوخي وأهميتها :

ويبدو جلياً أن التنوخي عانى كثيراً في حياته فكتابه المعنون ب(الفرج بعد الشدة) يوحي بذلك، فقد جمع فيه قصصاً لأشخاص عانوا من الشدة فرج الله بعدها عليهم، وزاد كتب

(1) انظر القدحات، القاضي التنوخي وأثاره، رسالة دكتوراة، ص50-53.

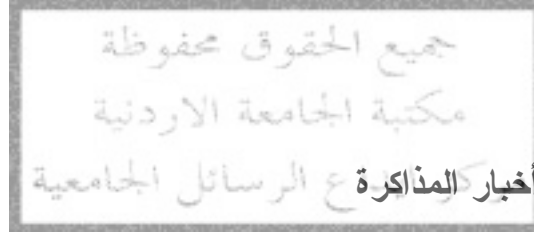
(2) انظر الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد، (ت429). يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ص5، (تحقيق مفيد محمد قمحية)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م، ج2، ص405.

(3) انظر القرشي، الجواهر المضيئة، ج2، ص151.

(4) انظر ابن الأثير، الكامل، ج9، ص15.

التتوخي أهمية ما اعتمده من مصادر لم تصل إلينا بعد، فقد حفظ في مؤلفاته نصوصاً لتلك المصادر: نحو كتاب الآداب النفيسة والأخلاق الحميدة للطبري، وكتاب فضائل الورد على النرجس لابن لنكك الشاعر، والفرج بعد الشدة للمدائني وكتاب مناقب الوزراء للمطوق وغيرها أما مؤلفاته فهي:

1. نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة .
2. الفرج بعد الشدة .
3. المستجاد من فعلات الأجواد .
4. ديوان الشعر .



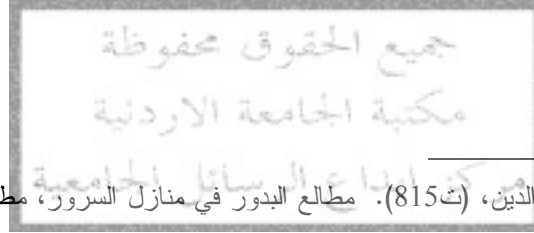
اختلفت المصادر في ذكر اسم الكتاب فبعضها ذكره باسم نشوار المحاضرة⁽¹⁾ مثل:

غرس النعمة⁽²⁾ وياقوت⁽³⁾، وابن قطلوبغا⁽⁴⁾، وابن طاووس⁽⁵⁾،

-
- (1) النشوار كلمة فارسية معربة وهي تعريب للفظ نشخوار وتعني ما تقيه الدابة من العلف، وأصل المعنى فيه الجرة أي ما يخرج البعير من بطنه ليمضغه ثم يبلعه، انظر الفيروز أبادي، مجد الدين أبو الطاهر بن يعقوب، (ت823). القاموس المحيط، 4م، دار الحديث القاهرة، ج2، ص142؛ انظر أدي شير، (1980). معجم الألفاظ الفارسية المعربة. بيروت: مكتبة لبنان، ص153.
 - (2) انظر غرس النعمة، أبو الحسن محمد بن هلال الصابي، (ت480). الهفوات النادرة، ط2، (تحقيق صالح الأشتري)، دار الأزاعي، بيروت، 1987، ص18.
 - (3) انظر الحموي، أبو عبد الله ياقوت الرومي، (ت626). معجم الأدياء المسمى إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ط7، 1م، (تحقيق إحسان عباس)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج5، ص2280.
 - (4) انظر ابن قطلوبغا، زين الدين أبو العدل قاسم الحنفي، (ت879). تاج التراجم في من صنف من الحنفية، (تحقيق إبراهيم صالح)، دار المأمون للتراث، دمشق، 1992، ص163.
 - (5) انظر ابن طاووس، رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى، (ت664). فرج المهموم في تاريخ علماء النجوم، المطبعة الحيدرية، النجف، 1368هـ، ص168.

والغزولي⁽¹⁾، والبعض الآخر قد ذكره باسم نشوان المحاضرة:⁽²⁾ مثل ابن خلكان⁽³⁾ والدميري⁽⁴⁾، وابن دقماق⁽⁵⁾، واليافعي⁽⁶⁾، والسيوطي⁽⁷⁾، وابن العماد⁽⁸⁾.

ورغم ذلك، فقد اتضح له أن اسم الكتاب هو "نشوار المحاضرة"، والدليل على ذلك أنه قد وردت كلمة النشوار في تضاعيف بعض الروايات، كقوله، في وصف بعض الفضلاء: "طيب النشوار والأدب"، وقوله: ورأيت كل حكاية بما أنسيته لو كان باقياً في حفطي لصلح لفن من المذاكرة ونوع من نشوار المحاضرة". وقوله أيضاً: "حسن النشوار"⁽⁹⁾ يريد بهذا اللفظ أنه طيب الحديث غزير مادة المحاضرة.⁽¹⁰⁾



(1) انظر الغزولي، علاء الدين، (ت815). مطالع البذور في منازل السرور، مطبعة الوطن، 1299هـ، ج1، ص97.

(2) النشوان نشي الرجل من الشراب، نشواً ونشوة ونشوة كله سكر وتعني السكرات. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة نشي؛ انظر ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن زكريا، (ت395). مجمل اللغة، ط1، 4م، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1984، ج3، ص868؛ انظر ابن السكيت، يعقوب بن إسحاق، (ت562). كتاب الألفاظ، ط1، مطبعة لبنان، بيروت، 1998، ص361؛ انظر أدشير، معجم الألفاظ الفارسية، ص154.

(3) انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص159.

(4) انظر الدميري، كمال الدين محمد بن موسى، (ت808). حياة الحيوان الكبرى، 2م، مطبعة حجازي، القاهرة 1367هـ، ج1، ص89.

(5) انظر ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن محمد بن أيدير، (ت748). الانتصار لواسطة عقد الأمصار، 2م، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ج5، ص2.

(6) انظر اليافعي، عبد الله بن عبد اليميني، (ت768). مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1970، ج2، ص419.

(7) انظر السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، (ت911). المزهرة في علوم اللغة وأنواعها، نشره محمد علي صبح، 1946، ج2، ص215.

(8) انظر ابن العماد، الشذرات، ج4، ص446.

(9) انظر التتوخي، النشوار، ج1، ص10 و15 و29.

(10) انظر المغربي، عبد القادر، (1923). طاقة أزهار من النشوار، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق. م(4)، الأجزاء1، 2، 3، 11، ج1، ص27.

ويظهر أن التتوخي بدأ بتأليف كتابه هذا في سنة ستين وثلاثمائة، فهو يقول في مقدمة الجزء الأول من الكتاب "إني حضرت المجالس بمدينة السلام في سنة ستين وثلاثمائة، بعد غيبتني عنها سنين، فوجدتها مختلة ممن كانت به عامرة".⁽¹⁾

أما طريقته في تأليف هذا الكتاب فتختلف عن سبقوه من المؤلفين، فالتتوخي لم يرتب هذا الكتاب في أبواب وفصول معللاً ذلك بقوله: ⁽²⁾ فأوردت ما كتبتّه مما كان في حظي سالفاً مختلطاً بما سمعته آنفاً، من غير أن أجعله أبواباً مبوّبة، ولا أصنّفه أنواعاً مرتبة، لأن فيها أخباراً تصلح أن يذاكر بكل واحد منها في عدة معانٍ... وكان إذا وقف قارئه على خبر من أول كل باب فيه، علم أن مثله باقية، فقلّ لقراءة جميعه ارتياحه ونشاطه، وضاق فيه توسعه وانبساطه، وكان ذلك يفسد أيضاً ما في أثناءه من الفصول والأشعار.⁽³⁾

وهو يفتخر كثيراً بهذا الكتاب مبيّناً، أنه ينفرد عن غيره من المؤلفات بهذا الأسلوب في

التدوين وهو بذلك "جنس وأصل".⁽⁴⁾

ويبدو أن الذي دعا التتوخي إلى تأليف هذا الكتاب عدة أسباب أهمها:

1. خشيته من ضياع كثير من أخبار الملوك والممالك بعد أن مات أكثر العالمين بهذا الجنس، كما أنه حضر المجالس ببغداد، ووجدتها "مختلة مما كانت به عامرة، وبذاكرة أهله ناظرة، ولقيت بقايا من نظراء أولئك الأشياخ وجرت

(1) انظر التتوخي، النشوار، ج1، ص10.

(2) انظر المصدر نفسه، ج1، ص13.

(3) انظر المصدر نفسه، ج1، ص12.

(4) انظر المصدر نفسه، ج1، ص13.

المذاكرة، فوجدت ما كان حظي من تلك الحكايات قديماً قد قلّ، وما يجري من

الأفواه في معناه قد اختل، فأثبت ما بقي على ما كنت أحفظه قديماً⁽¹⁾.

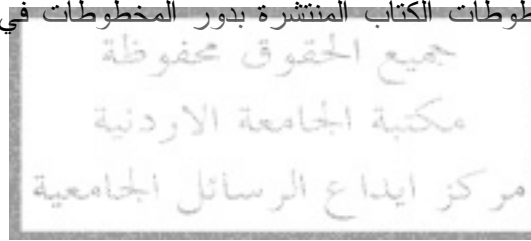
2. أراد التنوخي إثبات أهمية العلماء في عصره، وارتفاع قدرهم عنّ تقدمهم من الزمان.

3. يذكر التنوخي أنه ألف كتابه " ليستفيد منه العاقل اللبيب، الفطن الأريب، ويجد فيه

ما يحثّه على العلم بالمعاش، والمعاد والمعرفة بعواقب الصلاح⁽²⁾.

وقد طبع هذا الكتاب عدة مرات ، حتى جاء عبود الشالجي، فأكمل هذا العمل حيث قام

بجمع ما تيسر من مخطوطات الكتاب المنتشرة بدور المخطوطات في العالم، ثم أعاد دراستها



وتحقيقها من جديد⁽³⁾.

كتاب الفرج بعد الشدة

هذا كتاب وسط بين المستجاد وكتاب النشوار من حيث حجمه، وهو مجموعة من

الأخبار اتفقت لأناس أصابهم بعد الشدة فرج، من ضمن هؤلاء مؤلف الكتاب الذي بدأ بوضعه

في أواخر أيامه⁽⁴⁾. على أثر محن تعرض لها، وشدائد ابتلي بها ثم نجا منها⁽⁵⁾.

وقد أودع التنوخي فيه⁽⁶⁾ أخباراً استلها من الكتب، وأضاف قسماً من مسموعاته ومشاهداته،

(1) انظر المصدر السابق، ج1، ص10.

(2) انظر المصدر نفسه، ج1، ص12.

(3) وقد شكك شكري فيصل بعمل عبود الشالجي. انظر فيصل، شكري، (1973). نشوار المحاضرة خلال نصف قرن ويزيد. مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، م(48)، ج2، ص259.

(4) انظر التنوخي، الفرج، ج2، ص286.

(5) انظر المصدر نفسه، ج1، ص52، ص74.

(6) انظر الحموي، معجم الأديباء، ج5، ص2280.

وشملت هذه القصص والروايات أخبار بعض الأنبياء والمحن التي لحقت بالنبى عليه الصلاة والسلام، وقصصاً من العصر الراشدي وأخرى من العصر الأموي، ولكن أغلب الروايات التي نقلها التنوخي في كتاب الفرغ تعود للعصر العباسي.⁽¹⁾

وقد وصف الثعالبي كتاب الفرغ بقوله: "وله كتاب الفرغ بعد الشدة وناهيك بحسنه، وإمتاع فنه، وما جرى من الفأل بيمينه، لا جرم أنه أسير من الأمثال وأسرى من الخيال."⁽²⁾

وذكر بروكلمان مخطوطات هذا الكتاب وأماكن وجودها⁽³⁾، والمؤلفين الذين اختصروه⁽⁴⁾، أو هذبوه⁽⁵⁾، أو ترجموه⁽⁶⁾، أو قلّدوه في منحاها في اللغة التركية.⁽⁷⁾ وجعل منهجه في الكتاب الإيجاز والاختصار، وإسقاط الحشو وترك الإكثار "لأن الإكثار يصيب القارئ بالملل."⁽⁸⁾

وبين التنوخي أنه لم يصل إلى درجة الكمال في كتابه، ولربما يجد فيه القارئ بعض الأخطاء فقال:⁽⁹⁾ "وأنا راغب إلى من يصل كتابي إليه وينشط للوقوف عليه، أن يصفح عما يعثر به من زلل، ويصلح ما يجد من خطأ وخلل".

(1) انظر الفدحات، القاضي التنوخي وأثاره، رسالة دكتوراة، ص 65-66.

(2) انظر الثعالبي، اليتيمة، ج 2، ص 405.

(3) انظر بروكلمان، كارل. تاريخ الأدب العربي. (ط5)، نقله إلى العربية عبد الحلیم النجار وآخرون، دار المعارف، بيروت، ج 3، ص 145.

(4) اختصره علي بن أبي طالب بن علي الحلبي، وسماه نجاة المنهج ومنه نسخة مخطوطة في باريس. انظر بروكلمان، تاريخ الأدب، ج 3، ص 145.

(5) هذبه بتصريف محمد عوفي في جامع الحكايات وجوامع الروايات. انظر بروكلمان، تاريخ الأدب، ج 3، ص 145.

(6) ترجمه إلى الفارسية، الحسين بن أسعد بن الحسين الداھستي وقدمه إلى طاهر بن زكي، انظر بروكلمان، تاريخ الأدب، ج 3، ص 145.

(7) ترجمه إلى التركية القاسم بن محمد. انظر بروكلمان، تاريخ الأدب، ج 3، ص 145.

(8) انظر التنوخي، الفرغ، ج 1، ص 55.

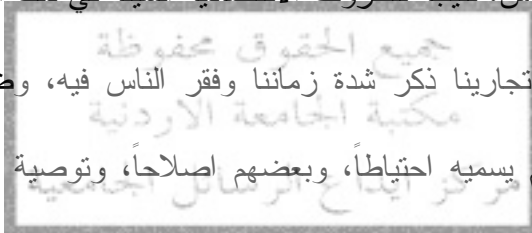
(9) انظر المصدر نفسه، ج 1، ص 55.

المستجد من فعلات الأجواد

هذا الكتاب أصغر كتبه، حيث جمع فيه أخباراً عن الكرماء منذ عصر ما قبل الإسلام، حتى عصره، وقام بتحقيقه ونشره محمد كرد علي⁽¹⁾، ونشر قبل ذلك من قبل باولي⁽²⁾ -Pauly-

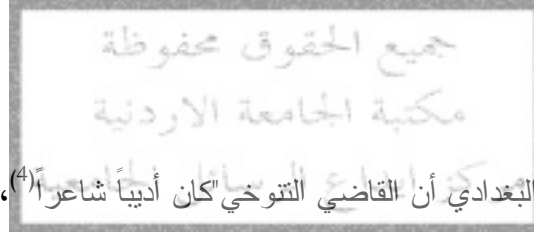
وكان تأليفه لكتاب المستجد بعد (373هـ-)، والدليل على ذلك أن هناك خمس عشرة حكاية من حكايات الفرج موجودة في المستجد.⁽³⁾

ولعلّ السبب الحقيقي الذي دفع القاضي التتوخي إلى تأليف هذا الكتاب، هو انتشار الفقر، وضيق أحوال الناس، نتيجة للظروف الاقتصادية السيئة في ذلك الحين، ففي إحدى روايات النشوار نجده يقول: "تجارينا ذكر شدة زماننا وفقر الناس فيه، وضيق أحوالهم واستحبابهم البخل، حتى إن بعضهم يسميه احتياطاً، وبعضهم اصلاً، وتوصية الناس بعضهم بعضاً به، وتحذر التجار من معاملات الناس، ومسك أيديهم عن الإحسان إلى أحد، وأن ذلك في الأكثر لضيق أحوالهم"⁽⁴⁾. فأورد التتوخي هذه الروايات، بهدف تزيين الكرام والكرماء، وحثّ الأغنياء على العطاء والإنفاق.⁽⁵⁾



-
- (1) نشر عن دار التراقي، دمشق، 1946 ثم أعيد نشره عام 1970.
 - (2) نشره في شتوتجارت بألمانيا بالزنكوغراف عام 1939. انظر بروكلمان، تاريخ الأدب، ج3، ص146.
 - (3) انظر القدحات، القاضي التتوخي وأثاره، رسالة دكتوراة، ص69.
 - (4) انظر التتوخي، النشوار، ج2، ص275.
 - (5) انظر القدحات، القاضي التتوخي وأثاره، رسالة دكتوراة، ص69.

وقد اقتبس التتوخي حكايات الكتاب من مصادر لم ينبه عليها في الغالب، ونسب السند إلى مجهول كقوله "روي" "وقيل" "وحكى" وأغلب الظن أن التتوخي عند ما استعمل هذه الطريقة كان يريد لهذه الحكايات والحوادث أن تروى وتنتشر بين الناس، ليضمن لها الشيوخ والانتشار.⁽¹⁾ وأهم ما يميز هذا الكتاب عن غيره من مؤلفات التتوخي هو فصاحة لغته، وعدم استخدامه الألفاظ العامية التي أكثر من استخدامها في مؤلفاته الأخرى.⁽²⁾ وحول سبب تأليف الكتاب قال في مقدمته المقتضبة أن أحد الأشخاص طلب أن يجمع له من "أخبار الأجواد أجودها، ومن فعالات الكرام أسناها، وأرشدتها".⁽³⁾



ديوان الشعر

ذكر الخطيب البغدادي أن القاضي التتوخي "كان أديباً شاعراً"⁽⁴⁾، وأشار الثعالبي إلى

ديوان شعر من نظمه بقوله: "أخبرني أبو نصر سهل بن المرزبان، أنه رأى ديوان شعره ببغداد، أكبر حجماً من ديوان شعر أبيه".⁽⁵⁾ ولكن هذا الديوان لم يصل إلينا، وما لدينا من شعره لا يتجاوز المقطوعات المعدودة الأبيات، ومن مطالعة هذه المقطوعات، نجد أن التتوخي كان يميل

-
- (1) انظر درويش، سلوى عبد الفتاح، (1994). المحسن بن علي التتوخي: حياته ودراسة تحليلية لآثاره. رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ص 143.
 - (2) انظر فهد، بدري محمد، (1966). القاضي التتوخي وكتاب النشوار. بغداد: المكتبة الأهلية، ص 25.
 - (3) انظر التتوخي، أبو علي المحسن بن علي، (ت 327-384 هـ). المستجد من فعالات الأجواد، ام، (تحقيق محمد كرد علي)، مطبعة التراقي، دمشق، 1946، ص 9.
 - (4) انظر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 13، ص 157؛ انظر اليافعي، مرآة الجنان، ج 2، ص 419؛ انظر ابن قطلوبغا، تاج التراجم، ص 163.
 - (5) انظر الثعالبي، اليتيمة، ج 2، ص 405؛ انظر الحموي، معجم الأدباء، ج 5، ص 2281.

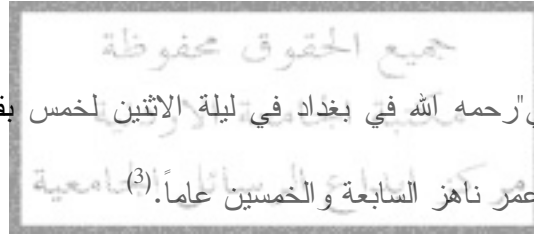
إلى النظم في الأغراض الشعرية المعروفة منها: الغزل، والهجاء، والمدح، والتنهاني والحكمة
والشكوى من الزمان.⁽¹⁾

ومن شعره في الهجاء، ما قاله في أحد المشايخ، وقد خرج ليستسقي، وكان في السماء
سحاب، فلما دعا صحت السماء، فقال التنوخي: ⁽²⁾

خرجنا نستسقي بيمين دعائه وقد كاد هذب الغيم أن يبلغ الأرضا
فلما ابتدا يدعو تقشحت السما فما تم إلا والغمام قد انفضّا

وفاته:

توفي أبو علي التنوخي "رحمه الله في بغداد في ليلة الاثنين لخمس بقين من محرم سنة أربع
وثمانين وثلاثمائة عن عمر ناهز السابعة والخمسين عاماً.⁽³⁾



(1) انظر القدحات، القاضي التنوخي وآثاره، رسالة دكتوراة، ص 71.
(2) انظر الثعالبي، النييمة، ج 2، ص 405؛ انظر الحموي، معجم الأدياء، ج 5، ص 2881؛ انظر الكتبي، محمد بن شاكر، (ت 764). فوات الوفيات والذيل عليها، 5م، (تحقيق إحسان عباس)، دار صادر، بيروت، 1974، ج 2، ص 80.
(3) انظر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 13، ص 157. وانظر ابن الجوزي، المنتظم، ج 9، ص 4249. وانظر ابن الأثير، الكامل، ج 7، ص 204. وانظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 4، ص 46. وانظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 4، ص 162. وانظر الذهبي، العبر، ج 2، ص 166. وانظر القرشي، الجواهر المضيئة، ج 2، ص 151.

جسم المرأة في كتب التنوخي

أول ما تجدر ملاحظته من القصص المنتقاة من أدب التنوخي أن العناية بأوصاف المرأة الجسمية لم يحظ باهتمام يذكر، فلم يرد في أي قصة من هذه القصص أي وصف تفصيلي لجسم المرأة، ولم يرد في أي منها أي إشارة للجسم الأنموذج حسناً أو قبحاً. وثاني ما تجب ملاحظته على هذه القصص أن التعبير عن جمال المرأة كان يتخذ منحنى الأوصاف العامة كأن تشبه المرأة بالقمر، أو أن توصف بأنها أجمل ما وقعت عليه عين، أو أنه لم يكن لها مثيل في الحسن من قبل، ولن يكون لها مثيل من بعد⁽¹⁾.

وثالث ما يلاحظ على هذه القصص أيضاً أن إشارات كثيرة كانت ترد إلى زينة المرأة وطررها، وطيبها، وبخورها، وملابسها الفاخرة⁽²⁾، ومن ذلك مثلاً، أن أم المقتدر كانت تحشو نعالها بالمسك، كما كانت المرأة التي قتلها زوجها ظمناً تتزين بالخواتيم الذهبية الفاخرة التي اختطفها العتق، فأوقع الزوج في الريب، وأما المرأة التي أصرت على مضاجعة ابنها فقد تبخرت له وتطيبت⁽³⁾.

ورابع ما يلاحظ أن قصة واحدة أشارت إلى عيب خلقي وهو النمش، وذلك في قصة عزوف المتوكل عن شراء جارية من الجواربي، إذ اعتبر ذلك مما يقبح في وجه المرأة، ولكن بيتاً من الشعر كان كافياً لإقناع الخليفة بتغيير رأيه⁽⁴⁾.

(1) انظر الملحق، القصص 61،63،65،66،68 على سبيل المثال.

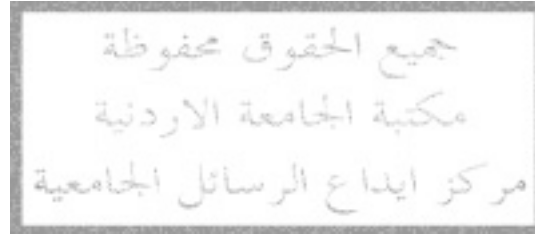
(2) وقد فصلت رولا النجار الحديث عن مظاهر الترف في زينة المرأة في العصر العباسي. انظر النجار، رولا حمدان، (2001). صورة المجتمع في القرن الرابع الهجري في مصنفات التنوخي: (الفرج بعد الشدة، والمستجد من فعلات الأجواد ونشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة). رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ص 99-101.

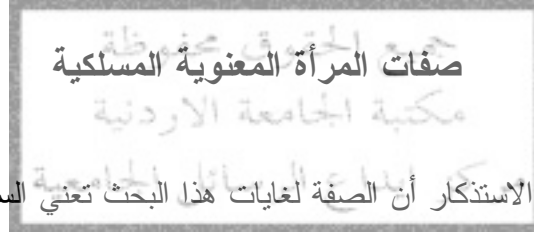
(3) انظر الملحق، القصص 53، 54، 66 على التوالي، وكذلك القصص 61، 76.

(4) انظر الملحق، قصة 70.

وخلص القول إن جسم المرأة لم ينهض بوصفه بعداً بارزاً في صورتها المرتسمة في

أدب التنوخي.





لعل من المفيد الاستذكار أن الصفة لغايات هذا البحث تعني السجية أو النقيصة التي تتحكم في السلوك الذي يتجدد كلما طرأ موقف يحتكم فيه إلى هذه السجية أو النقيصة⁽¹⁾، وسوف يلاحظ أن الصفات نسبية وأنها تتدرج عادةً ضمن خط بياني يمتد من القمة إلى الحضيض، وأبرز الصفات التي رصدتها الدراسة للمرأة في أدب التنوخي ما يلي:

1. حسن التدبير والدهاء :

هاتان صفتان تقومان على درجة عالية من الفطنة والذكاء، وتوظيف المعلومات؛ من أجل الخروج من أزمة أو حل مشكلة، أو تحقيق منفعة، أو دفع مضرّة في حدود ما يقدره الشخص الذي صدر عنه السلوك.

(1) انظر ص 26 و27 هذا البحث.

فأما حسن التدبير فصفة تقوم على المهارة في التخلص من مأزق، أو في الحصول على منفعة لا تنكرها المنظومة الخلقية الرائجة في المجتمع، وأما الدهاء فيدفع إليه التحدي لقيمة اجتماعية أو القصد إلى إيقاع أذى من غير وجه حق، أو لتحقيق منفعة تنكرها المنظومة الخلقية التي يتبناها المجتمع.

وأورد التنوخي قصص عدد من النسوة. اتصفت كل واحدة منهنّ بنوع من الدهاء. أما القصة الأولى فهي قصة أم الولد التي توفي عنها زوجها، فقامت بإخفاء كثير من مفردات تركته حتى لا يستفيد منها سائر الورثة، وقد نجحت في إقناع القاضي باستشهادها بخبر أورده الجاحظ بأن تركة المورث انحصرت في سراويلات، فحكم القاضي لها ورد دعوى سائر الورثة؛ لعدم وجود البينة، مع أن الحقيقة أن السراويلات لم تكن إلا جزءاً صغيراً من التركة⁽¹⁾.

فالواضح أن الدافع إلى سلوك هذه المرأة كان لحرمان الورثة من حقه الشرعي، وهذا يمثل أذى واستهتاراً بقيمة اجتماعية مصونة، غير أن هذه المرأة كانت قد أبدت مهارة في إحكام حيلتها بما صنعت حين أخفت مفردات التركة، فسلوكها هذا دال على الدهاء والخبث.

وأما الثانية فقصة الخادمين اللذين شهدا زوراً على جارئة بأنها تخون مالکها؛ فقد أقدمتا على مثل هذا الفعل بتدبير وبرشوة من زوجة مالک الجارئة التي أمرتهما ألا يبوحا بشيء يدين الجارئة حتى يتعرضا إلى العذاب، ولكن الأمر انكشف وأقرت المرأة بما فعلت⁽²⁾.

وكادت المرأة تتجح في حيلتها لولا تدخل غير منتظر أو توبة طرأت عليها، وإلا فقد كان دهاء من شأنه إيذاء الجارئة من غير ذنب، وإيذاء مالکها من غير أن يعلم، فهو دهاء إذاً، وإن يكن اقترن في نهاية المطاف بفشل المسعى.

(1) انظر الملحق، قصة 57.

(2) انظر الملحق، قصة 74.

و تتعلق القصة الثالثة بجيداء التي ألبست صديق عشيقها ملابسها، وأرسلته لينام في سريرها، وبينت له ما يكون من زوجها⁽¹⁾، وتخطيطها هذا يكشف عن دهاء واضح ينطوي على فهم لمجريات الأمور، وقد استخدم لتحقيق مأرب شخصي لا يقبله الخلق الاجتماعي، ولا يستسيغه أحد من الناس، الأمر الذي يضعه موضع الدهاء لا موضع حسن التدبير.

ومن القصص الدالة على دهاء المرأة قصة قهرمانة أم المقتدر التي عشقت تاجراً، وأرادت أن تتزوجه، فاشترطت عليها أم المقتدر ألا تجيز ذلك الزواج حتى ترى ذلك التاجر بنفسها، ولم يكن ذلك ميسوراً إلا أن يدخل الرجل دار الخلافة بحيلة، فرتبت القهرمانة⁽²⁾ ذلك الأمر مع سيدتها بإحكام حتى أدخلت الرجل إلى قصر الخلافة، وأخرجته منه من غير أن يظن إلى ذلك أحد ممن يخشى منه، ثم إنها تزوجت ذلك التاجر، وعاشت معه في أوسع نعمة⁽³⁾.

لقد كانت القهرمانة رابطة الجأش سديدة الرأي في الترتيبات التي اتخذتها، وفي الأشخاص الذين استعانت بهم حتى تمكنت من إدخال التاجر خلصة إلى بيت الخليفة، ثم أخرجته منه، ورتبت لزواجها منه، فلم ينكشف من ذلك شيء، ومع أن دخول الرجل وخروجه كانا محفوفين بالمخاطر، إلا أن القهرمانة كانت حاضرة البديهة في كل موقف من غير أن ترتعد أو يظهر عليها شيء من قلق، وإذا كان مشروعاً أن تعمل المرأة على أن تزوج نفسها ممن تحب، فإنه ليس مشروعاً لها أن تدخل إلى بيت زوج مالكتها رجلاً غريباً من غير إذن من صاحب البيت، وعلى ذلك فإن احتيالها لتزويج نفسها يدخل في نطاق حسن التدبير في حين أن عدم مراعاتها لحرمة البيت يدخل في عداد الدهاء فهي إذاً متصفة بالأمرين معاً.

(1) انظر الملحق، قصة 88.

(2) هو كالحازن والوكيل الحافظ لما تحت يده والقائم بأمر الرجل بلغة الفرس. انظر ابن منظور، اللسان، مادة قهرم.

(3) انظر الملحق، قصة 63.

وعلى النقيض من ذلك، قصة اللص التائب الذي سرق كيساً من صيرفي موسر، فتلقته عجوز تصدت له مع كلبها وأشعرت المأل بأنها عرفته، وأنها تود إكرامه، فدعته إلى بيتها فأقام فيه ثلاثاً، ثم إنه لما حاول ترك المنزل لم يفلح في ذلك؛ لأن الكلب حال بينه وبين ما يريد، فلما استأذن العجوز قالت له: "هات الذي أخذته من الصيرفي، وامض حيث شئت، ولا تقم في هذه المدينة؛ فإنه لا يتهيأ لأحد معي عمل"⁽¹⁾. إن هذا التصرف ينم عن ذكاء ورباطة جأش لا شك فيهما، وقد أبدتهما العجوز في تعاملها مع اللص الذي تاب من بعد، وقد وظفت ذكاءها لغايات السرقة التي لا يقرها المجتمع .

أما صيد فقد كانت تستدرج الضحايا لسرقة أموالهم عن طريق إغرائهم بجارية، وتوقع بالواحد منهم بأن تقوده مع الجارية إلى بيت يتم فيه قتله وسلبه⁽²⁾. وهذا التخطيط يدل على دهاء محكم من العجوز والجارية إذ قامتا بدور أدى إلى إيقاع أعداد كبيرة من الناس في هذا الشرك، فالتاجر الذي تمكن أخيراً من قتل الأسود يذكر أنه وجد في البئر في المرة الأولى ساعة غررتا به أشلاء ثلاثة قتلوا قبله، وهذا يدل على ذكاء مستخدم لتحقيق غاية إجرامية يرفضها المجتمع لأنها تقوم على الخداع لأجل سرقة الأموال وقتل الأبرياء.

وفي قصة المرأة التي بلغت كثرة ذنوبها حداً جعل أهل القبور يخرجون من قبورهم متضرعين إلى الله ألا تدفن إلى جانبهم خشية التأذي من سماع صوت عذابها⁽³⁾، خطة محكمة في كل مراحلها، ولكنها كانت تستهدف استباحة ما حرم الله، وما يكره المجتمع، فهو دهاء محض لا عذر فيه لمعتذر.

(1) انظر الملحق، قصة 72.

(2) انظر الملحق، قصة 68.

(3) انظر الملحق، قصة 66.

ولا تغيب عن الأذهان قصة نبأثة القبور التي دأبت لمدة سنتين على أن تتوجه ليلاً إلى المقبرة، فتنبش قبر من كان قد دفن من جلة القوم هناك، فتستخرج كفته إلى أن جمعت ثلاثمائة كفن أو ما يقاربها⁽¹⁾، إن هذه الفتاة أحكمت خطتها إحكاماً مكنّها من ستر ما كانت تقوم به لمدة سنتين فلم يكشف أمرها إلا غريب طارئ قادته المصادفة إلى تلك المقبرة في تلك الليلة، وبعد ذلك بقيت رابطة الجأش، ورتبت لأمها سلسلة من التصرفات كان من شأنها أن تخفي الأمر عن الناس لولا أن هذا الغريب أقحم نفسه على غير علم منه في حياة هذه الفتاة وأسرتها حتى انكشف أمرها له، ورغم هذه التطورات الخطيرة بقيت هذه الفتاة محافظة على توازنها بتحسين الفرصة للتخلص من هذا الطارئ الذي فرض نفسه عليها وعلى أسرتها، فكادت تذبحه لولا أنه عرض عليها عرضاً أنجاه من التهلكة وأنجاها هي من الفضيحة فغادر البلد ولم يعد إليها. إنه ذكاء واضح وإحكام في التخطيط والتنفيذ وتصميم على تحقيق الهدف، ولكن نبش القبور وإخفاء الأكفان وذبج الرجل الذي أصبح زوجها كانت تصرفات يابأها المجتمع، الأمر الذي يدل على أن المرأة- موضوع القصة- كانت تتمتع بدهاء مذهل يعجز عنه الكثيرون.

وفي مقابل هذه القصص أورد التتوخي قصص عدد من النسوة اللاتي اتصفن بحسن التدبير، فأم الصيرفي العجوز شعرت بلص قد تسلل إلى بيتها ليلاً، وقد كان يخطط لسرقة كيس نقود ابنها، فتمسكت هذه العجوز برباطة الجأش، وتصرفت بهدوء حتى تمكنت من حبس اللص الذي كان يدعي أنه جبريل عليه السلام، وحين حلّ الصباح انكشف أمره، واقتضح مسعاه⁽²⁾.

ويبدو واضحاً من هذه القصة أن هذه العجوز التي وصفت بأنها معتزلية، وبأنها جلدة، كانت في مأزق، ولم يكن لها بدّ من إنقاذ نقود ابنها من غير أن تعرض نفسها للأذى، وليس من

(1) انظر الملحق، قصة 61.

(2) انظر الملحق، قصة 59.

باب المصادفة أن تكون هذه المرأة معتزلية بل لعل القصة كلها جيء بها للتدليل على مهارة المعتزلة جملة في استخدام العقل الذي كان من أبرز ما عرفوا به حتى سمو أهل العقل.⁽¹⁾ وأورد التنوخي قصة الجارية التي حملت إلى مسجد القرية جامة⁽²⁾ فالزوج حار، وأرغمت الرجل الصوفي ورفيقه على أكلها بالقوة إنقاذاً لمالكها من الوقوع تحت يمين طلاق زوجها⁽³⁾. لقد حققت الجارية مصلحة مشروعة لمالكها بذكائها وإصرارها وحسن تدبيرها، كما كشفت عن موقف راوي هذه القصة من المتصوفة الذين عرفوا بالبساطة وبالفهم في آن معاً، فكأنها حيكت للتشهير بالمتصوفة.

أما خالة المقتدر فقد كانت ماهرة في حسن التدبير إذ أجارت أبا جعفر الشيرزاد لما وقع في المحنة مع بجكم⁽⁴⁾ وضافت به الدنيا، فقد اتخذت جميع الاحتياطات اللازمة لحمايته، وعدم انكشاف أمره، وقد توافر لها من المعرفة ما مكنها من ستر خبره حتى عن أهل بيتها، وما فعلت ذلك إلا حماية له من بجكم الذي وصفته بأنه: جاهل ظالم لا يرعى حرمة لأحد⁽⁵⁾، فوقع فعلها في عداد حسن التدبير صيانة لقيمة من القيم التي يعتز بها المجتمع الإسلامي والعربي، وهي: إغاثة الملهوف وإجارة المظلوم، فضلاً عن التشهير بالظالمين.

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قصة المرأة التي حاول أحد الجنود اغتصابها، ولما غلبت على أمرها ما كان منها إلا أن قالت للجندي: "أغلق الباب الذي بقي عليك أن تغلقه قال: أي باب

(1) انظر أمين، أحمد، (1978). ضحى الإسلام، (ط9). القاهرة: مكتبة النهضة؛ انظر أمين، أحمد،

(1969). فجر الإسلام. (ط10). بيروت: دار الكتاب العربي، ص 283-303.

(2) الجأم جمع جامة وهي إناء من فضة. انظر ابن منظور، اللسان، مادة جوم.

(3) انظر الملحق، قصة 60.

(4) بجكم أبو الخير الأمير التركي كان أمير الأمراء قتل ملك بني بويه. توفي رحمه الله تعالى سنة تسع

وعشرين وثلاث مائة. وكان بين موت الراضي وقتل بجكم أربعة أشهر وأيام. انظر الصفدي، الوافي

بالوفيات، ج10، ص 48.

(5) انظر الملحق، قصة 80.

هذا؟ قالت : الباب الذي بينك وبين الله"، فقام عنها وقال: "اخرجني قد فرّج الله عنك فخرجت ولم يتعرض لها"⁽¹⁾ .

ففي هذه المحنة الشديدة بقيت المرأة رابطة الجأش محتفظة بتوازنها، وتقوت بكلمات حكيما مكنتها من الخروج من المحنة التي كانت فيها، فكان ذلك من حسن تدبيرها، ومن حكمتها في معالجة الأمر؛ وذلك فضلاً عما فيها من إيماء ذكية إلى ظلم الجند.

إن هذه القصص في مجملها تخلص إلى القول: إن صورة المرأة عند التتوخي كانت أقرب إلى الدهاء المقترن بالقسوة، وارتكاب الجرائم، والقدرة على إخفاء معالم ما تقترب إلى أن يتدخل عامل طارئ ما كان يمكن أن يكون في الحسبان.

غير أن قصص التتوخي لم تصنف النسوة في ذات القدرة على الدهاء فأورد قصص ثلاث نسوة مارسنه ولكن دون عظيم أذى أو ذكاء⁽²⁾. الرسائل الجامعية

وفي مقابل ذلك أورد التتوخي قصص أربع نسوة اتصفن بحسن التدبير، ولو على تفاوت، فكانت في مقدمتهنّ المرأة التي حاول الجندي اغتصابها إذ غلبها بالقوة، و القدرة فغلبته بحسن تدبيرها، ومن ثمّ العجوز المعتزلية التي تمكنت من إفشال محاولة اللص لسرقة كيس نقود ولدها، وبعد ذلك تأتي خالة المقتر التي مكنتها ظروفها من إحكام خطة إجارة أبي جعفر الشيرزاد، وأما قصة الجارية حاملة الفالودج فإن حسن تدبيرها يتمثل في إصرارها على البحث عن مخرج لحماية مالكتها من الطلاق حتى إنها تجرأت فصفعت الرجل الشيخ⁽³⁾ . فالغالب على ما يبدو أن التتوخي رسم نساء متباينات، ولكنه كان أميل إلى تصوير المرأة على أنها متصفة بالدهاء المقترن بالقسوة واحتراف الجريمة.

(1) انظر الملحق، قصة 75.

(2) انظر الملحق، القصص 57، 74، 88 على التوالي .

(3) انظر الملحق، القصص 75، 59، 80، 60 على التوالي.

2. الوفاء والإخلاص في مقابل الغدر والخيانة:

يبرز التفاوت جلياً بين النساء في مدى تمتع كل منهنّ بصفة الغدر، أو الوفاء، بل إن المتمتعات بهذه الصفة أو تلك قد لا يتساوين فيها، فمنهنّ من تصل إلى أعلى درجات الوفاء والإخلاص، ومنهنّ من تهوي إلى أدنى درجات الغدر والخيانة، ففي حين يورد التنوخي قصصاً تتميز بطلاتها بالوفاء، يورد أيضاً قصصاً لا تخلو من الخيانة الموهلة في الفحش.

فقصة الجارية حاملة الفالوذج الحار تعبر عن وفاء تلك المملوكة لمالكتها؛ إذ إنها ما كانت لتجهد نفسها في البحث عن غريبين يأكلان الفالوذج لولا هذا الوفاء، فقد كان يكفيها أن تأكل هي ذلك الفالوذج الحار، أو أن تعطيه لأحدهم من غير أن يكون غريباً، أو أن ترميه على قارعة الطريق مدعية أن غريباً قد امتدت يده لأكله، لكن وفاءها منعها من ذلك قطعاً⁽¹⁾.

وكذلك فإن المرأة التي كانت تتغنى بشعر موجه إلى زوجها الذي فارقها لطلب الرزق بقيت على عهده رغم طول الفراق بينهما⁽²⁾، بل ظلت تتغنى بتعلقها بزوجها، وتعاتبه على تركها وفراقها وهي لا تذكره إلا بخير، وتتمنى عودته وفاء لعهده.

ومن ذلك أيضاً وفاء تلك الجارية في قصة صيد شريكها في جرائم السرقة لشريكها الأسود حتى بعد موته، فقد طلبت من قاتله أن يقتلها لما علمت أن شريكها قد أطيح برأسه⁽³⁾، وعلى الرغم من أن المحقق في هذه القصة يمج فعلة الجارية إلا أنه ليس ممكناً إنكار وفائها لشريكها، وربما قيل إن هذا الوفاء ضرب من ضروب الإصرار على الفعل الجرمي؛ لأن الوفاء

(1) انظر الملحق، قصة 60.

(2) انظر الملحق، قصة 69.

(3) انظر الملحق، قصة 68.

إنما يكون مبرراً من الخسة، والواقع أن عدم الإخلال بالعهد لا بد أن يعتبر وفاء بالرغم من أي اعتبار آخر، أما سائر الشوائب فتقدر بقدرها كما سلف بيانه عند استخلاص مدى دهاء هذه الجارية⁽¹⁾.

وفي قصة لبيب العابد⁽²⁾ الذي كان مملوكاً رومياً لبعض الجند، فأعتقه قبل موته أنه تزوج أرملة مولاه حين مات عنها راغباً بذلك أن يصونها، فابتلي بمرض ألزمه الفراش، وأفقدته القدرة على الحركة والكلام.

إن محور القصة يدور هنا حول سماعه لزوجته وهي تتحدث إلى جارة لها فتقول عنه: "إنه ليس حياً فيرجى ولا ميتاً فينسى"، فأصابه حديثها بألم شديد، هذه الزوجة مع كل هذا لم تخن، ولكنها لم تراع مشاعر زوجها الذي تزوجها إحساناً منه إليها، فهي ليست خائنة تماماً، ولا وفية تماماً بل هي في منزلة بين المنزلتين. الرسائل الجامعية

وتتعدد أشكال الخيانة عند التتوخي، فمنها ما جاء في قصة المرأة التي كره الموتى أن تدفن معهم في ذات المقبرة إذ كانت تخون زوجها في اليوم مرة أو مرتين مع رجال تدخلهم إلى بيته من غير علمه، ثم إن الأمر وصل بها إلى أن تخونه مع ابنيها⁽³⁾.

هذه خيانة بالغة اقترنت حتى بغدر ابنها إذ جعلته يعاشرها، وجعلته بعد ذلك يعاشر أخته منها، ويتزوجها وهو على غفلة من كل شيء.

(1) انظر ص 94 من هذا البحث.

(2) انظر الملحق، قصة 84. ولبيب العابد رجل مشهور بالزهد والعبادة حتى لقب بالعابد، كان مملوكاً رومياً لبعض الجند فرباه، وكان كثيراً ما ينزل بباب الشام من الجانب الغربي ببغداد. انظر ابن قدامة المقدسي، أبو محمد عبد الله بن أحمد، (ت 620). كتاب التوايين، 1م، (تحقيق عبد القادر الأرنؤوط)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983، ج 1، ص 276.

(3) انظر الملحق، قصة 66.

وها هي زوجة القرّاد وقد باتت في خان معها مصطحباً قرده حين مكنت القرد منها والناس نيام⁽¹⁾، هذه قصة بالغة في الخيانة جعلت المرأة تخون زوجها مع قرد، وهي إلى جانب زوجها وفي خان ما بين الناس من غير أن ترعوي أو تتردد، وهي خيانة مقترنة بالاستخفاف بالزوج وبشاهد العيان الذي رأى بأمر عينه ما حدث.

وتصور قصة الرجل الذي جاء إلى المنصور يشكو إليه فقد أموال كثيرة أفادها من تجارة اتّجر بها خيانة الزوجة لما ائتمنت عليه حين كانت تنفذ ماله إلى عشيق لها⁽²⁾.

وكذلك خيانة زوجة الحسن بن مالك الغنوي التي أدخلت رجلاً من أصدقائه إلى بيته، فمكنته من نفسها، فلما علاها وثب عليهما كاب الحسن وقتلها معاً⁽³⁾، فعلى الرغم من أن الحسن ينسب الخيانة إلى صديقه فيما يرويهِ من الشعر إلا أن الخيانة ما كانت لتتم لولا أن زوجته كانت هي المبادرة إلى الخيانة. مركز أيداع الرسائل الجامعية

ومما يجب التنبيه إليه أن هذه القصة ليست الوحيدة التي أوردها التنوخي، وجعل محوراً خيانة الزوجة لزوجها، ووفاء الكلب لصاحبه، وقتله الزوجة والعشيق، ولكنها كانت الأولى التي كانت الزوجة فيها مبادرة إلى المراودة.

وقد اختيرت هذه القصة من بين سائر القصص الواردة في الجزء السادس من النشوار⁽⁴⁾ حتى لا تتكرر قصص تكون بذات المعنى، فتفسد البحث، وتحرف مساره عن وفاء المرأة إلى وفاء الكلاب، أو تعطي غلبة لظاهرة على سائر الظواهر لمجرد الطرافة في الخبر.

(1) انظر الملحق، قصة 82.

(2) انظر الملحق، قصة 73.

(3) انظر الملحق، قصة 71.

(4) انظر التنوخي، النشوار، ج6، ص 229-247.

والخيانة واضحة أيضاً في قصة الرجل العقيلي الذي تزوج ابنة عم له على أن تكون في مهرها فرس سابقة تسمى الشبكة، فقد احتال هذا الرجل في سلب الفرس من صاحبها حين تسلل إلى بيته، وتمكن من سلب الفرس، فشهد آنذاك الزوجة وهي تقوم من فراش زوجها ليعلوها عبد أسود، جعلت الرجل يقول بألم: " لا جزاك الله من طارق خيرا طلقت زوجتي، وأخذت قعدتي، وقتلت عدي" (1).

وتقدم جيداء على إدخال رجل غريب إلى بيت زوجها حتى تخلو بعشيقها بشر بن عبد الله المعروف بالأشتر حرصاً منها على الوفاء له فيما قد يقال.

والحس بالمسؤولية ولزوم العهد لا بد أن يتفوقا ويرجحا على العاطفة وفقاً للمنظومة الأخلاقية التي كان يحترمها ذلك المجتمع، وإلا لما كان ضرورياً أن تلجأ جيداء إلى الحيلة والغدر للقاء الأشتر. مركز أيداع الرسائل الجامعية

وعلى أي حال فمن مجمل هذه القصص يتبين أن التوخي أورد قصص ثلاث نسوة اتصفن بالوفاء ولو على درجات، ولعل أعلاهنّ درجة بالوفاء تلك الجارية حاملة الفالودج، وتليها في الدرجة تلك المرأة التي بقيت وفية على عهد زوجها عمرو، وأدناها قصة الجارية التي بقيت وفية لشريكها في اللصوصية بعد أن قتل (2).

ثم إن التوخي روى قصة المرأة التي وقعت في منزلة بين المنزلتين، فما كانت وفية، ولا خائنة (3). وفي مقابل ذلك يورد التوخي قصص ست نسوة اتصفن بالغدر والخيانة وقعت في الحضيض، منهنّ تلك المرأة التي كره الموتى أن تدفن معهم، ووقعت فوقها بدرجة تلك المرأة التي مكنت القرد من جماعها، وتأتي فوقهما تلك المرأة التي خانته زوجها، وأنفذت إلى عشيقها

(1) انظر الملحق، قصة 62.

(2) انظر الملحق، القصص 60، 69، 68 على التوالي .

(3) انظر الملحق، قصة 84.

أمواله، ثم المرأة التي خانته زوجها مع صديقه، ثم زوجة صاحب الفرس التي خانته زوجها مع عبده، ثم جبناء التي لم يرو عنها أنها مكنت الأستر من نفسها⁽¹⁾.

فالنساء إذاً متفاوتات في ممارسة الغدر والاتصاف بالوفاء، ولكن أكثرهنّ وفاء لم تكن مما يضرب به المثل، في حين أن الواقعة منهنّ في حضيض الخيانة بلغت في انحطاط مستواها مبلغاً فاحشاً، فقمة الوفاء منخفضة وحضيض الغدر والخيانة عميق في انحطاطه وترديه.

وإذا كان التنوخي قد رسم بعفوية صورة للمرأة الخائنة الغادرة، فإنه على كل حال لا يبدو كمن أصدر حكماً وضع فيه جميع النساء في خانة واحدة من الخيانة أو الوفاء، فكأنه كان يرسم المرأة كفرد ولا يرسمها كشريحة، ولا يستطيع أحد أن يجزم في أن الرجال لدى التنوخي يتمتعون بمكانة تختلف عن مكانة النساء من حيث الاتصاف بالوفاء، أو من حيث ممارسة الخيانة والغدر، فما من امرأة خانته إلا والرجل شريكها في جرمها، وإن جاءت المبادرة في كل تلك الأحوال من المرأة فذلك يتسق مع المنظور القرآني " الزانية والزاني ..."⁽²⁾.

3- حب المرأة لبذل المال والكرم في مقابل حبها لجمع المال الشح:

ليس المقصود بحب بذل المال الرغبة في تبديده اعتباطاً وسفاهة، بل المقصود هو البذل لغايات ترتضيها المرأة سواء كانت تلك الغايات نبيلة أو ضيعة، وفي مقابل ذلك فإن حب جمع المال يعني السعي للحصول عليه بأساليب نظيفة أو شائنة حسب ما تُقدّر المرأة.

(1) انظر الملحق، القصص 66، 82، 73، 71، 62، 88 على التوالي.

(1) سورة النور، آية 2.

إن هذا المحور يتناول في الحقيقة صفتين وجدتا مترابطتين في أدب التتوخي، فزينب بنت سليمان بنت علي الهاشمية⁽¹⁾ والخيزران جارية المهدي⁽²⁾ وأم ولده بذلتا المال كرمًا وشهامة⁽³⁾. فأما زينب فكانت كريمة إذ منحت جاريتهما كتاباً لراوية القصة مع مال كثير كرمًا منها، وأما الخيزران، فقد أكرمت مزنة زوجة مروان بن محمد لما رمت بها الحاجة، وأجأها الذل إلى بيت الخيزران، ولم تجمع المرأتان المال بطريق غير مشروعة، كما هو مقتضى سياق الخبر، وبذلتاه كرمًا أو شهامة.

ويفترض أيضاً أن خالة المقندر التي أجارت أبا جعفر بن شيرزاد لما نغم عليه بحكم وفقاً لسياق النص لم تجمع المال بطرق ملتوية أو مشينة، ولكن الثابت أنها أنفقت كرمًا منها، وشهامة خدمة لقيمة اجتماعية نبيلة في مقياس المنظومة الخلقية التي كان يتبناها المجتمع⁽⁴⁾. وتبين من قصة الجارية التي تزوجت التاجر بعد تنفيذ حيلة مكنتها من إدخاله خلسة إلى دار الخلافة أنها لم تسرق مالاً، ولم ترتكب جرماً من أجل الحصول على ذلك المال، بل حصلت عليه هبة من دار الخلافة ثم أنفقت على زوجها وعلى نفسها ببذخ وترف⁽⁵⁾.

أما المرأة التي دفعت مالاً لخدامين من خدمها ليشهدا زوراً على جارية كانت أثيرة لدى زوجها فلم تجمع المال، ولكنها بذلته لتحقيق؛ غايات لثيمة كان يمكن أن تؤدي بحياة الجارية، وأن تلحق بزوجها ألماً شديداً⁽¹⁾، فهو حب لبذل المال المقترن باللؤم لا بالشهامة.

(1) زينب بنت سليمان بن عبد الله المنصور أبو أيوب الهاشمي كان والدها أمير دمشق من قبل الرشيد ومن قبل الأمين أيضاً ولي البصرة للرشيد مرتين. انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج15، ص241، ترجمة ابن المنصور.

(2) الخيزران الجرشيبة مولاة المهدي وحببته وزوجته وأم ولديه الهادي موسى والرشيد هارون رزقت من سعادة الدنيا ما لا يوصف. وتوفيت سنة ثلاث وسبعين ومائة. انظر الصفدي، الوافي بالوفيات ج 13، ص280.

(3) انظر الملحق، قصة 81.

(4) انظر الملحق، قصة 80.

(5) انظر الملحق، قصة 63.

ومن هؤلاء النساء اللواتي برزن مثلاً على حب جمع المال تلك المرأة التي كشف المنصور عن خبثها، حين كانت تمنح عاشقها مالا من مال زوجها⁽²⁾.

وقد اتهمت أم المقتدر بنهب الأموال الكثيرة لؤماً، بما في ذلك محاولة إتلاف حجة وقف عقار لابتياعه، كما عبرت عن حبها للمال ببذخها الشديد في إنفاقه⁽³⁾.

ومن هاتين القصتين يستفاد أن أم المقتدر كانت تحب المال، ولا تتردد في جمعه حتى عن طريق النهب المنسوب إليها، فهي محبة لجمع المال عن لؤم، كما تشير الرواية، لكنها لم تكن وحدها في ذلك المسرح، فقد أورد التتوخي قصة أم الولد التي أخفت سائر ممتلكات زوجها عدا سراويلات قالت: "إنها التركة"⁽⁴⁾، إن فعلة أم الولد تدل على حبها للمال وسعيها للحصول عليه عن طريق اللؤم البالغ حتى سوء الأمانة.

ومن هؤلاء أيضاً امرأة اكتشفت سرقة لص تائب، فمنعته من دخول المدينة؛ حتى لا يشاركها في اللصوصية⁽⁵⁾، فهذه المرأة تجمع المال عن طريق السرقة المنظمة، ولا تريد أن يكون لغيرها من اللصوص دور أو نصيب من الأموال المسروقة، فهي محبة لجمع المال لنائمة في ذلك، وإن لم يرو عنها أنها ارتكبت جرماً آخر غير السرقة كالقتل الذي يستفاد من قصة صيد وشريكها، وهذا حب للمال لكنه مقترن هنا باللؤم المتمثل في ارتكاب الجرائم البالغة حتى القتل المتكرر، وممارسة الجماع على مسمع الضحية فهو لؤم فاحش وحب مفرط في جمع المال⁽⁶⁾.

(1) انظر الملحق، قصة 74.

(2) انظر الملحق، قصة 73.

(3) انظر الملحق، القصتين 52 و 53 على التوالي .

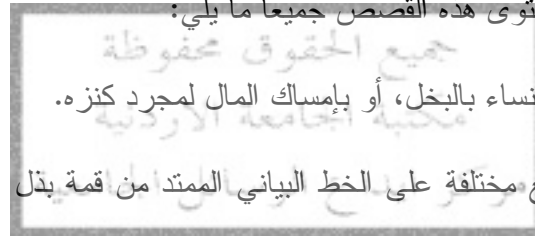
(4) انظر الملحق، قصة 57.

(5) انظر الملحق، قصة 72.

(6) انظر الملحق، قصة 68.

ويستفاد من قصة الأخ والأخت اللذين تعاشرا معاشره الأزواج أنهما سرقا ما تيسر لهما من مال أبيهما حتى يهربا معاً ويستمررا في السفاح متسترين بمال أبيهما المسروق⁽¹⁾، ومن الجدير ذكره أن الجرم هنا منسوب ولا شك للشقيق والشقيقة على حد سواء، ولكن محور البحث هو المرأة فهي بالتالي هنا موصوفة بجمع المال لؤماً، وبإنفاقه لؤماً تستراً على جريمة نكراء لا ترتضيها المنظومة الأخلاقية التي أقرها المجتمع، وتضمنت تنزيه العلاقة الأخوية من أن تتردى إلى السفاح، ولا يعني هذا تبرئة الشقيق إذ لو كان البحث متعلقاً بصورة الرجل وصفاته لما تمتع الشقيق بوصفٍ أفضل من وصف شقيقته.

ويتبين من تمحيص محتوى هذه القصص جميعاً ما يلي:



2. تبوأ النسوة مواقع مختلفة على الخط البياني الممتد من قمة بذل المال كراماً إلى حضيض جمعه حراماً، وإنفاقه لؤماً؛ لتحقيق مصالح غير مشروعة، ففي قمة الباذلات كراماً وشهامة تأتي الخيزران إذ أجارت مزنة زوج مروان بن محمد الأموي، وزينب بنت سليمان بن علي الهاشمية التي وهبت كتاباً كراماً وسخاء، وتأتي دونهما خالة المقنتر إذ أجارت أبا جعفر بن الشيرزاد، ثم تأتي الجارية التي تزوجت التاجر، فأنفقت المال الذي جمعه حلالاً في مصارف عادية لا تتصف بالشهامة، ثم تأتي أدنى من ذلك المرأة التي دفعت للخادمين رشوة؛ ليشهدا زوراً على الجارية، والمرأة التي كشف المنصور أنها كانت تنفذ مال زوجها إلى عشيقها لتخون الزوج، وتليها انحطاطاً أم المقنتر التي تشير الرواية إلى أنها نهبت الأموال، ولكن دون دليل على جريمة معينة، أو فعل مشين محدد، ثم تأتي أدنى من ذلك في الدرجة المرأة التي أخفت تركة زوجها مرتكبة جريمة واحدة لا أكثر، وتليها انخفاضاً في

(1) انظر الملحق، قصة 67.

الدرجة المرأة التي احترفت السرقة وعارضت اللص التائب بكليها قبل أن يتوب، وتنحط أدنى من ذلك صيد وشريكها اللتين احترفتا السرقة لجمع المال، واحترفتا معها الاحتيال وإيقاع الضحايا الواحد بعد الآخر تحت نصل سيف شريكهما الأسود، وتنحط في الدرك الأسفل الشقيقة التي سرقت مال أبيها لتنتسز على السفاح مع أخيها وشريكها في الجرائم المستمرة المتكررة سرقةً وسفاحاً⁽¹⁾.

3. يلاحظ أن أربعمائة من النسوة المترديات في اللؤم والمغرمات ببريق المال كن من الحرائر لا من المملوكات، أو أمهات الولد، أو الجواري المعتقات، ومع أن هذه الملاحظة تفرض نفسها إلا أن قلة عدد القصص المنتقاة قد لا تسمح باستنتاج الكثير، ولكن وجد من الأنسب التنويه بها، خصوصاً وأنه ورد في هذا السياق خارج القصص المنتقاة أن الخليفة المقنن "اضطر إلى إن يشكل ديواناً عند القبض على القهرمان أم موسى⁽²⁾ عرف بديوان المقبوضات من أم موسى"⁽³⁾.

4. النزعة الجرمية لدى المرأة عند التنوخي:

توحي قصص النسوة التي محورها المال أنهن ارتكبن جرائم أو كن قريبات من ارتكابها، الأمر الذي استدعى استقراء سائر القصص المنتقاة بحثاً عن مدى تغلغل النزعة الجرمية عموماً في شخصية المرأة كبعد من أبعاد صورتها، كما ارتسمت في أدب التنوخي، وهذا موضوع شديد التعقيد مشوب بكثير من المصاعب؛ لارتباطه من ناحية بالعلم الشرعي،

(1) انظر الملحق، القصص 81، 80، 63، 74، 73، 52، 53، 57، 72، 68، 67 على التوالي .

(2) أم موسى بنت منصور بن الحميرية، أم أمير المؤمنين المهدي ثالث خلفاء بني العباس. انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج3، ص244 ترجمة المهدي.

(2) انظر الأطرقي، واجدة مجيد عبد الله، (1981). المرأة في أدب العصر العباسي. رسالة ماجستير منشورة، جامعة بغداد، بغداد، العراق، ص 398.

ومن ناحية أخرى بالعلم القانوني؛ ولذلك وجب الاقتراب منه بحذرٍ شديدٍ ضمن ضوابط واضحة تميز الجريمة عن الخطيئة الخلقية دون الدخول في مآزق الإثبات والتوصيف الجرمي.

ولغايات هذا البحث سوف تعتبر الجريمة كل فعلة رتبت الشريعة الإسلامية عليها حداً من الحدود، أو عوقب عليها بالتعزير، ويستفاد ذلك أيضاً من ورود شيء في النص يوحي بالعقوبة التعزيرية.

أما بالنسبة لبينة الإثبات فسوف يعتبر ما ورد في النص صحيحاً، ولو لم يكن مطابقاً لأصول الإثبات في الشريعة الإسلامية؛ ذلك لأن إغفال ما ورد في النص يعني عدم الاعتماد عليه، ويستوجب إلغاءه من أساسه.

ومن ناحية أخرى، فإن هذا النص لا يستخدم استخداماً قضائياً يفتى بمقتضاه لإيقاع العقوبة، بل إنه يستخدم هنا استخداماً كاشفاً عن فهم نزعات المرأة عند التتوخي، وليكن واضحاً أن نسبة الصفات إلى أي شخص إنما تقوم على فهم الواصف أكثر مما تقوم على ما يعتمل في نفس الموصوف، فقد اعتمد هذا البحث أسلوب استخلاص الصفات من مدلول السلوك، وهذا هو البديل الوحيد الممكن في مثل هذه الحالة، وإذا تبين أن أدب التتوخي ينظر إلى المرأة على أنها تتصف بالنزوع إلى الجريمة، فهذا ليس حكماً على المرأة، وإنما هو استخلاص لرأيه المستنتج من التحليل.

ويستخلص من مجمل القصص المنتقاة من أدب التتوخي أن النزعة الجرمية لدى المرأة

تدخل في صورتها كصفة من صفاتها وفقاً لما يلي:

أ- ثمة امرأة واحدة لا غير نأت بنفسها عن الوقوع في شرك الجريمة عندما وُجدت في

ظرفٍ سانحٍ لارتكابها كما يتبين من قصة المرأة التي حاول اغتصابها أحد الجنود⁽¹⁾.

(1) انظر الملحق، قصة 75.

ب- يستفاد من القصص أن ثمة ست نسوة ارتكبن الزنا، أو السفاح بين الأقارب طواعية، وبشكل متكرر محترف، كما يتبين من قصة المرأة التي كره الموتى دفنها عندهم وقصة صيد، وقصة المرأة التي مكنت القرد من نفسها، وقصة الشبكة، وقصة الأخوين العشيقين، وقصة المرأة التي قتلها كلب زوجها وهي متلبسة بالزنا⁽¹⁾، وإذا ما أخذ بعين الاعتبار أن قصة الكلب الذي قتل الزانية وعشيقها كانت قصة واحدة من بين مجموعة قصص متشابهة أوردها التتوخي في ذات الجزء من كتابه النشوار⁽²⁾، فإن صورة النساء عند التتوخي تتصف بميل المرأة إلى الزنا.

ج - يستفاد من هذه القصص أن خمس نسوة ارتكبن جريمة السرقة وما في حكمها من إساءة الائتمان، كما يتبين من قصتي أم المقتدر، وقصة أم الولد التي أخفت معظم تركة زوجها، وقصة اللص التائب، وقصة المرأة التي كشف المنصور سرقتها، وقصة الشقيقين العاشقين⁽³⁾.

د- يستفاد من القصص موضوع البحث أن أربعاً من النسوة ارتكبن بشكل قاطع جرائم متعددة، كما يتبين من قصة نباشة القبور، وقصة المرأة التي كره الموتى دفنها عندهم وقصة صيد، وقصة الشقيقين العاشقين⁽⁴⁾، ويقصد بتعدد الجرائم هنا أن تكون الجريمة غير مماثلة لما سبقها كأن تكون جريمة سرقة وزنا أو سرقة وتسبب في القتل.

هـ - يتبين من تفحص القصص المنتقاة أن التركيز وقع على الشخصية الأساسية في كل قصة، في حين أن معظم هذه القصص كانت تشير أيضاً إلى امرأة أخرى كانت تعين الفاعلة الأصلية على

(2) انظر الملحق، القصص، 66، 68، 82، 62، 67، 71 على التوالي

(3) انظر التتوخي، النشوار، ج، 6، ص 229-247.

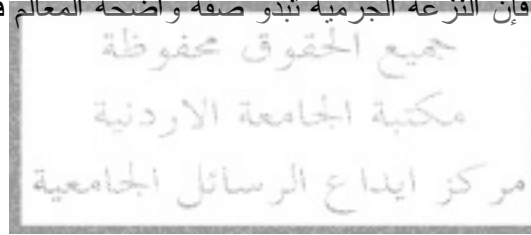
(1) انظر الملحق، القصص، 52، 53، 57، 72، 73، 67 على التوالي .

(4) انظر الملحق، القصص، 61، 66، 68، 67 على التوالي .

ارتكاب الجرائم معها باتفاق مسبق، كما فعلت الجارية التي أعانت نياشة القبور، وكما فعلت الداية العجوز إذ أعانت المرأة التي كره الموتى دفنها عندهم، وكما فعلت الجارية صاحبة صيد إذ كانت تغوي الرجال وتعين على القتل والسرقة⁽¹⁾، وهذا يزيد من تعزيز هذه الصفة كبعد من أبعاد صورة النساء اللواتي اختارهنّ التنوخي شخصاً لقصصه.

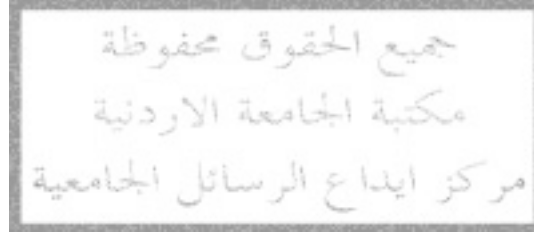
و - الجرائم المنسوبة إلى النساء في هذه القصص جرائم خطيرة تمس كلها كيان المجتمع، وليس من السهل تدرجها وفق سلم من الخطورة والجسامة، فكل واحدة منها تعد جريمة نكراء تستوجب عقاباً حاداً في مختلف المجتمعات الإنسانية ولا سيما في المجتمع الإسلامي.

وعلى ذلك كله فإن النزعة الجرمية تبدو صفة واضحة المعالم في شخصية المرأة في



أدب التنوخي.

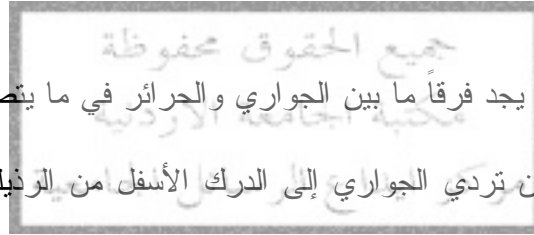
(1) انظر الملحق، القصص، 61، 66، 68 على التوالي.



ملاحظات إجمالية حول صفات المرأة في أدب التنوخي

تقفز من بين سطور قصص التنوخي نساء منفتحات يتصرفن في الغالب الأعم في مجتمع مدني معقد، وتبدو المرأة جزءاً من هذا المجتمع تتفاعل معه وتستخدم أساليبه وتتغنى بتطلعاته، فغالبية القصص تقدم نساء عشن في مستوى رغد من العيش، وكثيرات منهن كنّ مرتبطات بمراكز القوة والمال، فليس غريباً أن تجنح المرأة إلى حب المال جمعاً وإنفاقاً، وليس غريباً أن تعنى بسائر ما يعنى به المجتمع المدني من بحث عن الترف والبخ.

وتتصف النساء هنا بصفات مثيرة للدهشة أو الاستهجان، وتصدر عنهن أنماط من السلوك تستوقف المشاهد، وتدفعه إلى التأمل والتخوف، فمن بينهن نباشة القبور جامعة الأكفان، والممعة في الزنا والسفاح، والمنخرطة في عصابات الأشرار وقطاع الطرق من القتلة واللصوص، ومنهن الشديدة الدهاء المتجرئة على التطاول حتى على دار الخلافة، ومنهن التي وصلت بفجورها إلى تمكين فرد من نفسها، وهي راقدة في الخان إلى جانب زوجها، وكان أحسنهن حالاً في قصص التتوخي تلك المرأة التي تعاملت مع اللص المحترف برباطة جأش وسكينة لا تحتاج معها إلى طلب النجدة من أحد، فهن إذا نساء متصفات بغرائب السلوك غلب عليهن الفساد والشر .



ولا يكاد المرء يجد فرقاً ما بين الجوارى والحرائر في ما يتصفن به من صفات خلافاً لما قد يظنه بعضهم من تردي الجوارى إلى الدرك الأسفل من الرذيلة، وارتفاع الحرائر إلى الذروة العليا من الفضيلة، بل ربما كانت الجوارى أكثر انفتاحاً، وارتباطاً بالحياة العامة وقدرة على جني المال والرغبة في إنفاقه، المهم أن الغالبية العظمى من النسوة اللاتي يقدمهن التتوخي يتصفن بما يثير الدهشة سلباً لا إيجاباً، وإذا كانت ثمة نسوة اتصفن بالنبل والرقى فهن قلائل على رأسهن مزنة زوجة مروان بن محمد وزينب بنت سليمان بن علي والخيزران، ولكن هؤلاء يتضاءلن أمام إسراف شغب⁽¹⁾ أم المقتدر وزوجة لبيب العابد والبيدنة التي تخفي عشيقها وراء

(1) اسمها شغب بالشين والغين معجمتين مفتوحتين وبعدهما باء موحدة. ووقفت وقوفاً كثيرة على مكة والمدينة، ولما قتل ولدها المقتدر وأفضت الخلافة إلى القاهر قبض عليها، وأخذ أموالها وأمر الشهود أن يشهدوا عليها بحل، ووقوفها فأبّت وقالت: "شيء وقفته لله لا أرجع فيه"، فعذبها عذاباً شديداً ومرضت فلم يخف عنها من العذاب إلى أن هلكت في الاعتقال سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة. انظر، الصفي، الوافي بالوفيات، ج16، ص98.

ظهرها فتستره عن دخلوا بيتها يفتشونه طلباً لإيذائه وإيذاءها، والجارية التي أساءت إلى عاشقها يوم أن تبين لها أنه افتقر ورقّ حاله.⁽¹⁾

وتعبر قصتان بشكل خاص عن إحساس بدأ يتجسد عند الرجال قوامه الخوف والشك في النساء، فهذا رجل قتل زوجته دون أن يسألها عن شيء ظالماً لها لأن ابن عم لها ظهر أمامه ومعه زينة الزوجة البريئة⁽²⁾، فالرجل ظن بزوجه السوء قياساً كما يبدو على ما يسمعه عن النساء من غدر وخيانة.

وهذا أبو إسحاق المصعبي⁽³⁾ يطلع على تقارير أصحاب الشرط فيشعر بالفزع مما تمارسه بنات الوزراء والوجوه من الفواحش والردائل حتى يظن أو يوقن أن بناته الخمس سيفعلن فعل هؤلاء النسوة اللاتي انحططن إلى الحضيض، فيعزم على قتلهن كأن فجورهن ثبت لديه ثبوتاً لا شك فيه⁽⁴⁾.
وتأتي هاتان القصتان شاهديتين على ما بدأ يعتمل في المجتمع العباسي من شك وتخوف إزاء المرأة في هذا الجو المشحون بحب المال، والإقدام على المستهجن من السلوك.

ويفتقد المرء هنا المرأة الناعمة الودود فلا يكاد يجد إلا الجارية حاملة الفالودج الحار وهي تتصف بشيء من القسوة أيضاً معبرة بذلك عن نزعة فكهة مخلصه صادقة، وتستوقف

(1) انظر الملحق، القصص، 81، 53، 84، 87، 80 على التوالي.

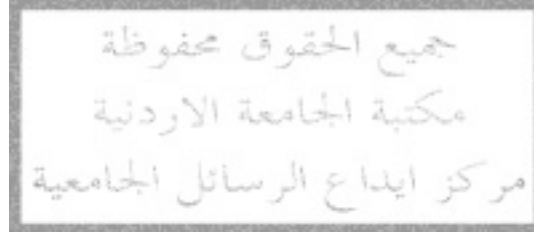
(2) انظر الملحق، قصة 54.

(3) إسحاق بن إبراهيم المصعبي والي بغداد من قبل المأمون سنة ثمان عشرة ومائتين كتب له بامتحان القضاة والشهود والفقهاء والمحدثين بالقرآن فمن أقر أنه مخلوق محدث خلى سبيله، ومن أبى عليه أعلمه به ليأمر فيه. انظر الحموي، معجم الأدباء، ج3، ص10، في خير المناظرة بين يونس بن متى و آخر.

(4) انظر الملحق، قصة 79.

المرء جارية أخرى ردها المتوكل ولم يرد شراءها فبادرته بسرعة خاطر تتطوي على لطف جعل المتوكل يقدم على شرائها بعد ذلك⁽¹⁾.

وتستوقفه أيضاً جارية ثالثة تتطفل على بيت مالکها إسحاق الموصلي المغني الشهير فأبدت لطفاً ورقة إضافة إلى إجادتها الغناء⁽²⁾، ولكن هذه الجارية على وجه التحديد قادرة على فعل ذلك كما يبدو من منطلق حرفتها في الغناء، ومنادمة أهل الطرب من علية القوم في المدينة، وربما كان تهذيبها من قبيل الترويض الذي تتطلبه الحياة المدنية لا من قبيل السجية المنبعثة من أصالة في النفس كما هي حال الجارية حاملة الفالودج وهي من بنات القرى.



(1) انظر الملحق، قصة 70.

(2) انظر الملحق، قصة 85.

مكانة المرأة في أدب التنوخي

1. التعليم

يكاد أدب التنوخي يرسم أمام القارئ المتمعن مهرجاناً ضخماً يعمّ بلاد الخلافة العباسية تنبعث من جميع أرجائه أصوات الجوّاري يغنين غناء يخلب ألباب السامعين، ويوحى بمدى دربتهنّ في هذا الفن الرفيع الذي يعبر عن الوجدان الإنساني، وما كان لأحد أن يبدع في الغناء حتى يتعهده مدربون مهرة يكتشفون خصائص صوته، وينمون أذنه الموسيقية، ومعرفته بالشعر، والموسيقى، وهذه حصيلة التدريب ماثلة أمام العيان فالجارية هدية تتحف الأمين بأداء صوت صنعه لها إبراهيم بن المهدي⁽¹⁾، وهذه خالة المقتدر تهدي رجلاً أجارته جارية تغني أطيب غناء⁽²⁾، وذلك بيت متواضع تغني فيه جارية من الجوّاري غناء في نهاية الحسن والروعة⁽³⁾، وهذا إسحاق الموصلي المغني المشهور يدخل خلسة إلى قصر رجل من عليّة القوم، فيستمع بغناء جارية، ثم يتحف الحضور بفنه الرفيع⁽⁴⁾.

فالغناء على ما يبدو كان محور تعليم الجوّاري في العصر العباسي كما يظهر بجلاء في أدب التنوخي، إلا أن بعض الجوّاري والحرائر كنّ أيضاً بارعات في قرص الشعر، فها هو المتوكل يستمع إلى جارينتين تقولان الشعر ارتجالاً، وتؤثر فيه إحداهما، فيشتريها، وقد كان عزم

(1) انظر الملحق، قصة 73. وإبراهيم هو أبو إسحاق ابن المهدي الملقب بالنتين لسنه. وكان فصيحاً مفوهاً بارعاً في الأدب، والشعر، والغناء، ومعرفة الموسيقى، ويقال إنه ما اجتمع غناء أخ وأخت أحسن من إبراهيم وأخته عليّة ابني المهدي.

ولد سنة اثنتين وستين ومائة وتوفي في شهر رمضان سنة أربع وعشرين ومائتين. انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج6، ص73

(2) انظر الملحق، قصة 80.

(3) انظر الملحق، قصة 78.

(4) انظر الملحق، قصة 85.

على أن يردها⁽¹⁾، وهذه امرأة سوداء تقول في زوجها الغائب شعراً أثر على سامعه حتى أتاها بزوجها، وردة إليها، وقضى لهما حوائج المعاش ثلاث مائة درهم كل سنة⁽²⁾، وهذه عائدة الجهنية⁽³⁾ من الحرائر تقول شعراً وصفه التتوخي بأنه من جيد الشعر⁽⁴⁾.

غير أن تعليم المرأة لم يكن محصوراً في مجال الغناء مع أنه كان كما يبدو محور تعليم الجوارى، فقد تتقنت المرأة العباسية ثقافة مكنتها من الوقوف أمام القضاء وكسب الدعوى⁽⁵⁾، وأن تبدي معرفة بالشؤون العامة كما هو شأن جميلة شقيقة ناصر الدولة التي كانت تتطلع على المراسلات الديوانية المتعلقة بشؤون الإدارة المركزية، ثم تبدي الرأي، والتوجيه، ويلتزم العمال بما تبديه احتراماً لموقعها، الأمر الذي يؤكد أنها حازت علماً متقدماً في شأن جل من شؤون الحياة العامة⁽⁶⁾.

وتبقى قصة المرأة المعتزلية التي شاغلت اللص وحيدة حتى الصباح قصة تثير الأسئلة الكثيرة حول مدى علم هذه المرأة، إذ إن مذهب الاعتزال يصعب أن يعتنق بالتقليد، فهو قائم على أسس فلسفية عميقة شغلت الناس حينها، وأثارت جدلاً عظيماً ما بين المعتزلة من جهة وبين الأشاعرة، والمرجئة، والجبرية، والمشبهة، وكثير من المذاهب الفلسفية الإسلامية، من جهة

(1) انظر الملحق، قصة 70.

(2) انظر الملحق، قصة 69.

(3) وفي كتب التراجم عابدة بنت محمد الجهنية امرأة عم أبي محمد الحسن بن محمد المهلبى، كانت أديبة شاعرة فصيحة فاضلة، روى عنها القاضي أبو علي المحسن التتوخي. انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج16، ص314.

(4) انظر الملحق، قصة 58.

(5) انظر الملحق، قصة 57.

(6) انظر الملحق، قصة 51.

أخرى فالراجح أن هذه المرأة كانت على درجة لا يستهان بها من العلم الشرعي و علم الكلام والفلسفة، إضافة إلى معرفتها المؤكدة بالقرآن الكريم⁽¹⁾.

إن ما يمكن استخلاصه باختصار من كل ذلك هو أن أبواب العلم كانت مفتوحة أمام النساء تلجها من ترغب منهنّ في ولوجها دون عائق مادي أو معنوي، وإذا كانت النساء قد اختلفن في مدى تحصيلهنّ وفي نوع ما حصلن عليه من التعليم فمرد ذلك إلى التفاوت في القدرات الفردية، وفي الظروف الاجتماعية كما تدل على ذلك أخبار كل من جميلة وشغب وهدية والمرأة المعتزلية، فالأولى عنيت بأن تتعلم شؤون الدولة العامة، والثانية عنيت بابتكار الأساليب لاستثمار موارد الخزينة العامة لصالحها، والثالثة عنيت بالتفقه في أمور الفلسفة، وشؤون الدين والرابعة عنيت بالغناء وفنونه⁽²⁾. ولا بأس من الإشارة هنا إلى أن التعليم لم يكن إلزامياً ولا منظماً بالشكل الذي يعرفه الناس في القرن الحادي والعشرين، ولكن الرغبة في العلم كانت تستطيع إذا شاءت أن تنهل منه قدر ما تستطيع وقد ما ترغب، وهذا دليل على مكانة للمرأة لا تقل عن مكانة الرجل في هذا الخصوص.

2. الأهلية القانونية

ليس في أدب التنوخي مخلوقات تتحرك كالدمى بفعل غيرها من غير أن تملك من أمرها شيئاً، فالرجال والنساء والعبيد والجواري والقهرمانات وسائر الإماء يتحركون بإرادة ذاتية تتأثر، ولا شك بالظرف العام وبالوضع الخاص لكل منهم، ولا تظهر الإرادة المستقلة بمجرد الذهاب والإياب، أو في الحب والكره، أو في الرضا والسخط، بل هي

(1) انظر الملحق، قصة 59.

(2) انظر الملحق، القصص 51، 52، 59، 73 على التوالي .

تتجاوز ذلك كله إلى تعبير عن الإرادة ينتج أثراً في الأشياء المحيطة، فالمرأة تتمتع بحقها في الملكية كاملاً، وهي بهذه الصفة تملك أن تهلك المال إهلاكاً واقعياً يخرجها من التعامل، أو يغير حاله من مسمى إلى آخر، فشغب أم المقتدر كانت مترفة تفني أموالاً طائلة في النيروز المعتضدي، وتتلّف من الأحذية شيئاً كثيراً وتصنعها من مواد ثمينة⁽¹⁾، بل إن الجارية تملك أن تتلف وتستهلك ما دخل في ملكها من متاع⁽²⁾.

أما عن التصرف القولي بالأشياء والممتلكات فأمر عادي يتمثل في أن المرأة كانت تملك أن تتبرع بمالها، أو تعطيه للغير كما يحلو لها من غير وصاية من أحد، فخالة المقتدر على سبيل المثال تهب أبا جعفر بن الشيرزاد الجارية وما لحق بها من متاع دون مقابل⁽³⁾، وقهرمانه أم المقتدر تهب الرجل الذي تعشقه أفا مؤلفة من القطع النقدية دون أن تستشير في ذلك أحداً⁽⁴⁾، ومن يملك الهبة يملك بالضرورة إبرام سائر التصرفات والعقود كالبيع والإجارة والإعارة والكفالة والوكالة، إلى آخر ما هنالك من عقود تتطلبها ظروف المعاش ومقتضيات التجارة.

والواضح أن أم المقتدر كانت تبرم البيوع بنفسها حتى إذا اعترضها عقار موقوف أرادت أن تشتريه أمرت بإحضار حجة ذلك الوقف بهدف إبطالها، وإنفاذ الصفقة ضمن الشروط التي تناسبها، ولولا وقفة القاضي ودعم الخليفة له لأنفذت ما تريد، ولكنه شرع الله والتقوى في قلب القاضي، ومخافة الله في قلب الخليفة ولولاها جميعاً لنفذ أمر هذه المرأة⁽⁵⁾.

(1) انظر الملحق، قصة 53.

(2) انظر الملحق، قصة 78.

(3) انظر الملحق، قصة 80.

(4) انظر الملحق، قصة 63.

(5) انظر الملحق، قصة 52.

وكانت المرأة في أدب التنوخي تملك الوكالة، وتقع تحت الإكراه ولكن وكالتها لا تتعقد حتى يسان حقها في ألا يزور إمضاؤها ولا تنتحل شخصيتها، لولا ذلك لما أجاز القاضي وكالة أم المقتدر ولا قرر إنفاذها⁽¹⁾.

غير أن ثمة إشارات قليلة إلى تقييد حرية المرأة في الزواج ببعض القيود، فهذه قهرمانه أم المقتدر ارتبط أمر إنفاذ زواجها بموافقة مالكتها، فإذا كان في ذلك تقييد لحرية هذه القهرمانه فإن القيد كان بيد امرأة أخرى، وربما كان صائباً القول إن تقييد حريتها جاء من كونها جارية لا من كونها امرأة⁽²⁾، وأرملة المقتدر تشعر بأنها لا تملك أن تزوج نفسها ممن شاءت فتعتمد إلى رشوة القضاة خوفاً من ألا تنفذ إرادتها وفق ما تريد⁽³⁾، أما سائر عقود الزواج المأخوذة من أدب التنوخي فلا تشير إلى قيد على حرية إرادة المرأة في هذا المجال.

النساء إذاً كما يرسمهن أدب التنوخي نساء يخرتن لأنفسهن، ويتحملن العواقب التي قد تصل إلى الانتقام والإهانة والعقوبة، تماماً كما كان نظراؤها من الرجال وتحت طائلة ذات الأشكال من العقوبات والتبعات، ولم يكن أحد ينازعها في حقها في التعبير عن إرادتها إلا قدر ما يقع على الرجال من النزاع، فتخسر، أو تربح كما يخسر الرجل أو يربح، وفي قصة أم الولد الدليل القاطع على أن أحداً لم يكن يجحد حق المرأة حتى في تملك نصيبها من تركة زوجها⁽⁴⁾.

(1) انظر الملحق، قصة 56.

(2) انظر الملحق، قصة 63.

(3) انظر الملحق، قصة 64.

(4) انظر الملحق، قصة 57.

3. مكانة المرأة الاجتماعية في أدب التنوخي

في أدب التنوخي نساء يتحركن على مختلف محاور الشؤون العامة بدءاً من إدارة شؤون الدولة وانتهاء بالإغراق في الم لذات الشخصية، صحيح أن أي امرأة لم تتمكن من تبوؤ مركز الخلافة أو القضاء في أدب التنوخي، ولكن المرأة فعلت ما بوأها مراكز التأثير في القرار السياسي والإداري، ومن الشواهد على ذلك جميلة أخت ناصر الدولة التي كانت تحسم في مختلف الأمور المتعلقة بشؤون الدولة، وعائدة الجهنية التي روي عنها أنها كانت تكتب في أحد الدواوين مما حولها صلاحية الحل والعقد في الشؤون العامة⁽¹⁾. فالمرأة إذاً كانت تقوم بدور كبير في النشاط السياسي للدولة العباسية⁽²⁾.

وكانت المرأة قادرة على أن تجبر الملهوف سراً أو علناً، أما في السر فيبدو ذلك واضحاً في صنيع خالة المقتر التي فتحت بيتها لتجبر أبا جعفر بن الشيرزاد، وأما علانية فيبدو ذلك في قصة الخيزران التي أجات، وأغات مزنة زوجة مروان بن محمد بنصيحة من زينب بنت سليمان الهاشمية، وهذه الأخيرة كانت كما يبدو قريبة من الخليفة تحادثه في مختلف الشؤون، وهي ذات موقف من مسألة الخلاف ما بين بني أمية وبني هاشم⁽³⁾.

وكانت المرأة قادرة على الحوار مع رئيس الدولة دون قيد ولا شرط، فهذه عجوز تحاور عبد الملك بن مروان في شأن إيقاع حد القطع على ابنها، فيصل بها الأمر أن تواجه الخليفة مواجهة جريئة فيها اتهام صريح وفيها رجاء مؤثر، إذ اقترحت عليه أن يتحمل وزر

(1) انظر الملحق، القصتين 51 و 58.

(2) انظر سلام، سائدة أحمد، (1998). المرأة في الأدب النثري في العراق في العصر العباسي الأول. رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ص 118 - 126.

(3) انظر الملحق، القصتين 80 و 81 على التوالي.

يقاف الحد على ابنها، وأن يتحمل هذا الوزر مع سائر الأوزار التي يتحملها، ويستغفر الله من تبعاتها⁽¹⁾.

بيد أن مكانة المرأة ليست مبرأة تماماً من كل شائبة، فأم المقتدر يدور بها الزمان وتعذب حتى تعلق من ثديها بعد أن تقلب لتكون رجلاها موثقة من أعلى ورأسها مدلى إلى الأسفل حتى إذا بالت سال بولها على وجهها⁽²⁾.

تلك ولا شك مهانة وإذلال وممارسة للعنف ضد المرأة كما يقال في القرن الحادي والعشرين، ولكن مختلف الخصوم كانوا يتعرضون إلى شيء من ذلك عندما تدور عليهم الدوائر رجالاً كانوا أو نساءً، فالخايفة القاهر⁽³⁾ قد سمت عيناه، وأصبح يطاب الصدقة من الناس عندما غلب على أمره، وعلى أي حال فليس هذا حكماً عاماً يطال المجتمع العباسي في تعامله مع المرأة، والدليل على ذلك أن أرملة المقتدر نجت من كل عقاب، وبقي لها كل ما كانت تملك من المتاع، وإن كانت أبعدت عن دار الخلافة⁽⁴⁾.

وثمة قصتان تشيران بوضوح إلى ظلم كان يقع على المرأة بصفتها امرأة من غير أن تعطى فرصة للدفاع عن نفسها، فتتحمل تبعات الغضب دون مسوغ، أما أولى القصتين فهي قصة أبي إسحاق المصعبي الذي كان يخطط لقتل بناته الخمس دون تردد لما وصل إليه من أخبار عن فجور النساء، وأما الثانية فقتل المرأة التي خطف العقق خواتيمها، ولم تأت ذنباً تستحق عليه حتى اللوم، ولكن فعلة الرجل لقيت العقاب المناسب إذ قبض على الرجل وقتل

(1) انظر الملحق، قصة 77.

(2) انظر الملحق، قصة 55.

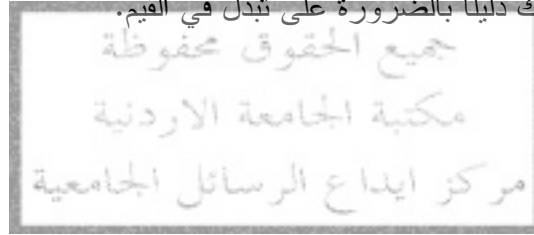
(3) انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج2، ص2.

(4) انظر الملحق، قصة 64.

بجنايته، ولم يتخل المجتمع عن محافظته على كيان المرأة، والأخذ بشرع الله في مسألة القصاص بالقتل⁽¹⁾.

و يمكن القول باختصار إن المجتمع بقي محافظاً على مكانة المرأة، وإن كان بعض الرجال قد بدأوا يتصرفون بما لا يتناسب وقيم ذلك المجتمع، الأمر الذي يعني بشكل مبدئي ظهور مؤشرات سلبية على مكانة المرأة وإيمان الجميع بها، وليس من المناسب بالطبع المبالغة في مدلول هذه المؤشرات لأن الرجال أيضاً كانوا يضطهدون ويقتلون، وكان الجناة يلاحقون وينالون العقاب، وإذا ما أفلت جانٍ أو متسلط فذلك من قبيل ضعف المؤسسات الإنسانية في

الأداء دون أن يكون ذلك دليلاً بالضرورة على تبدل في القيم.



(1) انظر الملحق، القصتين 79 و 54 على التوالي.

صورة المرأة الإجمالية مستخلصة من أدب التنوخي

يخلو أدب التنوخي من قالب مضروب مسبقاً تسكب فيه المرأة أو تخرج منه حاملة صفات محددة مسبقاً تبين صفات جسمها، وسجاياها، ومكانتها في مجتمعها ضعة أو رفعة، إنهن في أدبه نساء يتحركن بأجسام خاصة بهنّ وسمات متباينة، ومكانة تكاد تكون موحدة ولو من حيث المنظومة القيمية في المجتمع، ولا تدل القصص المنتقاة على أن نفوذ المرأة ومنزلتها كانا مرتبطين بطبقة من الطبقات كما ذهبت إلى ذلك ودبعة النجم⁽¹⁾، فنفوذ الجارية والحرّة على سبيل المثال كان متماثلاً .

أما جسم هذه المرأة فمتروك تقدير أمره لانطباع الواصف وخيال المتلقي، فهي من أجمل النساء وجهاً، أو هي كالبدن، أو هي سوداء، أو بدينة، أما ما عدا ذلك فجسمها لا تتناوله التفاصيل من حيث تركيبه، ولكن ثمة تركيز على العطر والزينة من خواتيم ومجوهرات مع عناية بالإشادة بفخامة الملابس، وغلاء ثمنها، فهي إذاً متروكة في جسمها لتقدير من يريد أن يتخيله وفق ما يحلو له. وهكذا تختلف هذه الصورة عن الصورة التي رسمها الشعراء الجاهليون في البحرين واليمامة للمرأة فهؤلاء قد " صرفوا جل شعرهم للحديث عن المرأة الحبيبة، وأسبغوا عليها من ألوان الجمال ما جعلها تستوي أمام الناظر تماثلاً ينطق بالروعة والجمال الذي يغري المرء بأن يظل ناظراً إليه"⁽²⁾.

(1) النجم، ودبعة طه، (1987). أضواء على منزلة المرأة في العصر العباسي: اجتماعياً وأدبياً. عالم الفكر، م(18)، ص225.

(2) انظر العمري، سالم حامد، (1986). صورة المرأة عند شعراء البحرين واليمامة في العصر الجاهلي. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، 4.

ومن هذا الجسم المتباين بين امرأة وأخرى تتبين صفات أصيلة تتسم بصورة عامة بالحدة ولا سيما في الجوانب السلبية من الشخصية، فهي الجريئة على نبش القبور والذبح بالموسى، وخيانة الزوج مع الصديق ومع الحيوان، وهي القادرة على اقتراف الفجور والسرقة المنظمة المحترفة دون رحمة أو تردد، كما أنها تتصف بالحنكة وبرباطة الجأش، أما الطيبة والوفاء وما شاكلتهما فصفات تدخل في عداد الحدود التي لا تثير إعجاباً ولا دهشة.

وكان المجتمع العباسي يحفظ للمرأة من المكانة ما يؤمن لها أن تتعلم وأن تحصل على حاجاتها ضمن حدود شخصيتها وبيئتها، ويضمن لها ألا تمس في كرامتها أو حياتها أو عرضها دون أن ينال الجاني عقابه، ولا يبدو أن الرجل كان يتمتع بأكثر مما تمتعت به نظيرته من النساء. واللافت للنظر بشكل واضح "اعتداد المرأة بنفسها وجرأتها اللتان مكنتها من التصدي لكل من حاول النيل من كرامتها"⁽¹⁾.
ويبدو واضحاً على كل حال أن الجوارى في أدب التنوخي كنّ أكثر نشاطاً وحضوراً من الحرائر، وهنّ في مختلف الأحوال نظيرات الرجال سواء كانوا خلفاء أو أحراراً أو أرقاء، وهذا يعني أن أئوثة المرأة لم تكن تمنعها من الحركة على مختلف المحاور حتى ولو كانت من الناحية الاجتماعية أو القانونية أدنى نظرياً من الرجل المالك.

أما الحديث عن الرق فليس هو محور هذه الرسالة فيكفي إذاً أن تتمتع الجارية من حيث هي امرأة بالمكانة الفعلية التي يتمتع بها الرجل.

(1) انظر سلام، المرأة في الأدب النثري، رسالة ماجستير، ص 221.

صورة المرأة بين التنوخي ومن سبقوه

(الجاحظ وابن قتيبة وابن عبد ربّه نموذجاً)

لا تكاد الصورة تشهد تغيراً كبيراً في معالمها الرئيسية ما بين النموذج المختار من الأدباء وبين التنوخي، فالأهلية القانونية والمكانة الاجتماعية لا تكادان تختلفان مع أن المرأة كانت في النموذج المختار من أدب السابقين على التنوخي أكثر اهتماماً بالشأن العام، وأكثر اطلاعاً على العلوم المتنوعة، وأكثر قدرة على فرض الشعر وروايته، والاستشهاد بالأعلام من الشعراء، فلا يكاد المرء يواجه موقفاً إلا ويسمع فيه من المرأة في أدب السابقين على التنوخي شعراً انطلق على لسانها من ساعته، أو شعراً حفظته، واستخدمته لغايات المناسبة، ولا يكاد المرء يجد مثل ذلك عند النساء في أدب التنوخي مع استثناءات ضئيلة للغاية.

وفي مقابل ذلك برزت بوضوح أهمية الغناء ودوره في الحياة المدنية المرتسمة في أدب التنوخي، ورافق ذلك بروز دور الجوّاري والقيان اللواتي برعن في هذا الفن دون الحرائر، الأمر الذي فتح للجوّاري أبواب الحياة العباسية واسعة فتحرّكن بفعالية على كثير من محاور الحياة العامة.

وتتصف المرأة في النموذج المختار من أدب من سبقوا التنوخي بأنها كانت متميزة في قمة كل محور من محاور الصفات كما يستدل على ذلك من وفاء نائلة بنت الفرافصة، والتميمية زوجة شريح القاضي، ووضوح الخنساء في موقفها من دريد بن الصمة، والتزام المرأة التي

بقيت على عهدها لزوجها بعد موته، وحرصاً الوافدات على معاوية، والتزامهن بفكرهن السياسي، وإبائهن، وعفتهم ترفعاً واعتزازاً.

وفي مقابل ذلك يقدم التنوخي في أدبه صورة لبعض النساء اللواتي جرّوت إحداهن على نبش القبور، أو الذبح بالموسى، أو معاقره الفجور، أو السفاح، أو السرقة المنظمة، بل وحتى الخيانة السافرة، فالنساء في أدب التنوخي أكثر حدة، وأصلب عوداً، وأكثر حباً للمال، بل إنهن يكنّ يمثّلن الانحراف بكل أشكاله، كأنهن كنّ يعانين أزمات نفسية خانقة.

وفي حين أن المرء يذكر بإعجاب أولئك النساء اللواتي تمت الإشارة إليهنّ هنا، يذكر المرء بكثير من الدهشة وربما بشيء من الرعب ذابحة زوجها، والمسافحة مع ابنها، والعجوز محترفة السرقة، والجارية صاحبة صيد المشتركة معها ومع الأسود في السرقة، والقتل، والزنا، وتقفز إلى الذهن صورة مقابلة إيجابية تقف على النقيض في أدب من سبقوا التنوخي لأننا سنعجب بروعة خالة المقتدر وبروعة مزنة وهي في محتنها وروعة الخيزران وزينب بنت سليمان الهاشمية في التعامل بشهامة واحترام لتعزيز قوم ذل.

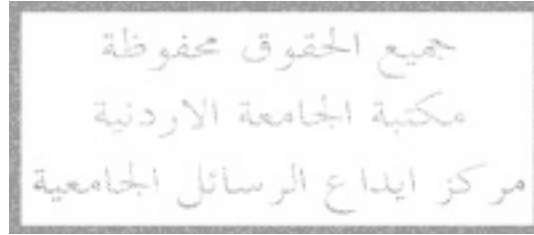
أما جسم المرأة فقد حظي في النموذج المختار من الأدباء الذين سبقوا التنوخي بعناية فائقة في التفاصيل في حين لم يحظ الجسم بهذا الوضوح في المعالم عند التنوخي، ولكنه في المقابل ركز كثيراً على مظاهر الترف والبذخ المتصلة بجسم المرأة. وربما كان مفيداً التوقف عندما أورد صلاح الدين المنجد إذ لاحظ تغييراً على جسم المرأة الأنموذج في العصر العباسي بحيث صار العرب يفضلون المرأة المجدولة⁽¹⁾ على السمينية، والمرأة ضامرة البطن⁽²⁾ على ذات

(1) لَطِيفَةُ الْقَصَبِ الْمُحْكَمَةُ الْقَتْلُ، وَ يُقَالُ رَجُلٌ مَجْدُولٌ وَامْرَأَةٌ مَجْدُولَةٌ. انظر ابن منظور، اللسان، مادة جدل.

(2) الضَّمْرُ مِنَ الرِّجَالِ الضَّامِرُ الْبَطْنُ أَوْ الْمُهَضَّمُ الْبَطْنُ اللَّطِيفُ الْجِسْمُ، وَالْأُنْثَى ضَمْرَةٌ ضَامِرَةٌ. انظر ابن منظور، اللسان، مادة ضمير.

العكن⁽¹⁾ والمرأة ذات النهود المعتدلة في حجمها على ذات النهود الضخمة⁽²⁾.

التغير المهم إذاً هو في مسألة صفات المرأة التي شهدت لدى التنوخي ميلاً إلى الانحدار نحو الحضيض في الصفات الذميمة، وتراجُعاً عن القمة في مختلف المحاور التي تدور حول القيم والأخلاق التي لا ترضاها النفس السوية، ويبدو أن العناية كانت أكثر تركيزاً لدى التنوخي على مساوئ المرأة بوصفها إنساناً، دون إغفال لمحاسنها، بينما كانت العناية عند من سبقوه منصبه على رواية أكثر موضوعية، وأقرب إلى إيراد الخبر مع تركيز مبدئي على مختلف مقومات المرأة جسماً وعاطفة وحباً وامتعة وأخلاقاً.



(3) العُكْنُ و الأَعْكَانُ الأَطْوَاءُ فِي البَطْنِ مِنَ السَّمَنِ، وَجَارِيَةٌ عَكَنَاءُ وَ مُعَكَّنَةٌ: ذَاتُ عُكْنٍ. انظر ابن منظور، اللسان، مادة عكن.

(4) المنجّد، صلاح الدين، (1969). جمال المرأة عند العرب. (ط2). بيروت: دار الكتاب الجديد، ص 57-59.

الفصل الثالث

التشكيل في أدب التنوخي المتعلق بالمرأة

توطئة

المقصود بالتشكيل لغايات هذا البحث هو أسلوب عرض الخبر الأدبي وصياغته، وما يستتبعه ذلك من خصائص تتعلق بنسقية السرد، وبناء الشخوص، وتفاعلهم، وخصائص العقدة، أو الحكمة وخصائص الحل.

والخبر الأدبي هو ذلك الخبر الذي عني القدامى بجمعه لأمر يتعلق بطرافته، أو فائدته، أو قدرته على إثبات حكمة من الحكم كتوقع الفرج بعد الشدة، وقد يكون الخبر أيضاً مسوقاً لغايات سياسية، أو مذهبية، أو فكرية، أو بقصد التسلية، والترفيه، والإضحاك. وهو يختلف بالضرورة عن الخبر الإعلامي الذي تحكمه ضوابط مختلفة تماماً، ولا يدخل ضمن هذا البحث أمر تحديده، أو تحديد ضوابطه.

والأصل في الخبر الأدبي – على كل حال – أنه خبر صادق، فهو لا يعرض لغايات التوثيق التاريخي، وإن كان ممكناً أن يكون التوثيق ضمن مكونات الخبر، وهذا ما ذهب إليه المحروقي إذ أشار إلى أن الجاحظ اختار أعلاماً ينتمون إلى فرق مختلفة " فجعلهم من ضمن بخلائه، وقد لا يكونون كما يدعي الجاحظ من بخل وتقنير إلا أن موقفه المعادي لهم جعله يحشرهم في زمرة البخلاء، فينسب بعضاً من بخلائه إلى فرقة من هذه الفرق" (1). فإذا كان الخبر غير صحيح لم يتسن للجاحظ أن يتندر بهؤلاء الأعلام، ولا أن ينال من الفرق التي

(1) انظر المحروقي، سيف محمد، (2003). نماذج إنسانية في السرد. رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ص 95.

ينتسبون إليها، وإذا كان صحيحاً تحقق له ذلك. والمحروقي بدوره لم يتعرض إلى استقصاء صحة الأخبار وإنما أوردتها على علاتها، وينبني على ذلك أن أي مناقشة للأدوات الفنية آنفة الذكر لن ترد بوصفها معياراً لصدق الخبر أو كذبه وإنما لتبين فعاليتها في الأداء الفني الذي يختلف بطبيعة الحال عن أداء القصة القصيرة، والمقالة، والخاطرة، والرواية، وسائر الأجناس الأدبية الأخرى. ولأن هذا البحث بحث أدبي فلا بد له أن يكرس لهذه الأدوات، وإلا لأصبح بحثاً في التاريخ، ولخرج بالنتيجة عن مناط اهتمامه واستقرائه.

وليس بالمقدور ولا بالمرغوب فيه تحليل قصص التنوخي جميعها، ذلك لأن المقام لا يسمح بهذا، ولأن المنشود يتحقق إذا ما محصت مجموعة مختارة من قصصه. وسوف تختار مجموعتين من قصص التنوخي لغايات استقصاء الأساليب التشكيلية التي تنتظم كلاً منهما، فأما المجموعة الأولى فتتعلق بالقصص الإخبارية التي تدور حول شخص غير معروفين تاريخياً، وأما المجموعة الثانية فتتصل بأعلام معروفين نقلت عنهم الأخبار ضمن مجموعة القصص التسجيلية.

ولا بد من بيان مسألتين جوهريتين قبل المباشرة باستقراء القصص المنتقاة من أدب التنوخي لتبين نسقيات التشكيل التي تنتظمها. أما أولاهما؛ فالتمييز بين ثلاثة أنماط من القصص هي: نمط القصة القصيرة، ونمط القصة الإخبارية، ونمط القصة التسجيلية. فأما النمط الأول فيشمل تلك الأعمال الأدبية التي ينطبق عليها تعريف، أو آخر من تعريفات القصص القصيرة. وهذا الجنس الأدبي يقوم على الإبداع، ولا يتوخى صدق الخبر، ولكنه يحافظ على مصداقيته بمعنى أنه يشتمه ما أمكن من التجربة الملموسة لبني البشر. ولا يمكن القول إن ثمة اتفاقاً على تعريف جامع مانع لهذا الجنس الأدبي، ويتبين ذلك من الأمثلة الثلاثة التالية التي حاول من خلالها عبد الله إبراهيم أن يلقي ضوءاً على هذا الجنس الأدبي إذ قال: " إن القصة

هي محتوى التعبير السردى، أما الخطاب فهو شكل ذلك التعبير⁽¹⁾. " القصة نص عماده الحدوث الزمني الذي تتتابع على محوره الخطي وحدات تنتظم في إطار مقاطع متداخلة أو متجاورة"⁽²⁾.
 " يمكن تعريف المروي بأنه كل ما يصدر عن الراوي، وينتظم لتشكيل مجموع من الأحداث تقترب بأشخاص، ويؤطرها فضاء من الزمان والمكان، وتعد الحكاية جوهر المروي والمركز الذي تتفاعل عناصر المروي حوله بوصفها مكونات له"⁽³⁾.

أما النمط الثاني فهو نمط غير واضح المعالم لا يندرج ضمن القصة القصيرة لغياب مقومات تركيبها، وإن كان يقترب منها حين تلوح فيه بواكير تلك المقومات غير الناضجة، وغير الموظفة لغايات القصة القصيرة، وهو من ناحية أخرى يقترب من القصة التسجيلية من حيث اعتماده على السعي إلى تثبيت أعلى درجة ممكنة من صدق الخبر، أو استبعاد تكذيبه بالدليل الدامغ. غير أن هذا النمط لا يصل إلى أن يستقل بنفسه كجنس أدبي قائم بذاته معتمد على قواعده الخاصة. فقصة الكلب الذي قتل الزوجة الزانية وعشيقها⁽⁴⁾ لا تصلح أن تكون من ناحية قصة قصيرة لأنها تقوم على حدثين، أو ثلاثة أحداث دون عقدة وحل. ويصدق القول ذاته على قصة المرأة البدينة التي لزمها من خلفها عشيقها فلم يهتد إليه من دخلوا بيت المرأة للعثور عليه⁽⁵⁾، فخلاصة القصة تتمثل في هذه الكلمات القليلة كما وردت. والقصتان السابقتان معاً

(1) انظر إبراهيم، عبد الله، (2000). السردية العربية: بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي. (ط2)، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ص2.

(2) الرقيق، عبد الوهاب، (1998). في السرد: دراسات تطبيقية. (ط1). تونس: دار محمد علي الحامي، ص 165.

(3) إبراهيم عبد الله، السردية العربية، ص 19-20.

(4) انظر الملحق، قصة 71.

(5) انظر الملحق، قصة 87.

مستعصيتان على التوثيق التاريخي فلا تعتبران من هذه الناحية شهادة على واقعة تاريخية أو تثبيتها لحدث من الأحداث التي شهدها الناس ولو اختلفوا على تأويلها .

وأما النمط الثالث فهو النمط التسجيلي الذي يسعى إلى توثيق الحقائق التاريخية، ويهتم كثيراً بالدقة والصدق، وتحري عدالة راوية الخبر، مستخدماً في ذلك أساليب علماء التأريخ. وسوف تتصب دراسة التشكيل لدى التنوخي على النمطين الثاني والثالث من القصص أي القصص الإخبارية والقصص التسجيلية. ومن هنا فإن إخضاع القصص الإخبارية للمعايير النقدية المتصلة بالقصص القصيرة هو من قبيل الجهد المضيع الذي لا يخدم غرضاً، فإذا كانت نتيجة إخضاع هذه القصص لتلك المعايير تتطوي على استبعاد القصص الإخبارية من جنس القصص القصيرة فهذه النتيجة ثابتة قبل البحث وبالتالي فلا جدوى من ضياع الجهد ولو فرض جدلاً أن نتيجة البحث أدت إلى اعتبار التنوخي من كتّاب القصة القصيرة فهذا سوف يستوجب تطويع المعايير من أجل التوصل إلى نتيجة موضوعية مسبقاً، وهذا أيضاً جهد لا طائل تحته.

أما المسألة الثانية التي ينبغي إيضاحها فهي أن هذا البحث هو بحث استقرائي يستهدف استخلاص النسقيات التي تنتظم قصص التنوخي الإخبارية، والتسجيلية، ولا يقوم على نقد هذه القصص وتقويمها. ويفترض الاستقراء أن ينطلق الباحث مبرأ من كل حكم مسبق منتظراً ما سوف يصادفه من خصائص فيسجلها، ويحاول بعدئذ تصنيفها ليتوصل إلى وجود النسقية أو عدمه، ولو كان البحث تقويمياً لوجب وضع معايير التقويم مسبقاً، ومن ثم قياس كل عمل في ضوء كل معيار، وإصدار حكم إجمالي على العمل موضوع القياس. وقد بوشر هذا البحث مفتاحاً على جميع الاحتمالات فتوصل إلى ما هو مبنوث في هذا الفصل.

السرد في قصص التنوخي الإخبارية

" سمعت رجلاً سأل أبا العبر عن هذه المحالات التي يتكلم بها: أي شيء أصلها؟ قال: أبكر فأجلس على الجسر ومعى دواة ودرج، فأكتب كل شيء أسمع من كلام الذاهب والجائي والملاحين والمكارين حتى أملاً الدرج من الوجهين ثم أقطع عرضاً، وأصقه مخالفاً، فيجئ منه كلام ليس في الدنيا أحق منه"⁽¹⁾. فالسرد (إذاً) لا يعبر اهتماماً لا لجودة الأدب، ولا لردائه إنه عالمي، عبر تاريخي، عبر ثقافي، إنه موجود في كل مكان تماماً كالحياة فهل تدفعنا كونية السرد إلى القبول بانعدام دلالاته؟"⁽²⁾

"إن أنماط السرد تتعلق بالكيفية التي يعرض لنا بها السارد القصة ويقدمها لنا بها"⁽³⁾. كل سرد يتضمن في الواقع بنسب متفاوتة جداً مع أنه متنوع وشديد التراكم من جهة أولى عروضاً لأفعال وأحداث هي التي تشكل السرد بمعناه الخالص، ويتضمن من جهة ثانية عروضاً لأشياء ولشخصيات هي نتاج ما ندعوه اليوم وصفاً"⁽⁴⁾. فالسرد فني زمني أساساً، و" الوصف عبد للسرد خاضع له"⁽⁵⁾.

هذه المحاولات في إلقاء الإضاءات جميعاً على مفهوم السرد لا تبدو قادرة على تحديد ماهية السرد بشكل يجعله أداة صالحة للقياس. ولا يعني ذلك أبداً أن هذه الإضاءات غير مجدية،

(1) انظر كيليطو، عبد الفتاح، (1988). الحكاية والتأويل: دراسات في السرد العربي. (ط1) المغرب، السدر البيضاء: دار توبقال للنشر، ص 55.

(2) انظر بارت، رولان وآخرون، (1992). طرائق تحليل السرد الأدبي. الرباط: منشورات اتحاد الكتاب، ص 9.

(3) انظر المرجع نفسه، ص 61.

(4) انظر المرجع نفسه، ص 75.

(5) الرقيق عبد الوهاب، في السرد: دراسات تطبيقية، ص 26.

إلا أنها غير كافية لتحديد معنى واضح ينطوي على معايير للقياس، أو على مادة تسمح باشتقاق مثل هذه المعايير. وتكفي الإشارة إلى ما وصفه رولان بارت بأنه "كونية السرد" التي ينتج عنها انعدام دلالاته. فالضرورة تدعو - والحالة هذه - إلى تبني تعريف إجرائي لغايات هذا البحث، وتزويد الضرورة إلحاحاً إذا ما ذكر المهتم بهذا الأمر ما أثير حول تعريف السارد والراوي، وما أثير حول التمييز ما بين الكاتب والراوي والسارد، بل إن معنى العيد لم تورد تعريفاً للسرد ضمن (شرح لأهم المصطلحات والمفاهيم الواردة) في كتابها تقنيات السرد الروائي، وإنما أوردت مصطلحاً جديداً أسمته "السياق" وعرفته على النحو التالي: "السياق: هو التابع والترابط للأجزاء وفق معنى يحمله النص أو يؤديه بهذا التابع الخاص به"⁽¹⁾. وهذا الاصطلاح بهذا التعريف يتقارب كثيراً مع الإضاءات التي حاولت تحديد معنى السرد، ثم إن عبد الله إبراهيم ابتكر بدوره اصطلاحاً أسماه "السردية" وعرفه بقوله: "السردية: هي العلم الذي يعنى بمظاهر الخطاب السردى أسلوباً وبناءً ودلالة"⁽²⁾.

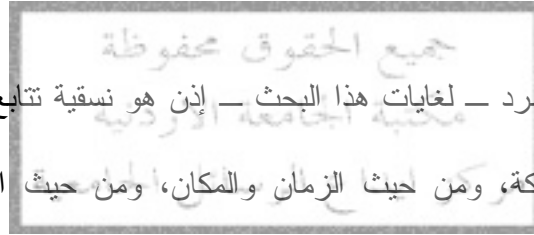
يستنتج من كل ما سبق أن السرد تراوح في نظر النقاد والأدباء ما بين سخرية أبي العبر، والرصانة التي دعا إليها عبد الله إبراهيم، إذ أعتبر السردية علماً، وهذا مدعاة للتشكك عند محاولة تحديد معنى دقيق للسرد لغايات استشفاف خصائصه استقراءً من النصوص. فكان لزاماً والحالة هذه تبني تعريف إجرائي لغايات هذا البحث.

وخير منطلق لذلك هو ما توحى به اللغة العربية لا ما يستشف بشكل غامض من لغات أخرى، فالسرد في اللغة العربية يشير إلى إحكام النسيج وقد ورد ذلك في القرآن الكريم: "ولقد

(1) انظر العيد، يمنى، (1999). تقنيات السرد الروائي: في ضوء المنهج البنيوي، (ط2). بيروت: دار الفارابي، ص186.

(2) انظر إبراهيم عبد الله، السردية العربية، ص 17.

آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد، إن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير"⁽¹⁾. وفسرت عبارة " قدر في السرد" على أنها تعني: إحكام حلقات الدرع بشكل يجعلها نسيجاً متيناً متماسكاً بنسقية تنتظم جميع النسيج وتبدو واضحة للعيان⁽²⁾. ومن هنا كان لزاماً أن يكون قوام السرد نسقية تتعلق بإحكام بنية النسيج وتماسك حلقاته وارتباط أجزائه المختلفة ارتباطاً يكسبه وحدة متماسكة، وقد اختيرت كلمة السرد دون كل من مشتقات حكي وقص؛ لأنها هي الوحيدة التي تشير إلى النسقية حتى في معناها اللغوي، فأما حكي فتطوي على المشابهة والمشاكلة أي بين الخبر الأصلي والخبر كما يرد على لسان الحاكي⁽³⁾.



والمقصود بالسرد – لغايات هذا البحث – إذن هو نسقية تتابع الأحداث المكونة للخبر الأدبي من حيث الحكمة، ومن حيث الزمان والمكان، ومن حيث اللغة المستخدمة وأدوات التشويق، وبسط أنماط الصراع والخاتمة. ولدى تطبيق هذا التعريف على المنتقى من أعمال التنوخي في نهج استقرائي منفتح على جميع الاحتمالات تبين أن السرد عنده يتصف بخصائص فنية ولغوية، يمكن إجمالها في بضع خصائص سيجري بيانها والتمثيل عليها تالياً، غير أنه ينبغي التنبيه إلى أن هذه الخصائص لا ترتبط بالضرورة بنمط التنوخي في السرد دون غيره من الأدباء والكتّاب، إذ لم يتم هذا البحث في هذا المقطع منه على أسلوب المقارنة فيما بين التنوخي وغيره ممن جمعوا الأخبار.

(1) سورة سبأ، الآية 10-11.

(2) انظر عبد المنان، حسان، (2000). معجم ألفاظ القرآن الكريم. عمان: بيت الأفكار الدولية، مادة سرد.

(3) انظر المرجع نفسه، مادة حكي.

وجدير بالعناية في هذا المقام أن التتوخي نسب كل خبر إلى سلسلة من الرواة المتعاقبين، بحيث لا يمكن يقيناً التأكد من أن الأسلوب الموثوث في هذه الأخبار هو أسلوبه الشخصي، مع أن ثمة خصائص عامة هي التي ستكون مدار هذا الاستعراض لخصائص السرد عند التتوخي.

ويلاحظ أن التتوخي خاطب قراءه من خلال رواية يتحدث بصفة المتكلم، وهو دائماً راوية ذكر، إذ لا مكان للمرأة بين الرواة مع أن أقوالها تنقل عنها، وأفكارها ومشاعرها يجري التعبير عنها من خلال ذلك الراوية كما هو حال سائر الشخوص في قصص التتوخي، فالمرأة إذا تظهر بمظهر الغائب إلا إذا أنطقها الراوية فعندئذ ينسب إليها الكلام بضمير المتكلم، والراوية في الغالب هو جزء من الحدث وإن كان في بعض الأحيان مشاهداً قريباً لا يخرج من حيز التفاعل الشخصي مع الحدث. ايداع الرسائل الجامعية

وللدلالة على هذه الخصائص المتصلة بالرواية يمكن تحليل قصة الأستر وجيداء⁽¹⁾،

فالرواية فيها هو النمير الهلالي، الذي كان طرفاً رئيساً في أحداث القصة حتى أنه كان أكثر ظهوراً من الأستر ذاته الذي كان يقتصر دوره على الانفراد بعشيقته جيداء، في حين أن النمير كان يصلى ضربات سياط زوج جيداء التي كانت كل ضربة تقع عليه منه يخرج إثرها منه الدم، والحقيقة أن المشهد المؤثر لم يعد موقع لقاء الأستر وجيداء وإنما بيتها ومخدعها وسريرها. ويتحدث النمير فيقول على سبيل المثال: "فخرجت لا أعدو ما أمرني به حتى لقيت

الجارية، فأبلغتها الرسالة، وأعلمتها مكانه وسألتها عن الخبر قالت: "هي والله مشدد عليها، محتفظ بها، ولكن موعدكم أولئك الشجرات اللواتي عند أعقاب البيوت مع صلاة العشاء الآخرة...". النمير هنا يتحدث عن جميع الشخوص بصيغة الغائب فإذا أنطق الجارية أنطقها

على أنها هي الأخرى متكلم، ويصدق القول نفسه على جيداء وأمها وأختها بل وعلى الأشر ذاته.

ويصدق هذا الحكم ذاته على قصة صيد⁽²⁾.

فالرواية هنا "صديق" من أولاد الجند قال: "كنت مجتازاً يوماً في الكرخ ببغداد فرأيت امرأة لم أرَ أحسن منها قط، فوقفت أنظر إليها وإذا بها قد ولّت وإذا بعجوز معها قد جاءتني فمازحتني عنها وقالت: تقول لك تجيء في دعوتي فقلت: لا يمكنني أن أمضي مع أحد ولكن تجيء في دعوتي أنا، فقالت لا، بل تجيء أنت، فحملني فرط شهوتي لها أن مضيت معها ...".

الرواية هنا رجل كان طرفاً فاعلاً في القصة تفاعل مع أحداثها في جميع مراحلها، فهو قد تولى الرواية بضمير المتكلم، ولكنه نقل أقوال الآخرين، ووضعها على لسانهم، وتركهم يتكلمون. ولعل أبعد الرواة عن الحدث رواية قصة ابن التماسح⁽³⁾، فهو لم يكن طرفاً في الحدث، ولكنه تعقبه وترك المرأة تتحدث عن صلب القصة بضمير المتكلم، وفعل ذلك بعد مقدمة طويلة، فالمرأة لم تبدأ القصة من أولها وإنما أدخلت إلى مسرح الحدث لكي تحل عقدة القصة، وبهذا لا يمكن القول إن المرأة كانت هي الراوية الفعلية؛ ذلك لأن الخبر نسب ابتداءً إلى العقلاء من أهل مصر.

واعتمد رواة القصص على السرد التاريخي المتلاحق الذي يبدأ بالحدث الأسبق في

الزمان ليتلوه ما حدث من بعده حدثاً حدثاً إلى نهاية القصة.

(1) انظر الملحق، قصة 88.

(2) انظر الملحق، قصة 68.

(3) انظر الملحق، قصة 83.

فقصة المرأة والقرد تبدأ بأن راوية القصة بات في سطح خان، وبات معه قراد ومعه قرده وامراته، ثم نام الناس ثم اقترب القرد من المرأة، فرشى القرد الراوية بكيس نقود الزوج فغض الراوية نظره عن القرد، وتركه لشأنه، ثم وطىء القرد المرأة، ثم شكا القراد إلى صاحب الخان ضياع نقوده ثم وقف القراد وصاحب الخان بالباب مع القرد الذي تناول رجلاً يهودياً على أنه السارق وصرف النظر عن الفاعل الحقيقي⁽¹⁾.

أحداث القصة إذاً متعاقبة تعاقباً تاريخياً يكاد يشبه التقارير الوصفية أو شهادات الشهود، ويصدق ذلك أيضاً على قصة المرأة البدينة التي شاع أمرها بالكوفة مع عشيقها حتى أتى الناس دارها يفتشونها، فأدخلته بينها وبين قميصها وفتش الناس البيت فما وجدوا له أثراً فخرجوا⁽²⁾. ولا يكاد الارتداد إلى الزمن الماضي يدخل في الأسلوب السردى الذي اعتمده التتوخي؛ لأنه لا يتناسب بالضرورة مع الأسلوب التاريخي المتلاحق في عرض الأحداث في القصص الإخبارية المنتقاة.

وفي معظم الأحيان تفتتح القصة بمقدمة قد تطول كثيراً وقد تقصر، وقد تصرف ذهن القارئ نحو سلسلة من الأحداث لا تكاد تنسجم مع ما سوف يأتي، إلا أنها في أحيان أخرى تكون بمثابة تمهيد لمسرح الأحداث أو في محورها، فقصة الرجل الذي أدخل دار الخلافة في صندوق⁽³⁾، تفتتح بمقدمة طويلة يكاد القارئ يظن معها أن الخبر سوف يتناول سيرة ذلك الرجل، وقصة بناء تجربة عملية في السوق متصلة بالخبرة الواسعة في التجارة التي ورثها عن والده، ولكن الأحداث تتخذ منحى مختلفاً تماماً كانت التجارة فيه مجرد قاعدة انطلاق لتعاقب

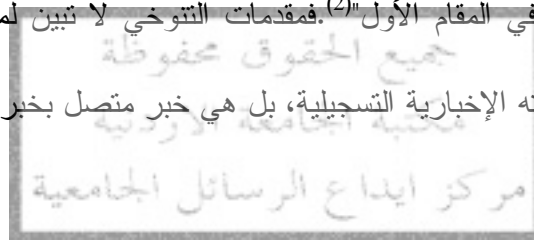
(1) انظر الملحق، قصة 82.

(2) انظر الملحق، قصة 87.

(3) انظر الملحق، قصة 63.

الأحداث، بالمقابل كانت المقدمة قصيرة في قصة الحسن بن مالك الغنوي الذي قتل كلبه زوجه وعشيقها بعد أن باشرا فعل الفاحشة⁽¹⁾.

ويبدو جلياً أن وظيفة المقدمة تختلف عند التتوخي عنها لدى الروائيين وكتاب القصة القصيرة المحدثين إذ أنه " لا يمكن اعتبار اللوحة التقديمية (لدى غسان كنفاني مثلاً) جزءاً عضويّاً من النص إذ أنها مجرد توضيح لنية الكاتب، ورؤيته الأيدلوجية الكامنة وراء إنتاج العمل، أي أنها توضح لماذا كتب غسان كنفاني العمل، وفي أي ظرف، وتحت ضغط أية حاجات نفسية وأيدلوجية، وتعبيرية أي أنها ترسم الإطار العام لكتابة روائية قصصية لها ضرورتها الأيدلوجية في المقام الأول"⁽²⁾. فمقدمات التتوخي لا تبين لماذا كتب ولا تقدم إطاراً ايدلوجياً أو فكرياً لقصته الإخبارية التسجيلية، بل هي خبر متصل بخبر قد يزيد كل منهما الخبر الآخر إمتاعاً.



ويلاحظ أن التتوخي لم يُعن كثيراً بوصف مسرح الحدث ومكانه، فهو لا يصف الشارع الذي وقع فيه الحدث، أو الدار التي شهدت حواراً أو شجاراً أو قتلاً، والوصف الذي في قصة ابن التمساح تركز على المنطقة المحيطة بالمغارة التي يفترض أن التمساح وطىء المرأة فيها، وليس على المغارة ذاتها، ومع هذا فوصف المكان جاء لتفسير الحدث من ناحية وجاء وصفاً لا يقوم على الإثارات الجمالية كمحسنات أو مشوقات للقارئ من ناحية ثانية⁽³⁾. وبهذا تجنب

(1) انظر الملحق، قصة 71.

(2) انظر صالح، فخري، (1988). أرض الاحتمالات: من النص المغلق إلى النص المفتوح في السرد العربي المعاصر. (ط1). بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص15.

(3) انظر الملحق، قصة 83.

التنوخي الإغراق في الوصف التفصيلي؛ لأنه كان قادراً على الإقناع بالمعقولية دون اللجوء إلى التفاصيل كما لاحظ ذلك على يوسف إدريس الناقد رشيد بوشعير⁽¹⁾.

والمرء لا يجد في القصص المنتقاة من أعمال التنوخي وصفاً جمالياً كالذي ورد على لسان أبي نواس في أخبار النساء لابن القيم حين التقى مع صاحبه بمجموعة من الجواري أغرينه بأنفسهن إذ قال: "لما كنا بأرض فزارة، أيام الربيع نزلنا منزلاً بفنائهم إلى أرض أريض، ونبت غريض، وقد اكتست بنبتها الزاهر، وبرزت طراخم غررها، والتحف أنوار زخرفها الباهر، ما يقصر عن حسنه النمارق المصفوفة، ولا يداني بهجته الزرابي المبوثة، فازدادت الأبصار في نضرتها، فابتهجت النفوس بثمارها ..."⁽²⁾. "وابتعد التنوخي عن الاستعانة بالتشبيهات والكنائيات إلا ما جاء عفو الخاطر"⁽³⁾.

وتثير الانتباه بعض الخصائص اللغوية التي اعتمدها التنوخي في سرده للقصص، مع

ملاحظة أن هذه السمات اللغوية لا تنتظم جميع القصص، وإنما يجدها القارئ مبعثرة هنا وهناك، ومن بين هذه الخصائص إيراد جمل تفسيرية، أو ما في حكمها من أجل توظيفها لتفسير الحدث، فالتنوخي يسترفد جملة في موقع ما لتضيء سائر الأحداث الأخرى التي لولاها لظل الخبر أو الحدث غير مقنع، فوصف امرأة بأنها معتزلية جلدة⁽⁴⁾ يوحي للقارئ بأن رباطة الجأش ستكون من مستلزمات صفات هذه المرأة.

(1) انظر بوشعير، الرشيد، (1995). دراسات في القصة العربية القصيرة: مقاربات في الرؤية والشكل، (ط1). دمشق: الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ص 57-58.

(2) انظر ابن القيم، أخبار النساء، ص 181.

(3) انظر درويش، سلوى عبد الفتاح، رسالة ماجستير، ص 153.

(4) انظر الملحق، قصة 59.

ووصف ليلة بأنها مقمرة يأتي ليبين كيف أن رجلاً تمكن بحكم ضوء القمر من تتبع الشخص الذي طارده ليلاً دون أن يدخل في مآثات تفرضها الظلمة⁽¹⁾.

ووجود سيف لطيف تحت ثياب ضحية من الضحايا؛ يأتي لتنبية القارئ إلى ما سوف يحدث من تغير في المشهد، ما كان له أن يحدث لولا وجود هذا السيف، ولو أن ذكر السيف جاء في مستهل الحدث لكان الأمر عادياً لا يستوقف القارئ، لأنه منسجم مع متطلبات القصة الإخبارية ولكن الإتيان به عند الحاجة إليه يوحي بأن هذه الجملة كانت بمثابة استدراك لا بدّ منه من أجل إضفاء المصدقية على ما حدث لاحقاً⁽²⁾، شأنها في ذلك شأن الجملتين الاستدراكيّتين السابقتين المشار إليهما في هذه الفقرة، فهي جميعاً من قبيل "سد ثغرة حصلت في النص القصصي كاستدراك متأخر"⁽³⁾، ويتبين ذلك جلياً من جملتين تفسيريّتين وردتا في القصة المسماة "لا جزاك الله من طارق خيراً"⁽⁴⁾، إذ ذكر الراوية أن مفتاح قيد الفرس كان تحت رأس المرأة خلافاً لما يتوقعه القارئ من وجوده تحت رأس الرجل مالك الفرس، ووجود لجام شعر مع الراوية يأتي ذكره عند التأهب لسرقة الفرس، وهذا وذاك يظهران بجلاء أن الراوية أراد أن يستدرك ما كان قد فاته من إعداد محكم لتنفيذ السرقة.

ومما يلاحظ على التتوخي من حيث اختيار الألفاظ والتراكيب ورود كلمات تذكر

باللهجة

(1) انظر الملحق، قصة 61.

(2) انظر الملحق، قصة 68.

(3) انظر المرزوقي، سمير وشاكر، جميل، (1986). مدخل إلى نظرية القصة: تحليلاً و تطبيقاً. بغداد:

دار الشؤون الثقافية العامة آفاق عربية، ص 78.

(5) انظر الملحق، قصة 62.

العامية في هذا الزمان ⁽¹⁾ نحو (فأخرجتها إلى برا)، (فانصرف إلى برا) ⁽²⁾ ، ومن ذلك أيضاً (بألا تطلق ستي)، (ثياب لستي يا مولاي)، (أمرتني ستي بإنفاذ هذا إليك)، (لئلا تجيء ستي فتحد علي) ⁽³⁾، وربما كان لفظ ستي متداولاً بين الجوّاري والخدم، وليس بين الأشراف وعلية القوم، ومن الألفاظ الموحية للعامية أيضاً لفظة (أيش) بمعنى ماذا نحو (أيش في صندوقك)، (أيش حصل اليوم)، (هذا أيش)، (أيش جبتي اليوم)، (أيش خبرك) ⁽⁴⁾، ومن التراكيب التي تستوقف المرء استخدام التتوخي للحرف (أن) بعد كاد ومشتقاتها نحو (كاد أن يتلف)، (كاد أن تتلف) ⁽⁵⁾، وفي مقابل ذلك تسقط (أن) الداخلة على المصدر المؤول في نحو قوله (نريد نفتش الصندوق)، (قولي له يكتب) ⁽⁶⁾، وإضافة إلى ذلك يلاحظ سقوط أداة الإستفهام في جمل نحو (يا فتى لك زوجة)، (تذكر أيامنا الأولى) ⁽⁷⁾.

ومن التراكيب المنقرقة المنثورة في هذه القصاص عبارات نحو (عليّ وعلي) ⁽⁸⁾، (الآخر

جاهل) ⁽¹⁾، وقيلت هذه تنزيهاً للمخاطب عن المساس بكرامته كما يقال في العامية اليوم (البعيد أو الأبعد جاهل) ، (فإذا هي باركة) ⁽²⁾ بمعنى جالسة كما يبرك الجمل، (فإذا بالدار الأولى) ⁽³⁾ بدلاً من الأولى.

(1) انظر مبارك، زكي، (1957). النثر الفني في القرن الرابع. (ط2). القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ص 327 - 330.

(2) انظر الملحق، القصتين 68، 78.

(3) انظر الملحق، القصص 60، 63، 78.

(4) انظر الملحق، القصتين 63، 68.

(5) انظر الملحق، القصتين 60، 61.

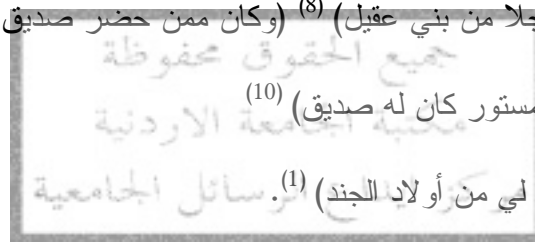
(6) انظر الملحق، القصتين 63، 66.

(7) انظر الملحق، القصتين 60، 78.

(8) انظر الملحق، القصتين 60، 63.

ويستوقف القارئ عدم العناية أحياناً في استخدام الضمائر كأن يخاطب الاثنان مخاطبة الجمع مرة، ومخاطبة المثنى مرة أخرى نحو جملة (أنتم غرباء أو من أهل القرية... فوجدناكما)⁽⁴⁾.

ومن الخصائص البنائية لأسلوب التتوخي في السرد أنه ينسب رواية القصة إلى سلسلة من الرواة تنتهي براوية بعينه، إذا كانت القصة تسجيلية مثل قصة جميلة أخت معز الدولة وقصة خالة المقتدر⁽⁵⁾. في حين أن القصص غير التسجيلية مشوبة بعيوب من عيوب الإسناد عن طريق الإشارة إلى شخص في صيغة نكرة كأن يقال (حدثني رجل من أهل الصوفية)⁽⁶⁾ (حدثني صديق لي قال)⁽⁷⁾، (رأيت رجلاً من بني عقيل)⁽⁸⁾ (وكان ممن حضر صديق لأبي فسمعتة يحدث أبي



قال)⁽⁹⁾، (حدثني رجل مستور كان له صديق)⁽¹⁰⁾ (حدثني صديق لي من أولاد الجند)⁽¹⁾.

وتتصف هذه القصص في الغالب بأن يقدم شخوصها دون أسماء كما هو الحال في قصة نبأشة القبور وأبيها قاضي البلد، وقهرمانه أم المقتدر التي أدخلت معشوقها إلى دار الخلافة في

(1) انظر الملحق، قصة 60.

(2) انظر الملحق، قصة 61.

(3) انظر الملحق، قصة 78.

(4) انظر الملحق، قصة 60.

(5) انظر الملحق، القصتين 51 و80 على التوالي.

(6) انظر الملحق، قصة 60.

(7) انظر الملحق، قصة 61.

(8) انظر الملحق، قصة 62.

(9) انظر الملحق، قصة 63.

(10) انظر الملحق، قصة 66.

صندوق إذ لم يذكر اسمها، وكان يشار إليها بلفظ فلانة، والمرأة من أهل النار التي لم يذكر اسمها، ولا اسم زوجها، ولا اسم ابنها، ولا اسم دايتها، ولا اسم أحد من شخوص القصة المؤثرين فيها⁽²⁾.

أما ذكر الجارية صيد فإنما ورد لا للتعيين، وإنما كي يتمكن الضحية المنتصر من أن يسألها متشفياً (إلى كم تصطادين ولا تصادين؟) ويستنتج ذلك من أن سائر شخوص القصة وردوا غفلاً من الأسماء⁽³⁾. ومن المستغرب طبعاً أن يشار إلى قاضٍ بعبارة (يعرف بفلان)⁽⁴⁾.

وما كان المرء ليقف عند هذا التكرير والإعراض عن ذكر الأسماء لولا أن القصص التي وردت في مثل هذا الأسلوب من العرض تضمنت أخباراً فيها الكثير من الغرابة أو الطرافة كما سيتبين عند مناقشة الشخوص في قصص التتوخي، ويبدو أنه لم يكن بالإمكان في ذلك العصر إيراد قصة دون سند؛ لأنها ستقع في موقع التكذيب وعدم المصادقية تأسياً بما درج عليه رواة الحديث النبوي والإخباريون من رغبة في استقصاء الحقائق من علم مصطلح الحديث، ومن علم الجرح والتعديل في الرواة، ذلك أن القواعد التي تنظم أحوال السند أفضت إلى ظهور علم رواية الحديث الذي يبحث في اتصال الأحاديث بالرسول صلى الله عليه وسلم من حيث أحوال روايتها ضبطاً وعدالةً واتصالاً وانقطاعاً⁽⁵⁾. ويصل الأمر إلى درجة تسمية إحدى القصص بالقول (أبو المغيرة الشاعر يروي خبراً ملفقاً)⁽⁶⁾.

(1) انظر الملحق، قصة 68.

(2) انظر الملحق، القصص 61، 63، 66.

(3) انظر الملحق، قصة 68.

(4) انظر الملحق، قصة 61.

(5) انظر إبراهيم عبد الله، السردية العربية، ص 53.

(6) انظر الملحق، قصة 68.

ويكاد القارئ يجزم بأن الرغبة في التخيل هي التي دفعت التتوخي إلى مثل ذلك النمط من السرد حتى يكون بريئاً من أي تكذيب جادٍ لخبره، فمن ذا الذي سيعترض نيابة عن امرأة ادعت أن التمساح وطئها، ثم عادت فبينت كذب الخبر؟ ومن ذا الذي يعترض نيابة عن امرأة مجهولة مكنت القرد من نفسها، أو أغرت صديق زوجها بنفسها فقتلها كلب الزوج؟ ومن ذا الذي ينهض ليدفع التهمة عن عجوز ليس لها اسم ولا نسب حين يتهمها لص تائب بأنها كانت أمهر منه في اللصوصية؟⁽¹⁾.

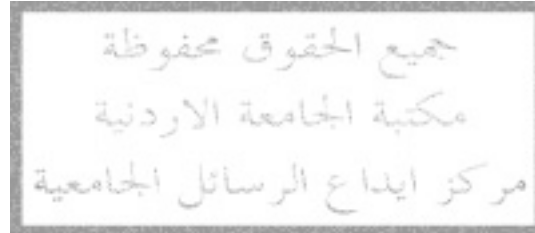
هذا الخيال الجامح يوحي بأن التتوخي كان يريد أن يطلق للإبداع عنانه، وأن يتفقت في الوقت نفسه من قيود الرواية في عصره، فكأنه يريد أن يكتب القصة القصيرة، ولكن ضمن معطيات ذلك الزمان، وليس ممكناً القول إن التتوخي انفرد بهذا من بين أدياء عصره؛ لأن هذا الزعم يخرج عن نطاق هذا البحث، ولكن فكرة مقارنة التتوخي كتابة القصة القصيرة أمر يستحق التوقف عنده طويلاً خصوصاً، وقد تبدت بواكير المعالم الفنية للقصة القصيرة في أخباره وقصصه المنسوبة إلى المجهولين والنكرات من حيث أسماؤهم، أو أمكنة إقامتهم، وما شاكل ذلك من الميل إلى التتكير، وانقطاع السند. ويذكر هنا أن التتوخي استهل أخباره بكلمات مثل "أخبرنا أو حدثنا" مع بيان المخبر والمحدث، ولم يلجأ إلى عبارات مثل " زعموا أن أو بلغني أيها الملك السعيد" كما ورد على لسان كل من بيدبا وشهرزاد على التوالي⁽²⁾.

وكان من العسير العثور على شيء عن الأعلام الواردين في إسنادات التتوخي في قصصه ذات الطابع غير التاريخي، الأمر الذي يزيد الثقة بمقولة أن التتوخي كان يحاول أن يكتب القصة القصيرة كتابة أدبية لا تسجيلية، غير أنه لم يذكر في أي قصة إخبارية أنه سجل

(1) انظر الملحق، القصص 83، 82، 71، 72 على التوالي.

(2) انظر كيليطو، الحكاية والتأويل، ص 33.

إشاعة كانت سارية بين الناس، وإنما عمد دائماً إلى إيراد سند ولو كان مشوباً بالضعف، أو معرضاً إلى التساؤل، فالإشاعة تفقد القصّة رونقها بينما يكسبها السند عند العرب في ذلك الزمان صفة المصدقية.



الشخص في أدب التنوخي

يمكن تصنيف الشخص في قصص التنوخي الإخبارية غير التاريخية في أربعة أصناف، أما الصنف الأول فامرأة تصعق القارئ أثناء تبلور الحدث، وأما الصنف الثاني فرجل في غفلة من أمره يخرج خاسراً في معظم الأحيان، أو يخرج كاسباً ولكن ليس بفعله، وأما الصنف الثالث فعجوز محتالة قوية الشخصية تحرك الحدث، أو تسهم في بلورته، ويبقى أخيراً صنف رابع من الرجال والنساء يوجدون حول الحدث ولا يكادون يؤثران فيه، وفيما يلي بيان لكل من هذه الأصناف على حدة لتبين صفاته ومعالم شخصيته.

لا تكاد تخلو قصة من قصص التنوخي الإخبارية من امرأة تصعق القارئ أثناء تبلور الحدث الذي هي محوره، فهي تتصرف أثناء الحدث تصرفاً مفزعاً، أو مذهلاً، أو مثيراً للدهشة، ولا ينتظر صدوره من إنسان سوي من طينة البشر الأسوياء رجالاً كانوا أو نساء.

فالعجوز المعتزلية الجلدة تضع اللص في حيرة من أمره، وتكشف حيلته، وتظهر أنها قد أسقطت في يدها إلى أن وضعت اللص في موضع لا يملك الخروج منه، فأهملته بعد ذلك، وانقطعت إلى صلاتها، واللس يرتقب القبض عليه ساعة بعد ساعة إلى أن تحقق ذلك في أول النهار⁽¹⁾. والأمر الطبيعي في هذه الحالة أن تفزع المرأة فتثير الحيرة، أو أن تستسلم فتترك اللص وشأنه، أو أن تدخل معه في معركة قد تخسر فيها، وقد تربح مدفوعة في كل ذلك بخوفها مرتقبة حدوث ما ليس في الحسبان لإنقاذها من ورطتها، غير أنها تتصرف بثقة تامة كما لو كانت أعدت مسبقاً لهذا الدور.

(1) انظر الملحق، قصة 59.

والجارية حاملة الفالودج الحارّ تعرض نفسها إلى متاعب ظلمة الليل، وعناء البرد، والشتاء، وتتجرأ على صفع رجل حرّ من الصوفية في بيت من بيوت الله بحثاً عن حماية زوجة مالكها من الطلاق⁽¹⁾.

وإذا كانت هذه درجة معقولة من درجات الوفاء فإن إقدام الجارية على تحمل المشقة من أجل نزاع لا يضرها حلّه أو عدم حلّه، هو أمر يستوقف القارئ، فقد كان يكفيها أن تتذرع بأن الرجل الغريب رفض تناول الطعام، وكان بإمكانها أن تكتفي بأن يأكل رفيق الشيخ من الفالودج، بل كان يكفيها أن تدعي أن الطعام أكله شخص غريب، أو أن تأكله هي. وقد لا تكون هذه الجارية مثيرة في وفائها قدر إثارة المعتزلية للدهشة. وعلى أية حال يظل التفاوت أمراً معقولاً ومطلوباً بين الأشخاص.

وتبقى صورة المرأة التي تنبش القبور في الليل، وتجمع الأكفان حتى يجتمع لديها خلال سنتين من الزمان ثلاث مائة كفن، أو ما يقاربها ماثلة في ذهن القارئ أي قارئ لسنين طويلة، وتعود شخصيتها لإثارة الرعب وهي باركة على صدر زوجها وركبتها على ذراعيه وفي يدها موسى تهمّ أن تذبح بها زوجها، وهي عالمة أن لها يداً واحدة، وأن زوجها قد يلحق بها أشد الأذى في جسمها، وفي مكانتها بين أهلها وفي مدينتها، إنها تعلم كل ذلك ولا تبدي تردداً في أن تقدم على الذبح، وتتفاوض مع زوجها من مركز القوة لا من مركز الضعف، وتخرجه من الصورة، وتطرده من البلد، ولا أحد يعلم بما جرى⁽²⁾.

(1) انظر الملحق، قصة 60.

(2) انظر الملحق، قصة 61.

تلك امرأة عتية في مزاجها قاسية في سلوكها عصية على الخضوع حتى بعد التوبة، هي امرأة غريبة تجمع الأكفان، ولا تجمع الحلي، تتحرك في العتمة لا تخشى وحشة المقابر، ولا تستطيع أن تغفر أو أن تهادن في أمر لا ترتضيه.

وتستوقف القارئ كثيراً تلك القهرماننة التي أدخلت معشوقها إلى دار الخلافة في صندوق، فالفكرة بحد ذاتها مثيرة للدهشة باعتبار أن دار الخلافة محاطة بالحرس المتنبهين والحريصين على ألا يتعرضوا إلى أي مفاجأة، وعلى الرغم من توقعها تدخل الحرس فإنها لم تتوقع أن تصادف الخليفة نفسه، وأن يصر هو بدوره على تفتيش ما في الصندوق الداخل إلى بيت حرمه، ومع هذا فإنها لم تفقد السيطرة على الوضع بل احتالت على الخليفة، وأبقت الرجل في دار الحرم إلى أن حان وقت خروجه، فتجاوزت ذات المحن بذات الصبر ورباطة الجأش، والواضح أن الرجل ذاته كان نهياً للمخاوف والمطامع تتعاقب عليه حتى فقد السيطرة على نفسه، وفعل فعلة الخائف، في حين أن صاحبه كانت رصينة لا تخشى شيئاً⁽¹⁾.

وتبين أحداث هذه القصة أن هذه القهرماننة كانت ذات نفوذ في بيت الخلافة، وأنها استمرت صاحبة الكلمة العليا في بيت الزوجية، ويكفي القول إنها في ليلة زفافها رfst زوجها عند الدخول بها لأنها لم ترضَ عن تقصيره في غسل يديه.

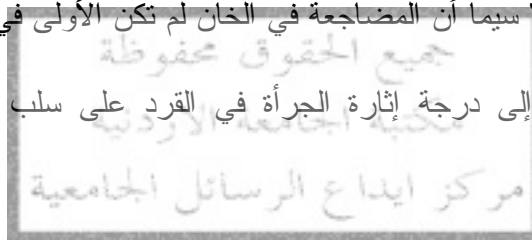
ويشير الأشمئزاز في نفس القارئ ما يطلع عليه من خبر المرأة التي بكى أهل المقابر من دفنها فيما بينهم، فهي امرأة استباححت الزنا، واستمرت السفاح، وقتلت طفلاً، وفرقت بين ابنها وزوجته، ثم دبرت حيلة شنيعة حين زوجت ابنها من ابنتها دون علمهما، إضافة إلى ما نسب إليها من رمي النساء بالفجور، وشرب الخمر، والاستماع إلى الغناء والمجون⁽²⁾.

(1) انظر الملحق، قصة 63.

(2) انظر الملحق، قصة 66.

ولو أن العجوز الداية استمرت في رواية فظائع هذه المرأة لوصل الأمر بالقارئ إلى ما يستحيل تصويره من الاشمزاز والاحتقار والازدراء، كل هذا مستهجن من كل امرأة لو كان سلوكها يتناوله جريمة جريمة، أما أن يأتي به كله، ويأتي بما فوقه فأمر مستغرب مستهجن، فكأن هذه المرأة ليست كسائر المخلوقات التي يظلمها الله تحت عرشه، ويقلمها فوق أرضه، وهكذا فالأمر لا يقف عند مجرد الاستغراب، بل يتعداه إلى الكراهية والبغضاء حتى أن هذه المرأة لا تكاد تخرج من ذاكرة القارئ مهما عاش بعد ذلك.

أما المرأة التي ضاجعها القرد على مقربة من زوجها النائم في الخان فلا تثير في نفس القارئ إلا احتقاراً، ولا سيما أن المضاجعة في الخان لم تكن الأولى في ما توحى به القصة، بل إن لؤمها ليصل بها إلى درجة إثارة الجراءة في القرد على سلب مال زوجها رشوة لمن راقبهما⁽¹⁾.



إنها شخصية لا يكاد يستسيغها قارئ أياً كان زمانه ومكانه، وإن فعلتها لمقينة كريهة دفعت بها إلى الهرب عندما انكشف أمرها.

ويلاحظ في مختلف الشخصيات النسائية أنفة الذكر وسائر الشخصيات في القصص غير التاريخية الإخبارية أنها جاءت جميعاً منكراً دون أسماء، ولم ترسم لأي منهن صورة تدل على معالم شخصيتها جسماً ومظهراً وسلوكاً وتفاعلاً، كل واحدة من هؤلاء النسوة كانت مجرد محور لحدث أو أحداث يستنتج منها شيء من الحكمة، أو النصيحة، أو التحذير، فكأن التتوخي كان في قصصه الإخبارية على وجه الخصوص يقارب - شعورياً أو لا شعورياً - وضع معالم أولية وقالب ينتظم فئة محددة من النساء يضعهن فيه، ويقدمهن إلى الرجال كي يتنبهوا

إلى وجود فئة من النساء يخرجن عن الشائع المألوف بين سائر النساء.

ويتعزز هذا التوجه بأن هنالك شخصية نسوية تكرر إدخالها كثيراً في أحداث قصص التنوخي الإخبارية هي شخصية العجوز التي تبدو نشطة على هامش الحدث، أو في صلبه وقلبه، وهي عادةً ما تكون عجوزاً محتالة شديدة الدهاء تستطيع الإيقاع بالرجال.

ومن أبرز هؤلاء العجائز تلك الداية التي سهلت عمليات الزنا والسفاح والقتل والوقية وسائر الجرائم التي ارتكبتها المرأة التي كره أصحاب القبور دفنها معهم⁽²⁾، هذه العجوز أعلنت توبتها، وأعلنت تنصلها من فعل المرأة الفاجرة، ولكنها كانت عالمة بكل الأسرار، وكانت ذراع هذه المرأة في تنفيذ كل إثم كان يخطر ببالها، فدورها معزز بفضائع النساء التي سبقت الإشارة إليها أثناء استعراض شخوص الصنف الأول فيما سلف.

ومن أخطر النساء في هذا الضرب من قصص التنوخي صيد التي كانت تصيد الرجال، وتودي بهم إلى التهلكة فلا ينجو من كيدها وكيد الجارية أحد حتى كان هلاكها في نهاية الأمر على يد ضحية شاء حسن طالعه أن ينجيه من الهلاك⁽³⁾. وتمتاز هذه العجوز عن سائر العجائز بأنها أعطيت اسماً يميزها ويصف دورها في كل حدث كانت طرفاً فيه.

أما العجوز التي ضبطت مع كلبها ذلك اللص الذي سرق المجوهرات من دكان صيرفي فكانت صانعة الحدث ولكن بهدوء ودون صخب ولا جلبلة⁽⁴⁾.

(1) انظر الملحق، قصة 82.

(2) انظر الملحق، قصة 66.

(3) انظر الملحق، قصة 68.

(4) انظر الملحق، قصة 72.

في حين أن هذه العجوز كانت هي المستفيدة من جميع ما يسرق، ولم يكن لصيد دور يذكر في الغنائم في حدود ما ورد في قصتها على أهمية دورها في تحقيق الغنائم فهذه عجوز شرسة تستعين بكلاب ولا تستعين بصبية تتخذها رأس حربية في جرائمها.

وتخرق العجوز المعتزلية خط هؤلاء العجائز من حيث إنها ليست مجرمة ولا متدخلة في الجريمة، وتشبههنّ من حيث إنها كانت عظيمة الجلد، وكانت هي التي ترد على تصرفات اللص دون أن تقود الحدث بنفسها بل كان لها دور فاعل، فهي شخصية رئيسية في القصة⁽¹⁾.

وتخرج من هذه القائمة تماماً أم نبّاشة القبور التي لم تكن على علم بشيء مما يجري من حولها

تماماً كأفراد الصنف الثالث من الشخصيات الذين سيستعرضون الآن⁽²⁾.

الصنف الثالث من الشخصيات ينتظم مجموعة من الرجال الذين كانوا على هامش الحدث ولو تأثروا به في مرحلة من المراحل، هم رجال مستغفلون يقعون في شرور أعمال النساء، ولا يملكون من أمورهم شيئاً، وهؤلاء كثيرون في قصص التنوخي الإخبارية.

ولعل من أبرز هؤلاء الرجال أبا نبّاشة القبور الذي كان قاضياً جليلاً وقوراً، ومع ذلك كانت تصدر عن ابنته هذه الأفعال المستغربة في عتمة الليل وظلمة المقبرة، وهو غافل عن كل ذلك، لا يتطرق إليه شك حتى ينكشف أمر ابنته، وكان سيتعرض وضعه إلى المهانة لو عرف الناس بما كان يجري في بيته⁽³⁾.

ولا يكاد هذا الرجل ينجو من آثار فعلة ابنته حتى بعد أن ظن أن الأمر قد آل إلى صلاح، وأن ابنته ثابت إلى رشدها، وتابت وأن أمر الفضيحة أودع طي النسيان، وهو في كل

(1) انظر الملحق، قصة 59.

(2) انظر الملحق، قصة 61.

(3) انظر الملحق، قصة 63.

الأحوال رجل يعيش في غفلة من أمر أسرته رغم ما كان عليه من علم وعلو قدر، وما كان لأحد أن يظن أن تكون لمثله ابنة كهذه المنحرفة تستغفله حتى لا يكاد يرتاب أحد فيها.

ويدخل الخليفة المقتدر في عداد الذين استغفلوا فأدخل إلى دار حرمه رجل غريب في صندوق كاد يكشف أمره لولا أن استغفل مرة أخرى ووضع في الصندوق ما لا يثير اهتمام الخليفة، ثم استغفل مرة أخرى عند إخراج الرجل الغريب في ذات الصندوق، ثم يستغفل مرة أخرى إذ يزوج القهرمانه من ذلك الرجل الغريب المعتدي على حرمة بيته، فيكرمه بدل أن يقتله، ويغنيه بدل أن يبطش به⁽¹⁾، ولو لم يستغفل لما كان منه ما كان.

ويبدو مهماً هنا بيان أن هذه القهرمانه لم تسم بأبي اسم بل أشير إليها بأنها "فلانة"، ولم يورد التنوخي شيئاً عن مصيرها بعد أن دارت الدائرة على المقتدر وأمه، ومن كان يحيط به بل إن سياق القصة يوحي بأن هذه القهرمانه الداهية التي أخذت من أموال الخلافة شيئاً كثيراً قد نجت من كل ملاحقة أو عقاب، الأمر الذي يوحي بأن القصة لم تكن حدثاً من أحداث التاريخ، وربما استعير شخص الخليفة للدلالة على مدى الغفلة التي تصيب الرجال بمفعول كيد النساء.

وتذكر هذه القصة بقصة عبد الملك بن مروان وأم البنين⁽²⁾ التي روي عنها أنها خبأت عشيقها في صندوق، فكشف الخليفة أمرها، فأصر على أن يأخذ الصندوق بنفسه، فألقاه في بئر عميقة دون أن يفتحه، فطوى أمر الفضيحة وهو واع لما يحدث، ومع أن خادماً هو الذي كشف

(1) انظر الملحق، قصة 63.

(2) أم المؤمنين عاتكة بنت يزيد بن معاوية وزوجة عبد الملك بن مروان وهي أم الخليفة يزيد بن عبد الملك، جميع خلفاء بني أمية لها محرم سوى عمر بن عبد العزيز ومروان بن محمد، توفيت في حدود الثلاثين ومائة. انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، ج16، ص 315.

لعبد الملك قصة هذا الصندوق فإن المقتدر كان مستغفلاً حتى من خدمه الذين كانوا يعرفون سر الحكاية فكنموا عنه كل شيء⁽¹⁾.

وفي قصة احتجاج أهل المقابر على دفن الفاجرة بينهم يصادف القارئ زوج هذه المرأة الذي لم يحاول أن يعلم حتى كيف استغفل بعد وفاة زوجته، ويصادف ابنه من تلك الفاجرة الذي كان طيلة الوقت خالي الذهن من أن أمه جرت به إلى مواعيتها ومواقعة أخته منها وإلى فراق زوجته بالحيلة والمكيدة⁽²⁾.

إنهما رجلان مستغفلان يقعان في حبال تلك الفاجرة ودايتها فيصاب الابن بالصدمة، ويفارق أم أولاده، ويشعر بالحزي أمام نفسه، وينسحب خشية أن يسمع عن أمه ما هو أفظع. ولا يتصور أن يكون هذا صدى للأسطورة الإغريقية التي تتحدث عن القدر المحتوم الذي فرض على الملك أوديب⁽³⁾ أن يقتل أباه وينكح أمه أكثر من غيرها عن جهل منه وتأثير الآلهة الإغريقية، وإن كان ثمة ما يذكر بهذه القصة التي وردت في سياق أقرب إلى المفارقة الاجتماعية منه إلى المفارقة الأسطورية أو الدينية، ودون أن يقتل الشاب أباه في خبر التنوخي. وفي قصة الأشر وجيداء رجلان يقعان ضحيتين لكيد المرأة، فأما صاحب الأشر فيصلى نار السياط ويتعرض إلى الهلاك، وأما زوج جيداء فيستغفل استغفالاً يكاد يضعه في مرحلة الغباء، إذ لا يلاحظ أن من في السرير كان رجلاً وأنه لا يبدي تأوهاً ولا توجعاً رغم شدة الضرب وألمه وما بين ألم هذا وغباء ذلك تستمتع جيداء بليلة إلى جانب عشيقها.

(1) انظر ابن القيم، أخبار النساء، ص 180-181.

(2) انظر الملحق، قصة 66.

(3) انظر جيد، أندريه، (1968). أوديب ثيسوس من أبطال الأساطير اليونانية، ترجمة طه حسين. ط(2). بيروت: دار العلم للملايين.

وإذا كان صاحب الأستر ينال مكافأة غير مقصودة لمؤانسة أخت جيداء له فإن ألمه أوجع وأبقى ومغرم جيداء أعظم وأكبر، صحيح أن الأستر خرج غانماً ولكن ليس بتخطيطه ولا ذكائه بل بمكر جيداء وكيدها وتسهيل جاريته لها لتنفيذ الخطة المرسومة بإحكام المرأة ودهائها⁽¹⁾.

أما ضحية صيد فقد استغفل وكاد يموت ولكن سياق القصة ينجيه، ويمكنه من الانتقام لنفسه وسرقة أموال اللصوص، وقتل ثلاثة أشخاص⁽²⁾، هذا هو الرجل الوحيد من شخوص التنوخي الإخبارية في قصصه المنتقاة الذي استغفل ثم انتصر بتخطيط منه، ولكنه حقق ذلك ضمن مخاطرة كان يمكن أن تودي بحياته، وقد أظهر هذا الرجل أنه ليس أقل حياً للمال من الرجل الأسود، وسائر أفراد العصابة، كما أنه ليس أقل منهم جرأة على القتل، وأكل المال الحرام، فهم ظلمة ابتلاهم الله بمن هو أظلم منهم. سائل الجامعة

وفي قصة الشبكة يستغفل الرجل فيضاجع عبده زوجته في ظلمة الليل، وتسرق فرسه بسبب هذه الخيانة، ويهب لاستردادها بعد أن أثارت المرأة الحي، وهو لا يعلم من الأمر شيئاً حتى يخبره سارق الفرس بما كان فيخرج خاسراً فرساً وحليلة وعبداً⁽³⁾.

ويخسر زوج معشوقة القرد ما بين عشية وضحاها قرده وامراته، ويكاد يخسر ماله، وأبو الأخوين العشيقين يخرج مهزوماً ملوعاً على إثم ولديه ومقتلهما ويُتم حفيدته المولودة سفاحاً⁽⁴⁾.

(1) انظر الملحق، قصة 88.

(2) انظر الملحق، قصة 68.

(3) انظر الملحق، قصة 62.

(4) انظر الملحق، القصتين 82 و67 على التوالي.

كل هؤلاء الرجال كانوا ضعافاً أمام النساء ولم يكن لأي منهم اسم يعرف به باستثناء الخليفة المقتدر الذي زاده اسمه ضعفاً على ضعفه في تخطيط القهرمانه، وحتى الكاسب من حيلة هذه القهرمانه كان قليل الحيلة خاضعاً لتخطيط المرأة.

فكان التتوخي يرسم امرأة قوية متطرفة في طباعها في مقابل رجل ضعيف مستغفل يتصرف في معظم الأحيان بسداجة وطيبة، فكان هذه المقارنة هي وسيلة شعورية أو غير شعورية لتوكيد خطورة المرأة وميلها نحو الحضيض في هرم الصفات.

ويأتي هذا متطابقاً مع ما سلف استخلصه من أن النساء في أدب التتوخي أميل إلى التردّي في وهدة الخيانة ولؤم الطباع دون أن يصل الأمر إلى حكم جارف لا يستثني امرأة واحدة من النساء، ومع هذا فقد لا يشعر القارئ بالكرهية الشديدة والمقت والبغضاء لجميع النساء ذوات الطبع المتطرف، وإن كانت الرسالة التي تحملها هذه الأخبار والقصص والحكايات لا تكاد تخفى، وربما كان السبب في ذلك أن التتوخي لم يرسم هذه الشخوص رسماً تفصيلياً دقيقاً بحيث يستطيع القارئ أن يتصور كلاً منهنّ كمخلوق متكامل يمثل أمامه بلحمه ودمه وابتسامته أو عبوسه بقدرته على الإحسان في بعض المواقف، وقدرته على الإساءة في بعضها الآخر.

وربما كان ذلك ناتجاً عن أن معالم القصة القصيرة لم تكن قد برزت كعمل فني مستقل عن الرواية لغايات التاريخ والتوثيق، وكذلك لم يكن قد ازدهر عهد المقامة حين برزت إلى الوجود شخصيات يذكرها المرء ويذكر معالمها كشخصية عيسى بن هشام وأبي الفتح الإسكندري، والشخصيات الموثقة في المقامات المختلفة التي كانت عملاً أدبياً بدأ ينفصل عن التسجيل التاريخي.

طبيعي إذاً ألا يحظى الصنف الرابع من الشخوص بكثير من التعريف أو الإفاضة في بيان المعالم الشخصية، فهم أشخاص ثانويون في مواجهة سائر الشخوص المشار إليهم فيما سبق، فالخدم والعييد المنترون على هوامش الأحداث إنما هم وسائل كسائر الوسائل ينسون عندما يتبلور الحدث ويضيعون في غمرة تفاعل سائر الشخوص ولا سيما النساء المتطرفات والرجال المستغفلون.

وهذه إذاً هي شخوص التتوخي تتوزعها هذه الأصناف الأربعة، لا يكاد المرء يجد شخصاً واحداً يخرج عن هذه الدوائر. وعلى ذلك فإن شخوص أدب التتوخي في قصصه الإخبارية المنتقاة إذاً شخوص حدث لا شخوص من لحم ودم ولا شخوص من ورق⁽¹⁾. وليست كذلك شخوصاً وهمية أعطيت أصواتاً للدفاع عن فكرة معينة، أو لإثباتها كما هو الحال في مسرحية "بجماليون" لـ "جورج برناردشو" الأديب الإيرلندي الشهير. وهي ليست نماذج كالتى أحدثها بعض الأدباء " فوظفوها لتكون تعبيراً عن آرائهم أو رسماً لواقع مشاهد"⁽²⁾. فشخصيات التتوخي لا تزول من الذاكرة تماماً ليحل الحدث محلها، ولكنها تتصرف بما يناسب الحدث كما يستنتج من الجمل الإستدراكية المنتورة في تلك القصص. هذا مع أنها قد تكون شخوصاً " مخترعة واضحة الوضع"⁽³⁾.

أما الفكرة أو الغرض الذي صيغت من أجله تلك القصص فيتعدر استخلاصه من قصة واحدة، فالقهرمان في دار الخلافة لا توحى إلى ما توحى إليه المرأة في قصة ضجيجة القرد،

(1) انظر يوسف، آمنة، (1997). تقنيات السرد في النظرية والتطبيق. (ط1). اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، ص 26-27.

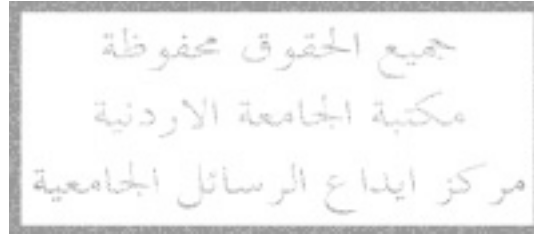
(2) انظر المحروقي، نماذج إنسانية، رسالة ماجستير، ص6.

(3) انظر عبد الله، محمد حسن، (1993). الفرج بعد الشدة. القاهرة: مكتبة وهبة، ص68.

كما لا توحى إليه قصة نبأثة القبور، وإن كانت السمة الغالبة على أولئك النسوة جميعاً يجمعها تصور واحد هو الجنوح إلى الغرائبية والشذوذ والمرض العصابي والإجرام.

هذه الشخصيات جميعاً تقدم إلى القارئ من خلال دورها في الحدث دون وصف لخصائصها الإنسانية من طول، وقصر، ونعومة، وخشونة، ورخامة في الصوت، أو قبح فيه إلا إذا تطلبت ذلك طبيعة الحدث، وعلى ذلك فإن القارئ هو الأقدر على إثراء الشخصية⁽¹⁾.

خصوصاً إذا كان من ذوي الذاكرة التي ترتبط برسم الصورة بالشخص والمشهد والحدث.



(1) الرقيق، عبد الوهاب، في السرد: دراسة تطبيقية، ص 68.

الحبكة والعقدة عند التنوخي

من خلال خصائص السرد وخصائص الشخص، يتبين أن التنوخي كان يعتمد في كثير من الأحيان إلى مقدمة قد تطول وقد تقصر، ثم يقدم مسرح القصة، فيصور حياة مستقرة، ثم يأتي طارئ من خارج مسرح القصة، فيحدث التآزم، فتتسارع بعد ذلك الأحداث التي تؤدي إلى حل العقدة والخاتمة.

ولا بد من الإشارة إلى أن بعض القصص المنتقاة تدخل في عداد التقرير الوصفي، فلا ينطبق عليها ما ينطبق على القصص ذات الطابع الخيالي أو الإبداعي، فقصة أم الولد التي أخفت معظم تركة زوجها لا تنطوي على أكثر من أحداث متلاحقة تنتهي نهاية طبيعية منسجمة مع منطق الحياة ربحاً أو خسارة، فهي تكسب دعوى كما يحدث في كل دعوى أقيمت منذ أن وعى الإنسان معنى القضاء⁽¹⁾، ونظيرة ذلك أيضاً قصة الفتى الذي ورث مالا كثيراً، فأتلفه في معايشرة القيان، فإن عقدة قصته قد تآزمت بشكل طبيعي دون تدخل خارجي طارئ⁽²⁾.

أما سائر القصص، فإنها تقدم عقدة تتآزم بفعل طارئ لم يكن من الممكن التنبؤ بدخوله إلى المسرح، وتآزيم العقدة. فمن ذلك أن العقق دخل طارئاً على حياة الزوجة التي كان يعشقها ابن عمها، فسرق خواتيمها، فأحدث الأزمة بفعل تدخله غير المحسوب⁽³⁾.

وفي قصة المرأة المعتزلية الجلدة كان ابنها عاكفاً على عمله في النهار، وعلى لهوه في الليل، في حين كانت هي عاكفة على صيامها في النهار، وقيامها في الليل، وظلت حياتهما

(1) انظر الملحق، قصة 57.

(2) انظر الملحق، قصة 78.

(3) انظر الملحق، قصة 54.

مستقرة على هذا المنوال إلى أن تدخل اللص في مسرح أحداث القصة، فتسارعت تلك الأحداث، وبلغت درجة التأزم إلى أن انتهت إلى ما انتهت إليه مما سبق بيانه⁽¹⁾.

ولا تكاد تختلف الأزمة في قصة الشبكة — وهي فرس ثمينة — عن قصة المعتزلية، ذلك لأن أوضاع بيت مالك الشبكة كانت مستقرة على حال لا يعلم الزوج أبعادها، فطراً هذا الراغب في سرقة الفرس، فأحدث الأزمة في خباء ذلك الرجل وفي حياته⁽²⁾.

هذان إذًا لسان مارسا اللصوصية كما مارسها العقق، وهذه أزمات نشأت بفعل هذا التدخل الخارجي من اللصوص الطارئین على بنية العلاقة بين شخص تلك القصص الرئيسيين.

أما في قصتي نباشة القبور ومعشوقة القرد، فالتدخل في كل منهما رجل لم يكن يعرف شيئاً عن حياة محور الحدث، وإنما دخل كل منهما إلى الحدث، وهو لا يعلم ما ينتظره، ولكن كلا منهما أحدث الأزمة في مسرح كان منتظماً، يتكرر فيه حدث لا يعني أكثر من أطرافه⁽³⁾.

ويتدخل المرض المفاجئ كحدث يؤزم حياة لبيب العابد، فإمساكه بذيل الحية وإثناؤها عليه، ومن ثم تعرضه لشلل يده بسبب لدغة الحية، لم يكن سوى حادث عابر، أما شلل يده الأخرى بعد زمان طويل من لدغة الحية، ومن ثم تعطل سائر أعضاء جسمه فجاء مفاجئاً دون سبب يعرفه، فنتج عن هذا المرض استحكام العقدة ونشوء الأزمة⁽⁴⁾.

(1) انظر الملحق، قصة 59.

(2) انظر الملحق قصة 62.

(3) انظر الملحق، قصة 61 و 82 على التوالي.

(4) انظر الملحق، قصة 84.

وفي قصة الأخوين العاشقين تبدو الأمور مستقرة ولو أثارَت بعض التساؤلات إلى أن تموت الأخت، فيكون موتها بداية لاستحكام العقدة ونشوء الأزمة في حياة أخيها، ومن ثم في حياة ابنتها ومالك البيت الذي كانت تسكن فيه⁽¹⁾.

وهكذا يلاحظ أن التأزم عند التتوخي كان مبعثه لصوصا، من الطير أو البشر، وغرباء أدخلوا إلى الحدث بفعل المصادفة، وأحداث طبيعية من ناحية، واستثنائية من حيث إنها لم تمر إلا لتحدث بداية لسلسلة من الأحداث الناشئة عن الأزمة.

غير أن المحقق في تفاعلات الأزمة وتوجهها نحو الحل، يلاحظ أن التتوخي يطوع مسرح الحدث عن طريق المصادفات أو عن طريق الخروج عن حدود المعقول، ففي قصة العقق السارق يصدم المرء قطعاً بما تفعله المصادفة من حر شديد في الطقس يقود المرأة إلى الاغتسال، ويقود العقق إلى سرقة خواتيمها في ذلك اليوم وفي تلك الساعة، ويقود عشيقها إلى أن يكون شاهداً على تلك السرقة، وأن يكون زوجها في ذات اللحظة عائداً إلى البيت، وكأن تلك الأحداث جميعاً تمت بإخراج محكم أحدث كل هذه المصادفات في آنٍ معاً، لم تتخلف واحدة عن موعدها، وإذا كانت كل واحدة من هذه المصادفات معقولة بمفردها، فهي في توافقها معاً جميعاً مدعاة إلى التساؤل في مدى مطابقتها للمعقولة⁽²⁾.

وفي قصة المعتزلية الجلدة يدخل اللص خلف الابن الصيرفي، فلا يشعر به الأخير الذي يلقي كيسه إلى أمه⁽³⁾.

(1) انظر الملحق، قصة 67.

(2) انظر الملحق، قصة 54.

(3) انظر الملحق، قصة 59.

ويتحرك اللص في المنزل ويجد في البيت جذوة من نار وبخوراً، فيضعه في النار والعجوز غافلة عن كل ذلك، ويتساءل المرء عن غرابة هذا البيت الذي ليس فيه خادم ولا جارية ولا كلب ولا أي مخلوق آخر، فهذه ليست طبيعة البيوت في ذلك الزمان، لا سيما بيوت رجال يجمعون الأموال، ويكسبون جيداً كما هو شأن الصيارفة، والواضح أن المسرح هنا مطوع لطبيعة الحكمة، وليست الحكمة خاضعة لمتطلبات المسرح.

وتقدم قصة نبأشة القبور أمثلة صارخة على مجافاة المعقولية، فالليلة مقمرة خدمة لملاحق النبأشة، ولكن الأبلغ هو أن الدم النازف من يد الفتاة المبتورة لا يقوم علامة على شيء ولا دليلاً لأحد، رغم ما ينتظر من غزارة نزف الدم بعد مسيرة الذهاب إلى المقبرة والنبش الكثير في القبر والبتز والعدو من المقبرة إلى دار القاضي⁽¹⁾. ويتساءل المرء كيف لم يتنيه أهل البلد إلى هذا الخط من الدم المتصل من المقبرة إلى بيت القاضي؟ وكيف لم يستدل بذلك الطارئ المسمى أبا المغيرة؟ ويتساءل المرء كيف استطاعت هذه النبأشة أن تبقى على قيد الحياة بعد كل هذا النزف؟ بل إنها لم تفقد وعيها وبقيت مسيطرة على كل شيء، كأن النزف لا يسبب أكثر من بعض الشحوب على الوجه وبعض الاسترخاء في الجسم.

ويتساءل المرء كيف بقي القاضي نائماً وقد نشأت هذه الجلبة في بيته حين عادت الفتاة إلى بيت أبيها، وأيقظت أمها ودار بينهما الحوار، فقامت الأم وغلت الزيت ثم كوت يد الفتاة بالزيت حتى انقطع الدم.

(1) انظر الملحق، قصة 61.

يتساءل المرء أيضاً عن الوقت الذي استغرقه إنجاز الكي، وعن الإعدادات اللازمة لغلي الزيت في ذلك الوقت الذي كانت النار فيه توقد بجهد ومشقة؟ والأم تغسل الدم حتى في بيتها، ومع هذا فالقاضي بقي نائماً كأنه من أهل القبور.

هذه مفارقات عجيبة يبدو أنها أغفلت أو نسيها الخيال، فسار الحدث في مرحلة التأزم كأن هذه الاعتبارات غير متاحة وكأنها استثناء من الأمر الواقع، ويتساءل المرء كيف استطاع القاضي أن يزوج ابنته خلال ساعات من رجل غير معروف في البلد، دون إثارة أي تساؤلات من قبل المحيطين به حتى ولو كانوا لم يشاهدوا دماً ينتهي عند باب بيته؟

هذا خروج واضح عن المعقولية غفل عنه الخيال كي تتتابع الأحداث وتتلاحق من نقطة التأزم إلى نقطة الحل.

ومنذ تأزم قصة الشبكة بطلب أهل المخطوبة أن تكون هذه الفرس في مهرها، تتوالى أحداث غريبة تبدأ من دخول طالب الفرس إلى حي مالكا دون أي يشك به أحد رغم تكرار مراقبته لخباء ذلك الرجل، ويفرض السياق ألا يكون في بيت هذا الرجل مصباح يستضيء به حتى وهو صاحب فرس لا تقدر بثمن، ويتجرأ طالب الفرس فيجلس في الظلمة ما بين الرجل وزوجته يتناول معهما الطعام، ولا يفتن إلى وجوده أحد، فكأنه هو القادر على الرؤية في الظلمة وهما عاجزان عن ذلك، ثم ينامان ويعلم هذا الطارق رغم الظلمة أن مفتاح قيد الفرس تحت رأس المرأة، وليس تحت رأس الرجل وهو مالكا الذي لا يتخلى عنها بثمن، وتتحرك المرأة في العتمة نحو العبد فتهتدي إلى طريقها ويراهها ولا تراه هي ولا يراه العبد الأسود، ويتحرك نحو الفرس ويفكها ويلجمها ببسر ولا يشعر به أحد حتى ينجز مهمته⁽¹⁾.

(1) انظر الملحق، قصة 62.

كلها مفارقات لولاها لحبط عمل هذا الطارق ولمسه مكروه، ولربما استحال عليه بعد

ذلك تحقيق ما يسعى إليه.

وشبيه بهذا المشهد ما ورد في قصة صيد من أن الضحية لما اقتيد إلى البيت أول مرة،

أغلق عليه الباب فأخذ ينصت إلى ما يجري في الخارج، فاستنتج أن الذي قدم عبداً أسود ذو

جسم ضخّم، واستنتج لمجرد السماع أن الأسود وطئ الجارية عشر مرات أو خمس عشرة

مرة⁽¹⁾.

وإنه لمن الطريف حقاً أن يكون السمع دالاً على لون البشرة أو ضخامة البنية أو ما

شابه ذلك من الخصائص، والمهم أن بعض الأشخاص يتمكنون من التحرك في الظلمة

ويتميزون على سائر الناس بهذه القدرة تمهيداً لتصديق الأحداث التي تجري.

خلاصة القول إن العقدة عند التنوخي كانت تبدأ في الغالب من ظرف طارئ لا علاقة

له بمسرح القصة، إضافة إلى أنه يخرج الحكمة عن المعقول والمألوف في خدمة مسار

الأحداث من نقطة التآزم إلى نقطة الحل، ويضع الحكمة والحل والخاتمة " لمنطق القص لا

لمنطق العقل"⁽²⁾.

(1) انظر الملحق، قصة 68.

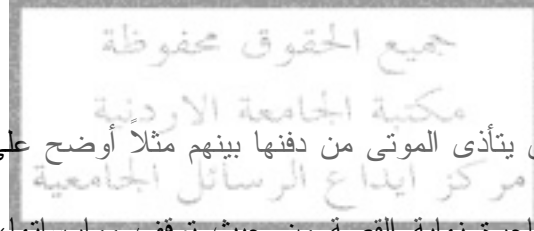
(2) انظر الوسلاتي، البشير، (1997). القص في أخبار الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي، حوليات الجامعة

التونسية. م (41)، ص 102.

الحل والخاتمة عند التنوخي

تتنوع حلول العقد لدى قصص التنوخي الإخبارية. فهو في بعض القصص يقدم حلاً عادياً مقبولاً ضمن منطق الأحداث، في حين أنه يعتمد إلى غير ذلك في قصص أخرى، أما أن يقتل القاتل، وأن يسلم اللص إلى صاحب الشرطة، أو أن يحكم القاضي في ضوء البيئة المتاحة فأمور عادية يفرضها المنطق السائد وسياق الأحداث⁽¹⁾.

ولكن ترك البلد خلصة بعد دخوله خلصة يترك من الأسئلة أكثر مما يحل من العقد، ويقدم من الأجوبة. ويفطن الراوية إلى ذلك فيذكر أنه لم يلتق بعد ذلك بنبأشة القبور ولا بأبيها، ولم يعد إلى ذلك البلد⁽²⁾.



وتقدم قصة من يتأذى الموتى من دفنها بينهم مثلاً أوضح على مثل هذه الخاتمة، فإذا اعتبر موت المرأة الفاجرة نهاية القصة من حيث توقف ممارساتها، فالقصة قد انتهت بحل حاسم، وأما إذا كان الموت مبدءاً قصة الفتى الشاب فإن نهاية السرد توقفت عند عقدة التآزم دون أن يعطى القارئ أي إحياء بما نجم بعد ذلك من تصرفات⁽³⁾.

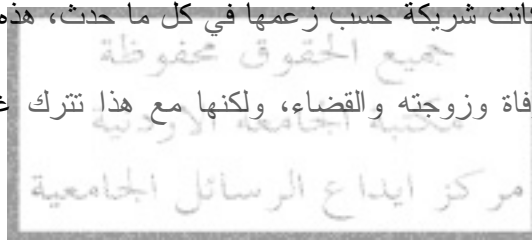
ولا يستطيع القارئ وحيداً أن يتصور ماذا سوف يحدث إلا أن يكون متخصصاً بالأحوال الشخصية لمقتضى الشريعة الإسلامية وبعلم النفس وخصوصاً سيكولوجيا الصدمة وعلم الاجتماع في آن معاً، بل إن الرجل الذي رأى الرؤية وسمع احتجاج أهل المقابر قد خرج من المشهد حائراً في باقي ما صدر عن تلك المرأة من معاصٍ وأثام.

(1) انظر الملحق، القصص 54، 59، 57 على التوالي.

(2) انظر الملحق، قصة 61.

(3) انظر الملحق، قصة 66.

وتكفي إثارة بعض الأسئلة المتخصصة حتى تتبين المشكلات التي تركت دون علاج،
وتصلح أن تكون مبدأ لنقطة التآزم في قصة أخرى، فيتساءل المرء عن الوضع الشرعي للشقيقة
الزوجة؟ وعن الوضع الشرعي للأولاد من هذا الزواج؟ وإلى من ينسبون شرعاً؟ ومن يتولى
شرعاً الإنفاق عليهم؟ ومن هو وصيهم؟ ومن صاحبات حق الحضانة لهم حتى سن البلوغ؟ وما
هو الوضع الشرعي للطلاق الذي وقع على الزوجة الأولى وهو غافل عن الظروف التي دفعته
إلى إيقاع الطلاق عليها؟، أسئلة كثيرة وأجوبة قليلة قد تضع أهل الاختصاص في دوامة بعد
دوامة، وتبقى المسألة الكبرى التي سيتنبه إليها كل متخصص وهي مدى جواز الأخذ بالشهادة
الفردية لعجوز فاسقة كانت شريكة حسب زعمها في كل ما حدث، هذه المسألة ستكون جوهرية
في حسابات ابن المتوفاة وزوجته والقضاء، ولكنها مع هذا تترك غمامة تظل تعصف بهذه
العائلة.



ويجد المتأمل في قصة الأخوين العاشقين وضعاً شبيهاً بهذا إذ إن موت الشقيقة وبعدها
موت الشقيق كان سبباً في بداية تآزم قصة الطفلة التي لم تحل حلاً مرضياً، على الرغم من
عودتها في وقت مبكر من عمرها إلى ذلك الرجل الذي لا يصلح شرعاً أن يكون جدها، لأنها
ولدت على غير فراش الزوجية فلا يصح لها نسب إلى أبيها ولا إلى جدها⁽¹⁾.

وفي مقابل ذلك عمد التنوخي إلى نهايات طارئة لم تكن في الحسبان، تماماً كما اعتمد
عوامل تآزيم طارئة غير محسوبة منذ الأساس.

ومن النهايات المفصلة تلك التي وردت في قصة الرجل الذي ورث مالا فأنفقه، ووصل
به الأمر إلى أشد الفقر والمهانة، فلم يتعظ عن معاشرته القيان إلى أن تلقى إهانة لم تحركه هي

(1) انظر الملحق، قصة 67.

الأخرى حتى يقوم، فيبتغي الرزق بعمله، بيد إن حل عقده كان بموت مولى لأبيه وابن عم له في يوم واحد في مصر، فحصل له من تركتهما أربعون ألف دينار، فصلحت حاله وعاد إلى نعمة متوسطة⁽¹⁾.

ويستغرب المرء كيف تتضافر العوامل فيموت المولى وابن العم في يوم واحد، ويترك كل منهما مالا يصيبه منه خير كثير، ويكفي لبيان المفارقة أن ابن العم المتوفى كان بمقتضى ما يستوجبه السياق قد مات كلاله دون ولد ولم يكن له أب، ولا حفيد، ولا جد، ولا عم حتى يصل هذا المال إلى هذا الملقى في القطن لا يملك ما يقتات به، فإذا كان له ورثة من أصحاب السهم النسبي في التركة كالزوجة التي ترث الربع والابنة التي ترث النصف أو الابنتين اللتين ترثان الثلثين⁽²⁾ فإن كان له شيء من هذه القرابات وبقي بعد ذلك من المال ما اغتنى به هذا الوارث فلا بد أن تكون تركته كبيرة حقاً وإن أحد لم يتجرأ عليها في مصر وهو مقيم في العراق لا يملك دفع الاعتداء.

ومن ذلك ما مر به لبيب العابد من شفاء طارئ عاجل غير أوضاعه في أقل من ليلة بعد مرض طويل لم يكن يرجى البرء منه⁽³⁾.

أما الكلب الذي قتل من ضاجع زوجة صاحبه فكان في الحقيقة مبدأ التأزم في العقدة، ونهاية التأزم عن طريق قتلها، وحل العقدة حلاً نهائياً حاسماً ترك الزوجة في أسى من ناحية وفي سكينه من ناحية أخرى، إذ تخلص من غدر زوجته وصاحبها وأمن إلى وفاء كلب⁽⁴⁾.

(1) انظر الملحق، قصة 78.

(2) انظر الملحق، قصة 84.

(3) انظر الملحق، قصة 71.

(4) انظر الملحق، قصة 71.

وتقدم قصة التمساح شكلاً مستغرباً من أشكال حل العقدة، فالمرأة ادّعت في أول الأمر أن التمساح وطئها فحملت منه، وسرت الشائعة بين الناس وتقبلوها، ثم عادت فأوردت قصة أخرى كان من شأنها أن تضعها في مشكلة بعد أن أنقذت منها، وكان الحل على كل حال في مسألة عقدة الوقوع تحت سيطرة التمساح أن مجموعة من الخيالة والمشاة مروا بالقرب من الغار فاستغاثت بهم فأنقذوها، وجاء هذا مناقضاً لما كان قد ورد من أن التمساح كان يلقي بمن يأخذهم في مغارات لا يصل إليها الماشي ولا سالك الماء لبعدها عن الجهتين⁽¹⁾.

فهنا يبدو أن التماسك بين منطلق التآزم ونهاية الحل متضارب متناقض لا يبقى للقصة درجة من المعقولية أو المصدقية فيفقد قيمتها كعمل إبداعي وكخبير من الأخبار التاريخية أو التسجيلية.

وهناك قصة فريدة من نوعها من بين قصص التنوخي المنتقاة من حيث إنها تتكون في الحقيقة من قصتين، فالقصة الأولى قصة صوفي متوكل على الله أراد أن يضرب للناس مثلاً على رحمة الله بعباده إذا توكلوا عليه، وأسلموا أمرهم إليه، فألزم نفسه ألا يذوق مأكولاً، أو يبعث إليه، بجامة فالودج حار وألزم نفسه ألا يأكل إلا بعد أن يحلف عليه واستمر على عهده إلى أن كاد يتلف من الجوع.

والقصة الثانية أن رئيس القرية التي نزل فيها هذا الشيخ طلب من أهله فالودجاً فتأخروا عليه في إعداده فحلف بالطلاق لا يأكله أحد من أهل داره، ولا أحد من أهل قريته، ولا يأكله إلا رجل غريب، فبلغت هذه القصة ذروتها من التآزم في حين بلغت القصة الأخرى ذروتها، ولو لم تلتق أحداث القصة الأولى بالقصة الثانية لهلك الشيخ جوعاً ولطلقت امرأة

(1) انظر الملحق، قصة 83.

رئيس القرية، ولولا أن الجارية عثرت على الشيخ وهو في حال التلف، ولولا أنها صفعته وأعلمته أن ما تحمله كان فالونجاً لما حلت عقدة أي من القصتين، فكان حل عقدة كل قصة بعقدة الأخرى، وهذا في عرف الناس مصادفة تخرج عن المؤلف وإن كانت في عرف الصوفي وجماعته من الأمور المعتادة⁽¹⁾.

والواضح أن التتوخي كان معنياً بفكرة وقوع الفرج بعد الشدة، فجاءت الحكمتان والعقدتان والحلان محققة جميعاً لهذه الفكرة، وهي فكرة يرتاح إليها الناس طبعاً وإن كانت في عداد المستبعد الأدبي.

وفي ضوء منانة الارتباط بين القصتين لم يعتبر هذا البحث قصة الجارية سرداً، من الدرجة الثانية⁽²⁾، بمعنى إن قصتها ثانوية قياساً على قصة الصوفي، ومن ناحية أخرى ما كان ليحدث فرق يذكر في الأداء الأدبي لو أن السرد بدأ من رواية الجارية لما حدث معها حتى انتهى إلى الصوفي الذي أبلغها بما كان قد حدث.

(1) انظر الملحق، قصة 60.

(2) انظر المرزوقي، مدخل إلى نظرية القصة، ص 100-101.

ملاحظات عامة حول التشكيل عند التنوخي

"اليوم تميز النظريات الحديثة بين راوٍ وكاتب، فالراوي هو وسيلة أو أداة تقنية يستخدمها الكاتب ليكشف بها عالم قصة أو ليبث القصة التي يروي"⁽¹⁾. "إن السارد في القصة ينظم الأحداث وفقاً لمخطط سببي وزمني بل تفسيري عندما يكشف الأحداث ويمنحها قيمة شمولية أو تمثيلية." (1)

لدى اختبار أداء التنوخي في قصصه الإخبارية لا يبدو عسيراً الإستنتاج بأنه كان في الدرجة الأولى كاتباً، بمعنى أنه هو الذي ابتكر (الراوي)، وأجرى على لسانه المروي كله وطوّع له المسرح والشخص والعقدة والحل والخاتمة. ومع أن يمى العيد تشير في الاقتباس السابق إلى أن هذا التمييز بين الكاتب والراوي قد أخذ يتبلور في النظريات الحديثة أواخر القرن العشرين، فإن هذا التمييز كان واضحاً بالنسبة للتنوخي ولو لم يكن معلناً ذلك لأنه كان يقدم نفسه على أنه راوية لأخبار صادقة قبسها عن غيره أما المحقق في قصصه الإخبارية فإنه يلمس ميله الواضح إلى تبوؤ موقع الكاتب الذي يصنع الرواة. وعليه فإنه هو أيضاً السارد في حدود ما عرفه ميشيل رايمون من حيث إنه يعرض الأحداث دون إبداء بأنه يضيف عليها صفة تمثيلية أو شمولية. فإذا صح ذلك - والدلائل عليه كثيرة كما سلف- فالتنوخي كان كاتباً يريد لإبداعه ألا يضيع سدى في ساحة أدبية تحترم النقل المأثور المعزز بالسند المثبت المتصل مباشرة بالخبر.

(1) انظر العيد، يمى، تقنيات السرد الروائي، ص 89.

وتلح القصص الإخبارية التي أوردتها التتوخي وذكر فيها النساء على نقطة جوهرية هي الرغبة في ممارسة كتابة القصص الإبداعي على منوال القصة القصيرة المعروفة في هذه الأيام كما سلف بيانها في توطئة هذا الفصل⁽²⁾.

والقصص المنتقاة تؤكد ذلك بشكل خاص، إذ إنها تحتوي على بواكير المعالم الرئيسية التي تتشكل منها القصة القصيرة، ولكن الرجل لم يتمكن من التخلص من النمط السائد بالكتابة التسجيلية لأحداث تاريخية يغلب عليها طابع التوثيق والتحرر من الرواية غير المسؤولة، وكان ميله إلى التكرير وانقطاع السند أو إدخال عنصر من عناصر ضعف الإثبات دليلاً واضحاً على الرغبة في أن يطلق لخياله العنان. "والحق أن جُلّ الأخبار التي تضاعل فيها التوثيق كانت أكثر إمتاعاً وأقرب من الأدبية"⁽³⁾، ولكن التتوخي لم يصل تماماً إلى كتابة القصة القصيرة، ولم يصل إلى إيجاد جنس أدبي مستحدث، بل بقي موزعاً ما بين التقليد والتجديد.

ولعل خيال التتوخي بلغ مداه في قصص ثلاث تستوقف القارئ، وتترك في نفسه أثراً عميقاً. أما أولاها فقصّة نباشة القبور التي تكاد تحقق شرائط القصة القصيرة، وتكاد تنسي القارئ متطلبات المعقول وغير المعقول كما سلف بيانها، والقارئ الذي يمر على هذه القصة مروراً سريعاً يتقبلها، وربما برر ما حدث أو فسره حتى لا تنهدم لديه بنية هذا الخبر.

أما القصة الثانية فهي قصة المرأة التي يتأذى الموتى من دفنها عندهم، فهي تثير في المرء فضولاً ودهشة وعجباً. وإنه لينسى ما تخلفه هذه القصة من إشكالات عملية، فإذا تذكرها ازداد تعلقاً بالقصة ورغبة في تدقيقها والإبقاء على بنيتها.

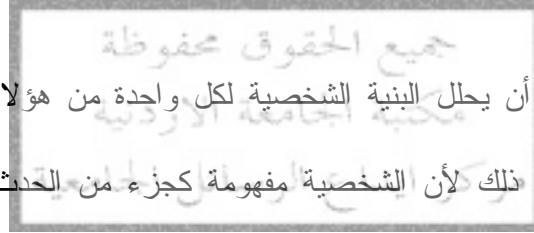
(1) انظر بارت، رولان، طرائق تحليل السرد الأدبي، ص178.

(2) انظر التوطئة، ص 126-130.

(3) انظر الوسلاتي، القصص في أخبار الفرج بعد الشدة، ص110.

أما الثالثة هذه القصص فقصة القهرمانه التي أدخلت عشيقها إلى دار الخلافة في صندوق، فهذه القصة تشبه كثيراً تعقيدات القصص الشعبي، ويكاد القارئ يغفر للقهرمانه عدوانها على دار الخلافة وهو مأخوذ بطرافة ما حدث⁽¹⁾.

ولعل العنصر المشترك في محاولات التتوخي الناجحة هو رسم شخصية غريبة للمرأة التي هي محور الأحداث في كل قصة، مع أن الشخصية ليست هي العنصر الأساسي في هذه القصص جميعاً، فهي قصص تقوم أساساً على الحدث، وتستخدم الأشخاص أدوات لحركة الأحداث وتآزمها وحلها، ولكن الشخوص في القصص الثلاث آنفة الذكر تبقى شخوصاً ماثلة في الذاكرة.



ولو أراد أحد أن يحلل البنية الشخصية لكل واحدة من هؤلاء النسوة أو من الرجال المستغفلين لعسر عليه ذلك لأن الشخصية مفهومة كجزء من الحدث الذي هو الأهم، ولعل التتوخي كان يريد أن يرسل برسالة إلى الرجال ينبههم من خلالها إلى وجود نساء خارجيات عن المؤلف، ويحذرهم فيها من كيد هؤلاء النسوة كعظة مستخلصة من الحدث، وبروز النسوة ذوات التصرفات المستغربة تعزيراً لهذه الرسالة.

وعلى الرغم من أن المحلية استعيرت في هذه القصص إلا أنها كانت غير جوهرية في أحداث القصة، فالغاؤها وإلغاء أسماء الأمكنة لا يغير شيئاً من البنية القصصية، الأمر الذي يضيف على هذه الأعمال مسحة إنسانية تتجاوز الزمان والمكان. ولا أدل على ذلك من أن هذه القصص لا تزال تلقى قبولاً عند من يقرؤون التتوخي رغم اختلاف الزمان والمكان.

وليس من الإنصاف في هذا البحث إن ينسب إلى التتوخي أنه كان أو لم يكن " يعي

(1) انظر الملحق، القصص 61، 66، 73 على التوالي.

فلسفة الزمان وموقعه الهام من عناصر الأقصوصة⁽¹⁾. فتجاوز الزمان يعطي التجربة المكثفة زخماً إنسانياً كونياً أكبر من إن يحصر في نطاق زمني واحد. وكذلك القول بالنسبة للمكان فهو في بعض قصص التنوخي - كما سلف بيانه - مجرد إطار آني يصلح الحدث في غيره دون مساس به أو بالشخص. فالقصة القصيرة ليست معنية بوصف المكان باعتبارها ليست مقالة في الآثار ولا في الجغرافيا. والكاتب المعني بالحدث يهتم بجوهر الحدث ولا يهتم كثيراً بمتغيرات لا تقدم ولا تؤخر في الحوار أو في الحدث أو في الحل. وهذا البحث لا يتفق مع ما ذهب إليه محمود تيمور بهذا الخصوص وهو بالتالي لم يناقش ما إذا كان التنوخي على علم

بفلسفة الزمان والمكان، وأثرهما وأثر أي منهما في تشكيل بنية القصة.

ولا يبدو صحيحاً بحق قصص التنوخي الإخبارية القول: "إن واحداً من الأزمنة الخارجية - التاريخ - قد صار زمناً داخلياً بالضرورة هو زمن الحكاية"⁽²⁾. ذلك لأن الأحداث في قصص التنوخي الإخبارية ليست مرتبطة بأزمة محددة بعينها كما هو الحال في قصة الصغير "فنسيح (قصة الصغير) يتشكل من العلاقة التي تنشأ بين الصبي والبندقية زمن حدوث الفعل القصصي ويمكن تقديره بأعوام الأربعينات الأولى في فلسطين رغم أن ذلك لا يرد في السياق ولكننا نقدر ذلك بسبب الصدمات التي تحصل بين العرب واليهود في فلسطين"⁽³⁾.

فكل من نباشة القبور والمرأة التي كرهها الموتى⁽⁴⁾ يمكن ربطهما في أي زمان من الأزمنة الإسلامية بدأ من العصر الأموي حتى نهاية القرن التاسع عشر. ويصدق القول على

(1) انظر تيمور، محمود. دراسات في القصة والمسرح. القاهرة: المطبعة النموذجية، ص23-42.

(2) الرقيق، عبد الوهاب، في السرد: دراسات تطبيقية، ص28.

(3) انظر صالح، فخري، أرض الاحتمالات، ص16.

(4) انظر الملحق، القصتين 62 و63 على التوالي.

سائر قصص التتوخي ولو مع تعديل طفيف في بعض الألفاظ كاستبدال القهرماننة بالخدمة، واستبدال قصر الخلافة بأي بيت آخر من البيوت الثرية.

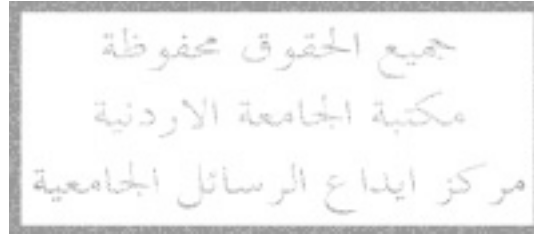
ومما يسهل على القارئ تذوق هذه القصص أنها جاءت بلغة سهلة التناول تكاد تخلو من الألفاظ الصعبة إلا ما كان منها مرتبطاً بالشائع من أصناف الأطعمة الفارسية في ذلك الزمان كالفالودج وديكبريكة ومرق السكياج إلى آخره⁽¹⁾.

من كل ذلك يتبين أن قصص التتوخي الإخبارية كانت قصص أحداث لا قصص أشخاص أو قصص أفكار. فهذه القصص لم تتحُ منحى السير الذاتية أو منحى القصص الشعبي أو قصص المعاناة الاجتماعية، فلم تكن آلام الأشخاص وآمالهم ولا مطامعهم ولا مطامعهم ولا مشاربهم موضع الاهتمام في القصص المذكورة. وقد تراجعت حتى فكرة الفرج بعد الشدة في القصص الإخبارية وغلب طابع الحدث بحيث لم يبق مكان لتثبيت هذه الفكرة. ويبقى أن الحدث هو الذي طوع الأشخاص والمكان والزمان والعقدة والحل. وبدهي أن هذا التصنيف المستخلص من قراءات الباحث وتصنيفاته لا يعني وجود خط فاصل تماماً بين كل نمط من هذه الأنماط فهي أنماط قد تتقاطع وتتداخل ولكن الفكرة المهيمنة هي محك التمييز بين كل نمط وآخر.

و لن يكون التتوخي قد استوفى حقه حتى يشار إلى أنه كثيراً ما تمكن من صرف عناية القارئ عن الواقع المعروف إلى واقع متصور دون إن يقصد في ذلك إلى التضليل، فاليهودي الذي انتقاه القرد ليعده سارقاً⁽¹⁾ يبدو عرضة لإقامة حد القطع عليه، ولكن ذلك مستحيل عقلاً وشرعاً لأن الناس لا يدانون بشهادة القرد ولا سيما وأنه لم تقم قرينة أخرى على أن اليهودي كان حائزاً على كيس النقود المسروقة، ويشبه ذلك ما سلف بيانه عن الدم النازف من يد نباشة

(1) انظر دوزي، رينهارت، (1980). تكلمة المعاجم العربية، ترجمة محمد سلم النعيمي. بغداد: دار الرشيد للنشر.

القبور⁽²⁾ بعد إن أبانها الرجل الطارئ الذي اختار أن يقضي ليلته في مقبرة لا في خان أو نزل. كل هذا دليل على مهارة في الأسلوب تمكن التتوخي من استخدام السرد استخداماً ممتعاً مؤثراً و إن يكن في نطاق القصة الإخبارية لا في نطاق القصة القصيرة بمعاييرها وأشراتها المحدثة. و إذا كان ثمة قول إجمالي في مكانة التتوخي الأدبية فمن المؤكد أنه كان شديد الميل إلى التحرر من القصة التسجيلية، و التوجه باتجاه القصة القصيرة.



(1) انظر الملحق، قصة 82.

(2) انظر الملحق، قصة 86.

خصائص قصص التنوخي التسجيلية

القصص التسجيلية كما سلف بيانه في توطئة هذا الفصل هي تلك القصص التي تسعى إلى توثيق الحقائق التاريخية، و تهتم كثيراً بالدقة و الصدق، و تحري عدالة رواية الخبر، مستخدمة في ذلك أساليب علماء التأريخ، و تعتمد رواية هذه القصص على نقل كلام من شاهدوا الحدث أو عاصروه، أو نقل رواية من استمع إليهم من اللاحقين رواية رواية حتى يتحقق للرواية الأخير يقين بصحة الخبر⁽¹⁾. و لدى دراسة القصص التسجيلية المنتقاة من أدب التنوخي يتبين أن كثيراً منها نقلت بهذا الشكل، و أنها حظيت بإجازة من رواها له، كما قرئت عليه بعضها قراءة فما كان له من دور إلا التسجيل المحض. و هذا يستتبع أن السرد لا يمكن أن ينسب إليه بل إلى من استمع منهم أو أخذ عنهم⁽²⁾.

و يلاحظ بصورة عامة أن هذه القصص بنيت على التتابع التاريخي للأحداث بدءاً من مستهلّ الحدث، و انتهاء بخاتمته، و يتبين هذا جلياً في قصة صفوة و ابن عمها إياس فقد بدأت القصة من علاقة والد إياس بأخيه فهر توصلت إلى مولد إياس بعد يأس و بلوغه سن الرجال، ثم إرساله في مهمة كلفه بها والده فوقعه في حب ابنة عمه صفوة بنت الفهر و انتهاء بزواجه

(1) انظر فهد، بدري، القاضي التنوخي وكتاب النشوار، ص77.

(2) انظر الملحق، القصص 52، 56، 58، 64، 65 على سبيل المثال.

منها بعد طول معاناة⁽¹⁾. و ترد على ذات الوتيرة من السرد قصة الخليفة العباسي المنصور الذي جلس في إحدى قباب بغداد، فاستشعر بأس أحد المارة فدعاه إلى مجلسه، فعلم منه أنه أحرز مالاً كثيراً من تجارة، فأودعه لدى أهله، فأعلمته أنه سرق، فرسم المنصور⁽²⁾ شركاً لتبين حقيقة الأمر عن طريق إعطاء الرجل عطراً لا يستعمله إلا الخليفة، فأعطاه بدوره لزوجته، فأعطته بدورها إلى عشيقها فوقع في شرك رجال الشرطة كما خطط المنصور. ذلك هو نمط التوثيق التاريخي لا يتجاوز تثبيت الحقائق، و لا يعنى بأي إبداع أدبي أو ابتكار.

وإذا كانت قصة المنصور و العشيق اللص تنطوي على شكل من أشكال العقدة والصراع، فإن كثيراً من قصص التتوخي التسجيلية لا تنطوي على شيء من ذلك، و هذه هي حال جميلة أخت عضد الدولة التي لم يتجاوز دورها ممارسة النشاط الإداري و السياسي تعاوناً مع شقيقها⁽³⁾. و لا يزيد الأمر عن ذلك في قصة عائدة الجهنية⁽⁴⁾.

وإذا كانت أخبار شغب أم المقتدر قد اتصفت بالميل الجامح إلى التبذير، و جمع المال، و من ثم إلى تحمل أعباء الدائرة إذ دارت، فإن السرد كان أيضاً تقريرياً يتتبع الحدث بعد الحدث توصلاً إلى زوال هيمنتها و عودتها فقيرة ذليلة⁽⁵⁾، كل ذلك دون عقدة بالمعنى الأدبي المهتم بالإبداع الفني والجمالي.

(1) انظر الملحق، قصة 65.

(2) انظر الملحق، قصة 73.

(3) انظر الملحق، قصة 51.

(4) انظر الملحق، قصة 58.

(5) انظر الملحق، القصص 52، 53، 55، 56.

و ليس بوسع القارئ أن يعدّ ترقب خالة المقنتر إذ آوت أبا جعفر الشيرزاد من قبيل العقدة⁽¹⁾ فإن مسألة الإيواء و الإجارة كانت أمراً عادياً شائعاً في تلك الأزمنة. و إذا كان الأمر قد وصل بإسحاق المصعبي إلى توتر شبيه بتوتر شخوص القصص الإبداعية فإنه لم يكن يجتاز عقدة أو أزمة إبداعية؛ لأن الحل كان جاهزاً لديه و هو قتل بناته الخمس جميعاً حتى لا يقعن في حبال الرذيلة كما وقعت من قبلهنّ بنات مجموعة من الأعيان اطلع على أخبارهنّ من خلال رقاع أصحاب الأرباع ببغداد⁽²⁾.

و كثيراً ما كانت أسباب الصراع تقلب المزاج أو تغير الزمان و تبدل أحواله كما هي الحال في قصة هدية مع الأمين، و قصة مزنة زوج الخليفة مروان بن محمد مع الخيزران، و زينب بنت سليمان⁽³⁾.

أما الخاتمة و الحل في قصص التنوخي التسجيلية المنتقاة فلم تكن تخرج عن النهايات الطبيعية المرتبطة بالحدث ارتباط النتيجة بالسبب، فرضا الخليفة الأمين عن عمه إبراهيم بن المهدي كان نتيجة عادية منتظرة تحققها هدية ثمينة مثل الجارية المسماة هدية المدربة على مداعبة مشاعر عليّة القوم⁽⁴⁾، و تطفل إسحاق الموصلي المغني على بيت من بيوتات بغداد العريقة قد انتهى باستحسان الخليفة و الحصول على مكافأة بسبب العثور على جارية متميزة في الغناء و العزف على العود⁽⁵⁾، هذا على فرض أن إسحاق الموصلي كان يمر بأزمة أو بعقدة.

(1) انظر الملحق، قصة 80.

(2) انظر الملحق، قصة 79.

(3) انظر الملحق، قصة 81.

(4) انظر الملحق، قصة 76.

(5) انظر الملحق، قصة 85.

ولا يمكن بحكم ما سبق التصدي لشخص هذه القصص التسجيلية التي رواها التتوخي تصدياً أدبياً، لأن كلاً منها كان شخصاً حقيقياً ينبغي فهم تركيبته من خلال علم النفس والعلوم الاجتماعية و التعايش المباشر عندما يكون ذلك ممكناً. وليس في هذه القصص وصف للسمات الشخصية كالجسم والصوت و ملامح الوجه. و إذا ورد شيء من ذلك فهو لغايات تثبيت الحدث

لا أكثر.

خلاصة القول في هذه القصص التسجيلية التي رواها التتوخي أنها كانت أخباراً موثقة حسب تقديره مفادها إلقاء الضوء على شخصية تاريخية حقيقية عاشت في زمن معروف ومكان معروف؛ و هذه القصص لا تشبه ما يعرف بالقصص التي ينتزع شخوصها و عقدها و حلولها من وقائع مادية موثقة مع إعطاء السرد طابعاً أدبياً ومع إعادة رسم الشخوص رسماً إبداعياً قد يتطابق أو لا يتطابق مع حقيقة الشخصية الأصلية. ومن ذلك يستنتج أن قصص التتوخي المنتقاة كانت تدرج ضمن فئتين: إحداهما تسجيلية معنية بالاعتبارات التاريخية، أما ثانيتهما فتدرج ضمن محاولات للتحرر من هذا النمط التاريخي باتجاه الكتابة الإبداعية و خصوصاً نحو ما عرف في الأدب الحديث بالقصة القصيرة.

الخاتمة

بعد أن تسنى إنجاز المراحل البحثية التي رسمت مسبقاً في المقدمة أصبح الآن متاحاً تسجيل النتائج التي كشفت عنها هذه العملية البحثية عسى أن يكون فيها جدوى كما توسم الباحث في مستهل مسيرته هذه.

ويمكن القول- على كل حال- إن مشكلة الفضول العلمي أنه لا يرتوي ولا يشبع، فالفضول يقود إلى مزيد من الفضول، والذهول يقود إلى مزيد من الدهول.

كانت نبأشة القبور هي التي أذكت شعلة هذا النشاط البحثي، والحقيقة أنها بقيت في آخر المسيرة البحثية شاهداً ودليلاً على أن التتوخي كان شديد النزوع إلى تجسيد خياله أدباً مثيراً يستولي على ذهن القارئ. وقيد هذا النزوع ذلك النمط الذي كان سائداً لدى الإخباريين من رغبة في إسباغ الصدق والمصدقية على الخبر المروي تحاشياً للوقوع في رذيلة الكذب. ولربما كان عسيراً على الوجدان العربي أن يتقبل الخيال على أنه حقيقة أو على أنه أمر مشروع في الخبر، وإن يكن قد هضمه وتمثله في الشعر. وهكذا بقي التتوخي معلقاً ما بين القصة التسجيلية والقصة القصيرة التي لم يتقبلها العالم العربي إلا حديثاً. وما كان للتتوخي أن يؤسس لجنس أدبي مستقل يسمى القصة الإخبارية، ويظهر أنه حاول الإبقاء على الروايات كما تلقاها عن أصحابها، ويدل على ذلك الألفاظ العامية والأعجمية الواردة في المرويات⁽¹⁾، ذلك لأن طبيعة هذه القصص لاتسمح لها بالانفلات من هيمنة القصص التسجيلية.

وانضمت إلى نبأشة القبور مجموعة من النسوة في مرحلة مبكرة من مراحل هذه المسيرة البحثية، كلهن اتصفن بالغرابة ولو على درجات، ولكن قصص هؤلاء النسوة كانت واضحة الدلالة على أن التتوخي لم يكن معنياً برسم صورة سلبية للمرأة في شعوره على الأقل،

(¹) انظر فهد بدري، القاضي التتوخي وكتاب النشوار، ص 77.

فهو قد كان مشغولاً بالخيال على ما يبدو أكثر من انشغاله بتقديم النساء في قالب جامد يضعهن في سوية متدنية عن سوية نظرائهن من الرجال، فالغرائبية كانت تتحو أحيانا نحو تصوير جلد المرأة وحنكتها كما هو شأن المرأة المعتزلية، كما تتحو أحيانا نحو تقديم المرأة على أنها يمكن أن تكون ضحية كما هي حال من سرق العقق خواتيمها، كما أنها نحت أيضا نحو تقديم المرأة مخلوقاً منحرفاً يمارس الجريمة. فالمقصود إذاً هو ابتكار الأحداث ورسم الشخوص الأكثر مناسبة لهذه الأحداث مع تطويع كل شئ لبلورة الحدث.

وربما كان من الأدلة على ذلك أن الذين كتبوا عن المرأة العربية في القرن العشرين رسموها ضحية مقهورة واقعة تحت ظلم الرجل، أو تحت ظلم المجتمع، وبينوا أن لها قضايا خاصة بها تود أن تواجه بها المجتمع كله بل والدنيا كلها. وبهذا تبدو صورة المرأة عند التتوخي أو من سبقوه مختلفة من أي وجه عن صورة المرأة العربية الحديثة التي تكثر من التعبير عن غضبها وحسرتها؛ لأنها مستلبة من شخصيتها محرومة من إنسانيتها، ولا تزيد في قيمتها عن أي دمية أو متاع⁽¹⁾ فالمرأة أضاعت نفسها وهي تعاني من البحث عن هويتها⁽²⁾. أما التتوخي فلم يقدم نساء من هذا القبيل، ولم يكن في ذلك مكابراً ولا محرفاً للحقائق فالكتاب المحدثون جميعاً أشاروا إلى مكانة رفيعة تمتعت بها النساء في ذلك الزمان

(1) انظر شريح، منيرة، (1990). قضايا المرأة في الأدب والحياة. (ط1). عمان: منشورات وزارة الثقافة، ص17-19. انظر وادي، طه، (1973). صورة المرأة في الرواية المعاصرة. القاهرة: مركز كتب الشرق الأوسط، ص86.

(2) انظر مسباغي، محمد، (1993). صورة المرأة في روايات إحسان عبد القدوس، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر، ص10.

سواء في الأندلس أو في أقطار الخلافة العباسية المختلفة⁽¹⁾. وإذا كان ثمة من حيف لحق ببعض النساء فإنما كان بسبب الطبقة الاجتماعية أو المهنة أو ما شابه ذلك وليس بسبب الأنوثة.

وتثير هذه الحقيقة تساؤلاً تفرضه طبيعة الأشياء، فهل كانت المرأة في ذلك الزمان تعيش ظروفًا متميزة أخذت تتردى مع مرور الزمان وتغير الأحوال؟ ولعل مما يسوغ هذا السؤال أن ابن القيم الجوزية الذي جاء لاحقاً للتوخي قد رسم في كتابه " أخبار النساء " صورة مختلفة للمرأة فيها كثير من الشك والدعوة إلى عزل المرأة والتخويف من طبائعها الشاذة المنطوية على الخبث والميل الجارف نحو الاستجابة للمرادة والمبادرة إليها حتى إنها لا تؤمن على نفسها، ولا على غيرها إذا سمعت نداء بائع متجول يروج لبضاعته⁽²⁾.

ويعزز هذا التساؤل أيضاً ما كان هذا البحث قد توصل إليه من أن النساء في أدب الجاحظ وابن قتيبة وابن عبد ربه كنّ يتبوأن في صفاتهنّ مواقع أسمى من تلك التي تبوأتها النساء المرتسمات في أدب التوخي في قصصه الإخبارية والتسجيلية على السواء، في حين أنهنّ في أدب التوخي انحدرن انحداراً واضحاً نحو وهدة الرذيلة دون أن يشمل ذلك جميع النسوة دون استثناء. تغير ملحوظ يلححه الدارس إذا ما بين أدب التوخي وأدب من سبقوه من الأدباء المشار إليهم حتى في الأنموذج الجسمي، فليس غريباً إذن أن يمثل التوخي مرحلة وسيطة في سلسلة متلاحقة من التغيرات في صورة المرأة باتجاه التردّي. والأمر متروك على كل حال للبحث والتمحيص.

(1) انظر على سبيل المثال، سلام، سائدة، المرأة في الأدب النثري. وانظر أبو حسين، محمد صبحي، (2003). صورة المرأة في الأدب الأندلسي: في عصر الطوائف والمرابطين. (ط1)، إربد: عالم الكتب الحديث. وانظر ظاهر، حمزة محمد، (2003). صورة المرأة في الشعر الأندلسي في ظل بني الأحمر، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن. وانظر نصير، أمل ظاهر محمد، (1995). المرأة في الحياة العربية عند أعلام الشعر الأموي. رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

(2) انظر ابن القيم، أخبار النساء، ص 110 - 111.

و ما من شك في أن التتوخي قد أثر تأثيراً واضحاً على المعنيين بالأخبار الأدبية ممن لحقوه كما تجلى ذلك على وجه الخصوص منذ مطلع القرن العشرين، ولكن من غير الممكن أن يقال ذلك عن أسلوبه الأدبي وخصائصه السردية، فليس واضحاً أن التتوخي أسس لمدرسة أدبية نهلت من تجربته ورسخت نهجاً في الكتابة يتميز عن كتابات من سبقوه، لقد كانت له مزاياه الخاصة لكنها لم تصل إلى مرحلة تأسيس مدرسة أدبية كان التتوخي رائدها وأستاذها.

لقد انقضى هذا البحث وما انقضى معه الفضول الأدبي العلمي، ذلك أن من المثير للفضول معرفة ما إذا كانت الغرائبية نهجاً تبناه التتوخي في رسم الشخصيات في قصص إخبارية لا تتصل بالنساء. ومن المثير للفضول أيضاً استقصاء ما إذا كان الميل نحو التتكير في السند وانقطاعه مقترناً بالميل نحو كتابة قصة ينطلق فيها الخيال فيبدع حدثاً يجري من أجل تصويره إبداع شخص كالموصوفين في الفصل الثالث من هذا البحث مع تطويع مسرح الحدث لتسهيل عرضه وإنجازه. وإذا كان صحيحاً أن ما توصل إليه هذا البحث بخصوص الخصائص السردية يمكن تعميمه على سائر أعمال التتوخي الإخبارية فإن هذا يوفر فهماً أعمق لإبداعه الأدبي. أما إذا اتضح أن ثمة تنوعاً في الخصائص السردية فإن الأمر سيحتاج إلى تفسير، وفي التفسير مزيد من التنوير وفيه ثراء حتى لهذا البحث.

تلك كانت حصيلة هذه المسيرة البحثية المتواضعة سواء بما توصلت إليه من خلاصات وما أثارته من تساؤلات، فإذا تحقق لهذا البحث أن يقدم إضافة صغيرة باتجاه فهم الإنسان للإنسان فنعم ما تحقق، وإلا فإن المسعى كان منذ البداية موجهاً نحو الخير المرتجى والله ولي التوفيق أولاً وأخيراً.

المرأة في أدب التنوخي (دراسة في الرؤية والتشكيل)

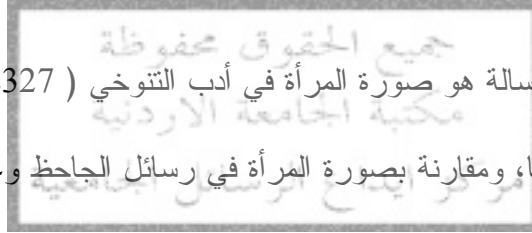
إعداد

أحمد عبد الكريم الملقى

المشرف

الدكتور ياسين خليل عايش

ملخص



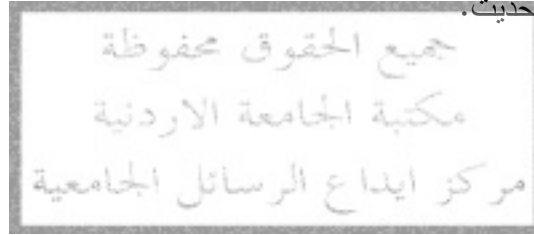
محور هذه الرسالة هو صورة المرأة في أدب التنوخي (327هـ-384هـ) مستخلصة من الأخبار التي جمعها، ومقارنة بصورة المرأة في رسائل الجاحظ وعبون ابن قتيبة وعقد ابن عبد ربه. وبعد ذلك تتعرض هذه الرسالة إلى الخصائص التشكيلية في أدب التنوخي. وتتناول الصورة لغايات هذه الرسالة جسم المرأة وصفاتها ومكانتها الاجتماعية بما في ذلك أهليتها القانونية.

ويقع هذا البحث في مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة وملحق واحد. أما الفصل الأول فقد عقد لغايات استخلاص صورة المرأة كما ارتسمت في النماذج المختارة من كتب أدباء سبقوا التنوخي هم: الجاحظ وابن قتيبة وابن عبد ربه. وعقد الفصل الثاني لاستخلاص صورة المرأة كما ارتسمت في أدب التنوخي من خلال ثمانٍ وثلاثين خبراً سمي كل منها قصة وجرى تمحيصها للتوصل إلى مقارنة الصورة المرتمسة في القصص المنتقاة مع الصورة التي ارتسمت في أدب الإخباريين الثلاثة السابقين عليه. وعقد الفصل الثالث لدراسة خصائص التشكيل الأدبي عند التنوخي ومحاولة تبين ما اتصفت به قصصه المنتقاة من سمات في السرد وفي الشخص

وفي الحكمة والعقدة والحل والخاتمة. أما الملحق فخصص لإيراد القصص المنتقاة جميعاً من أدب الجاحظ وابن قتيبة وابن عبد ربه والتتوخي فبلغت ثمانياً وثمانين قصة.

وتوصلت هذه الرسالة إلى خاتمة مؤدّاهما أن صورة المرأة لدى التتوخي بعيدة تماماً عن القوالب الجامدة فقد كانت تتحرك كفرد في المجتمع متمتعة بحقوقها ومكانتها الاجتماعية وأهليتها القانونية.

أما من حيث التشكيل فتوصلت هذه الرسالة إلى أن التتوخي لم يتحرر تماماً من القواعد التي تحكم جمع الأخبار وإن كان في قصصه نضج فني معقول يجعل بعضها قريب الشبه من فن القصة بمضمونها الحديث.



المصادر

- * الأبيشي، شهاب الدين بن محمد. **المستطرف من كل فن مستظرف**، م2، (تحقيق عبد الله أنيس الطباع)، دار القلم، بيروت.
- * ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين، (ت630). **الكامل في التاريخ**، م19، (تحقيق خليل مأمون شيحا)، دار المعرفة، بيروت، 2002.
- * الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد، (ت430). **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، م5، (تحقيق مفيد محمد قمحية)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م.
- * ابن حيان الأنصاري، أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر، (ت369). **طبقات المحدثين بأصبهان**، ط2، م4، (تحقيق عبد الغفور البلوشي)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1992.
- * ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، (ت681). **وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان**، م8، (تحقيق إحسان عباس)، دار الثقافة، بيروت، 1971.
- * ابن عبد ربّه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي، (ت338). **العقد الفريد**، م5، شرحه وضبطه وعنون موضوعاته أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الابياري)، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1996.
- * ابن العماد، عبد الحي بن أحمد الحنبلي، (ت1089). **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، م3، (تحقيق مصطفى عبد القادر عطا)، دار الكتب العلمية، بيروت.
- * الفيروز آبادي، مجد الدين أبو الطاهر بن يعقوب، (ت823). **القاموس المحيط**، م4، دار الحديث القاهرة.

- * ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم، (ت276). **عيون الأخبار**، 4ج، (تحقيق محمد الإسكندراني)، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994.
- * ابن قدامة المقدسي، أبو محمد عبد الله بن أحمد، (ت620). **كتاب التوابين**، 1م، (تحقيق عبد القادر الأرناؤوط)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983.
- * ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي، (ت711). **لسان العرب**، ط1، 15م، دار صادر، بيروت، 1968.
- * البستي، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد، (ت354). **مشاهير علماء الأمصار**، (تحقيق فلايشهمر)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1959.
- * البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي، (ت487). **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمعاجم**، ط3، 4م، (تحقيق مصطفى السقا)، عالم الكتب، بيروت، 1982.
- * التتوخي، أبو علي المحسن بن علي، (ت327-384 هـ). **المستجد من فعلات الأجواد**، 1م، (تحقيق محمد كرد علي)، مطبعة الترقى، دمشق، 1946.
- * التتوخي، أبو علي بن المحسن بن علي، (ت327-384 هـ). **الفرج بعد الشدة**، 5م، (تحقيق عبود الشالجي)، دار صادر، بيروت، 1978.
- * التتوخي، أبو علي بن المحسن بن علي، (ت327-384 هـ). **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**، ط2، 8م، (تحقيق عبود الشالجي)، بيروت، دار صادر، 1995.
- * الجاحظ، عمرو بن بحر، (ت225). **رسائل الجاحظ**، 4م، (تحقيق عبد السلام هارون)، دار الجليل، بيروت، 1991.

* ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، (ت597). المنتظم في أخبار الملوك والأمم، (ج5_ج10)، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، 1357_1359هـ.
* الجوزية، ابن القيم، (2001). أخبار النساء، طبعة خاصة، ج1، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق.

* الحموي، أبو عبد الله ياقوت الرومي، (ت626). معجم الأدياء المسمى إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ط7، 1م، (تحقيق إحسان عباس)، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

* الخطيب البغدادي، أبو بكر بن علي البغدادي، (ت463)، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، 14م، دار الكتاب العربي، بيروت.

* ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيمن، (ت748). الانتصار بواسطة عقد الأمصار، 2م، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت.

* الدميري، كمال الدين محمد بن موسى، (ت808). حياة الحيوان الكبرى، 2م، مطبعة حجازي، القاهرة 1367هـ.

* الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قايماز، (ت748). سير أعلام النبلاء، ط9، 23م، تحقيق شعيب الأرنؤوط و محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1992.

* الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، (ت748). العبر في خبر من غير، 4م، (تحقيق أبو هاجر محمد السعيد زغلول)، دار الكتب العلمية، بيروت.

* ابن السكيت، يعقوب بن إسحاق، (ت562). كتاب الألفاظ، ط1، مطبعة لبنان، بيروت، 1998.

* السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، (ت911). المزهري في علوم اللغة وأنواعها، نشره محمد علي صبح، 1946.

* الصفي، صلاح الدين خليل بن أيبك، (ت764). الوافي بالوفيات، 29م، (تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى) دار إحياء التراث، بيروت، 2000.

* ابن طاووس، رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى، (ت664). فرج المهموم في تاريخ علماء النجوم، المطبعة الحيدرية، النجف، 1368هـ.

* غرس النعمة، أبو الحسن محمد بن هلال الصابي، (ت480). الهفوات النادرة، ط2، (تحقيق صالح الأشر)، دار الأزري، بيروت، 1987.

* الغزولي، علاء الدين، (ت815). مطالع البدور في منازل السرور، مطبعة الوطن، مركز أيداع الرسائل الجامعية، 1299هـ.

* ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن زكريا، (ت395). مجمل اللغة، ط1، 4م، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1984.

* الفسوي، أبو يوسف يعقوب بن سفيان، (ت277). المعرفة والتاريخ، 3م، (تحقيق خليل المنصور)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999.

* القرشي، أبو محمد محي الدين عبد القادر بن الوفاء، (ت775). الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، 5م، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993.

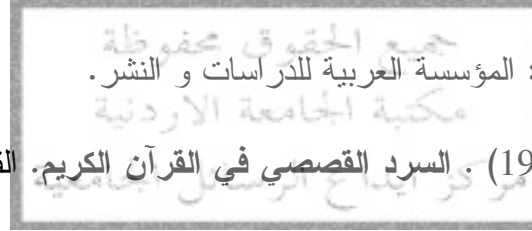
* ابن قلوبغا، زين الدين أبو العدل قاسم الحنفي، (ت879). تاج التراجم في من صنف من الحنفية، (تحقيق إبراهيم صالح)، دار المأمون للتراث، دمشق، 1992.

* الكتبي، محمد بن شاكر، (ت764). فوات الوفيات والذيل عليها، 5م، (تحقيق إحسان عباس)، دار صادر، بيروت، 1974.

* اليافعي، عبد الله بن عبد اليمني، (ت768). مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1970.

المراجع

* إبراهيم، عبد الله، (2000). السردية العربية: بحث في البنية السردية للموروث الحكائي



العربي. (ط2)، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات و النشر.
* أباطة، ثروت، (1992). السرد القصصي في القرآن الكريم. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر.

* أدي شير، (1980). معجم الألفاظ الفارسية المعربة. بيروت: مكتبة لبنان.

* أمين، أحمد، (1969). فجر الإسلام. (ط10). بيروت: دار الكتاب العربي.

* أمين، أحمد، (1978). ضحى الإسلام. (ط9). القاهرة: مكتبة النهضة.

* أمين، أحمد، (1969). ظهر الإسلام. (ط5). بيروت: دار الكتاب العربي.

* بارت، رولان وآخرون، (1992). طرائق تحليل السرد الأدبي. الرباط: منشورات اتحاد الكتاب.

* بروكلمان، كارل. تاريخ الأدب العربي. (ط5)، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار وآخرون، دار المعارف، بيروت.

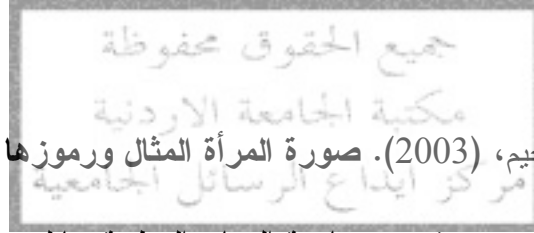
- * بوشعير، الرشيد، (1995). دراسات في القصة العربية القصيرة: مقاربات في الرؤية والشكل، (ط1). دمشق: الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع.
- * تيمور، محمود. دراسات في القصة والمسرح. القاهرة: المطبعة النموذجية.
- * جيد، أندريه، (1968). أوديب ثيسوس من أبطال الأساطير اليونانية، ترجمة طه حسين. ط(2). بيروت: دار العلم للملايين.
- * الحديدي، عبد اللطيف محمد السيد، (1998). صورة المرأة في مسرح توفيق الحكيم. ط(1). القاهرة: جامعة الأزهر.
- * أبو حسين، محمد صبحي، (2003). صورة المرأة في الأدب الأندلسي: في عصر الطوائف والمرابطين. ط(1)، إربد: عالم الكتب الحديث.
- * دوزي، رينهارت، (1980). تكملة المعاجم العربية، ترجمة محمد سليم النعيمي. بغداد: دار الرشيد للنشر.
- * الرقيق، عبد الوهاب، (1998). في السرد: دراسات تطبيقية. ط(1). تونس: دار محمد علي الحامي .
- * شريح، منيرة، (1990). قضايا المرأة في الأدب والحياة. ط(1). عمان: منشورات وزارة الثقافة.
- * صالح، فخري، (1988). أرض الاحتمالات: من النص المغلق إلى النص المفتوح في السرد العربي المعاصر. ط(1). بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- * عبد الله، محمد حسن، (1993). الفرغ بعد الشدة. القاهرة: مكتبة وهبة.

- * عبد المنان، حسان، (2000). معجم ألفاظ القرآن الكريم. عمان: بيت الأفكار الدولية.
- * العيد، يمنى، (1999). تقنيات السرد الروائي: في ضوء المنهج البنيوي، (ط2). بيروت: دار الفارابي.
- * فهد، بدري محمد، (1966). القاضي التنوخي وكتاب النشوار. بغداد: المكتبة الأهلية.
- * كيليطو، عبد الفتاح، (1988). الحكاية والتأويل: دراسات في السرد العربي. (ط1) المغرب، الدر البيضاء: دار توبقال للنشر.
- * مبارك، زكي، (1957). النثر الفني في القرن الرابع. (ط2). القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى.
- * المرزوقي، سمير وشاكر، جميل، (1986). مدخل إلى نظرية القصة: تحليلاً و تطبيقاً. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة آفاق عربية.
- * المنجد، صلاح الدين، (1969). جمال المرأة عند العرب. (ط2). بيروت: دار الكتاب الجديد.
- * وادي، طه، (1973). صورة المرأة في الرواية المعاصرة. القاهرة: مركز كتب الشرق الأوسط.
- * يوسف، آمنة، (1997). تقنيات السرد في النظرية والتطبيق. (ط1). اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع.

الرسائل الجامعية

- * الأطرقي، واجدة مجيد عبد الله، (1981). المرأة في أدب العصر العباسي. رسالة ماجستير منشورة، جامعة بغداد، بغداد، العراق.
- * أبو حسين، محمد صبحي أسعد، (2001). المرأة في الأدب الأندلسي: في عصر الطوائف والمرابطين. رسالة دكتوراة منشورة، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.
- * أبو درويش، اعتدال خليل علي، (1998). صورة المرأة في شعر البلاط البويهية. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.
- * درويش، سلوى عبد الفتاح، (1994). المحسن بن علي التنوخي: حياته ودراسة تحليلية لآثاره. رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.
- * سلام، سائدة أحمد، (1998). المرأة في الأدب النثري في العراق في العصر العباسي الأول. رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.
- * شخاترة، خولة خليل حسين، (2000). الخبر عند المحسن التنوخي: بين القص والتأريخ. رسالة دكتوراة منشورة، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.
- * ظاهر، حمزة محمد، (2003). صورة المرأة في الشعر الأندلسي في ظل بني الأحمر، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.
- * العمري، سالم حامد، (1986). صورة المرأة عند شعراء البحرين واليمامة في العصر الجاهلي. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

- * القدحات، محمد عبد الله أحمد، (2000). القاضي التنوخي وآثاره: دراسة في منهجيته ومصادره. رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.
- * كفاي، منذر ذيب كفاي، (1998). صورة المرأة في شعر الصعاليك و اللصوص حتى نهاية العصر الأموي. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.
- * المحروقي، سيف محمد، (2003). نماذج إنسانية في السرد. رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.
- * مسباي، محمد، (1993). صورة المرأة في روايات إحسان عبد القدوس، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر.
- * طه، طه غالب عبد الرحيم، (2003). صورة المرأة المثال ورموزها الدينية عند شعراء المعلقات. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين.
- * النجار، رولا حمدان، (2001). صورة المجتمع في القرن الرابع الهجري في مصنفات التنوخي: (الفرج بعد الشدة، والمستجد من فعاليات الأجواد ونشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة). رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.
- * نصير، أمل طاهر محمد، (1995). المرأة في الحياة العربية عند أعلام الشعر الأموي. رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.



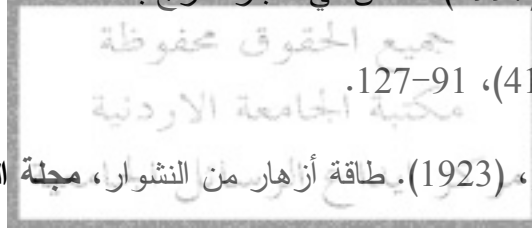
الدوريات

* فيصل، شكري، (1973). نشوار المحاضرة خلال نصف قرن ويزيد. مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، م(48)، ج2.

* النجم، وديعة طه، (1987). أضواء على منزلة المرأة في العصر العباسي: اجتماعياً وأدبياً. عالم الفكر، م(18)، 221-242.

* الوسلاتي، البشير، (1997). القص في أخبار الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي، حوليات الجامعة التونسية. م(41)، 91-127.

* المغربي، عبد القادر، (1923). طاقة أزهار من النشوار، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق. م(4)، الأجزاء 1، 2، 3، 11.



المراجع الأجنبية

- * Cook, Mark: **Perceiving Others– The Psychology Of In Terpersonal Percebtion**, 1979, Methuen And Co. Ltd London.
- * Nietzsche, Friedrich: **Thus Sbake Zarathustra –A Book For All And None**, Translated By Thomas Common, 1923, T. N. Foulis Ltd, Edinburgh And London.
- * United Nations: **Women, Peace And Security-** Study Submitted By Security Hyphine- General Pursuant To Security Council Reselution 1325/ 2000, (2002),United Nations Publication Sales, NO. E. 03.IV.1 ISBN 9211302226.

الملحق

يتضمن هذا الملحق النص الكامل للقصص المنتقاة وعددها ثمانٍ وثمانون قصة،
خمسون منها من أخبار الجاحظ وابن قتيبة وابن عبد ربه، وثمانٍ وثلاثون منها من أخبار
التتوخي.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

قصة (1) (1)

كانت ضباعة، من بني عامر بن قُرط بن عامر بن صعصعة، تحت عبد الله بن جُدعانَ زماناً لا تلد، فأرسلَ إليها هشامُ بن المغيرة المخزوميُّ: ما تصنعين بهذا الشيخ الكبير الذي لا يُولد له، قولي له حتَّى يطلِّقَكَ. فقالت لعبد الله ذلك، فقال لها: إنِّي أخافُ عليك أن تتزوجي هشامَ بن المغيرة. قالت: لا أتزوجُه. قال: فإن فعلتِ فعليك مائة من الإبل تتحرينها في الحزورة وتتسجين لي ثوباً يقطع ما بين الأخشبين، والطواف بالبيتِ عُريانة. قالت: لا أطيقه. وأرسلت إلى هشامٍ فأخبرته الخبرَ فأرسلَ إليها: ما أيسرَ ما سألك، وما يكرهكُ وأنا أيسرُ قريشٍ في المال، ونسائي أكثر نساءِ رجل من قريش، وأنت أجمل النساءِ فلا تأبئي عليه. فقالت لابن جُدعان: طَلَّقني فإن تزوجتُ هشاماً فعلى ما قلت. فطلَّقها بعد استيثاقه منها، فتزوجها هشامٌ فنحر عنها مائة من الجُزُر، وجمع نساءه فنسجن ثوباً يسع ما بين الأخشبين، ثم طافت بالبيتِ عُريانة، فقال المطلب ابن أبي وداعة: لقد أبصرتها وهي عُريانة تطوف بالبيتِ وأني لَغلامٌ أتبعها إذا أدبرت، وأستقبلها إذا أقبلت، فما رأيت شيئاً مما خلق الله أحسن منها، واضعةً يدها على ركبها وهي تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله
فما بدا منه فلا أحله
كم ناظرٍ فيه فما يملُه
أختم مثل القعبِ بادٍ ظلُه

قصة (2) (2)

أعرسَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعاتكة ابنة زيد بن عمرو بن نفيل، وكانت قبله عند عبد الله بن أبي بكر، فمات عنها بعد أن اشترط عليها ألا تتزوج بعده أبداً، على أن نحلها قطعةً من ماله سوى الإرث، فخطبها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأفتاها بأن يعطيها مثل ذلك من المال فتصدَّق به عن عبد الله بن أبي بكر، فقالت في مرثيته:

فأقسمتُ لا تنفكُ عيني سخينةً
عليك ولا ينفكُ جلدي أغبراً

فلما ابنتى بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه أولم، ودعا المهاجرين والأنصار، فلماً دخل علي بن أبي طالب عليه السلام قَصَدَ لبيبتِ حَجَلتها، فرفعَ السَّجفَ ونظر إليها فقال:

فأقسمتُ لا تنفكُ عيني سخينةً
عليك ولا ينفكُ جلدي أصفراً

(1) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج2، ص152.

(2) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج2، ص151.

فخجلت فأطرقت، وساء عُمرَ رضيَ الله عنه ما رأى من خجلها وتشوُّرها عند تعبير عليٍّ إياها بنقض ما فارقت عليه زوجها، فقال: يا أبا الحسن، رحمك الله ما أردتَ إلى هذا؟ فقال: حاجةٌ في نفسي قضيتها.

و قد وردت هذه القصة عند ابن قتيبة بالصيغة التالية: (1)

أبو عليٍّ الأمويُّ قال: كانت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفيل، عند عبد الله بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكانت قد غلبته في كثيرٍ من أمره؛ فقال له أبوه طلقها. فطلقها وأنشأ يقول:

لها خلُقٌ سهلٌ وحُسنٌ ومنصبٌ وخلقٌ سويٌّ ما يعاب ومنطقٌ

فرمي يوم الطائف بسهم؛ فلما مات قالت تربيته:

وآليتُ لا تنفكُ عيني سخينةً عليك ولا ينفكُ جلدي أغبراً

فلله عينٌ ما رأته مثله فتىَّ أعزٌّ وأحمى في الهياج وأصبراً

إذا شرعت فيه الأسيئة خاضها إلى الموت حتى يترك الرُمح أحمرأ

ثم خطبها عمر بن الخطاب، فلما أولم قال عبد الرحمن بن أبي بكر: يا أمير المؤمنين،

أتأذن لي أن أدخل رأسي على عاتكة؟ قال نعم، يا عاتكة استتري. فأدخل رأسه فقال:

وآليتُ لا تنفكُ عيني قريرةً عليك ولا ينفكُ جلدي أصفراً

فنشجت نشجاً عالياً؛ فقال عمر: ما أردتَ إلى هذا!! كل النساء يفعلن هذا! غفر الله لك.

ثم تزوجها الزبير بعد عمر وقد خلا من سنّها، فكانت تخرج بالليل إلى المسجد ولها عَجِيزَةٌ

ضخمةٌ، فقال لها الزبير لا تخرجي؛ فقالت: لا أزال أخرجُ أو تمنعني. وكان يكره أن يمنعها،

لقول النبيِّ صلى الله عليه وسلم: "لا تمنعوا إماءَ الله مساجدَ الله"، فقعد لها الزبير متنكراً في

ظلمة الليل، فلما مرت به قرص عجيزتها، فكانت لا تخرج بعد ذلك؛ فقال لها: ما لك لا

تخرجين؟ فقالت كنتُ أخرج والناسُ ناسٌ، وقد فسَدَ الناسُ فبيتي أوسعُ لي.

قصة (3) (2)

كان الحسن بن عليٍّ عليهما السلامُ تزوج حفصةَ ابنة عبد الرحمن، وكان المنذر بن

الزبير يهواها، فبلغ الحسن عنها شيئاً فطلقها، فخطبها المنذر فأبَت أن تتزوجهُ وقالت: شَهْرَني!.

وخطبها عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنها فتزوجها، فرقى المنذرُ عنها شيئاً فطلقها،

(1) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص400.

(2) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج2، ص152.

فخطبها المنذر فقيل لها: تزوجيه ليعلم الناس أنه كان يعضهك. فترجته فعلم الناس أنه كذب عليها، فقال الحسن لعاصم: لنستأذن عليها المنذر فدخل إليها فتحدثت عندها، فاستأذناه؛ فشاور أخاه عبد الله بن الزبير فقال: دعهما يدخلان. فدخلت فكانت إلى عاصم أكثر نظراً منها إلى الحسن، وكان أبسط للحديث. فقال الحسن للمنذر: خذ بيد امرأتك. فأخذ بيدها وقام الحسن وعاصم فخرجا. وكان الحسن يهواها وإنما طلقها لما رقي إليه المنذر.

وقال الحسن يوماً لأبن أبي عتيق: هل لك في العقيق؟ فخرجا فعدل الحسن إلى منزل حفصة فدخل إليها فتحدثا طويلاً ثم خرج، ثم قال لأبن أبي عتيق: هل لك في العقيق؟ قال: نعم. فنزل بمنزل حفصة ودخل، فقال له مرة أخرى: هل لك في العقيق؟ فقال: يا ابن أم، ألا تقول: هل لك في حفصة!!

و كان الحسن في ذلك العصر أفضل أهل دهره. فلو كان محادثة النساء والنظر إليهن حراماً و عاراً لم يفعله، ولم يأذن فيه المنذر بن الزبير، ولم يُشير به عبد الله بن الزبير. وهذا الحديث وما قبله يُبطلان ما روت الحشوية من أن النظر الأول حرام والثاني حرام؛ لأنه لا تكون محادثة إلا ومعها ما لا يحصى عدده من النظر. إلا أن يكون عنى بالنظر المحرمة النظر إلى الشعر والمجاسيد، وما تخفيه الجلابيب مما يحل للزوج والولي ويحرم على غيرهما.

قصة (4) (1)

دعا مصعب بن الزبير الشعبي، وهو في قبة له مجللة بوشي، معه فيها امرأته، فقال: يا شعبي، من معي في هذه القبة؟ فقال: لا أعلم أصلح الله الأمير! فرفع السجف، فإذا هو بعائشة ابنة طلحة. والشعبي فقيه أهل العراق وعالمهم، ولم يكن يستحل أن ينظر إن كان النظر حراماً.

كما وردت عند ابن قتيبة بالصيغة التالية: (2)

عن الشعبي قال: دخلت المسجد باكراً، وإذا بمصعب بن الزبير والناس حوله، فلما أردت الانصراف قال لي: أدن. فدنوت منه حتى وضعت يدي على مرفقه؛ فقال: إذا أنا قمت فاتبعني؛ وجلس قليلاً، ثم نهض فتوجه نحو دار موسى بن طلحة فنتبعتة؛ فلما أمعن في الدار التفت إلي وقال: أدخل. فدخلت معه ومضى نحو حجرة وتبعته، فالتفت إلي فقال: أدخل، فدخلت معه فإذا حجلة، فطرح لي وسادة فجلست عليها، ورفع سجف القبة، فإذا أجمل وجه رأيت قط؛

(1) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج2، ص154.

(2) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص311.

فقال: يا شعبي، هل تعرف هذه؟ قلت: نعم، هذه سيّدة نساء العالمين عائشة بنت طلحة؛ فقال: هذه ليلى، ثم تمثّل:

وما زلتُ من ليلى لَدُنْ طَرّاً شاربِي إلى اليوم أخفي إحنَةً وأداجِنُ
وأحملُ في ليلى لقومِ ضغينةً وتحملُ في ليلى عليّ الضغائنُ

ثم قال: إذا شئتُ يا شعبي فقم. فخرجت؛ فلما كان العشي رحتُ إلى المسجد فإذا مصعبٌ بمكانه؛ فقال لي: ادنُ. فدنوت؛ فقال لي: هل رأيت مثل ذلك لإنسان قط؟ قلت: لا؛ قال: أتدري لم أدخلناك؟ قلت: لا؛ قال: لتحدّث بما رأيت. ثم التفت إلى عبد الله بن أبي فروة فقال: أعطه عشرة آلاف درهم وثلاثين ثوباً. فما انصف يوماً أحد بمثل ما انصرفت به: بعشرة آلاف درهم، وبمثل كارة القصّار، ونظري إلى عائشة.

قصة (5) (1)

نظر المأمونُ إلى سُكَّر فقال: أحرّة أنت أم مملوكة؟ قالت: لا أدري، إذا غضبتُ عليّ أم جعفر قالت: أنت مملوكة، وإذا رضيتُ قالت: أنت حرّة. قال: فكتبتني إليها الساعة فاسألها عن ذلك. فكتبتُ كتاباً وصلّته بجناح طائرٍ من الهدى كان معها، أرسلته تعلم أم جعفر ذلك فعلمت أم جعفر ما أراد فكتبتُ إليها: "أنت حرّة". فتزوجها على عشرة آلاف درهم، ثم خلا بها من ساعتها فواقعتها وخرّى سبيلها، وأمر بدفع المال إليها.

قصة (6) خالد الحذاء وامرأة خطبها. (2)

عن خالد الحذاء قال: خطبتُ امرأةً من بني أسد فجنّتُ لأنظرَ إليها وبيني وبينها رواقٌ يثيف، فدعتُ بجفنةٍ مملوءةٍ ثريداً مكلّلةً باللحم فأتتُ على آخرها، وأتتُ بإناءٍ مملوءٍ لبناً أو نبيذاً فشربته حتى كفّأته على وجهها، ثم قالت: يا جارية ارفعي السجّف؛ فإذا هي جالسةٌ على جلد أسدٍ وإذا شابةٌ جميلةٌ، فقالت: يا عبد الله: أنا أسدة من بني أسد على جلد أسد وهذا مطعمي ومشربي، فإن أحببتُ أن تتقدّم فافعل، فقلت: أستخيرُ الله وأنظر. فخرجتُ ولم أعد. وقد وردت أيضاً عند ابن عبد ربه في العقد الفريد ولكنه نسبها لمعبد بن خالد الجذري. (3)

قصة (7) رد علي بن الحسين على عبد الملك في جارية تزوجها (4)

تزوج علي بن الحسين أمّ ولدٍ لبعض الأنصار، فلامه عبد الملك في ذلك فكتب إليه: إن الله قد رفع بالإسلام الخسيصة وأتمّ النقيصة، وأكرم به من اللؤم فلا عار على مسلم، هذا رسول

(1) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج2، ص157.

(2) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص298.

(3) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج2، ص.

(4) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص299.

الله صلى الله عليه وسلم قد تزوج أمته وامرأة عبده. فقال عبد الملك: إن علي بن الحسين يتشرف من حيث يتضع الناس.

و قال الأصمعي: كان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد حتى نشأ فيهم علي بن الحسين والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وسالم بن عبد الله بن عمر، ففاقوا أهل المدينة فقهاً وورعاً فرغب الناس في السراري. كما روت هذه القصة في العقد الفريد.⁽¹⁾

قصة (8) لشيخ في رجل من بني كلاب خطب امرأة⁽²⁾

أبو الحسن المدائني قال: خطب رجل من بني كلاب امرأة، فقالت له أمها: حتى أسأل عنك. فأنصرف فسأل عن أكرم الحي عليها، فدل على شيخ فيهم كان يحسن المحضر في الأمر يسأل عنه، فسأله أن يحسن عليه الثناء وانتسب له فعرفه؛ ثم إن العجوز شمرت فسألته عنه فقال: أنا ربيته، قالت: كيف لسانه؟ قال: مِدْرَةٌ قومه وخطيبهم. قالت: كيف شجاعته؟ قال: حامي قومه وكهفهم. قالت: فكيف سماحته؟ قال: ثمال قومه وربيعهم. فأقبل الفتى فقال الشيخ: ما أحسن والله ما أقبل! ما انتنى ولا انحنى. فدنا الفتى فقال الشيخ: ما أحسن والله ما سلم! ما جار ولا خار. ثم جلس، فقال: ما أحسن والله ما جلس! ما دنا ولا ثنى. فذهب الفتى ليتحرك فصرط، فقال الشيخ: ما أحسن والله ما صرط! ما أغنها ولا أطنها، ولا بربرها ولا فرقرها. فنهض الفتى خجلاً فقال: ما أحسن والله ما نهض! ما انفئل ولا انخزل. فأسرع الفتى، فقال: ما أحسن والله ما خطا! ما ازور ولا اقطوطى. قالت العجوز: وجه إليه من يرده لو سلح لزوجناه.

قصة (9) خالد بن صفوان يخطب امرأة⁽³⁾

خطب خالد بن صفوان امرأة فقال: أنا خالد بن صفوان؛ والحسب على ما قد علمتية، وكثرة المال على ما قد بلغك، وفي خصال سائبية لكقدمين علي أو تدعين. فقالت: وما هي؟ قال: إن الحرّة إذا دنت مني أملتني، وإذا تباعدت عني أعلتني، ولا سبيل إلى درهمي وديناري، ويأتي علي ساعة من المال لو أن رأسي في يدي نبذته. فقالت: قد فهمنا مقالتك ووعينا ما ذكرت، وفيك بحمد الله خصال لا نرضاها لبنات إيليس، فانصرف رحمك الله.

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج2، ص.

(2) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص305.

(3) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص305.

قصة (10) بين لقيط زرارة وقيس بن خالد⁽¹⁾

خَطَبَ لَقَيْطُ بْنُ زُرَّارَةَ إِلَى قَيْسِ بْنِ خَالِدِ بْنِ الْجَدْيَيْنِ الشَّيْبَانِيِّ؛ فَقَالَ لَهُ قَيْسٌ: وَمَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: لَقَيْطُ بْنُ زُرَّارَةَ. قَالَ: وَمَا حَمَلَكَ أَنْ تَخْطُبَ إِلَيَّ عَلَانِيَةً؟ فَقَالَ: لِأَنِّي عَرَفْتُ أَنَّيَ إِنْ عَلَنْتُكَ لَمْ أَفْضَحْكَ وَإِنْ سَارَرْتُكَ لَمْ أُخْذَعْكَ. فَقَالَ: كَفَاءٌ كَرِيمٌ، لَا تَبَيِّتُ وَاللَّهِ عِنْدِي عَزَبًا وَلَا غَرِيبًا. فزَوَّجَهُ ابْنَتَهُ وَسَاقَ عَنْهُ.

كما وردت القصة أيضاً في العقد الفريد بالصيغة التالية:⁽²⁾

الشيباني قال: حدثنا بعض أصحابنا أن زرارة بن عدس نظر إلى ابنه لقيط فقال: ما لي أراك مختلاً كأنك جئتني بابنة ذي الجدّين، أو مائة من هجائن النعمان؟ فقال: والله لا يمسُّ رأسي دهنٌ حتى أتيتك بهما، أو أبلبي عذراً. فانطلق حتى أتى ذا الجدّين، وهو قيس بن مسعود الشيباني، فوجده جالساً في نادي قومه من شيبان، فخطب إليه بنته علانية، فقال له: هلاً ناجيتني؟ فقال: علمتُ أنني إن ناجيتك لم أخدعك، وإن علنتك لم أفضحك، قال: ومن أنت؟ قال: لقيط بن زرارة. قال: لا جرم، ولا تبيتنّ فينا عزباً ولا محروماً. فزوجه وساق عنه المهر، وبنى بها ليلته تلك. ثم خرج إلى النعمان فجاء بمائتين من هجائنه، وأقبل إلى أبيه، وقد وقى نذره. فبعث إليه قيس بن مسعود بابنته مع ولده بسطام بن قيس، فخرج لقيط يتلقاها في الطريق ومعه ابن عم له، يقال له قراد، فقال لقيط:

هاجت عليك ديارُ الحي أشجاناً	واستقبلوا من نوى الجيران قربانا
تامت فؤادك لم تقضِ التي وعدت	إحدى نساء بني ذهل بن شيبانا
فانظر قراد وهل في نظرة جزع	عرض الشقائق هل بيّنت أظعانا
فيهن جارية نضح العبير بها	تُكسى ترائبها دُرّاً ومرجانا
كيف اهتديت ولا نجم ولا علم	وكنت عندي نؤوم الليل وسنانا

و لما رحل بها بسطام بن قيس قالت: مُرُوا بي على أبي أودّعه، فلما ودّعته قال لها: يا بُنية، كوني له أمةً يكن لك عبداً، وليكن أطيبَ طيبك الماء، ثم لا أذكرتِ ولا أيسرتِ، فإنك تلدين الأعداء وتقرّبين البعداء، إنَّ زوجك فارس من فرسان مُضر، فإذا كان ذلك فلا تخمّشي وجهاً ولا تحلّقي شعراً. فلما قُتل لقيط تحمّلت إلى أهلها ثم مالت إلى مجلس عبد الله بن دارم، فقالت: نعم الأحماء كنتم يا بني دارم، وأنا أوصيكم بالقرائب خيراً، فلم أر مثل لقيط. ثم لحقت بقومها. فتزوجها ابن عم لها، فكانت لا تسلو عن ذكر لقيط فقال لها زوجها: أي يوم رأيت فيه لقيطاً

(1) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص307.

(2) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج2، ص68.

أحسنَ في عينك؟ قالت: خرج يوماً يصطاد، فطرد البقرة فصرع منها، ثم أتاني مُختضباً بالدماء، فضممتني ضمة، ولثمني لثمة، فليتني ميتٌ ثمة. فخرج زوجها ففعل مثل ذلك، ثم أتاها، فضمها ولثمها، ثم قال لها: من أحسن أنا أم لقيط عندك؟ فقالت: (مرعى ولا كالسعدان).

قصة (11) أم أبان وخطابها (1)

قال أبو اليقظان: خطب عمرُ بن الخطاب أمَّ أبان بنت عُتبة بن ربيعة بعد أن مات عنها يزيدُ بن أبي سفيان، فقالت: لا يدخل إلا عابساً ولا يخرج إلا عابساً، يُغلق أبوابه ويُقلَّ خيرَه. ثم خطبها الزبير، فقالت: يدُّ له على قُرُوني ويدُّ له في السوط. وخطبها عليٌّ، فقالت: ليس للنساء منه حظُّ إلا أن يَعدُّ بين شعبين الأربع لا يُصينُ منه غيره. وخطبها طلحة فأجابت فتزوجها؛ فدخل عليها عليٌّ بن أبي طالب فقال لها: رددت من رددت منا وتزوجت ابن بنت الحضرمي! فقالت: القضاء والقدر. فقال: أما إنك تزوجت أجملنا امرأةً وأجودنا كفاً وأكثرنا خيراً على أهله.

قصة (12) في جمال نصر حجاج البهزي (2) محفوظة

سمع عمر بن الخطاب امرأة ذات ليلة تقول: لاردينية

ألا سبيل إلى خمراً فأشربها
إلى فتى ماجد الأعراق مقتبل
أما هل سبيل إلى نصر بن حجاج
سهل المحيياً كريم غير ملجاج
نمته أعراق صدق حين تنسبه
أخي حفاظ عن المكروب فراج

فقالت لها امرأة معها: من نصر؟ قالت: رجل أود لو كان معي طول ليلة ليس معنا أحد. فدعا بها عمر فخفقها بالدرة، ودعا بنصر فحلق شعره فعاد أحسن ما كان؛ فقال له: لا تساكني في بلدة يتمنأك النساء بها. وأخرجه إلى البصرة؛ وخافت المرأة فكتبت إلى عمر تستعطفه:

قل للإمام الذي تخشى بواده
إني غنيت أبا حفص بغيرهما
ما لي وللخمر أو نصر بن حجاج
شرب الحليب وطرف غيره ساجي
إن الهوى زمه التقوى فقيده
حتى أقرَّ بالجام وإسراج
أمنية لم أطر فيها بطائرة
والناس من هالك فيها ومن ناجي
لا تجعل الظنَّ حقاً أو تبينه
إن السبيل سبيل الخائف الراجي

وكان عمر قد سأل عنها فوصفت له بالعفاف فأرسل إليها: قد بلغني عنك خير فقري.

(1) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص308.

(2) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص313.

قصة (13) (1)

و هذا نصرُ بن حجاج بن علاط البهزي، وكان من أجمل الناس، فدعا به عمرُ فسيرهُ إلى البصرة _ فأتى مُجاشعُ بن مسعود السلمي فدخل عليه يوماً وعنده امرأته شُميلة وكان مجاشع أميًّا، فكتب نصر على الأرض: أُحبُّك حبًّا لو كان فوقك لأظلك أو تحتك لأفلك. فكتبتُ هي: وأنا والله كذلك. فكتب مجاشعُ على الكتابة إناءً ثم أدخل كاتباً فقراه، فأخرج نصرًا وطلقها _ فقال نصر بن حجاج:

وما لي ذنبٌ غير ظنِّ ظننته	وفي بعض تصديق الظنون أثم
لعمري إن سيرتني أو حرمتني	وما نلتُ ذنباً إن ذا لحرام
أن غنت الذفء ليلاً بمنية	وبعض أمني النساء غرام
ظننت بي الظن الذي ليس بعده	بقاءً وما لي في الندي كلام
فأصبحت منفيًا على غير ربية	وقد كان لي بالمكتين مقام
ويمنعني مما تمننت تكرمي	وآباءُ صديق سالفون كرام
ويمنعها مما تمننت حياؤها	وحال لها مع عفة وصيام
وهاتان حالانا فهل أنت راجعي	وقد خف مني كاهل وسنام

وأنا أحسب هذا الشعر مصنوعاً.

قصة (14) لامرأة في الزبير وعلي ومصعب (2)

رأت امرأة الزبير فقالت: من هذا الذي هو أرقم يتلمظ؟ ورأت عليًا فقالت: من هذا الذي كأنه كسر ثم جبر؟ ورأت طلحة فقالت: من هذا الذي كأنه دينار هرقلي؟.

قصة (15) الحكم بن صخر وجارية (3)

الحكم بن صخر النقي قال: خرجتُ حاجًّا مُختفيًا، فلما كنتُ ببعض الطريق أنتني جاريتان من بني عُقيل لم أر أحسن منهما وجوهاً، ولا أظرف السنة ولا أكثرَ علماً وأدباً، فقصرتُ بهما يومي فكسوتهما. ثم حججتُ من قابلٍ ومعِي أهلي، وقد أصابتنِي علةٌ فنصل لها

(1) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص314.

(2) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص315.

(3) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص318.

خضابى، فلما صرتُ إلى ذلك الموضع فإذا أنا بإحداهما، فدخلت عليّ، فسألتُ مسألةً مُنكرٍ فقلت: فلانة! قالت: فدى لك أبى وأمى! تعرّفني وأنكرُك؟! قلت: أنا الحکم بن صخر. قالت: إني رأيتُك عاماً أوّلَ شاباً سوقاً وأراك العامَ ملكاً شيخاً، وفي دُون هذا يُنكرُ المرءُ صاحبه. قلت: ما فعلتُ أختك؟ قالت: تزوجها ابنُ عمِّ لها وخرج بها إلى نجدٍ فذلك حيث يقول:

إذا ما قلنا نحو نجدٍ وأهله
فحسبني من الدنيا قولٌ إلى نجدٍ

فقلت: لو أدركتها لتزوجتها. فقالت: ما يمنعك من شقيقتها في حسبها، ونظيرتها في جمالها؟

- تعني نفسها - قلت: يمنعني من ذلك ما قال كثير:

إذا وصلتنا خلةٌ كي تزيلنا
أبيناً وقلنا الحاجبيةً أولُ

فقلت: فكثيرٌ بيني وبينك هو القائل:

هل وصل عزةٌ إلا وصل غانيةٌ
في وصل غانيةٍ من وصلها خلفُ

فسكت عيًّا عن جوابها

قصة (16) بين أسدي وامرأة⁽¹⁾

عن رجل من بني أسدٍ قال: أضللتُ إبلاً لي، فخرجتُ في طلبهنّ، فهبطتُ وادياً وإذا أنا بفتاةٍ أعشى نورُ وجهها نورَ بصري؛ فقالت لي: يا فتى، ما لي أراك مُدّلاًها؟ فقلت: أضللتُ إبلاً لي فأنا في طلبها. قالت: أفأدلك على من هي عنده وإن شاء أعطاكها؟ قلت: نعم ولكِ أفضلهنّ. قالت: الذي أعطاكهنّ أخذهنّ وإن شاء ردهنّ، فسله من طريق اليقين لا من طريق الاختبار. فأعجبني ما رأيتُ من جمالها وحسن كلامها، فقلت: ألكِ بعلٌ؟ قالت: قد كان، ودُعيتُ فأجاب فأعيدَ إلى ما خلق منه. قلت: فما قولك في بعلٍ تُؤمنُ بوائقه، ولا تُدَمّ خلاته؟ فرفعتُ رأسها وتنفّستُ وقالت:

كنا كغصنين في أصلٍ غداؤهما	ماءُ الجداول في روضاتٍ جنّاتٍ
فاجتثَّ خيرهما من جنب صاحبه	دهرٌ يكرُّ بترحاتٍ وفرحاتٍ
وكان عاهدني إن خانني زمنٌ	ألا يُضاجعُ أنثى بعد مثنواتي
وكنت عاهدته إن خانته زمنٌ	ألا أبوءَ ببعلٍ طولَ محيّاتي
فلم نزلْ هكذا والوصلُ شيمتنا	حتى تُوفي قريباً مذ سيّاتٍ
فاقبضْ عيناك عمّن ليس يردعه	عن الوفاء خلافُ بالتحياتِ

(1) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص321.

قصة (17) عثمان بن عفان رضي الله عنه وزوجته بنت الفرافصة⁽¹⁾

كان عثمان بن عفان رضي الله عنه تزوج نائلة بنت الفرافصة الكلبية - والفرافصة يومئذ نصرانية - وكان وليها مسلماً وهو أخوها، فحملها الفرافصة. فلما قدمت على عثمان وضع لها سريراً وله آخر، فقال لها عثمان: إما أن تقومي إلي وإما أن أقوم إليك. فقالت: ما تجسّمت إليك من عرض السماء أبعد مما بيننا، بل أقوم أنا. فقامت حتى جلست معه على السرير، فوضع قلنسوته فإذا هو أصلع، فقال: يا بنة الفرافصة، لا يهولنك ما ترى من صلعتي، فإن وراء ذلك ما تحبين. قالت: إني لمن نسوة أحبُّ بعولتهن إليهن الكهول الصلغ. فقال: اطرحي درعك؛ ثم قال: اطرحي إزارك. قالت: ذاك إليك. ومسح رأسها ودعا لها، بالبركة؛ فكانت أحب نساءه إليه، وولدت منه جارية يقال لها مريم.

وقد وردت القصة أيضاً في العقد الفريد بالصيغة التالية: (2)

قالت تماضر امرأة عبد الرحمن بن عوف لعثمان بن عفان: هل لك في ابنة عم لي بكر، جميلة ممثلة الخلق، أسيلة الخد، أسيلة الرأي، تتزوجها؟ قال: نعم. فذكرت له نائلة بنت الفرافصة الكلبية، فتزوجها وهي نصرانية فتحنفت وحملت إليه من بلاد كلب، فلما دخلت عليه قال لها: لعلك تكرهين ما ترى من شبيبي؟ قالت: والله يا أمير المؤمنين إني من نسوة أحب أزواجهن إليهن الكهل. قال: إني قد جرت الكهول، وأنا شيخ، قالت: أذهبت شبابك مع رسول الله في خير ما ذهب فيه الأعمار. قال: أتقومين إلينا أم نقوم إليكي؟ قالت: ما قطعت إليك أرض السماوة وأريد أن أنتهي إلى عرض البيت، وقامت إليه. فقال لها: انزعي ثيابك، فنزعته. فقال: حلّي مرطك. قالت: أنت وذاك.

قال أبو الحسن: فلم تزل نائلة عند عثمان حتى قُتل، فلما دخل إليه وقته بيدها، فجدمت أناملها، فأرسل إليها معاوية بعد ذلك يخطبها، فأرسلت إليه: ما ترجو من امرأة جذماء. وقيل: إنها قالت لما قُتل عثمان: إني رأيتُ الحزن يبلى كما يبلى الثوب، وقد خشيت أن يبلى حُرُن عثمان من قلبي، فدعت بفهر فهتمت فاهها، وقالت: والله لا قعد أحدٌ مني معقد عثمان أبداً.

قصة (18) لخنساء بنت عمرو في دريد بن الصمة وقد خطبها⁽³⁾

ابن الكلبي قال: خطب دُرَيْدُ بن الصِّمَّةِ خنساء بنت عمرو، فبعثت جاريتها فقالت: أنظري إذا بال أيقعي أم يُبعثر؟ فقالت لها الجارية: هو يُبعثر. فقالت: لا حاجة لي فيه.

(1) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص335.

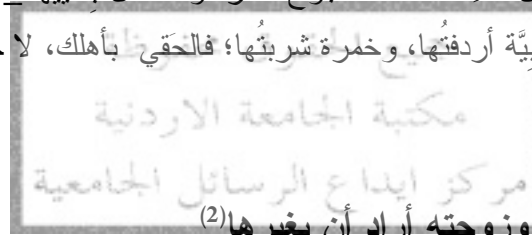
(2) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج2، ص74.

(3) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص335.

قصة (19) خبر الحارث بن سليل الأسدي وزوجته⁽¹⁾

خطب الحارثُ بن سليلِ الأسديِّ إلى عُلْمَةَ بنِ خَصْفَةَ الطائيِّ، وكان شيخاً، فقال لأمِّ الجارية: أريدي ابتك على نفسها. فقالت: أيُّ بُنيَّة. أيُّ الرجالِ أحبُّ إليك: الكهلُ الجَحْجَاحُ، الواصلُ المَنَاحُ، أم الفتيِّ الوضَّاحُ، الذَّهولُ الطَّمَّاحُ؟ قالت: يا أمَّتاه. إن الفتاة تُحبُّ الفتيَّ كحبِّ الرِّعاءِ أنيقِ الكَلِّ

فقالت: يا بُنيَّة، إن الشبابَ شديدُ الحجاب، كثير العتاب. قالت: يا أمَّتاه، أخشى من الشيخ أن يُدنَسَ ثيابي، ويُلَيِّ شبابي، ويُسَمِّتَ بي أترابي. فلم تزل بها حتى غلبتها على رأبها؛ فتزوَّج بها الحارثُ ثم رحلَ بها إلى قومه؛ فإنه لجالسٌ ذات يومٍ بفناء مَظَلَّته وهي إلى جانبه، إذ أقبلَ شبابٌ من بني أسدٍ يعتلجون، فتنفَّست ثم بكت؛ فقال لها: ما يُبكيكِ؟ قالت: ما لي وللشيوخِ الناهضين كالفرخ؛ فقال: تَكَلَّتْكِ أمُّك "تَجُوعُ الحُرَّةُ ولا تأكلُ بثديها" فذهبتُ مثلاً. أما وأبيكِ لرُبِّ غارةٍ شهَدْتُها، وسبيَّةٍ أَرَدْتُها، وخمرةٍ شَرِبْتُها؛ فالحقِّي بأهلك، لا حاجة لي فيكِ.



قصة (20) بين رجل وزوجته أراد أن يغيرها⁽²⁾

الرياشي قال: خرج رجل إلى الغزو فأصاب جاريةً وضيئةً، وكان يغزو على فرسه ويرجع إليها، فوجد يوماً فضلاً من القول فقال:

ألا لا أبالي اليوم ما فعلت هندُ
شديدُ مناطِ المنكبين إذا جرى
فهذا لأيام الحروب وهذه
فَنَمِي الشعرُ إليها فقالت:

غَينِنا وأغنتنا عطارفة المرد
شباباً وأغراهم حواقلة الجند
ونازعني في ماءٍ مُعْتَصِرٍ ورْدٍ
على كَتَدِ ملساءٍ أو كَفَلِ نَهْدٍ
شهُوداً فتقضوها على النَّأيِ والبعدِ
فما كنتم تقضون حاجةً أهلكم
فلما بلغه الشعرُ أتاهما، وقال: أكننت فاعلة؟ فقالت: الله أجلُّ في عيني، وأنت أهونُ عليّ.

(1) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص337.

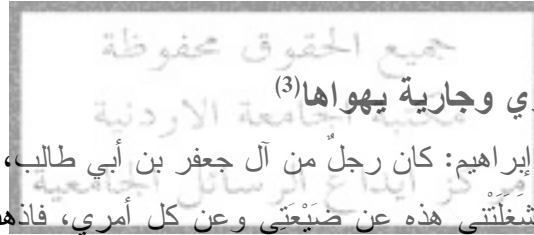
(2) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص338.

وقد وردت القصة في العقد الفريد⁽¹⁾ بزيادة بيتين قالتها المرأة للغلام:
 فعجّل علينا بالسراج فإنه
 وزادك ربُّ الناس بعداً على بعد
 مُنّانا ولا ندعو لك الله بالردِّ

قصة (21) لأبي الأسود في جارية حولاء⁽²⁾

اشترى أبو الأسود جاريةً حولاءً فأغارَ امرأته أمّ عوفٍ، وكانت ابنة عمه، وكانت تُشارهُ في كلِّ يوم وتقول: مَنْ يَشْتري حولاءً؛ فلما أكثرت عليه قال:

يَعيونها عندي ولا عيبَ عندها
 فإن يك في العينين سوءٌ فإنها
 سوى أن في العينين بعضَ التأخرِ
 مُهففةٌ الأعلى رداًحُ المؤخرِ



قال إسحاق بن إبراهيم: كان رجلٌ من آل جعفر بن أبي طالب، يهوى جاريةً، فطال ذلك به، فقال للزبيري: قد شغلّني هذه عن ضيعتي وعن كلِّ أمري، فاذهب بنا حتى نكاشفها، فقد وجدتُ بعض السُّلُو. فأتيناها؛ فلما اتيناها قال لها الجعفريُّ أُتغنين:

وكنتُ أحبكم فسلوتُ عنكم
 فقلت: لا، ولكني أُغني:
 عليكم في دياركم السلام

تحمل أهلها منها فبانوا
 فاستحيا وأطرق ساعةً وازداد كلفاً، ثم قال: أُتغنين:

وأخنع للعبتي إذا كنت ظالماً
 قالت: نعم، وأُغني:
 وإن ظلمتُ كنتُ الذي أتصلُّ

فإن تُقبلوا بالودِّ نَقبلُ بمتله
 فتقاطعا في بيتين، وتواصلًا في بيتين، ولم يشعر بهما أحدٌ.
 وإن تدبروا أدبرُ على حالٍ باليا

قصة (23) لبعض الشعراء في التقبيل⁽¹⁾

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج2، ص85.

(2) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص346.

(3) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص374.

قال أحدهم في التقبيل:

حتى وَاَجْتُ عَلَى خَفِيِّ المَوْلَجِ
لَأُنْبِئَنَّ الحَيَّ إِن لَمْ تَخْرُجْ
فَعَلِمْتُ أَنَّ يَمِينَهَا لَمْ تَخْرُجْ
شُرْبَ النَّزِيفِ بِبِرْدِ ماءِ الحَشْرَجِ
بِمُخَضَّبِ الأَطْرَافِ غَيْرِ مُشْنَجِ

فَدَخَلْتُ مُخْتَفِيًا أَصْرُ بَيْتِهَا
قَالَتْ : وَعَيْشِ أَخِي وَنِعْمَةِ وَالِدِي
فَخَرَجْتُ خَفِيَّةً قَوْلِهَا فَتَبَسَّمتُ
فَلْتَمْتُ فَأَها قَابِضًا بِفُرُونِهَا
فَتَنَاولْتُ رَأْسِي لِتَعْرِفَ مَسَّهُ

قصة (24) للمدائني (2)

ذكر المدائني: أَنَّ رجلاً من السلطان كان لا يزال يأخذ قَوَادَةَ فيحبسها ثم يأتيه من يشفع فيها فيخرجها؛ فأمر صاحب شُرطته فكتب في قِصَّتِها: فلانة القَوَادَةُ تَجْمَعُ بين الرجال والنساء لا يتكلم فيها إلا زان؛ فكان إذا كَلَّمَ فيها قال: أخرجوا قِصَّتِها، فإذا قُرِئَتْ قام الشفيع مُسْتَحْيِيًا.

قصة (25) عمر بن الخطاب وشاب قتل يهودياً كان عند امرأة أخيه (3)

عن الحسن أَنَّ شابَّين كانا متآخيين على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأغزى أحدهما، فأوصى أخاه بأهله؛ فانطلق في ليلة ذات ريح وظلمة إلى أهل أخيه يتعهدهم، فإذا سراج في البيت يزهر، وإذا يهودي في البيت مع أهله وهو يقول:

وأشعثَ غرّه الإسلامُ مني
أبيتُ على ترائبها ويضحني
كأنَّ مَجَامِعَ الرِّبَلاتِ منها
فإنَّامٌ ينهضون إلى فَنامِ

فرجع الشابُّ إلى أهله، فاشتمل السيفَ حتى دخلَ على أهل أخيه فقتله، ثم جرَّه وألقاه في الطريق؛ فأصبح اليهودُ وصاحبُهم قتيلٌ لا يدرون مَنْ قتلَه، فأتوا عمرَ بن الخطاب فدخلوا عليه وذكروا ذلك له، فنادى عمرُ في النَّاسِ: الصلاةُ جامعةٌ، فاجتمع النَّاسُ فصعدَ المنبرَ

(1) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص379.

(2) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص389.

(3) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص401.

فَحَمِدُ اللهَ وَأَتَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَنشُدُ اللهَ رَجُلًا عَلِمَ مِنْ هَذَا الْقَتِيلِ عِلْمًا إِلَّا أَخْبَرَنِي بِهِ. فَقَامَ الشَّابُّ فَأَنشَدَهُ الشَّعْرَ وَأَخْبَرَهُ خَبْرَهُ؛ فَقَالَ عَمْرٌ: لَا يَقْطَعُ اللهُ بِدُكِّكَ. وَهَدَرَ دَمَهُ.

قصة (26) بين عبد الله بن عكرمة وامرأة عبد الرحمن بن الحارث (1)

قال عبدُ اللهِ بنِ عَكْرِمَةَ: دَخَلْتُ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامِ الْمَخْزُومِيِّ أَعُوذُهُ، فَقُلْتُ: كَيْفَ تَجِدُكَ؟ فَقَالَ: أَجِدُنِي وَاللَّهِ بِالْمَوْتِ، وَمَا مَوْتِي بِأَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ تَمَتُّعِ أُمِّ هِشَامٍ، أَخَافُ أَنْ تَنْتَرِجَ - يَعْنِي امْرَأَتَهُ - . فَحَلَفْتُ لَهُ وَالَّتِ الْآ تَنْتَرِجَ بَعْدَهُ، فَعَشِي وَجَهَ نَوْرًا، ثُمَّ قَالَ: شَأْنُ الْمَوْتِ أَنْ يَنْزِلَ مَتَى شَاءَ. ثُمَّ مَاتَ. فَتَزَوَّجْتُ بِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ؛ فَقُلْتُ:

فَإِنْ لَقِيتُ خَيْرًا فَلَا يَهْنِئُنَّهَا وَإِنْ تَعَسَتْ فَلْيَلِدِينَ وَلِلْفَمِّ

فَبَلَّغَهَا، فَكَتَبْتُ إِلَيْ: قَدْ بَلَغَنِي بَيْتُكَ الَّذِي تَمَثَّلْتَ بِهِ، وَمَا مَثَلِي وَمَثَلُ أَخِيكَ إِلَّا كَمَا قَالَ

الشاعر:

وَهَلْ كُنْتُ إِلَّا وَالِهَا ذَاتَ تَرْحِيهِ الْحَقُوقِ قَضَيْتُ نَحْبَهَا بَعْدَ الْحَيْنِ الْمُرْجَعِ
مَتَى تَسَلُّ عَنْهُ تَذَكَّرُ بَعْدَ طِيَّةِ مِنْ الْأَرْضِ أَوْ تَقْنَعُ بِالْفِ فَتَرْبَعِ
فَدَخَّ عَنْكَ مَنْ قَدِ وَا رَتِ الْأَرْضُ شَخْصَهُ وَفِي غَيْرِ مَنْ قَدِ وَا رَتِ الْأَرْضُ فَاطْمَعِ
فَبَلَغَ ذَلِكَ مِنِّي كُلِّ غَيْظٍ، وَاحْتَسَبْتُ حِسَابَهَا، وَإِذَا هِيَ قَدْ أَعْجَلَتْ عِدَّتَهَا، وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْهَا
أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ، فَدَخَلْتُ عَلَى عَمْرٍ فَأَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ، فَفَقَضَ النِّكَاحَ وَعُزِّلَ عَنِ الْمَدِينَةِ.

قصة (27) صخر بن الشريد وزوجته وأمه (2)

كَانَ صَخْرُ بْنُ الشَّرِيدِ أَخُو الْخَنْسَاءِ خَرَجَ فِي غَزْوَةٍ فَقَاتَلَ فِيهَا قِتَالًا شَدِيدًا، فَأَصَابَهُ جُرْحٌ رَغِيبٌ، فَمَرِضَ فَطَالَ بِهِ مَرَضُهُ وَعَادَ قَوْمُهُ، فَقَالَ عَائِدٌ مِنْ عَوَادِهِ يَوْمًا لِامْرَأَتِهِ سَلَمَى: كَيْفَ أَصْبَحَ صَخْرٌ الْيَوْمَ؟ قَالَتْ: لَا حَيًّا فِيرَجَى وَلَا مَيِّتًا فَيُنْسَى. فَسَمِعَ صَخْرٌ كَلَامَهَا فَشَقَّ عَلَيْهِ، وَقَالَ لَهَا أَنْتِ الْقَائِلَةُ كَذَا وَكَذَا؟ قَالَتْ: نَعَمْ غَيْرَ مَعْتَذِرَةٍ إِلَيْكَ. ثُمَّ قَالَ عَائِدٌ آخِرَ الْأُمَّةِ: كَيْفَ أَصْبَحَ صَخْرٌ الْيَوْمَ؟ فَقَالَتْ: أَصْبَحَ بِحَمْدِ اللهِ صَالِحًا وَلَا يَزَالُ بِحَمْدِ اللهِ بِخَيْرٍ مَا رَأَيْنَا سِوَاهُ بَيْنَنَا. فَقَالَ صَخْرٌ:

وَمَلَّتْ سَلِيمَى مَضْجَعِي وَمَكَانِي
عَلَيْكَ وَمَنْ يَغْتَرَّ بِالْحَدَثَانِ

أَرَى أُمَّ صَخْرٍ مَا تَمَلُّ عِيَادَتِي
وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ أَكُونَ جَنَازَةً

(1) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص402.

(2) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص403.

فأَيُّ امْرِئٍ سَاوَى بَأْمٍ حَلِيلَةٍ فَلَإِ عَاشٍ إِلا فِي أَدَى وَهَوَانٍ
أَهْمُ بِأَمْرِ الْحَزْمِ لَوْ اسْتَطْبَعَهُ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الْعَيْرِ وَالنَّزْوَانِ
لَعَمْرِي لَقَدْ أَنْبَهْتُ مَنْ كَانَ نَائِمًا وَأَسْمَعْتُ مَنْ كَانَتْ لَهُ أُذُنَانِ
فَلَمَّا أَفَاقَ عَمَدٌ إِلَى سَلْمَى فَعَلَّقَهَا بِعَمُودِ الْفُسْطَاطِ حَتَّى فَاضَتْ نَفْسُهَا، ثُمَّ نَكِسَ مِنْ طَعْنَتِهِ
فَمَاتَ.

قصة (28) أردشير وابنة ملك السواد (1)

قرأت في سير العجم أن أردشير سار إلى الحضرة، وكان ملك السواد متحصنًا فيها، وكان من أعظم ملوك الطوائف، فحاصره فيها زمانًا لا يجد إليه سبيلًا، حتى رقيت ابنة ملك السواد يومًا، فرأت أردشير فعشفته فنزلت وأخذت نشابة وكتبت عليها: إن أنت شرطت لي أن تتزوجني دللتك على موضع تفتح منه هذه المدينة بأيسر حيلة وأخف مؤونة. ثم رمت بالنشابة نحو أردشير؛ فكتب الجواب في نشابة: لك الوفاء بما سألت. ثم ألقاها إليها؛ فكتبت إليه تدله على الموضع؛ فأرسل إليه أردشير فافتحه ودخل هو وجنوده، وأهل المدينة غارون، فقتلوا ملكها وأكثر مقاتليها وتزوجها؛ فبينما هي ذات ليلة على فراشه أنكرت مكانها حتى سهرت لذلك عامّة ليلتها، فنظروا في الفراش فوجدوا تحت المحبس ورقة من ورق الأس قد أثرت في جلدها، فسألها أردشير عند ذلك عما كان أبوها يغذوها به؛ فقالت: كان أكثر غذائي الشهد والزبد والمخ. فقال أردشير: ما أحد ببالح لك في الحياء والإكرام مبلغ أبيك، ولئن كان جزاؤه عندك على جهد إحسانه مع لطف قرابته وعظم حقه جهد إساءتك، ما أنا بأمن لمثله منك. ثم أمر بأن تعقد قرونها بذنب فرس شديد المراح جموح ثم يجرى؛ ففعل ذلك حتى تساقطت عضوًا عضوًا.

قصة (29) بين أخوين وزوجة أحدهما (2)

قال العتبي: سمعت أبي يحدث عن ناس من أهل الشام: أن أخوين كان لأحدهما زوجة وكان يغيب ويخلفه الآخر في أهله، فهو يته امرأة الغائب، فأرادته على نفسها فامتنع؛ فلما قدم أخوه سألها عن حالها، فقالت: ما حال امرأة تراود في كل حين! فقال: أخي وابن أمي! وإني لا أفصحه! ولكن لله عليّ ألا أكلمه أبدًا. ثم حجّ وحجّ أخوه والمرأة؛ فلما كانوا بوادي الدوم هلك الأخ ودفنوه وقضوا حجهم ورجعوا؛ فمروا بذلك الوادي ليلاً، فسمعوا هاتفاً يقول:

(1) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص404.

(2) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص404.

أَجِدُّكَ تَمْضِي الدَّوْمَ لَيْلًا وَلَا تَرَى
عَلَيْكَ لِأَهْلِ الدَّوْمِ أَنْ تَتَكَلَّمَ
وَبِالدَّوْمِ ثَاوٍ لَوْ تَوَيْتَ مَكَانَهُ
وَمَرَّ بِوَادِي الدَّوْمِ حَيًّا لَسَلَّمَ
فَطَنَّتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ النِّدَاءَ مِنَ السَّمَاءِ، فَقَالَتْ لِزَوْجِهَا: هَذَا مَقَامُ الْعَانِدِ، كَانَ مِنْ أَخِيكَ وَمَنِي
كَيْتَ وَكَيْتَ. فَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْ حَلَّ قَتْلُكَ لَوْجَدْتِنِي سَرِيعًا. فَفَارَقَهَا وَضَرَبَ خَيْمَةً عَلَى قَبْرِ أَخِيهِ،
وَقَالَ:

هَجَرْتُكَ فِي طُولِ الْحَيَاةِ وَأَبْتَعِي
كَلَامَكَ لَمَا صِرْتَ رَمَسًا وَأَعْظَمًا
ذَكَرْتُ ذُنُوبًا فِيكَ كُنْتَ اجْتَرَمْتَهَا
أَنَا مِنْكَ فِيهَا كُنْتُ أَسْوَأَ وَأَظْلَمًا
وَلَمْ يَزَلْ مُقِيمًا حَتَّى مَاتَ وَدُفِنَ بِجَنَبِ أَخِيهِ، فَالْقَبْرَانِ مَعْرُوفَانِ.

قصة (30) قرشي وامرأته⁽¹⁾

عن يحيى بن طفيل الجشمي قال: كان عند رجل من قريش امرأة يحبها، فسافر عنها،
فقال له: أشيعك. فشيعة ثلاث مراحل؛ فلما مضى قالت لخدمها: ناولني بعة وروثة وحصاة.
فناولها، فألقت الروثة وقالت: رأت خبرك؛ وألقت البعة وقالت: وعرف سفرك؛ وألقت
الحصاة وقالت: حص أثرك. فسمعها رجل على الماء فلقه، فقال له: ما هذه منك؟ قال: امرأتي
وأعز الناس إلي. فأخبره بالخبر، فقام على الماء، فلما أمسى أقبل نحو منزله فوجد معها رجلاً
فقتلها جميعاً.

قصة (31) بين محمد بن قيس ويزيد بن عبد الملك في عاشقين⁽²⁾

قال محمد بن قيس الأسدي: وجّهني عامل المدينة إلى يزيد بن عبد الملك وهو خليفة
فخرجت، فلما قربت المدينة بليتين أو ثلاث وإذا أنا بامرأة قاعدة على قارعة الطريق، وإذا
رجل رأسه في حجرها كلما سقط رأسه أسندته، فسلمت فردت ولم يرد الشاب؛ ثم تأملتني فقالت:
يا فتى، هل لك في أجر لا مرزبة فيه؟ قلت: سبحان الله! وما أحب الأجر إلي وإن رزيت فيه!
فقالت: هذا ابني وكان إفا لابنة عم له تربيا جميعاً، ثم حُجبت عنه، فكان يأتي الموضع والخباء،
ثم خطبها إلى أبيها فأبى عليه أن يزوجه؛ ونحن نرى عيباً أن تزوج المرأة من رجل كان بها
مُغرمًا، وقد خطبها ابن عم لها وقد زوجت منذ ثلاث، فهو على ما ترى لا يأكل ولا يشرب ولا
يعقل، فلو نزلت إليه فوعظته! فنزلت إليه فوعظته؛ فأقبل علي وقال:

أَلَا مَا لِلْحَبِيبَةِ لَا تَعُودُ
أَبْخَلُّ بِالْحَبِيبَةِ أَمْ صُدُودُ

(1) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص405.

(2) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص412.

مرضتُ فعادني قومي جميعاً
فقدتُ حبيبتي فلبيتُ وجداً
وما استبطأتُ غيرك فاعلميه
فلو كنتُ السَّقِيمَةَ جئتُ أسعى
فما لك لم تُرَيَ فيمن يعودُ
وفقدُ الإلفِ يا سَكَنَى شديدُ
وحولِي من بني عمِّي عديدُ
إليكِ ولم يُنْهِنِي الوعيدُ

قال: ثم سَكَنَ عند آخر كلمته؛ فقالت العجوز: فاضت والله نفسه ثلاثاً! فدخلني أمرٌ لا يعلمه إلا الله، فاغتممتُ وخِفْتُ موته لكلامي. فلما رأتِ العجوزُ ما بي قالت: هَوْنٌ عليك! مات بأجله واستراح ممّا كان فيه، وقَدِمَ على ربِّ كريم؛ فهل لك في استكمال الأجر؟ هذه أبياتي منك غير بعيدة، تأتيهم فتتعاها إليهم وتسالهم حضورهم. فركبتُ فأتيتُ أبياتاً منها على قدر ميلٍ، فنَعَيْتُهُ إليهم وقد حَفَظْتُ الشعرَ، فجعل الرجلُ يَسْتَرْجِعُ . فبينما أنا أدورُ إذا امرأةٌ قد خرجتُ من خيائها تجرُّ رداءه ناشرةً شعرها، فقالت: أيها النّاعي، بفيك الكتكتُ، بفيك الحجر! مَنْ تَنَعَى؟ فلان بن فلان . فقالت: بالذي أرسل محمداً واصطفاه، هل مات؟ قلت: نعم. فقالت: فماذا الذي قال قبل موته؟ فأنشدتها الشعرَ، فوالله ما تَنَهَّهْتُ أَنْ قالت:

عَدَانِي أَنْ أُرُوكَ يَا حَبِيبِي
أشاعوا ما سمعتُ من الدواهي
وَأَمَّا إِذْ تَوَيْتَ الْيَوْمَ لِحِداً
فدورُ الناسِ كُلُّهُمُ لِحودُ
فلا طابَتْ لِي الدنِيا فُواقاً
ولا لَهُمُ ولا أَثرى العبيدُ
معاشِرُ كُلُّهُمُ وِاشٌ حَسودُ
وعابُونَا وما فِيهِمُ رَشِيدُ

ثم مضت معي ومع القوم تُؤَلِّوُلُ حتى انتهينا إليه، فغسلنا وكفناه وصلينا عليه، فأكَبْتُ على قبره؛ وخرجتُ لَطِيبِي حتى أتيتُ يزيد بن عبد الملك، وأوصلتُ إليه الكتاب؛ فسألني عن أمور الناس، قال: هل رأيتُ في طريقك شيئاً؟ قلتُ: نعم، رأيتُ والله عجباً. وحدثته الحديث؛ فاستوى جالساً، ثم قال: لله أنت يا محمد بن قيس! امضِ الساعة قبل أن تعرف جوابَ ما قدمتُ له، حتى تمرَّ بأهل الفتى وبني عمّه، وتمرَّ بهم إلى عامل المدينة، وتأمره أن يُثَبِّتَهُم في شرف العطاء، وإن كان أصابها ما أصابه، فافعل ببني عمّها ما فعلت ببني عمه، ثم ارجع إليّ حتى تُخبرني بالخبر، وتأخذ جوابَ ما قدمتُ له. فمررتُ بموضع القبر، فرأيتُ إلى جانبه قبراً آخر، فسألته عنه فقيل: قبرُ المرأة، أكَبْتُ على قبره، ولم تَنُذِقْ طعاماً ولا شرباً، ولم تُرَفَعْ عنه إلى ثلاثة أيام إلا ميتةً. فجمعتُ بني عمّها وبني عمّه، وأثَبَّتُهُم في شرف العطاء جميعاً.

قصة (32) لعبد الملك بن عمير في أخوين من بني كنة (1)

(1) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص415.

عن عبد الملك بن عمير قال : كان أخوان من بني كنة من ثقيف، أحدهما ذو أهل، والآخر عزب، وكان ذو الأهل إذا غاب خلفه العزب في أهله؛ فغاب غيبة له، فجاء العزب يوماً فطلعت عليه امرأة الأخ، وهي لا تعلم بمكانه، وعليها درع يشف، فسترت وجهها بذراعيها، فوقعت في قلبه، وجعل يذوب حتى صار كأنه خيط، فقدم أخوه فقال: يا أخي، ما لك؟ قال: لا أدري. واستحيا أن يذكر ما به؛ فانطلق أخوه إلى الحارث بن كدة طبيب العرب، فوصفه له؛ فقال: احمله إلي. فلما نظر إليه قال: أما العينان فصحيتان، وأما الجسم فدائب، ولا أظن أخاك إلا عاشقاً. قال: ترى أخي بالموت وتزعم أنه عاشق! قال: هو ما أقول لك، فاسقه الشراب؛ فسقاه الخمر، فقال: الشعر ولم يكن الشعر من شأنه، فقال:

ألمّا بي إلى الأبيّا	ت بالخيف أزُرُّ هُنَّه
غزالٌ ما رأيتُ اليومَ	في دُورِ بني كنة
غزالٌ أكحل العين	وفي منطِقَه غنَّه

فقال أخوه: والله ما أراه إلا كما قال، ولكن لا أدري من عنى فسقاه شربةً أخرى، فقال:

أيها الحيُّ اسلمُوا	اسلمُوا ثمَّت اسلمُوا
لا تولُّوا وتعرضوا	واربعوا كيِّ تكلمُوا
خرجتُ مَزنةً من آل	بحر رِيّا تحمُّم
هي ما كنتي وتر	عُم أني لها حم

قال: يا أخي هي طالقٌ ثلاثاً، فإن شئت فتزوّجها. قال: وهي طالقٌ إن تزوّجتها. قال غيره: فلما أفاق ذهب على وجهه حياءٌ ولم يرجع، فهو فقيدٌ ثقيف.

قصة (33) خبر عباس والجارية التي هويها⁽¹⁾

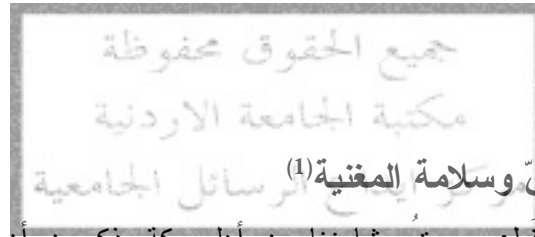
عن أبي مسكين قال: خرج أناس من بني حنيفةً ينتزّهون إلى جبل لهم، فبصر فتى منهم يقال له عباس بجاريةً فهويها، وقال لأصحابه: والله لا أنصرف حتى أرسل إليها. فطلبوا إليه أن يكفّ وأن ينصرف معهم فأبى، وأقبل يُرسل الجارية حتى وقع في نفسها، فأقبل في ليلةٍ إضحيانةً مُتَكَبِّباً قوسه وهي بين أختها نائمةً، فأيقظها؛ فقالت: انصرف وإلا أيقظتُ أختي فقتلوك! فقال: والله للموت أيسرُ ممّا أنا فيه، ولكن الله عليّ إن أعطيتني يدك حتى أضعها على فؤادي أن أنصرف. فأمكنته من يدها، فوضعها على فؤاده ثم انصرف؛ فلما كان من القابلة أتاها وهي في مثل حالها، فقالت له مثل مقالتها، وردّ عليها وقال: إن أمكنتيني من شفّتكِ أرشّفهما انصرفتُ ثم لا أعود إليك. فأمكنته من شفّتها فرشّفهما ثم انصرف؛ فوقع في قلبها منه مثل

(1) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج3، ص416.

النار؛ ونذر به الحيّ، فقالوا: ما لهذا الفاسق في هذا الجبل! انهضوا بنا إليه حتى نخرجه منه. فأرسلتُ إليه: إن القوم يأتونك الليلة فأحذر، فلما أمسى قعد على مرقبٍ ومعه قوسه وأسهمه، وأصاب الحي من آخر النهار مطرٌ وندىً فلَهواً عنه؛ فلما كان في آخر الليل وذهب السحابُ وطلع القمر، خرجتُ وهي تريده وقد أصابها الطلّ، فنشرتُ شعرها وأعجبتُها نفسها ومعها جاريةٌ من الحيّ، فقالت: هل لك في عباسٍ؟ فخرجتا تمشيان، ونظر إليهما وهو على المرقب، فظنَّ أنهما ممن يطلبه، فرمى بسهمٍ فما أخطأ قلبَ الجارية ففلقه! وصاحت الأخرى، فأحدر من الجبل وإذا هو بالجارية في دمها؛ فقال:

نَعَبَ الْغُرَابُ بِمَا كَرِهَ تُ وَلَا إِزَالَةَ لِلْقَدَرِ
تَبْكِي وَأَنْتَ قَتَلْتَهَا فاصْبِرِ وَإِلَّا فانتحِرِ

ثم وجأ في أوداجه بمشاقصه، وجاء الحيّ فوجدهما مقتولين فدفنوهما!



قال خَلادُ الأرقط: سمعتُ مشايخنا من أهل مكة يذكرون أن القسّ، وهو مولى لبني مخزوم، كان عند أهل مكة بمنزلة عطاء بن أبي رباح، وأنه مرَّ يوماً بسلامة وهي تُغني، فوقف يسمع؛ فرآه مولاها فدنا منه فقال: هل لك في أن تدخل وتستمع؟ فأبى، ولم يزل به فقال: أفعدك في موضع لا ترها ولا تراك. ففعل، ثم غنت فأعجبته؛ فقال: هل لك في أن أحولها إليك؟ فتأبى. ثم أجاب، فلم يزل به حتى شغف بها وشغفت به، وعلم ذلك أهل مكة. فقالت له يوماً وقد خلوا: أنا والله أحيك؛ فقال: وأنا والله أحيك. قالت: فأنا أحب أن أضع فمي على فمك؛ قال: وأنا والله. قالت: وأنا والله أحب أن أضع صدري على صدرك؛ قال: وأنا والله. قالت: فما يمنعك؟ والله إن الموضع لخال! فأطرق ساعة، ثم قال: إني سمعتُ الله يقول: (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ إلا المتقين)، وأنا والله أكره أن تكون خلّة ما بيني وبينك عداوة يوم القيامة. ونهض وعاد إلى طريقته التي كان عليها وفيه قيل:

لقد فتنّت رياءً وسلامةً القسا ولم تتركاً للقسّ عقلاً ولا نفساً

و من شعره فيها:

أهابك أن أقول بذلت نفسي ولو أنني أطيع القلب قالاً
حياءً منك حتى شف جسمي وشقّ عليّ كيتماني وطالاً

و هو القائل:

قد كنتُ أعدلُ في السَّفَاهَةِ أهلَهَا
فأعجبُ لما تأتي به الأيامُ
فاليومَ أرحمهم وأعلمُ أنما
سُبلُ الغَوَايَةِ والهُدَى أقسامُ

و هو القائل:

ألم ترَها لا يُبعدُ اللهُ دارَها
إذا مرَّحتُ في صوتها كيف تصنعُ
تمدّ نظامُ القولِ ثم تردّه
إلى صلصل في حلقها فترجعُ

قصة (35)⁽¹⁾

كان الفاكه بن المغيرة المخزومي أحدَ فتیان قريش، وكان قد تزوج هند بنت عتبة، وكان له بيت للضيافة يعشاه الناس فيه بلا إذن، فقام يوماً في ذلك البيت، وهند معه ثم خرج عنها وتركها نائمة، فجاء بعض من كان يغشى البيت فلما وجد المرأة نائمةً ولّى عنها. فاستقبله الفاكه بن المغيرة، فدخل على هند وأنبهها، وقال: من هذا الخارج من عندك؟ قالت: والله ما انتبهت حتى أنبهتني، وما رأيتُ أحداً قط. قال: الحقي بأبيك. وخاض الناس في أمرهم. فقال لها أبوها: يا بُنية: أنبئني شأنك، فإن كان الرجل صادقاً دسستُ عليه من يقتله فينقطع عنك العار، وإن كان كاذباً حاكمته إلى بعض كهان اليمن. قالت: والله يا أبت إنه لكاذب. فخرج عتبة، فقال: أنك رميت ابنتي بشيء عظيم، فأما أن تُبين ما قلت، وإلا فحاكمني إلى بعض كهان اليمن. قال: ذلك لك. فخرج الفاكه في جماعة من رجال قريش، ونسوة من بني مخزوم، وخرج عتبة في رجال ونسوة من بني عبد مناف، فلما شارفوا بلاد الكاهن تغير وجه هند، وكسف بالها. فقال لها أبوها: أي بُنية، ألا كان هذا قبل أن يشتهر في الناس خروجنا؟ قالت يا أبت، والله ما ذلك لمكروه قلبي، ولكنكم تأتون بشراً يُخطيء ويصيب، ولعله أن يسمني بسمة تبقى على السنة العرب. فقال: لها أبوها: صدقت، ولكني سأخبره لك. فصفر بفرسه، فلما أدلى عمد إلى حبة بر فأدخلها في إحليله، ثم أوكى عليها وسار. فلما نزلوا علة الكاهن أكرمهم ونحر لهم. فقال له عتبة: إنا أتيناك في أمر قد خباناً لك خبيّة، فما هي؟ قال: ثمرة في كمرّة. قال: أريد أبين من هذا. قال: حبة بر في إحليل مُهر. قال: صدقت. فانظر في أمر هؤلاء النسوة، فجعل يمسح رأس كل واحدة منهن، ويقول: قومي لشأنك، حتى إذا بلغ إلى هند مسح يده على رأسها، وقال: قومي غير رسحاء ولا زانية، وستلدين ملكاً يسمى معاوية. فلما خرجت أخذ الفاكه بيدها فنترت يده من يدها، وقالت: والله لأحرصن أن يكون ذلك الولد من غيرك. فتروجها أبو سفيان فولدت له معاوية.

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج2، ص70.

و ذكروا أن هند بنت عتبة بن ربيعة قالت لأبيها: يا أبت، إنك زوجتني من هذا الرجل ولم تؤامرني في نفسي، فعرض لي ما عرض، فلا تزوجني من أحد حتى تعرض علي أمره، وتبين لي خصاله . فخطبها سهيل بن عمرو وأبو سفيان بن حرب، فدخل عليها أبوها وهو يقول:

أتاك سهيل وابن حرب وفيهما	رضاً لك يا هند الهنود ومقنع
وما منهما إلا يعاش بفضلته	وما منهما إلا يضر وينفع
وما منهما إلا كريم مرزاً	وما منهما إلا أعز سميدع
فدونك فاختاري فانت بصيرة	ولا تخدعي إن المخادع يخدع

قالت: يا أبت، والله ما أصنع بهذا شيئاً، ولكن فسّر لي أمرهما وبين لي خصالهما، حتى أختار لنفسي أشدهما موافقة لي. فبدأ يذكر سهيل بن عمرو، فقال: أما أحدهما ففي سيطرة من العشيرة وثروة من العيش، إن تابعته تابعك، وإن ملت عنه حط إليك، تحكمن عليه في أهله وماله. وأما الآخر فموسع عليه منظور إليه، في الحسب والحسب، والرأي الأريب، مزره أرؤمته، وعز عشيرته، شديد الغيرة، كثير الطيرة، لا ينام على ضعة، ولا يرفع عصاه عن أهله. فقالت: يا أبت، الأول سيد مضياع للحرّة، فما عسّت أن تلين بعد إبانها، وتصنع تحت جناحه، إذا تابعها بعلمها فأشرت، وخافها أهلها فأمنت، فسائت عند ذلك حالها، وقبح عند ذلك دلالتها، فإن جاءت بولد أحمقت، وإن أنجبت فعن خطأ ما أنجبت، فاطو ذكر هذا عني ولا تسمه لي. وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة، الحرّة العفيفة، وإني للتي لا أريب له عشيرة فتغير، ولا تضييه بذعر فتضيره، وإني لأخلاق مثل هذا لموافقة، فزوجنيه. فزوجها من أبي سفيان. فولدت له معاوية، وقبله يزيد، فقال في ذلك سهيل بن عمرو:

نبئت هنداً تبرّ الله سعيها	تأبّت وقالت وصف أهورج مائق
وما هوجي يا هند إلا سجيّة	أجر لها ذيلي بحسين الخلائق
ولو شئت خادعت الفتى عن قلوّصه	ولا طمّت بالبطحاء في كل شارق
ولكنني أكرمت نفسي تكرماً	ورافعت عنها الذم عند الخلائق
وإنني إذا ما حرة ساء خلقها	صبرت عليها صبر آخر عاشق
فإن هي قالت خلّ عنها تركتها	وأقلّ بترك من حبيب مفارق
فإن سامحوني قلت أمرى إليكم	وإن أبعدونى كنت في رأس حالق
فلم تتكحى يا هند مثلي وإنني	لمن لم تمقني فاعلمي غير وامق

فبلغ أبا سفيان، فقال: والله لو أعلم شيئاً يرضي أبا زيد سوى طلاق هند لفعلته.

وألح سهيل في تنقص أبي سفيان . فقال أبو سفيان:

رأيت سهيلاً قد تفاوت شأوه
وفرط في العلياء كلّ عنان

وأصبح يَسْمُو للمَعَالِي وإنه
وَشَرَبَ كِرَامٍ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ
ولكنه يوماً إِذَا الْحَرْبُ شَمَرَتْ
تَطَّأُ فِيهَا مَا اسْتَطَاعَ بِنَفْسِهِ
فَأَكْفِيهِ مَا لَا يُسْتَطَاعُ دِفَاعُهُ
لذُو جَفْنَةٍ مَغْشِيَّةٍ وَقِيَانٍ
عِرَاضِ الْمَسَاعِي عُرْضَةِ الْاَحْدَثَانِ
وَأُبْرِزَ فِيهَا وَجْهَ كُلِّ حَصَانٍ
وَقَنَّعَ فِيهَا رَأْسَهُ وَدَعَانِي
وَأَلْقَيْتُ فِيهَا كَلْكَلِي وَجِرَانِي

قال: وتزوج سهيل بن عمر امرأة فولدت له ولداً، فبينما هو سائر معه إذ نظر إلى رجل يركب ناقهً ويقود شاة، فقال لأبيه: يا أبت، هذه ابنة هذه؟ يريد الشاة ابنة الناقة، فقال أبوه: يرحم الله هنداً، يعني ما كان من فراستها فيه .

قصة (36) (1)

و عن الهيثم بن عدي الطائي قال: حدثنا مجالد عن الشعبي قال: لقيني شريح فقال: يا شعبي، عليك بنساء بني تميم، فإني رأيت لهن عقولا. قال: وما رأيت من عقولهن؟ قال: أقبلت من جنازة ظهرا، فمررت بدورهم، فإذا أنا بعجوز على باب دار، و إلى جنبها جارية كأحسن ما رأيت من الجوارى، فعدلت فاستسقيت، و ما بي عطش. فقالت: أي الشراب أحب إليك؟ فقلت: ما تيسر، قالت: ويحك، يا جارية إيتيه بلبن، فإني أظن الرجل غريبا، قلت: من هذه الجارية؟ قالت: هذه زينب بنت جرير إحدى نساء بني حنظلة، قلت: فارغة هي أم مشغولة؟ قالت: بل فارغة. قلت: زوجينها. قالت: إن كنت لها كفواً، وهي لغة تميم . فمضيت إلى المنزل، فذهبت لأقيل. فامتعت مني القائلة، فلما صليت الظهر أخذت بأيدي إخواني من القرءاء الأشراف: علقمة، والأسود، والمسيب، وموسى بن عرقطة، ومضيت

أريد عمها . فاستقبل فقال: يا أبا أمية، حاجتك؟ قلت: زينب بنت أخيك، قال: ما بها رغبة عنك. فأنكحنيها. فلما صارت في حياي ندمت، وقلت: أي شيء صنعت بنساء بني تميم؟ و ذكرت غلظ قلوبهن، فقلت: أطلقها، ثم قلت: لا، ولكن أضمتها إلي، فإن رأيت ما أحب وإلا كان ذلك. فلو رأيتني يا شعبي وقد أقبل نساؤهم يهدينها حتى أدخلت علي، فقلت: إن من السنة إذا دخلت المرأة على زوجها أن يقوم فيصلي ركعتين، فيسأل الله من خيرها ويعوذ به من شرها، فصليت وسلمت، فإذا هي من خلفي تصلي بصلاتي، فلما قضيت صلاتي أتتني جواريتها، فأخذن ثيابي وألبسنني ملحفة قد صبغت في عكر العصفور، فلما خلا البيت دنوت منها، فمددت يدي إلى ناصيتها فقالت: على رسلك أبا أمية كما أنت، ثم قالت: الحمد لله، أحمده و أستعينه، و أصلي

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج2، ص75.

على محمد وآله، إني امرأة غريبة لا علم لي بأخلاقك، فبين لي ما تحب فأتيه، و ما تكره فأزجر عنه. وقالت: إنه قد كان لك في قَوْمِكَ منكم. وفي قَوْمِي مثل ذلك، ولكني إذا قضى الله أمراً كان، و قد ملكت فاصنع ما أمرك الله به: {إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان} أقول قولِي هذا و أستغفر الله لي ولك. قال: فأخرجتني و الله يا شعبي إلى الخُطبة في ذلك الموضع، فقلت: الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأصلي على النبي وآله وسلم . وبعد، فإنك قد قلت كلاماً إن تنبّتي عليه يكن ذلك حظك، و إن تدعيه يكن حجة عليك، أحب كذا وأكره كذا، ونحن جميع فلا تفرقي، وما رأيت من حسنة فانشرها وما رأيت من سيئة فاسترّها؛ وقالت شيئاً لم أذكره: كيف محبتك لزيارة الأهل؟ قلت: ما أحب أن يُمَلّني أصهاري. قالت: فمن تحب من جيرانك أن يدخل دارك آذن له، ومن تكرهه أمنعه؟ قلت: بنو فلان قوم صالحون وبنو فلان قوم سوء. قال: فبت يا شعبي بأنعم ليلة، ومكثت معي حوالاً لا أرى إلا ما أحب. فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء، فإذا بعجوز تأمر وتنهى في الدار. فقلت: من هذه؟ قالوا: فلانة خنتك، فسرى عني ما كنت أجد، فلما جلست أقبلت العجوز، فقالت: السلام عليك أبا أمية. قلت: و عليك السلام، من أنت؟ قالت: أنا فلانة خنتك، قلت: قربك الله، قالت: كيف رأيت زوجتك؟ قلت: خير زوجة، فقالت لي: أبا أمية، إن المرأة لا تكون أسوأ حالاً منها في حالتين، إذا ولدت غلاماً أو حظيت عند زوجها، فإن رابك ريبٌ فعليك بالسوط، فوالله ما حاز الرجال في بيوتهم شراً من المرأة المدللة . قلت: أما والله لقد أدبت فأحسنت الأدب، و رُضت فأحسنت الرياضة . قالت: تحب أن يزورك أختانك؟ قلت: متى شأوا . قال: فكانت تأتيني في رأس كل حوّل توصيني تلك الوصية، فمكثت معي عشرين سنة لم أعتب عليها في شيء إلا مرة واحدة، وكنت لها ظالماً، أخذ المؤذن في الإقامة بعدما صلّيت ركعتي الفجر، وكنت إمام الحي، فإذا بعقرب تدب، فأخذت الإناء فأكفأته عليها، ثم قلت: يا زينب، لا تحركي الإناء حتى آتي. فلو شهدتني يا شعبي، وقد صلّيت ورجعت فإذا أنا بالعقرب قد ضربتها. فدعوت بالقسط والملح، فجعلت أمغثُ إصبعها وإقرأ عليها بالحمد والمعوذتين .

و كان لي جار من كِنْدَةَ يُقرِّع امراته و يضربها، فقالت في ذلك:

رأيت رجالاً يضربون نساءهم	فشلت يميني حين أضرب زينبا
أضربها في غير ذنب أنت به	فما العدل مني ضرب من ليس مُذنباً
فزنب شمس و النساء كواكب	إذا طلعت لم تُد منهن كوكبا

قصة (37) (1)

و قال أبو عبيدة: نكح الفرزدقُ أمةً له زنجية، فولدت له بنتاً فسمّاها مكية، و كان يُكنى بها، و يقول : أنا أبو مكية . فكتبت النّوار يوماً إلى الفرزدق تشكو مكيّة، فكتب إليها:

كنتم زعمتم أنها ظلمتكم
كذبتم و بيت الله بل تظلمونها
فإن لا تعدّوا أمّها من نساءكم
فإن أباهما والدّ لن يشينها
و إنّ لها أعمامَ صدق و إخوة
و شيخاً إذا سئتم تأيّم دونها
و قالت النوار فإننا لا نشاء.

وقال الفرزدق في أمتة الزنجية:

يا ربّ خود من بنات الزنج
أعسن مثل القدح الخنج
تنقل تتورا شديد الوهج
يرداد طيباً بعد طول الهرج

قصة (38) (1)

و عن الهيثم بن عديّ عن ابن عيَّاش قال: أخبرني موسى السّلاماني، مولى الحضرمي، وكان أيسر تاجر بالبصرة، قال: بينا أنا جالس إذ دخل عليّ غلام لي، فقال: هذا رجل من أهل أمك يستأذن عليك. وكانت أمه مولاة لعبد الرحمن بن عوف. فقلت: إيذن له، فدخل شاب حلو الوجه، يعرف في هيئته أنه قرشي، في طمرين، فقلت: من أنت يرحمك الله؟ قال: أنا عبد المجيد بن سهل بن عبد الرحمن بن عوف الزُّهري، خال رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: في الرُّحْب والقُرب، ثم قلت: يا غلام، برّه و أكرمه وأطفه، وأدخله الحمام، واكسه قميصاً رقيقاً، ومبطناً قوهِياً، ورداء عُمرياً، و حذونا له نعلين حضرميين، فلما نظر الشاب في عطفه و أعجبتّه نفسه. قال: "يا هذا، ابغني أشرف أيّم بالبصرة أو أشرف بكر بها. قلت: يا بن أخي، معك مال؟ قال: أنا مال كما أنا.

قلت: يابن أخي، كُفّ عن هذا. قال: انظر ما أقول لك. قلت: فإن أشرف أيّم بالبصرة هند بنت صفرة و أشرف بكر بالبصرة الملاءة بنت زرارة بن أوفى الحَرشيّ، قاضي البصرة. قال: اخطبها علي. قلت: يا هذا إن اباهما قاضي البصرة. قال: انطلق بنا إليه. فانطلقنا إلى المسجد، فنقدّم فجلس إلى القاضي، فقال له: من أنت يا بن أخي؟ قال له: عبد المجيد بن سهل بن عبد الرحمن بن عوف، خال رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: مرحباً، ما حاجتُك؟ قال: جنّتُ خاطباً. قال: ومن ذكرت؟ قال: الملاءة ابنتك. قال: يابن أخي، ما بنا عنك رغبة، ولكنها امرأة لا يُفتات عليها أمرها، فاخطبها إلى نفسها. فقام إليّ. فقلت: ما صنعت؟ قال: كذا وكذا. قلت: ارجع بنا و لا تخطبها. قال: اذهب بنا إليها، فدخلنا دار زُرارة، فإذا دار فيها مقاصير.

فاستأذنا على أمها فلقبتنا بمثل كلام الشيخ، ثم قالت: ها هي تلك في تلك الحجرة. قلت له: لا تأتها. قال: أليست بكراً؟ قلت: بلى. قال: ادخل بنا إليها، فاستأذنا، فأذنت لنا، فوجدناها جالسة وعليها ثوبٌ قوهِيّ رقيقٌ مُعصفر، تحته سراويل يُرى منه بياض جسدها، ومرطٌ قد جمعنه على فخذيهما، ومُصحف على كرسي بين يديهما، فأشربت المُصحف ثم نَحَّته، فسَلَّمنا، فردت، ثم رحبت بنا، ثم قالت: مَنْ أنت؟ قال: أنا عبد المجيد بن سهل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، خال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومدّ بها صوته، قالت: يا هذا، إنما يُمد هذا الصوت للساسانيين. قال موسى: فدخل بعض في بعض. قالت: ما حاجتك؟ قال: جئتُ خاطباً. قالت: ومن ذكرت؟ قال: ذكرك. قالت: مرحباً بك يا أخا أهل الحجاز، ما الذي بيدك؟ قال: لنا سَهْمَان بخيبر أعطاناها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ومدّ بها صوته، وعينٌ بمصر، وعينٌ باليمامة، ومال باليمن قالت: يا هذا كل هذا عنا غائب، و لكن ما الذي يحصل بأيدينا منك. فإني أظنك تريد أن تجعلني كشاة عكرمة. أتدري من عكرمة؟ قال لا، قالت: عكرمة بن ربيعي، فإنه كان نشأ بالسواد ثم انتقل إلى البصرة، وقد تغدّى باللبن، فقال لزوجته: اشتريني لنا شاةً نحلبها وتصنعين لنا من لبنها شراباً وكامخاً، ففعلت. وكانت عندهم الشاة إلى أن استرحمت فقالت: يا جارية: نخذي بأذن الشاة وانطلقي بها إلى التّياس، فأنزي عليها، ففعلت، فقال التّياس: آخذ منك على النّزوة درهمًا. فانصرفت إلى سيدتها فأعلمتها، فقالت: إنما رأينا من يرحم ويُعطي، وأمّا من يرحم ويأخذ فلم نره، ولكن يا أخا أهل المدينة. أردت أن تجعلني كشاة عكرمة. فلما خرجنا قلت له: ما كان أغناك عن هذا! قال: ما كنت أظن أن امرأة تجترىء على مثل هذا الكلام .

قصة (39) (1)

و كان عمرو بن حُجر ملك كندة، وهو جدّ امرئ القيس، أراد أن يتزوج ابنة عوف من مُحمّل الشيباني الذي يقال فيه: لا حرُّ بوادي عوف؛ لإفراط عزّه. وهي أم إياس، وكانت ذات جمال وكمال. فوجّه إليها امرأة يقال لها عصام، ذات عقل وبيان و أدب لتتظر إليها وتمتنح ما بلغه عنها. فدخلت على أمها أمّامة بنت الحارث، فأعلمتها ماقدّمت له. فأرسلت إلى ابنتها: أي بنية، هذه خالتك، أنت إليك لتتظرُ إلى بعض شأنك، فلا تستري عنها شيئاً أرادت النظرَ إليه من وجهه وخلق، وناطقها فيما استتطقتك فيه. فدخلت عصامُ عليها فنظرت إلى ما لم ترَ عينها مثله قط، بهجةً وحسناً وجمالاً. فإذا هي أكملُ الناس عقلاً، وأفصحهم لساناً. فخرجت من عندها وهي تقول: "ترك الخداع من كشف القناع" فذهبت مثلاً . ثم أقبلت إلى الحارث، فقال لها: "ما وراءك يا عصام؟" فأرسلها مثلاً. قالت: "صرّح المخض عن الزبدة" فذهبت مثلاً . قال: أخبريني، قالت:

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج2، ص88.

أخبرك صدقاً وحقاً، رأيت جبهةً كالمرآة الصقيلة، يزينها شعر حالك كأذنان الخيل المضفورة، إن أرسلته خلته السلاسل، و إن مشطته قلت عناقيد كرم جلاه الوابل، ومع ذلك حاجبان كأنهما خطأ بقلم، أو سوّداً بحمّ، قد تقوّسا على مثل عين العبّرة التي لم يرعها قانص ولم يدعها قسورة، بينما أنف كحد السيف المصقول، ولم يخنس به قصر، ولم يُمعن به طول، حُفّت به و جنتان كالأرجوان، في بياض محض كالجمان، شقّ فيه فم كالخاتم، لذيد المُبتسم، فيه ثنايا غر، ذوات أشر، وأسنان تُعد كالدر، وريق تتم إليك منه ريح الخمر، أم نشر الروض بالسحر، يتقلب فيه لسان ذو فصاحة وبيان، يقلّبه عقل وافر وجواب حاضر، يلتقي دونه شفتان حمراوان كالورد، يحلبان ريقاً كالشهد، وتحت ذلك عنق كإبريق الفضة، رُكّب في صدر تمثال دُمية، يتصل به عضدان ممثلان لحماً مُكتنزان شحماً، و ذراعان ليس فيهما عظم يُحس، ولا عرق يُجس، رُكّبت فيهما كفان رقيقّ قصبهما لئِنّ عصبهما، تعقد إن شئت منهما الأنامل، وتُرُكّب الفصوص في حُفر المفاصل، وقد تربّع في صدرها حُقان كأنهما رمّانتان. من تحت ذلك بطن طوي كطيّ القباطيّ المدمجة، كسي عكنا كالقراطيس المُدرجة . تحيط تلك العكن بسرة كمدّهن العاج المُجلو، خلف ظهر كالجداول ينتهي إلى خصر لولا رحمة الله لانخزل، تحته كقلّ يُعدها إذا نهضت، ويُنهضها إذا قعدت، كأنه دِعْص رمل، لبدّه سقوط الطل، يحمله فخذان لفاوان كأنهما نَصِيدُ الجَمَار، وتحملهما ساقان خدلجتان كالبرديّ وشياً بشعر أسود، كأنه حلق الزرد، ويحمل ذلك قدامان كحد السنان تبارك الله في صغرهما كيف تُطيقان حمل ما فوقهما، فأما سوى ذلك فتركت أن أصفه، غير أنه أحسن ما وصفه واصف بنظم أو نثر . قال : فأرسل إلى أبيها يخطبها.

قصة (40) (1)

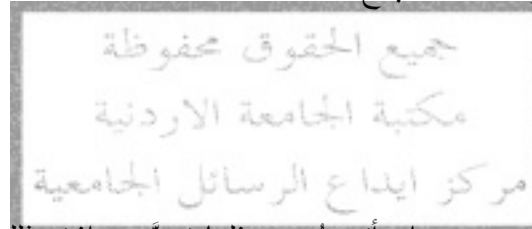
و قال عمي للرشيد، في بعض حديثه: بلغني يا أمير المؤمنين أن رجلاً من العرب طلق في يوم خمس نسوة. قال: إنما يجوز ملك الرجل على أربع نسوة، فكيف طلق خمسا؟ كان لرجل أربع نسوة فدخل عليهن يوماً فوجدهن متلاحيات متنازعات، وكان شينظيراً. فقال: إلى متى هذا التنازع؟ ما إخال هذا الأمر إلا من قبلك، يقول ذلك لامرأة منهن، اذهبي فأنت طالق. فقالت له صاحبتها: عجّلت عليها الطلاق، ولو أدبّتها بغير ذلك لكنت حقيفاً. فقال لها: وأنت أيضاً طالق. فقالت له الثالثة: قبّحك الله، فوالله لقد كانتا إليك مُحسنتين، وعليك مُفضلتين. فقال: وأنت أيتها المُعدّدة أيديهما طالق أيضاً. فقالت له الرابعة، وكانت هلالية وفيها أناة شديدة: ضاق صدرك عن أن تؤدّب نساءك ألا بالطلاق. فقال لها: وأنت طالق أيضاً. وكان ذلك بمسمع جارة

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج2، ص95.

له، فأشرفت عليه وقد سمعت كلامه، فقالت: والله ما شهدت العربُ عليك وعلى قومك بالضعف إلا لما بلّوه منكم ووجده فيكم، وأبيت طلاق نساءك في ساعة واحدة. قال: وأنت أيضاً أبيتها المؤنبة المتكلفة طالق أن أجاز زوجك. فأجابته من داخل بيته: هيه، قد أجزت، قد أجزت.

قصة (41)⁽¹⁾

و دخل المُغيرة بن شُعبة على زوجته فارعة الثَّقفية، وهي تتخلَّل، حين انفتلت من صلاة الغداة، فقال لها: إن كنت تتخللين من طعام اليوم إنك لجشعة، وإن كنت تتخللين من طعام البارحة إنك لبشعة، وكنت فبنت. فقالت: والله ما اغتبطنا إذ كنا ولا أسفنا إذ بنا، وما هو لشيء مما ذكرت، ولكنني استنكت فتخللت للسواك . فخرج المُغيرة نادماً على ما كان منه. فلقبه يوسف بن أبي عَقل، فقال له: إني نزلتُ الآن عن سيدة نساء ثَقيف، فتزوجها فإنها ستعجب فتزوجها . فولدت له الحجاج.



قصة (42)⁽²⁾

و طلق الوليد بن يزيد امرأته سُعدى. فلما تزوجت اشتد ذلك عليه وندم على ما كان منه. فدخل عليه أشعب، فقال له: أبلغ سُعدى عني رسالةً، ولك مني خمسة آلاف درهم. فقال: عجلها. فأمر له بها. فلما قبضها قال: هاتي رسالتك، فأنشدها:

أسعدى ما إليك لنا سبيلٌ و لا حتى القيامة من تلاق
بلى، ولعلَّ دهرًا أن يُواتي بموت من خليلك أو فراق

فأتاها فاستأذن فدخل عليها. فقالت له: ما بدا لك في زيارتنا يا أشعب؟ فقال: يا سيدتي. أرسلني إليك الوليدُ برسالة، وأنشدها الشعر. فقالت لجواريتها: خُذن هذا الخبيث. فقال: يا سيدتي، إنه جعل لي خمسة آلاف درهم. قالت: والله لأعاقبنك أو لتبلغن إليه ما أقول لك. قال: سيدتي اجعلي لي شيئاً. قالت لك بساطي هذا. قال: قومي عنه فقامت عنه وألقاه على ظهره. وقال: هاتي رسالتك، فقالت: أنشده:

أتبكي على سُعدى وأنت تركتها فقد ذهبت سُعدى فما أنت صانع

فلما بلغه أنشده الشعرُ سقط في يده، وأخذته كظمة ثم سرى عنه، فقال: اختر واحدةً من ثلاث: إما أن نقتلك، وإما أن نطرحك من هذا القصر، وإما أن نلقيك إلى هذه السباع. فتحيرَ

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج2، ص96.

(2) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج2، ص99.

أشعب وأطرق حيناً، ثم رفع رأسه فقال: يا سيدي، ما كنت لتعذب عيينن نظرنا إلى سُدَى. فتبسّم وخرى سبيله.

قصة (43) وفود سودة عمارة على معاوية⁽¹⁾.

عامر الشعبي قال:

و فدت سودة بنت عمارة بنت الأشتر الهمدانية على معاوية بن أبي سفيان، فاستأذنت عليه، فأذن لها فلما دخلت عليه سلمت؛ فقال لها: كيف أنت يابنة الأشتر؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين؛ قال لها: أنت القائلة لأخيك:

شمر كفعل أبيك يا بن عمارة يوم الطعانو ملتقى الأقران

و انصر علياً والحسين ورهطه و اقصد لهدي وابنها بهـوان

إن الإمام أخو النبي محمد علم الهدى ومنارة الإيمان

فقد الجيوش وسير أمام لوائه الحقوق فذمًا بأبيض صارم وسنان

قالت: يا أمير المؤمنين، مات الرأس ويتر الذنب، فدع عنك تذكار ما قد نسي؛ قال:

هيئات؛ ليس مثل مقام أخيك يُنسى؛ قالت: صدقت و الله يا أمير المؤمنين، ما كان أخي خفيّ المقام، ذليل المكان، و لكن كما قالت الخنساء:

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وبالله أسأل أمير المؤمنين إعفائي مما استعفيتهُ؛ قال: قد فعلتُ، فقولي حاجتك؛ قالت: يا

أمير المؤمنين، إنك للناس سيّد، و لأمرهم مقلد، و الله سائلك عما افترض عليك من حقنا، و لا تزال تُقدّم علينا من ينهض بعزك، و يبسط سلطانك، فيحصدنا حصاد السنبُل، و يدوسنا دياسَ البقر، و يسومنا الخسيصة، و يسألنا الجليّة، هذا ابنُ أرطاة قديم بلادي، و قتل رجالي، و أخذ مالي، و لولا الطاعة لكان فينا عزّ و منعة، فإمّا عزلته عنا فشكرناك، و إمّا لا فعرفناك؛ فقال معاوية: إيّاي تُهدّدين بقومك! و الله لقد هممت أن أركك إليه على قتب أشرس فينفض حكمه فيك؛ فسكتت ثم قالت:

صلى الإله على روح تضمّنه قبرٌ فأصبح فيه العدل مدفوناً

قد حالف الحق لا يبغى به ثمناً فصار بالحق والإيمان مقرّوناً

قال: و من ذلك؟ قالت: عليّ بن أبي طالب رحمه الله تعالى؛ قالت: ما أرى عليك منها أثراً؛ قال: بلى، أتيتهُ يوماً في رجل و لاه صدقاتنا، فكان بيننا وبينه ما بين الغثّ و السمين، فوجدته قائماً يُصلي، فانفتل من الصلاة، ثم قال: برأفة و تعطف: ألك حاجة؟ فأخبرته خبر الرجل، فبكى ثم رفع

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ص335.

يَدِيهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي لَمْ أَمْرَهُمْ بِظُلْمِ خَلْقِكَ، وَلَا تَرَكْ حَقَّكَ، ثُمَّ أُخْرِجَ مِنْ جَبِيهِ قِطْعَةً مِنْ جِرَابٍ، فَكَتَبَ فِيهَا: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ، وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ، بِقِيَّةِ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ، إِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَاحْتَفِظْ بِمَا فِي يَدَيْكَ، حَتَّى يَأْتِيَ مِنْ يَبْبُضِهِ مِنْكَ، وَالسَّلَامُ .

فَأَخَذَتْهُ مِنْهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا خَزَمَهُ بِخِزَامٍ، وَلَا خَتَمَهُ بِخَتَامٍ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ: اكْتُبُوا لَهَا بِالْإِنصَافِ لَهَا وَالْعَدْلِ عَلَيْهَا؛ فَقَالَتْ: أَلَيْ خَاصَّةً، أَمْ لِقَوْمِي عَامَّةً؟ قَالَ: وَمَا أَنْتَ وَغَيْرِكَ؟ قَالَتْ: هِيَ وَاللَّهِ إِذَا الْفَحْشَاءُ وَاللُّؤْمُ إِنْ لَمْ يَكُنْ عَدْلًا شَامِلًا، وَإِلَّا يَسْعَنِي مَا يَسْعَى قَوْمِي؛ قَالَ: هِيَ هَاتِ، لَمْظُكُمُ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ الْجِرَاءُ عَلَى السُّلْطَانِ، فَبَطِيئًا مَا تُقْطَمُونَ وَغَرَّكُمْ قَوْلُهُ:

فَلَوْ كُنْتُ بَوَّابًا عَلَى بَابِ جَنَّةٍ
وَقَوْلُهُ:
لَقُلْتُ لِهَمْدَانَ ادْخُلُوا بِسَلَامٍ

نَادَيْتُ هَمْدَانَ وَالْأَبْوَابُ مُغْلَقَةٌ وَمِثْلُ هَمْدَانَ سَنَى فَتَحَةَ الْبَابِ
كَالْهِنْدَوَانِيِّ لَمْ تُفَلِّ مَضَارِبَهُ وَجَّةً جَمِيلٌ وَقَلْبٌ غَيْرُ وَجَّابٍ
اَكْتُبُوا لَهَا بِحَاجَتِهَا .

قصة (44) وفود بكارة الهلالية على معاوية. (1)

اسْتَأْذَنْتُ بَكَارَةَ الْهَلَالِيَّةِ عَلَى مَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ فَأُذِنَ لَهَا، وَهُوَ يَوْمُئِذٍ بِالْمَدِينَةِ، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ، وَكَانَتْ امْرَأَةً قَدْ أَسْنَتْ وَعَشِي بِصَرهَا، وَضَعْفَتْ قُوَّتَهَا، تَرَعَّشَ بَيْنَ خَادِمِينَ لَهَا، فَسَلَّمَتْ وَجَلَسَتْ، فَرَدَّ عَلَيْهَا مَعَاوِيَةَ السَّلَامَ، وَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا خَالَةَ؟ قَالَتْ: بِخَيْرٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: غَيْرُكَ الدَّهْرُ؛ قَالَتْ: كَذَلِكَ هُوَ ذُو غَيْرٍ، مِنْ عَاشِ كَبِيرٍ، وَمَنْ مَاتَ قُبْرٌ قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: هِيَ وَاللَّهِ الْقَائِلَةُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ :

يَا زَيْدُ دُونَكَ فَاسْتَشِيرْ مِنْ دَارِنَا
قَد كُنْتُ أُذْخِرُهُ لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ
سَيِّفًا حَسَامًا فِي التُّرَابِ دَفِينًا
فَالْيَوْمَ أُبْرِزُهُ الزَّمَانَ مَصُونًا
قَالَ مِرْوَانَ: وَهِيَ وَاللَّهِ الْقَائِلَةُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ:

أَتَرَى ابْنَ هِنْدٍ لِلْخَلِيفَةِ مَالِكًا
مَنْتَّكَ نَفْسُكَ فِي الْخَلَاءِ ضَلَالَةً
هِيَ هَاتِ، ذَاكَ - وَإِنْ أَرَادَ - بَعِيدُ
أَعْرَاكَ عَمْرُو لِّلشَّقَا وَسَعِيدُ
قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِيِّ: هِيَ وَاللَّهِ الْقَائِلَةُ:

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد، 336.

قد كنتُ أطمعُ أن أموتُ ولا
فإنه أحرَّ مُدتي فتطاوَلتْ
أرى فوق المناير من أميةً خاطبا
حتى رأيتُ من الزمان عجائبا
بين الجميع لآل أحمدَ عائبا
ثم سكتوا. فقالت: يا معاوية، كلاكُ أعشىَ بصري وقصَّرَ حُجَّتِي، أنا والله قائلة ما
قالوا، وما خفي عليك مني أكثر، فضحك وقال: ليس يمنعنا ذلك من برك، اذكري حاجتك. قالت:
الآن فلا .

قصة (45) وفود الزرقاء على معاوية⁽¹⁾

عُبِّد الله بن عمرو الغَسَّاني عن الشعبي قال: حدَّثني جماعة من بني أمية ممن كان يَسْمُرُ
مع معاوية قالوا:

بينما معاوية ذات ليلة مع عمرو وسعيد وعُتْبة والوليد، إذ ذكروا الزرقاء بنت عدي

بن غالب بن قيس الهمدانية، وكانت شهدت مع قومه صفين، فقال: أيكم يحفظ كلامها؟
قال بعضهم: نحن نحفظه يا أمير المؤمنين؛ قال فأشيروا علي في أمرها؛ فقال بعضهم: نشير
عليك بقتلها؛ قال: بنس الرأي أشترتم به علي أحسنُ بمثل أن يُنحَدَث عنه أنه قتل امرأة بعدما
ظفر بها! فكتب إلى عامله بالكوفة أن يُوفدها إليه مع ثقةٍ من ذوى محارمها، وعدة من فرسان
قومها، وأن يُمهّد لها وطءً لينا، و يستترها بستر خفيف، ويُوسّع لها في النفقة، فأرسل إليها
فأقرأها الكتاب؛ فقالت: إن كان أمير المؤمنين جعل الخيار إليّ فإني لا آتية، وإن كان حتمّ
فإطاعة أولى. فحملها وأحسن جهازها على ما أمر به، فلما دخلت على معاوية، قال: مرحبا
وأهلا، قدمت خير مقدم قديمه وافد، كيف حالك؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين. أدام الله لك
النعمة؛ قال: كيف كنت في مسيرك؟ قالت: ربيبة بيت أو طفلا ممهدا؛ قال: بذلك أمرناهم،
أترين فيم بعثت إليك؟ قالت: أني لي بعلم ما لم أعلم؛ قال: ألسن الراكبة الجمل الأحمر،
والوقفه بين الصقنين يوم صفين تحضين على القتال. وتوقدين الحرب، فما حملك على ذلك؟
قالت: يا أمير المؤمنين، مات الرأس، وبتر الذنب، ولم يعد ما ذهب، والدهر ذو غير، ومن تفكر
أبصر، والأمر يحدث بعد الأمر؛ قال: لها معاوية: صدقتِ أتخفظين كلامك يوم صفين قالت: لا
والله لا أحفظه ولقد أنسيته؛ قال: لكني أحفظه، الله أبوك حين تقولين: أيها الناس، ارعوا
وارجعوا، إنكم قد أصبحتم في فتنة غشتكم جلايبب الظلم، وجارت بكم عن قصد المحجة، فيالها
فتنة عمياء، صماء بكماء، لا تسمع لناعقها، ولا تتساق لقائدها. إن المصباح لا يضيء في

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ص337.

الشمس، ولا تُتِير الكواكب مع القمر، ولا يقطع الحديد إلا الحديد. ألا من استرشدنا أرشدناه، ومن سألنا أخبرناه، أيها الناس، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها، فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار على الغُصص، فكأن قد اندمل شُعب الشنات، والتأمت كلمة العدل، ودَمغ الحق باطله، فلا يجهلن أحد فيقول: كيف العدل وأنى، ليقض الله أمراً كان مفعولاً. ألا وإن خضاب النساء الحنأ وخضاب الرجال الدماء، ولهذا اليوم ما بعده.

* و الصبر خير في الأمور عواقباً *

أيها، في الحرب قُدماً غير ناكسين ولا مُتساكسين.

ثم قال لها: والله يا زرقاء، لقد شَركت علياً في كل دم سَفكه؛ قالت: أحسن الله بشارتك، وأدام سلامتك، فمُتلك بَشْرٌ بخير وسرٍّ جليسه؛ قال: أو يسُرُّك ذلك؟ قالت: نعم والله. لقد سُررت بالخير فأنى لي بتصديق الفعل؛ فضحك معاوية وقال: والله لو فأنكم له بعد موته أعجب من حُبكم له في حياته، اذكري حاجتك؛ قالت: يا أمير المؤمنين، آليت على نفسي أن لا أسأل أميراً أعنت عليه أبداً، ومثلك أعطى عن غير مسألة، وجاد من غير طلبية؛ قال: صدقت، وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكُسا .

قصة (46) وفود أم سنان بنت خيثمة على معاوية رحمه الله (1)

سعيد بن أبي خُذافة قال:

حبس مروان بن الحكم وهو والي المدينة غلاماً من بني لَيْث في جناية جَنَاهَا، فأنته جدّة الغلام أم أبيه وهي أم سنان خيثمة بن خَرشَة المذحجية، فكلمته في الغلام، فأغلظ مروان، فخرجت إلى معاوية فدخلت عليه فانتسبت، فعرّفها؛ فقال لها: مرحباً بابنة خيثمة، ما أقدمك أرضنا؟ وقد عهدتُك تشتميننا وتحضين علينا عدونا؛ قالت: إن لبني عبد مناف أخلاقاً طاهرة، وأحلاماً وافرة؛ لا يجهلون بعد علم، ولا يسفّهون بعد حلم، ولا ينتقمون بعد عفو، وإن أولى الناس باتباع ما سنّ أبأوه لأنت؛ قال: صدقت، نحن كذلك فكيف قولك:

عزب الرقاد فمقلتي لا ترقد	والليل يُصنر بالهموم ويورد
يا آل مذحج لا مقام فشمروا	إن العود لآل أحمد يقصد
هذا علي كالهلال تحفه	وسط السماء من الكواكب أسعد
خير الخلائق وابن عم محمد	إن يهدكم بالنور منه تهتدوا
ما زال مذ شهد الحروب مظفراً	والنصر فوق لوائه ما يفقد

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ص 339.

قالت: كان ذلك يا أمير المؤمنين، وأرجو أن تكون لنا خلفاً بعده . فقال رجل من جلسائه: كيف يا أمير المؤمنين، وهي القائلة:

إمّا هلكت أبا الحسين فلم تزل
فأذهب عليك صلاة ربك ما دعت
قد كنت بعد محمد خلفاً كما
فاليوم لا خلف يؤمل بعده
بالحق تعرف هادياً مهدياً
فوق الغصون حمامة قمرياً
أوصى إليك بنا فكنت وقياً
هيهات نأمل بعده إنسياً

قالت: يا أمير المؤمنين، لسان نطق، وقول صدق. ولئن تحقق فيك ما ظننا فحظك الأوفر؛ والله ما ورتك الشنان في قلوب المسلمين إلا هؤلاء، فأدحض مقاتلتهم، وأبعد منزلتهم، فإنك إن فعلت ذلك تردد من الله قرباً، ومن المؤمنين حباً؛ قال: و إنك لتقولين ذلك؟ قالت: سبحان الله! والله ما مثلك مدح بباطل، ولا اعتذر إليه بكذب، وإنك لتعلم ذلك من رأينا، وضمير قلوبنا؛ كان والله عليّ أحب إلينا منك، وأنت أحب إلينا من غيرك؛ قال: ممن؟ قالت: من مروان بن الحكم وسعيد بن العاصي؛ قال: وبم استحققت ذلك عندك؟ قالت: بسعة حلمك وكريم عفوك؛ قال: فإنهما يطمعان في ذلك؛ قالت: هما والله من الرأي على ما كنت عليه لعثمان بن عفان رحمه الله؛ قال: والله لقد قاربت، فما حاجتك؟ قالت: يا أمير المؤمنين، إن مروان تبنك بالمدينة تبنك من لا يريد منها البراح . لا يحكم بعدل، ولا يقضي بسنة، يتبّع عثرات المسلمين، ويكشف عورات المؤمنين، حبس ابن ابني فأنتيته، فقال: كيت وكيت، فأقمته أخشن من الحجر، وألحقته أمر من الصاب، ثم رجعت إلى نفس باللائمة، وقلت: لم لا أصرف ذلك إلى من هو أولى بالعرف منه، فأنتيك يا أمير المؤمنين لتكون في أمري ناظراً، وعليه موعداً، قال: صدقت، لا أسألك عن ذنبه، ولا عن القيام بحجته، اكتبوا لها بإطلاقه، قالت: يا أمير المؤمنين، وأنى لي بالرجعة، وقد نفذ زادي، وكلت راحلتي . فأمر لها براحلة موطأة وخمسة آلاف درهم .

قصة (47) وفود عكرشة بنت الأطرش على معاوية رحمه الله تعالى⁽¹⁾

أبو بكر الهذلي عن عكرمة قال:

دخلت عكرشة بنت الأطرش بن راحة على معاوية متوكئة على عكاز لها، فلمت عليه بالخلافة، ثم جلست؛ فقال لها معاوية: الآن يا عكرشة صيرت عندك أمير المؤمنين؟ قالت: نعم، إذ لا عليّ حي؛ قال: ألس المتقلدة حمائل السيف بصفين، وأنت واقفة بين الصقين تقولين: أيها الناس، عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، إن الجنة لا يرحل عنها من قطنها، ولا يهرم من سكنها، ولا يموت من دخلها، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها، ولا تنصرم هومها،

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ص341.

وَكُونُوا قَوْمًا مُسْتَبْصِرِينَ فِي دِينِهِمْ، مُسْتَظْهِرِينَ بِالصَّبْرِ عَلَى طَلَبِ حَقِّهِمْ؛ إِنَّ مَعَاوِيَةَ دَلَفَ إِلَيْكُمْ بَعْجَمَ الْعَرَبِ غُلْفَ الْقُلُوبِ، لَا يَفْقَهُونَ الْإِيمَانَ وَلَا يَدْرُونَ مَا الْحِكْمَةَ، دَعَاهُمْ بِالذُّنْيَا فَأَجَابُوهُ، وَ اسْتَدْعَاهُمْ إِلَى الْبَاطِلِ فَلَبَّوهُ، فَاللهَ عِبَادَ اللهُ فِي دِينِ اللهِ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّوَاكُلَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَنْقُضُ عُرَى الْإِسْلَامِ، وَيُطْفِئُ نَوْرَ الْحَقِّ، هَذِهِ بَدْرُ الصُّغْرَى، وَالْعَقَبَةُ الْأُخْرَى؛ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، امضُوا عَلَى بَصِيرَتِكُمْ، وَاصْبِرُوا عَلَى عَزِيمَتِكُمْ، فَكَأَنِّي بِكُمْ غَدًا، وَقَدْ لَقِيتُمْ أَهْلَ الشَّامِ كَالْحُمْرِ النَّاهِقَةِ تَصْقَعُ صَقَعَ الْبَقْرِ وَتَرُوْثُ رُوْثَ الْعِتَاقِ.

فَكَأَنِّي أَرَاكَ عَلَى عَصَاكَ هَذِهِ وَقَدْ انْكَفَأَ عَلَيْكَ الْعَسْكَرَانِ، وَيَقُولُونَ: هَذِهِ عِكْرُ شَةِ بِنْتِ الْأَطْرَشِ بْنِ رِوَاحَةَ، فَإِنَّ كِدْتَ لَتَقْتُلِينَ أَهْلَ الشَّامِ لَوْلَا قَدْرُ اللهِ، وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدْرًا مَقْدُورًا، فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: لِيَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدِّلُ لَكُمْ تَسْوُؤُكُمْ { وَإِنَّ اللَّيْبَ إِذَا كَرِهَ أَمْرًا لَا يُحِبُّ إِعَادَتَهُ؛ قَالَ: صَدَقْتَ، فَاذْكُرِي حَاجَتَكَ؛ قَالَتْ: إِنَّهُ كَانَتْ صَدَقَاتُنَا تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَانَا فَنُرَدُّ عَلَى فَقْرَانَا، وَإِنَّا قَدْ فَقَدْنَا ذَلِكَ، فَمَا يَجْبِرُ لَنَا كَسِيرًا، وَلَا يُنْعِشُ لَنَا فَقِيرًا، فَإِنَّ كَانَ ذَلِكَ عَنَ رَأْيِكَ، فَمِثْلَكَ مِنْ انْتَبَهَ عَنِ الْغَفْلَةِ، وَرَاجَعَ التَّوْبَةَ، وَإِنْ كَانَ عَنَ غَيْرِ رَأْيِكَ، فَمَا مِثْلَكَ مِنْ اسْتِعَانَ الْخَوْنَةَ، وَلَا اسْتَعْمَلَ الظُّلْمَةَ. قَالَ مَعَاوِيَةَ: يَا هَذِهِ، إِنَّهُ يَنْوَبُنَا مِنْ أُمُورٍ رَعَيْنَا أُمُورًا تَنْبِتُ، وَبُحُورٍ تَنْفَهُقُ، قَالَتْ: يَا سُبْحَانَ اللهِ، وَاللهَ مَا فَرَضَ اللهُ لَنَا حَقًّا فَجَعَلَ فِيهِ ضَرْرًا عَلَيَّ غَيْرِنَا وَهُوَ عَلَامُ الْغُيُوبِ؛ قَالَ مَعَاوِيَةَ: هِيَ هَاتِ يَأْهَلُ الْعِرَاقِ، نَبَّهَكُمْ عَلَيَّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَلَنْ تُطَاقُوا. ثُمَّ أَمَرَ بِرَدِّ صَدَقَاتِهِمْ فِيهِمْ وَإِنْصَافِهَا.

قصة (48) درامية الحجونية مع معاوية رحمه الله تعالى⁽¹⁾

سهل بن أبي سهل التميمي عن أبيه قال:

حج معاوية، فسأل عن امرأة من بني كناية كانت تنزل بالحجون، يقال لها درامية الحجونية، وكانت سوداء كثيرة اللحم، فأخبر بسلامتها، فبعث إليها فجيء بها فقال: ما حالك يا بنة حام؟ فقالت: لست لحام إن عيتني، أنا امرأة من بني كناية؛ قال: صدقت، أندرين لم بعثت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله؛ قال: بعثت إليك لأسألك علام أحببت عليًا وأبغضتني، وواليتي وعاديتني؟ قالت: أوتعتيني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا أعفك؛ قالت: أما إذ أبيت، فإني أحببت عليًا على عدله في الرعية، وقسمه بالسوية، وأبغضتني على قتالك من هو أولى منك بالأمر، وطلبتك ما ليس لك بحق؛ وواليت علي ما عقد له رسول الله صلى الله عليه وسلم من الولاء، وحبب المساكين، وإعظامه لأهل الدين؛ وعاديتك على سفك الدماء، وجورك في القضاء، وحكمك بالهوى؛ قال: فلذلك انتفخ بطنك، وعظم ثديك، وربت عجيزتك؛ قالت: يا هذا،

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ص 342.

بهند والله كان يُضرب المثل في ذلك لا بي، قال معاوية: يا هذا اربعي، فأنا لم نقل إلا خيراً، إنه إذا انتفخ بطن المرأة تم خلق ولدها، وإذا عظم نديها تروى رضيعها، وإذا عظمت عجيزتها رزُن مجلسها؛ فرجعت وسكنت. قال لها: يا هذه، هل رأيت علياً؟ قالت: إي والله؛ قال: فكيف رأيتُه؟ قالت: رأيتُه لم يفتنه الملك الذي فتتك، ولم تشغله النعمة التي شغلتك؛ قال: فهل سمعت كلامه؟ قالت نعم والله، فكان يجلو القلب من العمى، كما يجلو الزيت صدأ الطست؛ قال: صدقت، فهل لك من حاجة؟ قالت: أو تفعل إذا سألتك؟ قال: نعم؛ قالت: تُعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها؛ قال: تصنعين بها ماذا؟ قالت: أغدوا بألبانها الصغار، وأستحي بها الكبار، وأكتسب بها المكارم، وأصلح بها بين العشائر؛ قال: فإن أعطيتك ذلك، فهل أحلّ عندك محلّ عليّ بن أبي طالب؟ قالت: ماء ولا كصداء، ومرعى ولا كالسعدان، وفتى ولا كمالك، يا سبحان الله أو دونه؟ فأنشأ معاوية يقول:

إذ لم أعد بالحلم مني عليكم فمن ذا الذي بعدي يؤمل للحلم

خذيها هنيئاً اذكري فعل ماجد الحقوق جزاك على حرب العداوة بالسلام

ثم قال: أما والله لو كان عليّ حياً ما أعطاك منها شيئاً؛ قالت: لا والله، ولا وبرة واحدة من مال المسلمين.

قصة (49) وفود أم الخير بنت الحريش على معاوية⁽¹⁾

عُبيد الله بن عمرو الغساني عن الشعبي قال:

كتب معاوية إلى واليه بالكوفة أن يحمل إليه أم الخير بنت الحريش بن سراقبة البارقي برحلها، وأعلمه أنه مجازيه بقولها فيه بالخير خيراً وبالشرّ شراً. فلما ورد عليه كتابه ركب إليها فأقرأها كتابه؛ فقالت: أمّا أنا فغير زائغة عن طاعة، ولا مُعتلة بكذب، ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمر تختلج في صدري. فلما شيعها وأراد مفارقتها، قال لها: يا أم الخير، إن أمير المؤمنين كتب إليّ أنه مجازيني بالخير خيراً وبالشرّ شراً، فمالي عندك؟ قالت: يا هذا لا يُطعمك برّك بي أن أسرك بباطل، ولا تؤسك معرفتي بك أن يقول فيك غير الحق. فسارت خيراً مسير حتى قدمت على معاوية، فأنزلها مع الحرّم، ثم أدخلها عليه في اليوم الرابع، وعنده جلساؤه؛ فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته؛ فقال لها: وعليك السلام يا أم الخير، بحق ما دعوتني بهذا الاسم؟ قالت: يا أمير المؤمنين، مه، فإن بديهة السلطان مدحضة لما يحبّ علمه، ولكلّ أجلّ كتاب؛ قال: صدقت، فكيف حالك يا خالة؟ وكيف كنت في مسيرك؟ قالت: لم أزل يا أمير المؤمنين في خير وعافية حتى صرت إليك، فأنا في مجلس أنيق، عند ملك رقيق؛

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ص 343.

قال معاوية: بحسن نبيتي ظفرت بكم؛ قالت: يا أمير المؤمنين، يُعِيذُكَ اللهُ من دَخْصِ المَقَالِ وما تُرْدِي عاقبته؛ قال: ليس هذا أردنا، أخبرينا كيف كان كلامك إذ قُتِلَ عَمَارُ بنِ ياسر؟ قالت: لم أكن زورته قبل، ولا رويته بعد، وإنما كانت كلمات نَفَثَها لسانِي عند الصدمة، فإن أحببت أن أُحَدِّثَ لكَ مَقَالاً غيرَ ذلك ففعلت؛ قال: لا أشاء ذلك . فالتفت معاوية إلى جلسائه، فقال: أيكم يحفظ كلامها؟ فقال رجل منهم: أنا أحفظ بعض كلامها يا أمير المؤمنين؛ قال: هات؛ قال: كأنني بها وعليها بُرْدُ زَبِيدِي كَثِيفِ النَّسِيجِ، وهي على جمل أُرْمَكُ، وقد أُحِيطَ حولها، وبيدها سَوَاطِئُ مُنْتَشِرِ الضَّعْفِيرَةِ، وهي كالفحل يَهْدُرُ في شِقْشِقَتِهِ، تقول: يا أيها الناس، اتقوا ربكم، إن زلزلة الساعة شيءٌ عظيم، إن الله قد أوضح لكم الحق، وأبان الدليل، وبين السبيل، ورفع العلم، ولم يدعكم في عمياء مُبْهَمَةٍ، ولا سوداء مُدْهِمَةٍ، فأين تريدون رحمكم الله، أفراراً عن أمير المؤمنين، أم فراراً من الزحف، أم رغبة عن الإسلام، أم ارتداداً عن الحق؟ أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول: وَلْيَتْلُوْكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوْا أَخْبَارَكُمْ. ثم رفعت رأسها إلى السماء، وهي تقول: اللهم قد عيل الصبر، وضعف اليقين، وانتشرت الرغبة، وبيدك يا رب أزمنة القلوب، فاجمع اللهم بها الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى، وارُدْ الحقَّ إلى أهله، هلموا، رحمكم الله إلى الإمام العادل، والرضي التقي؛ والصديق الأكبر، إنها إحنٌ بَدْرِيَّةٌ وأحقادُ جاهليَّة، وضغائنٌ أُحْدِيَّة . وثب بها واثب حين الغفلة، لئذرك ثارات بني عبد شمس. ثم قالت: قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلمهم ينتهون. صبراً يا معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم، فكأنني بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام، كحمرٍ مُسْتَنْفِرَةٍ، فرّت من قسورة، لا تدري أين يُسَلِّكُ بها من فجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى و عما قليل ليصبحن نادمين، حين تحل بهم الندامة، فيطلبون الإقالة ولات حين مناص، إنه من ضلَّ والله عن الحق وقع في الباطل، ألا إن أولياء الله استصغروا عمر الدنيا فرقصوها، واستطابوا الآخرة فسعوا لها؛ فإله الله أيها الناس، قبل أن تبطل الحقوق، وتُعطل الحدود، ويظهر الظالمون؛ وتَقَوَى كلمة الشيطان، فإلى أين تريدون رحمكم الله؟ عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيه وأبي سيّطيه؟ خلق من طينته، وتفرّج من نبعته، وخصه بسره، وجعله باب مدينة، وأبان ببغضه المنافقين، وها هو ذا مُغْلَقُ الهام، ومُكْسَرُ الأصنام، صلي والناس مشركون. وأطاع والناس كارهون، فلم يزل في ذلك حتى قتل مبارزي بدر، وأفني أهل أحد، وهزم الأحزاب، وقتل الله به أهل خيبر، وفرّق به جمع هوزان. فيالها من وقائع زرعت في قلوب نفاقاً، وردة وشقاقاً، وزادت المؤمنين إيماناً، قد اجتهدت في القول، وبالغت في النصيحة، والله التوفيق، والسلام عليكم ورحمة الله.

فقال معاوية: يا أم الخير، ما أردت بهذا الكلام إلا قتلي، ولو قتلناك ما حرّجت في ذلك؛ فقالت: والله ما يسوءني أن يجري قتلي على يدي من يسعدني الله بشقائه؛ قال: هيهات يا كثيرة

الفضول، ما تقولين في عثمان بن عفان رحمه الله؟ قالت: وما عَسيت أن أقولَ في عثمان، استخلفه الناسُ و هم به راضُونَ، وقتلوه وهم له كارهُون، قال معاوية: يا أم الخير، هذا أصلك الذي تَبين عليه؟ قالت: لكن الله يَشْهَدُ وكفى بالله شهيداً، ما أردتُ بعثمان نَقْصاً، ولكن كان سابقاً إلى الخير، وإنه لرفيع الدرجة غداً. وقال: فما تقولين في طلحة بن عبید الله؟ قالت: و ما عسى أن أقول في طلحة، اغتيل من مأمنه، وأتيت من حيث لم يحذر، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة . قال: فما تقولين في الزبير؟ قالت: وما أقول في ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم و حواريه، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، ولقد كان سابقاً إلى كل مكرمة في الإسلام. وأنا أسألك بحق الله يا معاوية — فإن قريشاً تحدتت أنك أحلمها — أن تسعني بفضل حلمك، وأن تعفيني من هذه المسائل وتسالني عما شئت من غيرها؛ قال: نعم ونعمة عين، قد أعفيتك منها، ثم أمر لها بجائزة رفيعة وردّها مكرمة.

قصة (50) وفود أروى بنت عبد المطلب على معاوية رحمه الله (1)

العباس بن مكار قال: حدثني عبد الله بن سليمان المدني وأبو بكر الهذلي: أن أروى بنت الحارث بن عبد المطلب دخلت على معاوية، وهي عجوز كبيرة، فلما رآها معاوية قال: مرحباً بك وأهلاً يا عمّة، فكيف كنت بعدنا؟ فقالت: يا بن أخي، لقد كُفرت يد النعمة، وأسأت لابن عمك الصحبة، وتسميت بغير اسمك، وأخذت غير حقك، من غير بلاء كان منك، ولا من آبائك، ولا سابقة في الإسلام، بعد أن كفرتم برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتعس الله منك الجُود وأضرع منكم الخدود، وردّ الحق إلى أهله، ولو كره المشركون، وكانت كلمتنا هي العليا، ونبينا صلى الله عليه وسلم هو المنصور، فوئيتم علينا من بعده، تحتجون بقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن أقرب إليه منكم وأولى بهذا الأمر، فكنا فيكم بمنزلة بني إسرائيل في آل فرعون، وكان علي بن أبي طالب رحمه الله بعد نبينا صلى الله عليه وسلم بمنزلة هارون من موسى، فغايبتنا الجنة وغايبتكم النار. فقال لها عمرو بن العاص: كفى أيتها العجوز الضالّة، و أفصري من قولك مع ذهاب عقلك، إذ لا تجوز شهادتك وحدك! فقالت له: وأنت يا بنة النابغة، تتكلم وأمك كانت أشهر امرأة تغني بمكة وأخذهن لأجرة؛ ادعاك خمسة نفر من قريش، فسئلت أمك عنهم، فقالت: كلهم أتاني، فانظروا أشبههم به فألحقوه به، فغلب عليك شبه العاص بن وائل، فلحقت به. فقال مروان: كفى أيتها العجوز، واقصدي لما جئت له. فقالت: وأنت أيضاً يا بن الزرقاء تتكلم! ثم التقت معاوية، فقالت: والله ما جرأ عليّ هؤلاء غيرك، فإن أمك القائلة في قتل حمزة:

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ص346.

نحن جَزِينَاكُمْ بِبِوْمِ بَدْرٍ وَالحَرْبُ بَعْدَ الحَرْبِ ذَاتِ سَعْرِ
 مَا كَانَ لِي عِنْبَةً مِنْ صَبْرٍ وَشُكْرٌ وَحَسْبِي عَلِيٌّ دَهْرِي
 حَتَّى تَرَمَّ أَعْظَمِي فِي قَبْرِ بَدْرِي فَأَجَابَتْهَا بِنْتُ عَمِّي، وَهِيَ تَقُولُ:
 خَزِيَّتٌ فِي بَدْرٍ وَبَعْدَ بَدْرٍ يَا بِنْتَ جَبَّارِ عَظِيمِ الكُفْرِ
 فَقَالَ مَعَاوِيَةَ: عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ، يَا عَمَّةَ، هَاتِ حَاجَتَكَ؛ قَالَتْ: مَالِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ؛
 وَخَرَجَتْ عَنْهُ.

قصة (51) أبو الحسن الموصلي كاتب تغلب والسيدة جميلة ابنة ناصر الدولة⁽¹⁾

حدّثني أبو محمد يحيى بن محمد بن فهد، قال: رأيت أبا الحسن عليّ بن عمرو الموصلي يكتب إلى أبي تغلب بن ناصر الدولة، وكتب في موضع من الكتاب "أمور حميدة". فقلت له: هذا موضع يصلح أن يكون فيه "أمور جميلة" فأما حميدة، فهي لفظة مستكرهة. فقال: صدقت، ولكني كتبت، وأنا بالموصل، رقعة إلى أبي تغلب، فيها "أمور جميلة" فوصلت إليه، وهو عند أخته جميلة، وهي غالبية عليه، محتويه على أمره، لا يقطع شيئاً دونها، ولا يفصل رأياً إلاّ عن مشورتها، وكانت الرقعة مما احتاج إلى مطالعتها بما فيها فأنكرها عليها فأنكرت عليّ قولي "جميلة"، لأنه اسمها، إنكاراً شديداً، احتجت معه إلى الاعتذار مما كتبت، فما كتبت بعدها إلى الآن، "جميلة" في شيء من مكاتباتي إلى أحد، وصار تركها لي طبعاً.

قصة (52) من قدم أمر الله على أمر المخلوقين كفاه الله شرهم⁽²⁾

حدّثني أبو الحسن عليّ بن القاضي أبي طالب محمد بن القاضي أبي جعفر ابن البهلول، قال:

طلبت السيّد أُمّ المقتدر، من جدّي، كتاب وقف لضيعة كانت ابتاعها، وكان الكتاب في ديوان القضاء، فأرادت أخذه لتخرقه، وتبطل الوقف، ولم يعلم جدّي بذلك. فحملة إلى الدار، وقال للقهرمانه: قد أحضرت الكتاب كما رسمت فأيش تريد؟ فقالوا: نريد أن يكون عندنا.

فأحسّ بالأمر، فقال لأُمّ موسى القهرمانه: تقولين للسيّد أعزها الله، هذا والله ما لا طريق إليه أبداً، أنا خازن المسلمين على ديوان الحكم، فإما مكنتموني من خزنه كما يجب، وإلا فاصرفوني

(1) التتوخي، التتوخي، النشوار، ج1، ص193.

(2) التتوخي، التتوخي، النشوار، ج1، ص242.

وتسلّموا الديوان دفعة، فاعلموا به ما شئتم، وخذوا منه ما أردتم، ودعوا ما أردتم، أما أن يفعل شيء منه على يدي، فوالله لا كان هذا ولو عُرضتُ على السيف.

ونهبوا والكتاب معه، وجاء إلى طياره، وهو لا يشك في الصرف، فصعد إلى ابن الفرات، فحدثه بالحديث، وهو وزير.

فقال: ألا دافعت عن الجواب، وعرفتني حتى كنت أتلافى ذلك، الآن أنت مصروف، ولا حيلة لي مع السيدة في أمرك.

قال: وأدت القهرمانة الرسالة إلى السيدة، فشكته إلى المقتدر. فلما كان في يوم الموكب، خاطبه المقتدر شفاهاً في ذلك، فكشف له الصورة، وقال مثل ذلك القول في الاستعفاء.

فقال له المقتدر: مثلك يا أحمد يفلد القضاء، أقم على ما أنت عليه، بارك الله فيك، ولا تخف أن ينلم ذلك عرضك عندنا.

قال: فلما عاودته السيدة، بلغنا أنه قال لها: الأحكام ما لا طريق إلى اللعب به، وابن البهلول مأمون علينا، محبّ لدولتنا، وهو شيخ دين، مستجاب الدعوة، ولو كان هذا شيء يجوز، ما منعك إياه.

فسألت السيدة كاتبها ابن عبد الحميد عن ذلك، وشرحت له الأمر. فلما سمع ما قاله جدّي، بكى بكاء شديداً - وكان شيخاً صالحاً من شيوخ الكتاب - وقال: الآن علمت أن دولة السيدة وأمير المؤمنين تبقى، وتثبت أركانها، إذ كان فيها مثل هذا الشيخ الصالح الذي يقيم الحق على السيدة، ولا يخاف في الله لومة لائم. فأبي شيء يساوي شراؤكم لوقف؟ وإن أخذتم كتابه فخرقتموه، فأمره شائع ذائع، والله فوق كل شيء، وبه عالم.

فقلت السيدة: وكان هذا لا يجوز؟

فقال لها: لا، هذه حيلة من أرباب الوقف على مال الله، واعلمها أن الشراء لا يصح بتخريق كتاب الوقف، وهذا لا يحلّ.

فارتجعت المال، وفسخت الشراء، وعادت تشكر جدّي، وانقلب ذلك له أثراً جميلاً عندهم.

فقال لنا جدّي بعد ذلك: من قدّم أمر الله تعالى على أمر المخلوقين كفاه الله شرهم.

قصة (53) أنموذج من إسراف السيدة أم المقتدر⁽¹⁾

حدثني أبو الحسن البرسي، العامل بالبصرة، أن بعض بني إسحاق الشيرازي المعروف بالخرقي، ممن كان يعامل السيدة أم المقتدر، أسماء هو، وأنسيته أنا، حدثته: إنها طلبت منه في يوم يقرب من نيروز المعتضد، ألف شقة زهرية خفافاً جداً.

قال: فبعثت في جمعها، والرسل تكدي بالاستعجال، والقاهرة يستبطؤونني، حتى تكاملت، وصرت بها إلى الدار.

فخرجت القهرمانة فقالت: اجلس في الحجرة التي برسمك، واستدع الخياطين، وتقدم أن يقطعوا ذلك أزراراً على قدر حب القطن، ويحشونها من الخرق، ويخيطونها، ليجعل بدل حب القطن ويشرب دهن اللسان، وغيره من الأدهان الطيبة الفاخرة، وتوقد في المجامر البرام على رؤوس الحيطان ليلة النيروز بدلاً من حب القطن والنفط والمجامر الطين.

ف فعلت ذلك، ومضت تلك الثياب الكثيرة الأثمان في هذا.

قال: وقال لي: كنت أشتري ثياباً دبقية، يسمونها ثياب النعال.

وذلك أنها كانت صفاقاً، تقطع على مقدار النعال المحذوة، وتطلى بالمسك والعنبر المذاب، وتجعد، ويجعل بين كل طبقتين من الثياب، من ذلك الطيب ما له قوام، ونحن نعمل بطاقات كثيرة كذا، وتلف بعضها على بعض، ثم تصمغ حواليتها بشيء من العنبر، وتلزم حتى تصير كأنها قطعة واحدة، وتجعل الطبقة الأولة بيضاء مصقولة، وتخرز حواليتها بالأبريسم، ونجعل لها شركاً، من إبريسم كلها، كالشرك المصفورة من الجلود، وتلبس.

قال: وكانت نعال السيدة من هذا المتاع، لا تلبس النعل إلا عشرة أيام، أو حواليتها، حتى تخلق، وتتفتت، وتذهب جملة دنانير في ثمنها، وترمى.

فيأخذها الخزان، أو غيرهم، فيستخرجون من ذلك العنبر والمسك فيأخذونه، وهو يساوي جملة دنانير.

قصة (54) عاشق تسبب في قتل حبيبته وزوجها⁽²⁾

ومن الأخبار المفردات، والاتفاقات التي سمعناها، وشاهدنا بعضها، ما أخبرني به أبو القاسم الجهني، قال:

(1) التتوخي، النشوار، ج1، ص293.

(2) التتوخي، النشوار، ج1، ص338.

كان في جوارى ببغداد، امرأة جميلة مستورة، ولها ابن عمّ يهواها، كان ربّي معها، فعدل بها أبوها عنه، إلى رجل غريب، زوجه بها، فكان ابن العم، يلزم بابها، طمعاً فيها، وأحس الزوج بذلك، فكان يتحرّز، وكان خبيثاً.

فخرج يوماً في بعض شأنه، وأرادت المرأة أن تتبرّد، فنزعت ثيابها، وجلست عند البئر تغتسل، وتركت خواتيم ذهب، كانت في يدها، عند ثيابها في الدار، وكانت لطيفة، وفيها عقق مخرق في الدار، فأخذ الخواتيم، وخرج وهي في منقاره، إلى الباب، على عادة العقاقع، في أخذ كلما يجدونه وخبئه.

فوافق خروجه، اجتياز ابن عمها، ورأى الخواتيم، فسعى خلف العقق، وأخذها منه، ولبسها، وقعد بالباب، ليراه زوج المرأة، فيظن أنه كان عندها، فيطلقها، فيتمكن هو من تزوجها. فجاء الزوج، فقام ابن العم مسلماً عليه، وتعمّد أن يرى الخواتيم في يده، وانصرف، فعرّفها الزوج، ودخل، فرأى امرأته تغتسل، فلم يشكّ أنه غسل جنبه، وأن ابن العم، قد وطئها.

فقال لجارية كانت معهم: اذهبي في حاجة كذا، فمضت فيها، وغلق الباب، وأضجع المرأة، ولم يسلمها عن شيء، وقتلها.

وعادت الجارية، فرأت ستمها مقتولة، فريعت، وخرجت، وصاحت، فبدر الجيران به، وأهلها، فقبضوا عليه، وحمل إلى السلطان، فقتل بها. فأخرج ابن العم الحديث، وكان ذلك سبب توبته، ولزم العبادة، وترك الدنيا إلى أن مات.

قصة (55) الخليفة القاهر يعذب أم المقتدر ويضطرها لبيع أملاكها⁽¹⁾

حدثني أبو الحسين بن عيّاش، قال: حدثني عمي أبو محمد، قال: أنفذني أبو الحسين بن أبي عمر القاضي، وابن حباب الجوهري، إلى القاهر، وكان قد طلب منه شاهدين، ليشهدا على أمّ المقتدر، بتوكيلها، في بيع أملاكها.

قال: فصرنا إلى دار الخلافة، واستؤذن لنا، فدخلنا إلى القاهر، وهو جالس في صحن كبير، عند باب ممدود عليه ستارة ديباج، وسبنيّة، على كرسيّ حديد، وفي يده حربة يقبّنها، وخدمه قيام على رأسه.

فسلمنا عليه، ووقفنا.

ودفع إلينا أحد الخدم كتاباً أوله: أقرت شغب، مولاه أمير المؤمنين المعتضد صلوات الله عليه، أم جعفر المقتدر رحمة الله عليه.

فوقفنا عليه، فإذا هو وكالة ببيع أملاكها، في سائر النواحي.

(1) التتوخي، النشوار، ج2، ص77.

فقلنا للخادم: فأين هي؟

قال: وراء الباب.

فاستأذنا الخليفة في خطابها، فقال: افعلنا.

فقلنا: أنت عافاك الله هاهنا، حتى نقرأ عليك؟

فقالت: نعم.

فقرأنا عليها الكتاب وقررناها، ثم توقفنا عن كتب الشهادة، فأوماً بعضنا إلى بعض، كيف

نعمل في رؤيتها؟ وإلا لم يمكننا إقامة الشهادة، وهبنا الخليفة.

فقال: ما لكم تتأمرون؟

فقلنا: يا أمير المؤمنين، هذه شهادة، نحتاج أن نقيمها عند قاض من قضاة أمير المؤمنين؟

فقال: نعم.

قلنا: فإنها لا تصح لنا دون أن نرى المرأة بأعيننا، ونعرفها بعينها واسمها، وما تنسب

إليه.

فقال: افعلوا.

قال: فسمعت من وراء الستارة، بكاءً، ونحيباً، ورفعت الستارة.

فقلت لها: أنت شغب، مولاة أمير المؤمنين المعتضد بالله صلوات الله عليه، أم جعفر

المقتدر رحمة الله عليه.

قال: فبكت ساعة، ثم قالت: نعم.

فقررناها على ما في الكتاب، وأسبل الستار، فتوقفنا عن الشهادة.

فقال القهر بضجر: فأني شيء بقي؟

فقلنا: يعرفنا أمير المؤمنين إنها هي.

فقال نعم، هذه شغب، مولاة أبي المعتضد بالله، أمير المؤمنين، وأم أخي جعفر المقتدر

بالله، ونهض.

فأوقعنا خطوطنا في الكتاب، وانصرفنا.

قال: ولما رأيتها، وجدتها امرأة عجوزاً، دقيقة الوجه والمحاسن، سمراء اللون إلى

البياض والصفرة، عليها أثر ضر شديد، وثياب غير فاخرة.

فما انتفطنا بأنفسنا ذلك اليوم، فكراً في تقلب الزمان، وتصرف الحدثن.

وجئنا، فأقمنا الشهادة، عند أبي الحسين القاضي.

قصة (56) الخليفة القاهر يعذب أم المقتدر زوجة أبيه، ويصلبها منكسة⁽¹⁾

وهذه شغب أم المقتدر بالأمس، تتعمت ما لم ينتعمه أحد، ولعبت من أموال الدنيا بما استفاض خبره.

فلما قتل المقتدر قبض عليها القاهر، فعذبها صنوف العذاب حتى قيل إنه علّقها بثدييها، يطالبها بالأموال. وحتى علّقها منكسة، فبالت، فكان بولها يجري على وجهها.

فقالته له: يا هذا، لو كانت معنا أموال، ما جرى في أمرنا من الخلل، ما يؤدي إلى جلوسك، حتى تعاقبني بهذه العقوبة، وأنا أمك في كتاب الله عز وجل، وأنا خلّصتك من ابني في الدفعة الأولى، حتى أجلس هذا المجلس.

قصة (57) امرأة تدعي أن زوجها كان يعشق السراويلات⁽²⁾

حدثني أبو علي الحسن بن محمد الأنباري الكاتب، قال: مات عندنا بالأنبار، فلان، وأسماء، وكان عظيم النعمة، وافر المروعة، كثير الثياب، وكان لكثرتها، يحصل كل فن منها في عدة صناديق.

وكانت درارية الديقية مفردة، والدراريع الديياج مفردة، وكذلك القمص، والسراويلات، والجباب، والطيلس، والعمائم. قال: وكان له بنو عم ورتوه، وأم ولد قد تزوجها.

فلما مات، أخرجت جميع آلاته، وقماشه، وثيابه، إلا اليسير، من الدار، فخبأته.

وزهب عليها صناديق السراويلات، فلم تخرجها، وجاء بنو العم، فخنتموا على الخزائن. فلما انقضت المصيبة، فتحوها، فوجدوها أخلى من فؤاد أم موسى، فخاصموها إلى قاضي البلد، فلم تنقطع الخصومة.

فدخلوا الحضرة، وتظلموا منها فأشخصت، وحملت إلى القاضي أبي جعفر بن البهلول، ووقع إليه بالنظر فيما بينهم على طريق المظالم.

فحضروا عنده واخذ يسائلهم عن دعواهم، وهي منكرة جميعها.

فقالوا له: أيها القاضي، فلان أنت أعرف الناس مروعة وثيابه، وما كنت تشاهده له، وكله كان في يدها له.

وساعة مات ختمنا خزائنه، وهي كانت في الدار، ولما فتحناها لم نجد له فيها إلا عدة صناديق فيها سراويلات، وقطعا يسيرة من ثيابه.

فأين مضى هذا؟ ومن أخذه؟ وما السبب في عظم السراويلات وقلة الثياب؟

(1) التتوخي، النشوار، ج2، ص76.

(2) التتوخي، النشوار، ج2، ص167.

قال: فأقبلت الجارية محتدة، كأنها قد أعدت الجواب، فقالت: أعزّ الله القاضي، أما سمعت ما حكاه الجاحظ من أنّ رجلاً كان يعشق الهواوين، فجمع منها مائتي هاون، هذا كان يعشق السراويلات.

قال: فضحك القاضي أبو جعفر، وانفض المجلس عن غير شيء. فما انتصفوا منها بعد ذلك.

قصة رقم (58) عائدة الجهنية تنظم الشعر الحسن⁽¹⁾

أنشدتني عائدة بنت محمد الجهنية لنفسها، وهذه امرأة فاضلة، كاتبة، كانت زوجة عم الوزير ابن شيرزاد، وخليفته على كتابة بجكم وسبكتكين في الديوان الذي كان لأبي جعفر، وجاءه ابن زريق، فحُجِب، ثم دخل بحيلة على ما أخبرنا.

قال، فأنشدته هذه الأبيات، فلما ولي الوزارة، نفعه، واستخدمه.

فلما قبض على الحسن بن علي المنجم، وحبس ابنته في دار أبي (رضي الله عنه) وكلّ هذه المرأة بها، وهي إذ ذاك عجوز، فكانت تناشدنا الأشعار، وتناشدنا لنفسها كل شيء جيد.

فأخبرتني أنها قالت تهجو أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخي، لما ولي الوزارة، وتعيبه بقصر قامته.

شاورني الكرخي لما دنا ال	نيروز والسن لضاحكه
فقال ما نهدي لسلطاننا	من خير ما الكفّ له مالكة
قلت له كل الهدايا سوى	مشورتي ضائعة هالكه
أهد له نفسك حتى إذا	أشعل ناراً كنت دوبركه

أنشدتني ذلك في سنة اثنتين وأربعين وثلثمائة.

الدوبركه: كلمة أعجمية، وهي اسم للعب على قدر الصبيان يخلونها أهل بغداد في سطوحهم ليالي النيروز المعتضدي، ويلعبون بها، ويخرجونها في زي حسن، من فاخر الثياب والحلي، ويحلونها كما يفعل بالعرانس، وتحقق بين يديها الطبول والزمور، وتشعل النيران. فهجته هذه المرأة بما تحقق عندي أنها صادقة فيه، لأنه يليق بكلام النساء.

وقد كانت تنشدني لنفسها أفضل من هذا الكلام، وكتبت ذلك عنها، وهو ثابت في مواضع من كتبي، وما تعلق بحفظي لها غير هذه الأبيات.

(1) التتوخي، النشوار، ج2، ص222.

قصة (59) اللص والعجوز الجلدة أم الصيرفي (1)

حدثني أبو جعفر محمد بن الفضل بن حميد الصميري، مؤدبي، قال: كان في بلدنا عجوز سالحة، كثيرة الصيام والقيام، وكان لها ابن صيرفي منهمك على الشرب واللعب. وكان يتشاغل بدكانه أكثر نهاره، ثم يعود عشياً إلى منزله، فيخبئ كيسه عند والدته، ويمضي، فيبيت في مواضع يشرب فيها. فعين بعض اللصوص على كيسه ليأخذه، وتبعه في بعض العشايا، ودخل وراءه إلى الدار، وهو لا يعلم، فاخفى فيها، وسلم هو كيسه إلى أمه، وخرج، وبقيت وحدها في الدار. وكان لها في دارها، بيت مؤزر بالساج إلى أكثر حيطانه، عليه باب حديد، تجعل قماشها وكل ما تملكه فيه، والكيس، فخبأت الكيس فيه تلك الليلة خلف الباب، وجلست فأفطرت بين يديه. فقال اللص: هذه الساعة تظفر، وتكسل، وتنام، وانزل فأفتح الباب، وأخذ الكيس والقماش.

قال: فلما أفطرت، قامت إلى الصلاة، فظن اللص أنها تصلي العنمة وتنام. فانتظرها، فمدت الصلاة، وتناول عليه الأمر، ومضى نصف الليل. وتحير اللص مما نزل به، وخاف أن يدركه الصبح، ولا يظفر بشيء. فطاف في الدار، فوجد إزاراً جديداً، وطلب جمرأ فظفر به، ووقع في يده شيء كان لهم فيه دخنة طيبة، فلبس الإزار، وأشعل ذلك البخور، وأقبل ينزل على الدرجة، ويصيح بصوت غليظ وتعمد أن يجعله جهورياً، لتفزع العجوز.

وكانت معتزلية جلدة، ففطنت لحركته، وانه لص، فلم تره أنها فطنت. وقالت: من هذا؟ بارتعاد وفزع شديد. فقال لها: أنا رسول الله رب العالمين، أرسلني إلى ابنك هذا الفاسق، لأعظه، وأعماله بما يمنعه من ارتكاب المعاصي.

فأظهرت أنها قد ضعفت، وغشي عليها من الجزع، وأقبلت تقول: يا جبريل، سألتك بالله، إلا رفقت به، فإنه واحدي.

فقال اللص: ما أرسلت لقتله.

فقال: فما تريد؟ وبما أرسلت؟

قال: لأخذ كيسه، أولم قلبه بذلك، فإذا تاب رددته إليه.

فقال: شأنك، يا جبريل، وما أمرت.

فقال: تتحي من باب البيت.

فتحت، وفتح هو الباب، ودخل ليأخذ الكيس والقماش، واشتغل في تكويره.
فمشت العجوز قليلاً قليلاً، وجذبت الباب بحمية، فردته، وجعلت الحلقة في الرزة،
وجاءت بقل، فقفلته.

فنظر اللص إلى الموت بعينه، ورام حيلة في داخل البيت، من نقب أو منفذ، فلم يجدها.
فقال لها: افتحي الباب لأخرج، فقد اتعظ ابنك.

فقالت: يا جبريل أخاف أن أفتح الباب فتذهب عيني من ملاحظتي لنورك
فقال: إني أطفأ نوري حتى لا تذهب عينك

فقالت: يا جبريل، إنك رسول رب العالمين، لا يعوزك أن تخرج من السقف أو تخرق
الحائط بريشة من جناحك، وتخرج، فلا تكلفني أنا التغرير ببصري.

فأحسّ اللص بأنها جلدة، فأخذ يرفق بها، ويداريها، ويبذل التوبة.

فقالت له: دع ذا عنك، لا سبيل إلى الخروج إلا بالنهار، وقامت تصلي، وهو يهذي،
ويسألها، وهي لا تجيبه، حتى طلعت الشمس، وجاء ابنها، فعرف خبرها، وحدثته بالحديث،
فمضى وأحضر صاحب الشرطة، وفتح الباب، وقبض على اللص.

مركز أبحاث المسائل الجامعية
مكتبة الجامعة الأردنية
قصة (60) الصوفي المتوكل وجام فالودج حار (1)

حدثني محمد بن هلال بن عبد الله، قال: حدثنا القاضي أحمد بن سيّار، قال: حدثني رجل
من الصوفية، قال:

كنت أصحب شيخاً من الصوفية، أنا وجماعة في سفر، فحدثني حديث التوكّل،
والأرزاق، وضعف النفس فيهما، وقوتها.

فقال ذلك الشيخ: عليّ، وعليّ، لا ذقت مأكولاً، أو يبعث إليّ بجماعة فالودج حار، ولا
أكل إلا بعد أن يحلف عليّ.

قال: وكنا نمشي في الصحراء.

فقالت له الجماعة: الآخر جاهل.

ومشى ومشينا، وانتهينا إلى قرية، ومضى عليه يومان، وليلتان، لم يطعم فيهن شيئاً.
ففارقه الجماعة، غيري، فإنه طرح نفسه في مسجد القرية، مستسلماً للموت ضعفاً،
فأقمت عليه.

فلما كان في ليلة اليوم الرابع، وقد انتصف الليل، وكاد ان يتلف الشيخ، فإذا بباب
المسجد قد فتح، وإذا جارية سوداء، ومعها طبق مغطى.

فلما رأتنا، قالت: أنتم غرباء، أو من أهل القرية؟
فقلنا: غرباء.

فكشفت الطبق، فإذا بجام فالودج، يفور لحرارته.
فقالت: كلوا، فقلت له: كل، فقال: لا أفعل.

فقلت له: والله لتأكلن، لأبرّ قسمه، فقال: لا أفعل.

قال: فشالت الجارية يدها، فصفعته صفة عظيمة، وقالت: والله، لئن لم تأكل لأصفعنك
هكذا، إلى أن تأكل.

قال: فقال: كل معي.

فأكلنا، حتى نظفنا الجام، وجاءت الجارية تمضي.

فقلنا لها: مكانك، أخبرينا بخبرك، وخبر هذا الجام.

فقالت: نعم، أنا جارية رجل هو رئيس هذه القرية، وهو رجل أحق حديد، فطلب منا
منذ ساعة، فالودجاً، فقمنا لنصلحه، وهو شتاء وبرد، فإلى أن تخرج الحوائج من البيت، وتشعل
النار، ويعقد فالودج، تأخر عنه.

فطلبه، فقلنا: نعم، وطلبه ثانياً، ولم نكن فرغنا منه، وطلبه الثالثة، فحرد وحلف بالطلاق،
لا يأكله، ولا أحد من داره، ولا أحد من أهل القرية، ولا يأكله إلا رجل غريب.

فجعلناه في الجام، وخرجنا نطلب في المساجد رجلاً غريباً، فلم نجد، إلى أن انتهينا إلى
هذا المسجد، فوجدنا كما، ولو لم يأكله هذا الشيخ، لقتلته ضرباً، إلى أن يأكل، لئلا تطلق ستي من
زوجها.

قال: فقال الشيخ: كيف ترى، إذا أراد أن يبرزق؟⁽¹⁾

قصة (61) أبو المغيرة الشاعر يروي خبراً ملفقاً⁽²⁾

حدثنا أبو المغيرة، محمد بن يعقوب بن يوسف، الشاعر، البغدادي، الأسدي، قال: حدثني

أبو موسى عيسى بن عبيد الله البغدادي، قال: حدثني صديق لي، قال:

كنت قاصداً للرملة وحدي، فانتهيت إليها، وقد نام الناس، ليلاً، فعدلت إلى المقبرة،
ودخلت بعض القباب التي على القبور، وطرحت درقة كانت معي، فاتكأت عليها، وعلقت سيفي
أريد النوم، لأدخل إلى البلد نهاراً، فاستوحشت من الموضع، وأرقت.

(1) وقد وردت أيضاً في الفرج، ج3، ص36.

(2) التتوخي، النشوار، ج3، ص236.

فلما طال أرقى، أحسست بحركة، فقلت: لصوص يجتازون، فإن قصدت لهم، لم آمنهم، ولعلهم أن يكونوا جماعة، فلا أطيقهم، فانخزلت مكاني، ولم أتحرك، وأخرجت رأسي من بعض أبواب القبّة، على تخوّف شديد، فرأيت دابة كالدبّ، يمشي، فأخفيت نفسي، فإذا به قد قصد قبّة حيالي، قريبة مني، فما زال يتلّفّط طويلاً، ويدور حولها، ويتلّفّط، ساعة، ثم دخلها. فارتبت به، وأنكرت فعله، وتطلّعت نفسي إلى علم ما هو عليه. فدخل القبّة، وخرج غير متثبت، ثم دخل وخرج، بسرعة، دفعات، ثم دخل، وعيني عليه، فضرب بيده إلى قبر في القبّة ليحفر.

فقلت: نباش، لا شك فيه.

وتأملتني يحفر بيديه، فعلمت أن فيها آلة حديد يحفر بها.

فتركته إلى أن اطمأن، وأطال، وحفر شيئاً كثيراً، ثم أخذت سفي ودرقتي، ومشيت على أطراف أناملي، حتى دخلت القبّة، فأحسّ بي، وقام إليّ بقامة إنسان، وأوماً إليّ ليلطمني بكفه، فضربت يده بالسيف، فأبنتها، وطاربت. فصاح: أواه، قتلتي، لعنك الله.

وعدا من بين يدي، وعدوت وراءه، وكانت ليلة مقمرة، حتى دخل البلد، وأنا وراءه، ولست ألحقه، إلا أنه بحيث يقع بصري عليه، إلى أن اجتاز في طرق كثيرة، وأنا في خلال ذلك أعلم الطريق، لئلا أضل، حتى إذا جاء إلى باب دار، فدفعه، ودخل، وغلقه، وأنا أتبع. فعلمت الباب، ورجعت أفقر الأثر، والعلامات التي علمتها في طريقي، حتى انتهيت إلى القبّة التي كان فيها النباش، فطلبت الكف، فوجدتها، وأخرجتها إلى القمر، فبعد جهد، انتزعت الكفّ المقطوع من الآلة الحديد، فإذا هي كفّ كالكفّ، وقد أدخل أصابعه في الأصابع، وإذا هي كفّ فيها نقش حناء، وخاتمان ذهب.

فحين علمت أنها امرأة، اغتممت، وتأملت الكفّ، وإذا أحسن كفّ في الدنيا، نعومة، ورطوبة، وسمناً وملاحة، فمسحت الدم منها، ونمت في القبّة التي كنت فيها. ودخلت البلد، من غدٍ، أطلب العلامات، حتى انتهيت إلى الباب.

فسألت: لمن الدار؟

فقالوا: لقاضي البلد.

واجتمع عليها خلق، وخرج منها رجل شيخٌ بهي، فصلى الغداة بالناس، وجلس في المحراب.

فازداد عجبي من الأمر، وقلت لبعض الحاضرين: بم يعرف هذا القاضي؟

فقال: بفلان.

فأطلت الحديث في معناه، حتى عرفت أنّ له ابنة عاتقاً، وزوجة، فلم أشك، أن النباشة ابنته.

فتقدمت إليه، وقلت له: بيني وبين القاضي - أعزه الله - حديث، لا يصلح إلا على خلوة. فقام إلى داخل المسجد، وخلا بي، وقال: قل. فأخرجت إليه الكفّ، وقلت: أتعرف هذه؟ فتأملها طويلاً، وقال: أما الكفّ فلا، وأما الخواتيم، فخواتيم ابنة لي، عاتق، فما الخبر؟ فقصصت عليه الحديث بأسره. فقال: قم معي، وأدخلني داره، وغلق الباب، واستدعى طبقاً، وطعاماً، واستدعى امرأته. فقال له الخادم: تقول لك: كيف اخرج ومعك رجل غريب؟ فقال: لا بدّ من خروجها تآكل معنا، فهنا من لا أحتشمه. فأبى عليه، فحلف بالطلاق لتخرجين، فخرجت باكية، فجلست معنا.

فقال لها: أخرجي ابنتك. فقالت: يا هذا، قد جننت، فما الذي حل بك؟ فقد فضحتني، وأنا امرأة كبيرة، فكيف تهتك صبية عاتقاً؟ فحلف بالطلاق لتخرجنها، فخرجت. فقال: كلي معنا.

فرأيت صبية كالدينار المنقوش، ما مقلت مقلتي مثلها، ولا أحسن منها، إلا أنّ لونها أصفر جداً، وهي مريضة، فعلمت أنّ الذي لحق يدها، قد فعل بها ذلك. فأقبلت تآكل بيمينها، وشمالها مخبوءة. فقال: اخرجي اليسرى.

فقالت: قد خرج فيها خراج عظيم، وهي مشدودة. فحلف لتخرجنها.

فقالت امرأته: يا رجل، استر على نفسك، وعلى ابنتك، فو الله - وحلفت بأيمان كثيرة - ما أطلعت لهذه الصبية على سوء قط، إلا البارحة، فإنها جاءتني، بعد نصف الليل، فأيقظتني، وقالت: يا أمي، الحقيني، والآ تلفت.

فقلت لها مالك؟

فقالت: قد قطعت يدي، وهوذا انزف الدم، والساعة أموت، فعالجيني، وأخرجت يدها مقطوعة.

فطمت، فقالت: لا تفضحيني ونفسك بالصياح، عند أبي والجيران، وعالجيني. فقلت: لا أدري بما أعالجك.

فقال: خذي زيتاً، فاغليه، وأكوي به يدي.

ف فعلت ذلك، وكويتها، وشدتها، وقلت: الآن حدثيني ما دهاك، فامتعت.

فقلت: والله، لئن لم تحدثيني، لأكشفن أمرك إلى أبيك.

قالت: إنه وقع في نفسي منذ سنتين، أن أنبش القبور، فتقدمت إلى هذه الجارية، فاشترت لي جلد ماعز غير مخلوق الشعر، واستعملت لي كفتين من حديد، وكنت إذا نمتم، أفتح الباب، وأمرها أن تنام في الدهليز ولا تغلق الباب، والبس الجلد، والكفين الحديد، وامشي على أربع، فلا يشك من لعله يراني من سطح أو غيره، أني كلب.

ثم اخرج إلى المقبرة، وقد عرفت من النهار، خير من يموت من الجلة، وابن قد دفن فأقصد قبره فأنبشه واخذ الكفان فأدخلها في الجلد وامشي مشيتي، وأعود والباب غير مغلق، فأدخل، وأغلقه، وانزع تلك الآلة، وادفعها إلى الجارية، مع ما قد أخذته، فتخبئة في بيت لا تعلمون به، وقد اجتمع ثلثمائة كفن، أو ما يقاربها، لا أدري ما أصنع بها، إلا أني كنت أجد لذلك الخروج، والفعل، لذة لا سبب لها، أكثر من أن أصابتنى بهذه المحنة.

فلما كان الليلة، تسلط عليّ رجل، أحسن بي، وكان كأنه جالس، أو حارس لذلك القبر، فحين بدأت انبشه، جاعني، ففقت لأضرب وجهه بكفي الحديد، فأشغله بها عني، وأعدو، وأنجو، فداخلني بالسيف، ففقت الضربة بشمالي، فأبان كفي.

فقلت لها: أظهري أنه قد خرجت على كفك خراج، وتعاللي، فإن الذي بك من صفار، يصدق قولك، حتى إذا مضت أيام، قلنا لأبيك، لا بد أن تقطع يدك، وإلا خبث جميع بدنك، ففقت، فيأذن لنا في قطعها، فنوهم أنا قطعناها من جديد، وينستر أمرك.

فعملنا على هذا، بعد أن استتبتها، فتابت، وحلفت بالله، لا عادت. وكنت على بيع هذه الجارية، وأراعي فيما بعد مبيت هذه الصبية، وأبيتها جانبي، ففضحتني أنت، وفضحت نفسك.

فقال لها القاضي: ما تقولين؟

فقلت: صدقت أُمي، ووالله، لا عدت أبداً، وتابت.

فقال لها القاضي: هذا صاحبك الذي قطع يدك، فكادت أن تتلف جزءاً.

ثم قال: يا فتى، من أين أنت؟

فقلت: رجل من أهل العراق.

قال: فقيم وردت؟

قلت: أطلب الرزق.

فقال: قد جاءك حلالاً، هنيئاً، نحن قوم مياسير، والله علينا ستر، فلا تهتكه، والله، ما علمت هذا من حال ابنتي، فهل لك أن تتزوجها، وأغنيك بمالي عن الناس، وتكون معنا، وفي

دارنا؟

قلت: نعم

فرجع الطعام، وخرجنا إلى المسجد والناس مجتمعون، ينتظرونه. فخطب، وزوجني، وقام رجع، فأدخلني إلى الدار.

ووقع حبّ الصبية في نفسي، حتى كدت أموت عشقاً لها، وافترعتها، وأقامت معي شهوراً، وهي نافرة عني، وأنا أونسها، وأبكي حسرة على يدها، وأعتذر إليها، وهي تظهر قبول عذري، وأن الذي بها غماً على يدها.

إلى أن نمت ليلة، وانسببت في نومي، على رسمي، فأحسست بثقل على صدري شديد، فانتبهت جزءاً، فإذا بها باركة على صدري، وركبتها على يدي، مستوثقة، وفي يدها موسى، وقد أهوت لتدبحني، فاضطربت ورمت الخلاص فتعذّر، وخشيت أن تبادرني، فسكنت.

فقلت لها: كلميني، واعلمي ما شئت، ما الذي يدعوك إلى هذا؟

قالت: أتظن أنك قطعت يدي، وهتكتي، وتزوجت بي، وتنجو سالماً؟ والله لا كان هذا. فقلت: الذبح قد فاتك، ولكنك تتمكنين من جراحات توقعينها بي، ولا تأمنين أن أفلت فأذبحك، أو أهرب واكتشف هذا عليك، ثم أسلمك إلى السلطان، فيكشف جنائتك الأولى، والثانية، ويتبرأ منك أهلك، وتقتلين.

فقلت: أفعل ما شئت، فلا بدّ من ذبحك، وقد استوحش كل منا من صاحبه.

فظرت، وإذا الخلاص منها يبعد عليّ، ولا آمن أن تجرح موضعاً من بدني، فيكون فيه تنفي، فقلت: الحيلة أعمل فيها.

فقلت: أو غير هذا.

فقلت: قل.

فقلت: أطلقك الساعة، وتفرجين عني، وأخرج من البلد، فلا تريني، ولا أراك أبداً، ولا ينكشف لك حديث في بلدك، ولا فضيحة، وتزوجين من شئت، فقد شاع عند الناس، أن يدك قطعت لخراج خبثها، وتربحين الستر.

فقلت: تحلف أنك لا تقيم في البلد، ولا تفضحني فيه أبداً؟

قال: حلفت بالأيمان المغلظة.

فقامت عن صدري، تعدو، خوفاً من أقبض عليها، حتى رمت موسى بحيث لا أدري، وعادت، فأخذت تظهر بان الذي فعلته، مزاح، وتلاعبني.

فقلت: إليك عني، فقد حرمت عليّ، ولا تحل لي ملامستك، وفي غد، أخرج عنك.

فقلت: الآن علمت صدقك، ووالله، لو لم تفعل، لما نجوت من يدي.

وقامت، فجاءتني بصرة، وقالت: هذه مائة دينار، خذها نفقة، واكتب رقعة بطلاقي، ولا تفضحني، واخرج.

فخرجت في سحرة ذلك اليوم، بعد أن كتبت إلى أبيها، أنني قد طلقته، وأني خرجت حياءً منه.
ولم ألتق بهم إلى الآن.

قصة (62) لا جزاك الله من طارق خيراً⁽¹⁾

حدثنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن أمّ المكاتب البغدادي، المعروف والده بابي الليث الهمداني، قال: حدّثني محمد بن بديع العقيلي، أحد قوادهم ووجههم في الحيّ، وكان ورد إلى معزّ الدولة، فأكرمه وأحسن إليه، قال:
رأيت رجلاً من بني عقيل، وفي ظهره كله شرط كشرطات الحمام، إلا أنها أكبر، فسألته عن ذلك.

فقال: إني كنت هويت ابنة عمّ لي، فقالوا: لا نزوجك إلا أن تجعل في الصداق الشبكة، فرس سابقة كانت لبعض بني بكر بن كلاب، فنزّوجتها على ذلك.
وخرجت في أن أحتال في سلب الفرس من صاحبها، لأتمكن من الدخول بابنة عمي.
فأتيت الحيّ الذي فيه الفرس، في صورة حدّار، وما زلت أداخلهم، ومرة أجيء الخباء الذي هي فيه كأني سائل، إلى أن عرفت مبيت الفرس من الخباء.
واحتلت حتى دخلت البيت من خلفه، وحصلت خلف النضد، تحت عهن كانوا نفثوة ليعزل.

فلما جاء الليل، وافى صاحب الخباء، وقد زاوت له المرأة عشاء، وجلسا يأكلان، وقد استحكمت الظلمة، ولا مصباح لهم، وكنت ساغباً، فأخرجت يدي، واهويت إلى القصعة، وأكلت معهم.

فأحسّ الرجل بيدي، فأنكرها، فقبض عليها، فقبضت على يد المرأة، فقالت له المرأة، ما لك ويدي؟، فظنّ أنه قابض على يد إمراته، فخلّى يدي، فخلّيت يد المرأة.
وأكلنا، فأنكرت المرأة يدي، فقبضت عليها، فقبضت يد الرجل، فقال لها: ما لك؟ فخلّيت عن يدي، فخلّيت عن يده.

وانقضى الطعام، واستلقى الرجل نائماً، فلما استنقل، وأنا مرادهم، والفرس مقيدة في جانب البيت، فأنتبتها، والمفتاح تحت رأس المرأة.
فوافى عبد له أسود، فنبذ حصاة، فانتبهت المرأة، فقامت إليه، وتركت المفتاح في مكانه، وخرجت من الخباء إلى ظاهر البيت، ورمقتها بعيني، فإذا هو قد علاها.

(1) التتوخي، النشوار، ج3، ص261.

فلما حصلنا في شأنهما، دببت، وأخذت المفتاح، وفتحت القفل، وكان معي لجام شعر، فأوجرتة الفرس، وركبتها، وخرجت عليها من الخباء. فقامت المرأة من تحت العبد، ودخلت الخباء، وصاحت.

فذعر الحي، وأحسوا بي، وركبوا في طلبي، وأنا أكّد الفرس، وخلفي خلق منهم. فأصبحت، وليس ورائي إلا فارس واحد برمح، فلحقني وقد طلعت الشمس، واخذ يطعنني، فلا تصل إليّ طعناته، ولا فرسي تتجيني، إلى حيث لا يمسنني من الرمح شيء، حتى وافينا إلى نهر عظيم فصحت بالفرس فوثبته وصاح الفارس بالفرس التي تحته فقصرت ولم تثب فلما رأيته عاجزاً عن العبور وقفت لاريح الفرس وأستريح فصاح بي فأقبلت عليه بوجهي فقال يا هذا أنا صاحب الفرس التي تحتك وهذا ابنتها فإذا ملكتها فلا تخدع عنها فإنها تساوي عشر ديات، وعشر ديات وعشر ديات وما طلبت عليها شيئاً قط إلا لحقته ولا طلبني عليها أحد إلا فته، وإنما سميت الشبكة، لأنها لم ترد قط شيئاً إلا ادركته، فكانت كالشبكة في صيده، فقلت له: إذ نصحتني فوالله لأنصحك كان من صورتني البارحة كيت وكيت، وقصصت عليه قصة امرأته والعبد وحيلتي في الفرس فاطرق ثم رفع رأسه وقال: ما لك لا جزاك الله من طارق خيراً، طلقت زوجتي وأخذت قعدتي وقتلت عدي. (1)

قصة (63) تاجر بغدادي آلى على نفسه أن يغسل يده أربعين مرة إذا أكل ديكبريكة (2)

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الباقي البزاز عن أبي القاسم علي بن المحسن التنوخي، على أبيه، قال: حدّثني أبو الفرج أحمد بن عثمان بن إبراهيم، الفقيه المعروف بابن النرسي، قال:

كنت جالساً بحضرة أبي، وأنا حدث، وعنده جماعة، فحدّثني حديث وصول النعم إلى الناس بالألوان الطريفة، وكان ممن حضر، صديق لأبي، فسمعتة يحدّث أبي، قال: حضرت عند صديق لي من التجار، كان يحزر بمائة ألف دينار، في دعوة، وكان حسن المروءة.

فقدّم مائدته، وعليها ديكبريكة، فلم يأكل منها، فامتنعنا. فقال: كلوا، فإنّي أتأذى بأكل هذا اللون. فقلنا: نساعدك على تركه.

(1) وقد وردت أيضاً في الفرج، ج3، ص378.

(2) التنوخي، النشوار، ج4، ص177.

فقال: بل أساعدكم على الأكل، واحتمل الأذى، فأكل، فلما أراد غسل يديه أطال، فعددت عليه، أنه قد غسلها أربعين مرة.

فقلت: يا هذا، وسوست؟

فقال: هذه الأذية التي فرقت منها.

فقلت: وما سببها؟ فامتنع من ذكر السبب.

فألححت عليه، فقال: مات أبي، وسنيّ عشرون سنة، وخلف لي نعمة صغيرة، ورأس مال، ومتاعاً في دكانه، وكان خلقانياً في الكرخ.

فقال لي لما حضرته الوفاة: يا بني، إنه لا وارث لي غيرك، ولا دين عليّ، ولا مظلمة، فإذا أنا مت، فأحسن جهازي، وصدق عني بكذا وكذا، وأخرج عني حجةً بكذا وكذا، وبارك الله لك في الباقي، ولكن احفظ وصيتي.

فقلت: قل.

فقال: لا تسرف في مالك، فتحتاح إلى ما في أيدي الناس ولا تجده، واعلم أن القليل مع الإصلاح كثير، والكثير مع الفساد قليل، فالزم السوق، وكن أول من يدخلها، وآخر من يخرج منها، وإن استطعت أن تدخلها سحراً بليل، فافعل، فإنك تستفيد بذلك فوائد، تكشفها لك الأيام.

ومات، وأنفذت وصيته، وعملت بما أشار به، وكنت أدخل السوق سحراً، وأخرج منها عشاءً، فلا أعدم أن يجيئني من يطلب كفنًا، فلا يجد أحداً قد فتح غيري، فأحكم عليه، ومن يبيع شيئاً، والسوق لم تقم، فأبيعه له، وأشياء من الفوائد.

ومضى على لزومي السوق سنة وكسر، فصار لي بذلك جاه عند أهلها، وعرفوا استقامتي، فأكرموني.

فبينما أنا جالس يوماً، ولم يتكامل السوق، إذا بامرأة راكبة حماراً مصرياً، وعلى كفله مندبل ديبقي، وخادم، وهي بزي القهرمانه.

فبلغت آخر السوق ثم رجعت، فنزلت عندي، فقمت إليها، وأكرمتها وقلن: ما تأمرين؟ وتأملتني فإذا بامرأة لم أر قبلها، ولا بعدها، إلى الآن، أحسن منها، في كل شيء. فقالت: أريد كذا ثياباً، طلبتها. فسمعت نغمة، ورأيت شكلاً قتلني، وعشقتها في الحال، أشدّ العشق.

فقلت: اصبري حتى يخرج الناس، فأخذ لك ذلك، فليس عندي إلا القليل مما يصلح لك. فأخرجت الذي عندي، وجلست تحادثني، والسكاكين في فؤادي من عشقها. وكشفت عن أنامل، رأيتها كالطلع، ووجه كدارة القمر.

فقمت لنأل يزيد عليّ الأمر، فأخذت لها من السوق ما أردت، وكان ثمنه مع ما لي نحو خمسمائة دينار، فأخذته، وركبت، ولم تعطني شيئاً.

وذهب عني، لما تداخني من حبها، أن أمنعها من أخذ المتاع إلا بأداء المال، أو أن أستدلّ على منزلها، ومن دار من هي؟
 فحين غابت عني، وقع لي أنها محتالة، وأنّ ذلك سبب فقري، فتحيّرت في أمري، وقامت قيامتي، وكتمت خبري لئلاّ افضح بما للناس عليّ.
 وعملت على بيع ما في يدي من المتاع، وإضافته إلى ما عندي من الدراهم، ودفع أموال الناس إليهم، ولزوم البيت، والاقتصار على غلّة العقار الذي ورثته عن أبي، ووطنت نفسي على المحنة، وأخذت أشرع في ذلك مدة أسبوع.
 وإذا هي قد نزلت عندي، فحين رأيتها، أنسيت جميع ما جرى عليّ، وقمت إليها.
 فقالت: يا فتى، تأخرنا عنك، لشغل عرض لنا، وما شككنا في أنّك لم تشكّ أننا احتلنا عليك.

فقلت: قد رفع الله قدرك عن هذا.

فقلت: هات التخت والطيّار، فأحضرتها.
 فأخرجت دنانير عتقاً، فوفتني المال بأسره. وأخرجت تذكرة بأشياء أُخر.
 فأنفذت إلى التجّار أموالهم، وطلبت منهم ما أرادت، وحصلت أنا في الوسط ربحاً جيداً.
 وأحضر التجّار الثياب، ففقت وثمرتها معمّ لنفسي، ثم بعناها عليها بربح عظيم.
 وأنا في خلال ذلك أنظر إليها نظر تالف من حبها، وهي تنظر إليّ، نظر من قد فطن لذلك، ولم تنكره، فهملت بخطابها، ولم أقدم.
 فاجتمع المتاع، وكان ثمنه ألف دينار، فأخذته، وركبت، ولم أسألها عن موضعها.
 فلما غابت عني، قلت: هذا الآن، هو الحيلة المحكمة، أعطتني خمسة آلاف درهم، وأخذت ألف دينار، وليس إلاّ بيع عقاري الآن، والحصول على الفقر المدقع، ثم سمحت نفسي برويتها مع الفقر.
 وتناولت غيببتها نحو شهر، وألح عليّ التجّار في المطالبة، فعرضت عقاري على البيع، ولازمي بعض التجّار، فوزنت جميع ما أملكه، ورقاً وعيناً
 فأنا كذلك، إذ نزلت عندي، فزال عني جميع ما كنت فيه برويتها، فاستدعت الطيّار والتخت، فوزنت المال، ورمت إليّ تذكرة يزيد ما فيها على ألفي دينار بكثير.
 فتشاغلت بإحضار التجّار، ودفع أموالهم، وأخذ المتاع منهم، وطال الحديث بيننا، فقالت:
 يا فتى، لك زوجة؟

فقلت: لا، والله، ما عرفت امرأة قط.

وأطمعني ذلك فيها، وقلت: هذا وقت خطبها والإمساك عنها عجز، ولعلّها لا تعود.

وأردت كلامها فهبتها، وقمت كأنني أحتّ التجار على جمع المتاع، وأخذت يد الخادم، وأخرجت له دنائير، وسألته أن يأخذها، ويقضي لي حاجة.
 فقال: أفعل، وأبلغ محبتك، ولا آخذ شيئاً.
 فقصصت عليه قصتي، وسألته توسط الأمر بيني وبينها.
 فضحك، وقال: إنها لك أعشق منك لها، ووالله ما بها حاجة إلى أكثر هذا الذي تشتريه، وإنما تجيئك محبة لك، وتطريقاً إلى مطاولتك، فخطبها بظرف، ودعني، فأني أفرغ لك من الأمر.

فجسرتني بذلك عليها، فخطبته، وكشفت لها عشقي، ومحبتني، وبكيت.
 فضحكت، وتقبلت ذلك أحسن تقبل، وقالت: الخادم يجيئك برسالتي.
 ونهضت، ولم تأخذ شيئاً من المتاع، فرددته على الناس، وقد حصل لي ممّا اشتريته أولاً
 ثانياً، ألوف دراهم ربحاً.

ولم يحملني النوم تلك الليلة، شوقاً إليها، وخوفاً من انقطاع السبب.
 فلما كان بعد أيام جاعني الخادم، فأكرمته، وسألته عن خبرها.
 فقال: هي والله عليلة من شوقها إليك.
 فقلت: اشرح لي أمرها.

فأقلت: هي مملوكة السيدة أم المقتدر، وهي من أخص جواربها بها، واشتهت رؤية الناس، والدخول، والخروج، فتوصلت حتى جعلتها قهرمانة، وقد والله حدثت السيدة بحديثك، وبكت بين يديها، وسألته أن تزوجها منك.
 فأقلت السيدة: لا أفعل، أو أرى هذا الرجل، فإن كان يستأهلك، وألا لم أدعك ورأيك.
 ويحتاج إلى إدخالك الدار بحيلة، فإن تمت، وصلت بها إلى تزويجها، وإن انكشفت ضرب عنقك.

وقد أنفذتني إليك في هذه الرسالة، وهي تقول لك: إن صبرت على هذا، وإلا فلا طريق لك والله إليّ، ولا لي إليك بعدها.
 فحملني ما في نفسي أن قلت: أصبر.

فقال: إذا كان الليل، فاعبر إلى المخرم، فادخل إلى المسجد، وبت فيه، ففعلت.
 فلما كان السحر، إذا أنا بطيار قد قدم، وخدم قد رقوا صناديق فرغ، فحطوها في المسجد، وانصرفوا.

وخرجت الجارية، فصعدت إلى المسجد، ومعها الخادم الذي أعرفه، فجلست، وفرقت باقي الخدم في حوائج.

واستدعنتني، فقبلتني، وعانقتني طويلاً، ولم أكن نلت قبل ذلك منها قبلة.

ثم أجلسني في بعض الصناديق، وأقفلته.
 وطلعت الشمس، وجاء الخدم بثياب وحوائح، من المواضع التي كانت أنفذتهم إليها،
 فجعلت ذلك بحضرتهم في باقي الصناديق، ونقلتها وحملتها إلى الطيار، وانحدروا.
 فلما حصلت فيه، ندمت، وقلت: قتلت نفسي لشهوة، وأقبلت ألومها تارة، وأشجعها
 أخرى، وأنذر النذور على خلاصي، وأوطن نفسي مرة على القتل.
 إلى أن بلغنا الدار، وحمل الخدم الصناديق، وحمل صندوقي، الخادم الذي يعرف
 الحديث، وبادرت بصندوقي أمام الصناديق وهي معه، والخدم يحملون الباقي، ويلحقونها.
 فكل ما جازت بطبقة من الخدم والبوابين قالوا: نريد تفتيش الصندوق، فتصيح عليهم،
 وتقول: متى جرى الرسم معي بهذا؟ فيمسكون، وروحي في السياق.
 إلى أن انتهت إلى خادم خاطبته هي بالأستاذ، فعلمت أنه أجل الخدم.
 فقال: لا بدّ من تفتيش الصندوق الذي معك، فخطابته بلين وذل فلم يجبها، وعلمت أنها

ما دلت له ولها حيلة، وأغمي عليّ. الحقوق محفوظة
 وأنزل الصندوق للفتح، فذهب عليّ أمري وبلت فزعاً، فجرى البول في خلل الصندوق.
 فصاحت: يا أستاذ أهلكت علينا متاعاً بخمسة آلاف دينار في الصندوق، وثياباً مصبغات،
 وماء ورد قد انقلبت على الثياب، والساعة تختلط ألوانها، وهو هلاكي مع السيدة.
 فقال لها: خذي صندوقك إلى لعنة الله، أنت وهو، ومري.
 فصاحت بالخدم: املوه، وأدخلت الدار، فرجعت إليّ روحي. فبينما نحن نمشي إذ قالت:
 ويلاه، الخليفة، والله.

فجاءني أعظم من الأول، وسمعت كلام خدم وجواري، وهو يقول من بينهم: ويلك يا
 فلانة أيش في صندوقك؟ أريني هو؟
 فقالت: ثياب لستي يامولاي، والساعة أفتحه بين يديها، وتراه.
 وقالت للخدم: أسرعوا ويلكم، فأسرعوا.
 وأدخلتني إلى حجرة، وفتحت عني، وقالت: اصعد تلك الدرجة، إلى الغرف، واجلس
 فيها، وفتحت بالعجلة، صندوقاً آخر، فنقلت بعض ما كان فيه إلى الصندوق الذي كنت فيه،
 وقلت الجميع.

وجاء المقتدر وقال لها: افتحي، ففتحته، فلم يرض منه شيئاً، وخرج.
 فصعدت إليّ، وجعلت ترشفتني، وتقبّلني، فعشت، ونسيت ما جرى.
 وتركتني، وقلت باب الحجرة يومها، ثم جاءتني ليلاً، فأطعمتني، وسقّنتني، وانصرفت.
 فلما كان من غدٍ، جاءتني فقالت: السيدة، الساعة تجيء، فانظر كيف تخاطبها.
 ثم عادت بعد ساعة مع السيدة، فقالت: انزل، فنزلت.

فإذا بالسيدة جالسة على كرسي، وليس معها إلا وصيفتان، وصاحبتي فقبلت الأرض،
وقمت بين يديها،
فقلت: اجلس.

فقلت: أنا عبد السيدة وخدمها، وليس من محلي أن أجلس بحضرتها.
فتأملتني، وقالت: ما اخترت يا فلانة إلا حسن الوجه والأدب، ونهضت.
فجاءتني صاحبتني بعد ساعة، وقالت: أبشر، فقد أذنت لي والله في تزويجك، وما بقي
الآن عقبة إلا الخروج.
فقلت: يسلم الله.

فلما كان من الغد، حملتني في الصندوق، فخرجت كما دخلت، بعد مخاطرة أخرى،
وفزع نالني.

ونزلت في المسجد، ورجعت إلى منزلي، فتصدقت، وحمدت الله على السلامة.
فلما كان بعد أيام، جاءني الخادم، ومعه كيس فيه ثلاثة آلاف دينار عينا.
وقال: أمرتني ستي بإنفاذ هذا إليك من مالها، وقالت: تشتري به ثياباً، ومركوباً، وخدماً،
وتصلح به ظاهره، وتعال يوم الموكب إلى باب العامة، وقف حتى تُطلب، فقد وافقت الخليفة
على أن تزوجك بحضرتة.
فأجبت على رقعة كانت معه، وأخذت المال، واشتريت ما قالوا ببسير منه، وبقي الأكثر
عندي.

وركبت إلى باب العامة في يوم الموكب بزي حسن، وجاء الناس فدخلوا إلى الخليفة.
ووقفت إلى أن استدعيت، فدخلت، فإذا أنا بالمقتدر جالس، والقواد، والقضاة،
والهاشميون، فهبت المجلس، وعلمت كيف أسلم، وأقف، ففعلت.
فتقدم المقتدر إلى بعض القضاة الحاضرين، فخطب لي، وزوجني، وخرجت من
حضرتة.

فلما صرت في بعض الدهاليز، قريباً من الباب، عدل بي إلى دار عظيمة مفروشة،
بأنواع الفرش الفاخرة، وفيها من الآلات، والخدم، والأمتعة، والقماش، كل شيء لم أر مثله قط.
فأجلست فيها، وتركت وحدي، وانصرف من أدخلني.

فجلست يومي، لا أرى من أعرفه، ولم ابرح من موضعي إلا إلى الصلاة، وخدم
يدخلون ويخرجون، وطعام عظيم ينقل، وهم يقولون: الليلة تزف فلانة-اسم صاحبتني-إلى
زوجها البرّاز، فلا أصدق، فرحاً.

فلما جاء الليل، أثار فيّ الجوع، وأقفلت الأبواب، وبئست من الجارية، فقامت أطوف
الدار، فوقف على المطبخ، ووجدت الطباخين جلوساً فاستطعمتهم، فلم يعرفوني، وقدروني

بعض الوكلاء، فقدموا إليّ هذا اللون من الطبخ مع رغيفين، فأكلتهما، وغسلتُ يدي بأشنان كان في المطبخ، وقدّرت أنّها قد نقيت، وعدتُ إلى مكاني.

فلما جنّ الليل، إذا طبول، وزمور، وأصوات عظيمة، وإذا بالأبواب قد فتحت، وصاحبتي قد أهديت إليّ، وجاءوا بها، فجلوها عليّ، وأنا أقدر أن ذلك في النوم، فرحاً. وتركت معي في المجلس، وتفرّق الناس.

فلما خلونا، تقدّمت إليها فقبلتها، وقبلتني، فشمّت لحيّتي، فرفستني، فرمت بي عن المنصة، وقالت: أنكرت أن تفلح، يا عامي يا سفلة، وقامت لتخرج. فقمّت، وتعلّقت بها، وقبلت الأرض، ورجليها، وقلت: عرفيني ذنبي، واعلمي بعده ما شئت.

فقال: ويحك، أكلت فلم تغسل يدك.

فقصت عليها قصّتي، فلما بلغت إلى آخرها، قلت: علي وعليّ، وحلفت بطلاقها، وطلاق كل امرأة أتزوجها، وصدقة مالي، وجميع ما أملكه، والحج ماشياً على قدمي، والكفر بالله، وكل ما يحلف به المسلمون، لا أكلت بعدها ديكبريكة، إلا غسلت يدي أربعين مرة. فأشفت، وتبسمت، وصاحت: يا جواري، فجاء مقدار عشر جواري ووصائف. وقالت: هاتوا شيئاً نأكل.

فقدّمت ألوان طريفة، وطعام من أطعمة الخلفاء، فأكلنا، وغسلنا أيدينا.

ومضى الوصائف، ثم قمنا إلى الفراش، فدخلت بها، وبتّ بليلة من ليالي الخلفاء، ولم نفترق اسبوعاً.

وكانت يوم الاسبوع، وليمة هائلة، اجتمع فيها الجواري.

فلما كان من غد، قالت: إنّ دار الخلافة لا تحتل المقام فيها أكثر من هذا، فلولا أنّه استؤذن، فأذن بعد جهد، لما تمّ لنا هذا، لأنّه شيء لم يفعل قبل هذا مع جارية غيري، لمحبة سيدتي لي.

وجميع ما تراه، فهو هبة من السيدة لي، وقد أعطتني خمسين ألف دينار، من عين وورق، وجوهر ودنانير، وذخائر لي خارج القصر كثيرة من كل لون، وجميعها لك.

فأخرج إلى منزلك، وخذ معك مالاً، واشتر داراً سرية، واسعة الصحن، فيها بستان كثير الشجر، فاخر الموقع، وتحول إليها، وعرفني، لأنقل هذا كلّ إليك، فإذا حصل عندك، جئتك. وسلّمت إليّ عشرة آلاف دينار عيناً، فحملها الخادم معي.

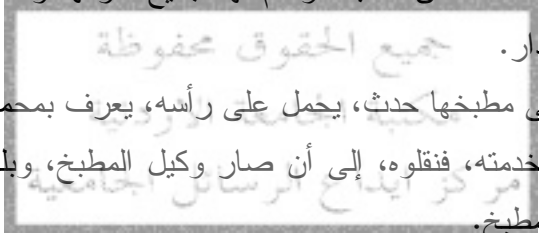
فابتعت الدار، وكتبت إليها بالخبر، فحملت إليّ تلك النعمة بأسرها، فجميع ما أنا فيه منها.

فأقامت عندي كذا وكذا سنة، أعيش معها عيش الخلفاء، ولم أدع مع ذلك التجارة.

فزاد مالي، وعظمت منزلتي، وأثرت حالي، وولدت لي هؤلاء الفتيان، وأوماً إلى أولاده، ثم ماتت رحمها الله.
وبقي عليّ من مضرة الديكبريكة حاضراً، ما شاهدهته⁽¹⁾

قصة (64) لماذا سمي زوج الحرة⁽²⁾

حدثنا القزاز، قال: أخبرنا الخطيب، قال: أخبرنا عليّ بن المحسن القاضي، قال: حدثني أبي، قال: حدثني الأمير أبو الفضل جعفر بن المكتفي بالله، قال: كانت بنت بدر مولى المعتضد، زوجة أمير المؤمنين المقتدر بالله، فأقامت عنده سنين، وكان لها مكرماً، وعليها مفضلاً الافضال العظيم، فتأثّلت حالها، وانضاف ذلك إلى عظيم نعمتها الموروثة.

وقتل المقتدر، فأفلتت من النكبة، وسلم لها جميع أموالها وذخائرها، حتى لم يذهب لها شيء، وخرجت من الدار.  وكان يدخل إلى مطبخها حدث، يحمل على رأسه، يعرف بمحمد بن جعفر، وكان حركاً، فنفق على القهرمانة بخدمته، فنقلوه، إلى أن صار وكيل المطبخ، وبلغها خبره، ورأته، فردت إليه الوكالة في غير المطبخ. وترقى أمره، حتى صار ينظر في ضياعها، وعقارها، وغلب عليها، حتى صارت تكلمه من وراء ستر، وخلف باب.

وزاد اختصاصه بها، حتى علق بقلبها، فاستدعته إلى تزويجها، فلم يجسر على ذلك، فجسّرت، وبذلت مالاً، حتى تمّ لها ذلك. وقد كانت حالته تأثّلت بها، وأعطته، لما أرادت ذلك منه، أموالاً جعلها لنفسه نعمة ظاهرة، لئلا يمنعها أولياؤها منه لفقره، وأنه ليس بكفءٍ، ثم هادت القضاة بهدايا جلييلة حتى زوجوها منه، واعترضها الأولياء، فغالبتهم بالحكم والdraهم، فتمّ له ذلك ولها. فأقام معها سنين، ثم ماتت، فحصل له من مالها، نحو ثلثمائة ألف دينار، فهو يتقلّب إلى الآن فيها.

قال أبي: قد رأيت أنا هذا الرجل، وهو شيخ عاقل، شاهد، مقبول، توصل بالمال إلى أن قبله أبو السائب القاضي، حتى أقرّ في يديه وقوف الحرة، ووصيتها، لأنها أوصت إليه في مالها ووقوفها، وهو إلا الآن، لا يعرف إلا بزواج الحرة.

(1) وقد وردت أيضاً في الفرج، ج 4، ص 358، مع استبدال الديكبريكة بالزيرباجة.

(2) التتوخي، النشوار، ج 5، ص 10.

وإنما سميت الحرة، لأجل تزويج المقتدر بها، وكذا عادة الخلفاء، لغلبة المماليك عليهم، إذا كانت لهم زوجة، قيل لها: زوج الحرة.

قصة (65) أشاع الدمع ما كنت أكرم⁽¹⁾

أخبرنا أبو القاسم علي بن المحسن بن علي التتوخي، فيما أجاز لنا، قال: أخبرنا أبو عمر محمد بن العباس بن حيوية الخزاز، قراءة عليه، قال: أخبرنا محمد بن خلف، إجازة، قال: حدثنا قاسم بن الحسن، قال: حدثنا العمري، قال: أخبرنا الهيثم بن عدي:

إن مرة بن مصعب القيسي كان له أخ يقال له فهر، وكانا ينزلان الحيرة وان فهراً ارتحل بأهله وولده، فنزل بأرض السراة، وأقام مرّة، بالحيرة، وكانت عنده مرّة، امرأة من بكر بن وائل، فلبثت معه زماناً لم يرزق منها ولدًا، حتى يبس من ذلك، ثم أتتني في منامه، ذات ليلة، فقيل له: إنك إن باشرت زوجتك، في ليلتك هذه، رأيت سروراً وغبطة، فانتبه، فباشرها، فحملت، فلم يزل مسروراً إلى أن تمت أيامها، فولدت له غلاماً، فسماه إياساً، لأنه كان آيساً، فنشأ الغلام منشأً حسناً.

فلما ترعرع، ضمّه أبوه إليه، وأشركه في أمره، وكان إذا سافر أخرجه معه، لقلّة صبره عنه.

فقال له أبوه يوماً: يا بني، قد كبرت سني، وكنت أرجوك لمثل هذا اليوم، ولي إلى عمك حاجة، فأحب أن تشخص فيها.

فقال له إياس: نعم يا أبة، ونعم عين وكرامة، فإذا شئت، أخبرني بحاجتك فأعلمه الحاجة، فخرج متوجهاً حتى أتى عمّه، فعظم سروره به، وسأله عن سبب قدمه، وما الحاجة، فاخبره بها، ووعدّه بقضائها، فأقام عند عمّه أياماً ينتظر فيها قضاء الحاجة.

وكان لعمّه بنت يقال لها صفوة، ذات جمال وعقل، فبينما هو ذات يوم جالس بفناء دارهم، إذ بدت له صفوة، زائرة بعض أخواتها، وهي تهادى بين جوار لها، فنظر لها إياس نظرة، وأورثت قلبه حسرة، وظل نهاره ساهياً، وبات وقد اعتكرت عليه الأحزان، ينتظر الصباح، يرجو أن يكون فيه النجاح.

فلما بدا له الصباح، خرج في طلبها ينتظر رجوعها، فلم يلبث أن بدت له، فلما نظرت إليه تتكرت، ثم مضت فأسرعت، فمرّ يسعى خلفها، يأمل منها نظرة، فلم يصل إليها، وفانتته، فانصرف إلى منزله، وقد تضاعف عليه الحزن، واشتد الوجد.

فلبث أياماً، وهو على حاله، إلى أن أعقبه ذلك مرضاً أضناه، وأنحل جسمه، وظلّ صريعاً على الفراش.

فلما طال به سقمه، وتخوّف على نفسه، بعث إلى عمه لينظر إليه، ويوصيه بما يريد، فلما رآه عمّه، ونظر إلى ما به، سبقته العبرة إشفاقاً، عليه.

فقال له إياس: كفّ، جعلت فداك يا عمّ، فقد أفرحت قلبي، فكفّ عن بعض بكائه، فشكا إليه إياس ما يجد من العلة، فقال له: عزّ والله، علي يا ابن أخي، ولن أدع حيلة في طلب الشفاء لك.

فانصرف إلى منزله، وأرسل إلى مولاة له، كانت ذات عقل، فأوصاها به، وبالتعاهد له، والقيام عليه.

فلما دخلت المولاة عليه، فتأمّلته، علمت أنّ الذي به عشق، فقعدت عند رأسه، فأجرت ذكر صفوة، لتستيقن ما عنده، فلما سمع ذكرها زفر زفرة، فقالت المرأة: والله، ما زفر إلا من هوى داخله، ولا أظنه إلا عاشقاً.

فأقبلت عليه كالممازحة له، فقال له: حتى متى تبلي جسمك، فوالله ما أظن الذي بك إلا هوى.

فقال لها إياس: يا أمه، لقد ظننت بي ظن سوء، فكفي عن مزاحك.

فقالت: إنك، والله، لن تبديه إلى أحد هو أكرم له من قلبي، فلم تزل تعطيه الموائيق، وتقسم عليه، إلى أن قالت له: بحق صفوة.

فقال لها: لقد أقسمت عليّ بعظيم لو سألتني به روعي لدفعتها إليك، ثم قال: والله يا أمه، ما عظم دائي، إلا بالاسم الذي أقسمت عليّ بحقه، فوالله، الله، في كتمانها، وطلب وجه الحيلة فيه. فقالت: أما إذا أطلعتني عليه، فسأبلغ فيه رضاك، إن شاء الله.

فسر بذلك، وأرسل معها بالسلام إلى صفوة، فلما دخلت عليها، ابتدأتها صفوة بالمسألة عن الذي بلغها من مرضه، وشدة حاله، فاستبشرت المولاة بذلك.

ثم قالت: يا صفوة، ما حالة من يبببب الليل ساهراً محزوناً يرعى النجوم ويتمنى الموت؟

فقالت صفوة: ما أظن هذا على ما ذكرت بباق، وما أسرع منه الفراق.

ثم أقبلت على المولاة، فقالت: إني أريد أن سألك عن شيء، فبحقي عليك لما أوضحتها.

فقالت: وحقك، إن عرفته فلا أكتمك شيئاً.

قالت: هل أرسلك إياس إلى أحد من أهل ودّه في حاجة؟

فقالت المولاة: والله لأصدقنك، والله، ما جلّ داؤه، وعظم بلاؤه إلا بك، وما أرسلني

بالسلام، إلا إليك، فأجيبه إن شئت، أو دعي.

فقالت لا شفاء الله، والله لولا ما وجب من حقدك لأسأت إليك، وزجرتها.

فخرجت من عندها كئيبة، فأنته، فأعلمته، فازداد على ما كان به من مرضه، وأنشأ يقول:

كتمت الهوى حتى إذا شبّ واستوت قواه أشاع الدمع ما كنت أكنتم
فلما رأيت الدمع قد أعلن الهوى خلعت عذاري فيه والخلع أسلم
فيا ويح نفسي كيف صبري على الهوى وقلبي وروحي عند من ليس يرحم
قال: ثم إنَّ عمه دخل عليه ليعرف خبره، فقال له، يا عم، إني مخبرك بشيء لم أخبرك به حتى
برح الخلفاء ولم أطق له محملاً.
فأخبره الخبر، فزوجه إياها، فأفاق، وبرء من علته.

قصة (66) امرأة من أهل النار⁽¹⁾

أنبأنا محمد بن عبد الباقي البزاز، قال: أنبأنا أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي، عن أبيه، قال: حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن سعيد النصيبي، قال: حدثني أبو الحسن بن نجیح، قال: حدثني رجل مستور، كان لي صديقاً، وكان ينزل بقرب مقابر الخيزران ببغداد، قال:

رأيت ليلة في منامي، كأنني قد أطلعت من داري إلى المقبرة، على رسمي في ذلك من اليقظة، فإذا أنا بالقبور مفتحة، وأهلها يخرجون منها شعثاً، غبراً، حفاة، عراة، فيجتمعون في موضع منها، حتى لم يبق قبر إلا أخرج من كان فيه، ثم ضجوا بالبكاء، والدعاء، والابتهال إلى الله تعالى في أن يصرف عنهم دفن المرأة التي تدفن عندهم في غد.

فكأنني قد سألت بعضهم، فقال: هذه امرأة من أهل النار، وإن دفنت عندنا، تأذينا بسمع عذابها، وما يجري عليها، فنحن نسأل الله صرف دفنها عنا.

قال: فانتهيت، فعجبت من هذا عجباً شديداً، وطال الليل بي، فلما أصبحت، سألت الحفارين، هل حفروا قبراً لامرأة؟ فدلني بعضهم على قبة عظيمة، لقوم من التجار مياسير، قد ماتت زوجة أحدهم، ويريد دفنها في القبر، وقد حفر لها.

قال: فقصصت الرؤيا على الحفارين، فطموا القبر في الحال، وراعت أمر المرأة، فجاء رسل القوم، يسألون عن القبر، فقال الحفارون: إنَّ الموضع، ليس يتأتى فيه قبر، لأننا قد وقعنا على حماة تحت الأرض، لا يثبت فيها ميت.

(1) التنوخي، النشوار، ج5، ص122.

فسألوا جماعة من أصحاب القباب، أن يحفروا عندهم، فأبوا عليهم، وكان الخبر قد انتشر بين الحفارين واشتهر، فمضوا إلى مقبرة أخرى، فحفروا للمرأة. فاستدلت على الموضع الذي تخرج منه الجنازة، فدلت، فحضرت، وشيئت الجنازة، وكان الجمع عظيماً هائلاً، والرجل جليلاً، ورأيت خلف الجنازة فتى ملتحيًا حسن الوجه، ذكر انه ابن المرأة، وهو يعزى وأبوه، وهما وقيدان بالمصيبة. فلما دفنت المرأة تقدّمت إليهما، فقلت: إني رأيت مناماً في أمر هذه المتوفاة، فإن أحببتما، قصصته عليكما.

فقال الشيخ الذي هو زوج المتوفاة: أمّا أنا فما أحبّ ذلك.

فأقبل الفتى، فقال: إن رأيت أن تفعل.

فقلت: تخلو معي، فقام.

فقلت: إن الرؤيا عظيمة، فاحتملني.

قال: قل.

فقصصت عليه الرؤيا، وقلت: يجب لك أن تتظر في هذا الأمر الذي أوجب من الله لهذه المرأة، ما ذكرته لك، فتجنبت مثله، وإن جاز أن تعرفنيه لأجتنب مثله، فافعل. فقال والله يا أخي، ما أعرف من حال أمي ما يوجب هذا، أكثر من أن أمي كانت تشرب النبيذ، وتسمع الغناء، وترمي بالنساء، وما يوجب هذا، هذا الأمر العظيم، ولكن في دارنا عجوز لها نحو تسعين سنة، هي دايتها، وماشطتها، فإن نشطت، صرت معي، فسألناها، فلعلها تخبرنا بما يوجب هذا، فنجتبه.

فقمتم معه، فقصدنا الدار التي كانت للمتوفاة، فأدخلني إلى غرفة فيها، وإذا بعجوز فانية، فخطبها بما جرى، وقصصت أنا عليها الرؤيا.

فقالت: اسأل الله أن يغفر لها، كانت مسرفة على نفسها جداً.

فقال لها الفتى: يا أمي، بأكثر من الشراب، والسماع، والنساء؟

فقالت نعم يا بني، ولولا أن أسوءك لأخبرتك بما أعلم، فإنّ هذا الذي رآه هذا الرجل، قليل من كثير مما أخاف عليها من العذاب.

فقال الفتى: أحب أن تخبرني، ورفقت أنا بالعجوز، فقلت: أخبرنا، لنجتبه ونتعظ به.

فقالت: إن أخبرتكم بجميع ما أعرفه منها، ومن نفسي معها، طال، وبكت، وقالت: أما

أنا، فقد علم الله أنني تائبة منذ سنين، وقد كنت أرجو لها التوبة، فما فعلت، ولكن أخبركم بثلاثة أحوال من أفعالها، وهي عندي اعظم ذنوبها.

فقلنا: قولي.

فقال للفتى: كانت من أشد الناس زنى، وما كان يمضي يوم، إلا وتدخل إلى دار أبيك، بغير علمه، الرجل والرجلين، فيطأونها، ويخرجون، ويكون دخولهم، بألوان كثيرة من الحيل، وأبوك في سوقه.

فلما نشأت أنت، وبلغت مبلغ الرجال، خرجت في نهاية الملاحه، فكنت أراها تنظر إليك نظر شهوة، فأعجب من ذلك.

إلى أن قالت لي يوماً، يا أمي، قد غلب على قلبي، عشق أبني هذا، ولا بد لي أن يطأني.

فقلت لها: يا بنتي اتقي الله، ولك في الرجال غيره متسع؟

فقلت: لا بد من ذلك فقلت: كيف يكون هذا؟ أو كيف يجيئك وهو صبي وتفنضمين ولا تصلين الى بغيتك فدعي هذا الله عز وجل فقلت: لا بد أن تساعديني.

فقلت: أعمل ماذا؟

فقلت: تمضين إلى فلان المعلم، وكان معلماً في جوارنا، أديباً، ورسمه أن يكتب لها

رقاعاً إلى عشاقها، ويحيب عنها، فتبره، وتعطيه في كل وقت.

فقلت: قولي له، يكتب إليه رقعة، يذكر فيها عشقاً، وشغفاً، ووجداً، ويسأله

الاجتماع، وأوصلي الرقعة، كأنها من فلانة، وذكرت صبية من الجيران، مليحة.

قالت العجوز: ففعلت ذلك، وأخذت الرقعة وجئتك بها، فلما سمعت ذكر الصبية، التهب

قلبك ناراً، وأجبت عن الرقعة تسألها الاجتماع عندها، وتذكر أن لا موضع لك.

فسلمت الجواب إلى والدتك.

فقلت: اکتبي إليه عن الصبيّة، أن لا موضع لها، وإن سبيل هذا أن يكون عنده، فإن قال

لك: ليس لي موضع، فأعدّي له الغرفة الفلانية، وافرشيها، واجعلي فيها الطيب والفاكهة، وقولي

له: إنها صبيّة، وهو ذا تستحي، ولكن عشقك قد غلب، وهي تجيئك إلى هاهنا ليلاً، ولا يكون

بين أيديكما ضوء، حتى لا تستحي هي، ولا تظن والدتك بالحديث، ولا أبوك، إذا رأوا في

الغرفة ضوء سراج، فإذا أجابك إلى هذا فأعلميني.

قالت: ففعلت ذلك، وأجبت أنت إلى هذا، وتقرّر الوعد ليلة بعينها، وأعلمتها، فلبست

ثياباً، وتبخّرت، وتطيّبت، وتعطّرت، وصعدت إلى الغرفة، وجئت أنت، وعندك أنّ الصبية

هناك، فوقع عليها، وجامعتها إلى الغداة، فلما كان وقت السحر، جئت أنا، وأيقظتها وأنزلتها،

وأنت نائم، وكان صعودها إليك، بعد أن نام أبوك.

فلما كان بعد أيام، قالت لي: يا أمي، قد والله، حبلت من ابني، فكيف الحيلة؟

فقلت: لا أدري.

فقلت: أنا أدري، ثم كانت تجتمع معك على سبيل الحيلة التي عرفتك، إلى أن قاربت

الولادة.

فقال لأبيك: إنها عليّة، وقد خافت على نفسها التالف، وإنّها تريد أن تمضي إلى بيت أمّها فتعلّل هناك.

فأذن لها، ومضت، وقالت لأمها: إنها عليّة، فأدخلت، وأنا معها، في حجرة من دارها، وجئنا بقبالة، فلما ولدت، قتلت ولدها، وأخرجته، فدفتته، على حيلة وستر، وأقامت أياماً، وعادت إلى منزلها.

فقال لي بعد أيام: أريد ابني.

فقلت: ويحك، ما كفاك ما مضى؟

فقلت: لا بدّ، فجنّتك على تلك الحيلة بعينها.

فقال لي، من غد: قد والله حبّلت، وهذا والله، سبب موتي، وفضيحتي، وأقامت تجتمع معك، على سبيل الحيلة، إلى أن قاربت الولادة، فمضت إلى أمها، وعملت كما عملت، فولدت بنتاً مليحة، فلم تطب نفسي بقتلها، وأخذتها منها ليلاً، فأخرجتها إلى قوم ضعفاء، لهم مولود، فسلمتها إليهم، وأعطيتهم من مال أبيك دراهم كثيرة، وواقفتهم على إرضاعها، والقيام بها، وأن أعطيتهم في كل شهر شيئاً بعينه، وكانت تنفذه إليهم في كل شهر، وتعطيهم ضعفه، حتى تدلّ الصبية، وتوفد إليها الثياب الناعمة، فنشأت في دلال ونعمة، وهي تراها في كل يوم إذا اشتاقتها. وخطب أبوك عليك من النساء، فتزوجت بزواجك الفلانية، فانقطع ما بينك وبينها، وهي من أشد الناس عشقاً لك، وغيره عليك من إمرأتك، ولا حيلة لها فيك.

حتى بلغت الصبية تسع سنين، فأظهرت أنّها مملوكة، قد اشترتها ونقلتها إلى دارها، لتراها كل وقت، لشدة محبتها لها، والصبية لا تعلم أنّها ابنتها، وسمتها باسم المماليك. ونشأت الصبية، من أحسن الناس وجهاً، فعلمتها الغناء بالعود، فبرعت فيه، وبلغت مبلغ النساء.

فقال لي يوماً: يا أمي، هو ذا ترين شغفي بابنتي هذه، وأنّه لا يعلم أنّها ابنتي غيرك، ولا أقدر على إظهار أمرها، وقد بلغت حدّاً، إن لم أعلقها برجل، خفت أن تخرج عن يدي، وتلتمس الرجال، أو تلتمس البيع، إذ تظنّ أنّها مملوكة، وإن منعتها، تنصّ عيشها وعيشي، وإن بعثها، وفارقتها، تلفت نفسي عليها، وقد فكرت في أن أصلها بابني.

فقلت: يا هذه، أتقي الله، يكفيك ما مضى.

فقلت: لا بدّ من ذلك.

فقلت: وكيف يتمّ هذا الأمر.

قالت: امضي، واكتبي رقعة، تذكرين فيها، عشقاً وگراماً، وامضي بها إلى زوجة ابني، وقولي لها إنها من فلان الجندي جارنا - وذكرت غلاماً حين بقل عذاره، في نهاية الحسن، قد كانت تعشقه، ويعشقه - وارقي بها، واحتالي حتى تأخذي جوابها إليه.

ف فعلت، فلحقني من زوجتك، امتهان، وطرد، واستخفاف، فترددت إليها، وما زلت بها حتى درّمتها، فقرأت الرقعة، وأجابت عنها بخطها.
 وجئت بالجواب إلى أمك، فأخذته، ومضت به إلى أبيك، فشنت عليها، وألقت بينها وبين أبيها وأبيك وبين أمها شرّاً كُنّا فيه شهوراً، إلى أن انتهى الأمر.
 إلى أن طالبك أبوك بتطليق زوجتك، أو الانتقال عنه، وأن يهجرك طول عمره، وبذل لك وزن الصداق من ماله، فأطعت أبويك، وطلّقت المرأة، ووزن أبوك الصداق.
 ولحقك غمّ شديد، وبكاء، وامتناع عن الطعام، فجاءت أمك، وقالت لك: لم تغتم على هذه القحبة؟ أنا أهب لك جاريتي المغنّية، وهي أحسن منها، وهي بكر وصالحة، وتلك تيب فاجرة، وأجلوها عليك كما يفعل بالحرائر، وأجهّزها من مالي ومال أبيك، بأحسن من الجهاز الذي نقل إليك.

فلما سمعت ذلك، زال غمّك، وأجبتها، فوافقت على ذلك، وأصلحت الجهاز، وصاغت الحلي، وجلتها عليك، فأولدتها أولادك هؤلاء، وهي الآن قعيدة بيتك.
 فهذا باب واحد ممّا أعرّفه من أمك.
 وباب آخر، وبدأت تحدّث، فقال: حسبي، حسبي، اقطعي، لا تقولي شيئاً، لعن الله تلك المرأة، ولا رحمها، ولعنك معها، وقام يستغفر الله، ويبكي ويقول: خرب والله بيتي، واحتجت إلى مفارقة أمّ أولادي.
 وأخذ بيدي، وقمت، وفي قلبي حسرة، كيف لم أسمع باقي ما أرادت العجوز أن تحدّثنا به.

قصة (67) شقيقان عشيقان⁽¹⁾

أنبأنا محمد بن عبد الباقي البزاز، قال: أنبأنا أبو القاسم علي بن المحسن التتوخي، عن أبيه، قال: حدّثني إبراهيم بن علي النصيبي، قال: حدّثني أبو بكر النحوي، قال: حدّثني أبو علي بن فتح، قال: حدّثني أبي، قال:
 كنت سنة من السنين جالساً في دربي، إذ دخل شاب حسن الوجه والهيئة، وعليه أثر نعمة، فسأل عن دار فارغة في الدرب يكتريها، وكان أكثر الدرب لي.
 فقامت معه إلى دار فيه كبيرة حسنة فارغة، فأريته إياها، فاستحسنها، ووزن لي أجرتها لشهر، وأخذ المفتاح.

(1) التتوخي، النشوار، ج5، ص129.

فلما كان من غد، جاء ومعه غلام، ففتحا الباب، وكنس الغلام الدار، ورش، وجلس هو، ومضى الغلام، وعاد بعد العصر، ومعه عدة حمالين وامرأة، فدخلوا الدار، وأغلق الباب، فما سمعنا لهم حركة.

وخرج الغلام قبل العشاء، وبقي الرجل والمرأة في الدار، فما فتحا الباب أياماً. ثم خرج إليّ في اليوم الرابع، فقلت: ويحك، ما لك؟ فأوما إليّ أنه مستتر من دين عليه، وسألني أن أندب له رجلاً، يبتاع له كل يوم ما يريده، دفعة واحدة، ففعلت.

فكان يخرج في كل اسبوع، فيزن دراهم كثيرة، فيعطيها للغلام الذي نصبته له، ليشتري له بها ما يكفيه لطول تلك الأيام، من الخبز، واللحم والفاكهة، والنبيد، والأبقال، ويصب الماء في الحباب الكثيرة، التي قد أعدّها لتلك الأيام، ولا يفتح الباب، أو ينقضي ذلك الزاد. فكان على هذا سنة، لا يجيء إليه أحد، ولا يخرج من عنده أحد، ولا أراه أنا، ولا

غيري.

إلى أن جاء ليلة، في وقت المغرب، فدق بابي، فخرجت، فقلت ما لك؟ فقال: اعلم أن زوجتي قد ضربها الطلق، فأغثني بقبالة.

وكان في داري قابلة لأم أولادي، فحملتها إليه، فأقامت عنده ليلتها، فلما كان في الغد جاعتني، فذكرت أن امرأته ولدت في الليل بنتاً، وأنها أصلحت أمورها، وأن النفساء في حالة التلف، وعادت إليها.

فلما كان في وقت الظهر، ماتت الجارية، فجاءت القابلة، فأخبرتنا.

فقال: الله الله أن تجيئي امرأة، أو يلطم أحد، أو يجيء أحد من الجيران فيعزيني، أو يصير لي جمع.

ففعلت ذلك، ووجدته من البكاء والشهيق على أمر عظيم.

فأحضرت له الجنازة بين العشائين، وقد كنت أنفذت من حفر قبراً، في مقبرة قريبة منّا، فانصرف الحفارون لما أمسوا، وقد كان واقفني على صرفهم، وقال: لا أريد أن يراني أحد، وأنا وأنت نحمل الجنازة، إن تفضّلت بذلك، ورغبت في الثواب، فاستحييت، وقلت له: أفعّل.

فلما قربت العتمة، خرجت إليه، وقلت له: تخرج الجنازة؟

فقال: تتفضّل أولاً، وتنقل هذه الصبية إلى دارك على شرط.

قلت: وما هو؟

قال: إن نفسي لا تطيق الجلوس في هذه الدار بعد صاحبتني، ولا المقام في البلد، ومعني مال عظيم وقماش، فتتفضّل بأخذه، وتأخذ الصبية، وتنفق عليها من ذلك المال، ومن أثمان الأمتعة، إلى أن تكبر الصبية، فإن ماتت وقد بقي منه شيء، فهو لك بارك الله لك فيه، وإن

عاشت فهو يكفيها إلى أن تبلغ مبلغ النساء، فحينئذ تدبّر أمرها بما ترى، وأنا أمضي بعد الدفن، فأخرج من البلدة.

فوعظته، وثبته، فلم يكن إلى ذلك سبيل.

فنقلت الصبية إلى بيتي، وحمل الجنازة وأنا معه أساعده.

فلما صرنا على شفير القبر، قال لي: تتفضل وتبتعد، فإني أريد أن أودعها فأكشف وجهها، فأراه، ثم أدفنها.

ف فعلت، فحلّ وجهها، وأكبّ عليها يقبلها، ثم شدّ كفنها، وأنزلها القبر.

ثم سمعت صيحة من القبر، ففزعت، فجنّت، فاطلعت، فإذا هو قد أخرج سيفاً كان معلّقاً تحت ثيابه، مجرداً، وأنا لا أعلم، فاتكأ عليه، فدخل في فواده، وخرج من ظهره، وصاح تلك الصيحة، ومات، كأنه ميت من ألف سنة.

ف عجبت من ذلك عجباً شديداً، وخفت أن يدرك، فيصير قصة، فأضجعتة فوقها في اللحد، وغيّبت عليهما اللين، وهلت التراب، وأحكمت أمر القبر، وصببت عليه جرار ماء كانت لنا في المكان.

وعدت، فنقلت كل ما كان في الدار، إلى داري، وعزلته في بيت، وختمته، وقلت: هذا أمر لا بدّ أن تظهر له عاقبة، وما ينبغي أن أمسّ من هذا المال والمتاع شيئاً، وكان جليلاً، يساوي ألوف دنائير، وأحتسب النفقة على هذه الطفلة، وأعدّها ملقوطة من الطريق، ربّيتها للثواب.

ف فعلت ذلك، فمضى على موت الغلام والجارية، نحو سنة.

فإني لجالس على بابي يوماً، إذ اجتاز شيخ عليه أثر النبل واليسار، وتحتة بغلة فارهة، وبين يديه، غلام أسود، فسلم، ووقف.

وقال: ما اسم هذا الدرب؟

فقلت: درب فتح.

فقال: أنت من أهل الدرب؟

قلت: نعم.

قال: منذ كم سكنته؟

قلت: منذ نشأت، وإليّ ينسب، وأكثره لي.

فثنى رجله، ونزل.

فقمّت إليه، وأكرمته، فجلس تجاهي، يحادثني، وقال: لي حاجة.

فقلت: قل.

فقال: أتعرف في هذه الناحية، إنساناً وافي منذ سنتين، شاب من حاله، وصفته، فوصف الغلام، واكثرى هاهنا داراً؟

فقلت: نعم.

قال: وما كانت قصته، وإلى أي شيء انتهى أمره؟

فقلت: ومن أنت منه حتى أخبرك؟

قال: تخبرني.

قلت: لا أفعل، أو تصدقني.

فقال: أنا أبوه.

فقصت عليه القصة، على أتمّ شرح.

فأجش بالبكاء، وقال: مصيبي أنني لا أقدر أن أترحم عليه.

فقدرته يومئ إلى قتل نفسه، فقلت: لعله ذهب عقله، فقتل نفسه.

فبكي، وقال: ليس هذا أردت، فأين الطفلة؟

فقلت: عندي، هي والمتاع.

فقال: تعطيني الطفلة.

فقلت: لا أفعل، أو تصدقني.

فقال: تعطيني.

فقلت: أقسم عليك بالله، إلا فعلت.

فقال: يا أخي، مصائب الدنيا كثيرة، ومنها: أنّ ابني هذا نشأ، فأدبته، وعلمته، ونشأت له

أخت، لم يكن ببغداد أحسن منها، وكانت أصغر سنّاً منه، فعشقتها، وعشقتة، ونحن لا نعلم.

ثم ظهر أمرهما، فزجرتهما، وأنكرت عليهما، وانتهى الأمر إلى أن افترعها.

فبلغني ذلك، فضربته بالمقارع وإياها، وكتمت خبرهما لئلاً أفتضح، ففرقت بينهما،

وحجرت عليهما، وشدّدت عليهما أمهما مثل تشديدي، فكانا يجتمعان على حيلة، كالغربيين.

فبلغنا ذلك فأخرجت الغلام من الدار، وقيدت الجارية، فكانا على ذلك شهوراً كثيرة.

وكان يخدمني غلام لي كالولد، فتمت لولدي عليّ حيلة به، فكان يترسل بينهما، حتى

أخذوا مني مالاً جليلاً، وقماشاً كثيراً، وهربوا منذ سنتين، وعملوا لأخذ ذلك، والهرب، حيلة

طويلة الشرح، فلم أقف لهم على خبر، وهان عليّ فقد المال لبعدهما، فاسترحت منهما، إلا أن

نفسي كانت تحنّ إليهما.

فبلغني أنّ الغلام في بعض السكك منذ أيام، فكبست عليه الدار، فصعد إلى السطح.

فقلت له: بالله عليك يا فلان، ما فعل ولدائي؟ فقد قتلني الشوق إليهما، وأنت آمن.

فقال لي: عليك بدرب فتح، في الجانب الغربي، فسل عنهما هناك، ورمى نفسه إلى سطح آخر، وهرب، وأنا أعرف بفلان، من مياسير التجار بالجانب الشرقي، وأخذ يبكي. وقال: تقفني على القبر.

فجئت به حتى وقفته على القبر، ثم جاء فأدخلته داري، فأريته الصبيّة فجعل يترسّفها ويبكي، وأخذها ونهض.

فقلت: مكانك، انقل متاعك.

فقال: أنت في حلّ منه وسعة.

فما زلت أداريه، إلى أن علقت به، وقلت: خذ المال، وأرحني من تبعته.

فقال: على شرط، نقسمه بيني وبينك.

فقلت: والله، لا تلبّست منه بحبّة.

قال: فاطلب حمّالين، فجئت بهم.

فحمل تلك التركة، والصبيّة، وانصرف.

مكتبة الجامعة الاردنية

قصة (68) عاقبة البغي⁽¹⁾

مركز ايداع الرسائل الجامعية

روى القاضي التتوخي، في كتابه أخبار المذاكرة، ونشوار المحاضرة، عن عبيد الله بن

محمد الخفاف، قال: حدّثني أبي، قال: حدّثني صديق لي من أولاد الجند، قال:

كنت مجتازاً يوماً في الكرخ ببغداد، فرأيت امرأة لم أرَ أحسن منها قط، فوقففت أنظر

إليها، وإذا بها قد ولّت، وإذا بعجوز معها قد جاءتني، فمازحتني عنها، وقالت: تقولك لك: تجيء

في دعوتي؟

فقلت: لا يمكنني أن أمضي مع أحد، ولكن تجيء في دعوتي أنا.

فقال: لا، بل تجيء أنت.

فحملني فرط شهوتي لها أن مضيت معها، إلى أن حصلنا في طرف من أطراف بغداد،

ووافت إلى باب، فدقّته.

فقالوا: من هذا؟

فقلت: أنا، صيد.

فحين قالت ذلك، وجب قلبي، فولّيت.

فقلت: إلى أين يا فتى، ما بدا لك منّا؟

(1) التتوخي، النشوار، ج5، ص259.

فقلت: خير، ودخلت البيت، فإذا بدار فارغة، قليلة الآلات جداً، وإذا بجارية سوداء قد جاءت بطشت وماء، فغسلت وجهي، ورجلي، واسترحت، وجاءوني بطعام غير نظيف، فأكلت منه لفرط الجوع.

وخرجت الجارية، وإذا هي من أحسن النساء وجهاً، وجاءوني بنبيذ، فجلست أشرب، وهي معي.

فأهويت إليها، فمكنتني من عناقها، فلما تجاوزت ذلك، قالت: أنا لا أدخل في حرام، واصر حتى يجيء من يزوجني بك.

وجاءت المغرب، وصار الوقت بين الصلاتين، وإذا بالباب يدق.

فقلت: ويه، ويه.

فقلت لها: ما الخبر؟

فقلت: قد جاء أخي وغلّامه، وإن رآك لم آمن عليك، قم إلى ذلك البيت فاخترني فيه، حتى إذا ناموا جئتك.

فأدخلتني بيتاً، فلما حصلت فيه، زرفت بابها، فأيقنت أنني مقتول، وأن ذلك لغرض كان في ثيابي ومالي، فنتبت إلى الله من الحرام، وعاهدته إن خلصني، أن لا أدخل في شيء من ذلك. قال: وأقبلت أسمع ما يجري من خلف الباب، فإذا بالدخل غلام أسود لم أر قط أهول منه خلقاً ولا أعظم وهو يقبل المرأة وهي تترشّفه ترشّف عاشقة له، وجلسا يتحدثان، وجاءوه بما أكله، وشربه، ثم جامعها دفعات.

وقال لها في خلال ذلك: أيش حصل اليوم؟

فقلت: ما وقع اليوم غير رجل مخدول، لم يكن في كمّ شيء، قال: وأخرجت ثيابي، فسلمتها إليه، فشتها وضربها.

وقال: هذا أيش، نحن أردنا صاحب كيس كبير.

فقلت: كما اتفق، ولم تزل تقبل رجله، وتبكي، وتعتذر إليه، إلى أن رضي عنها.

وأيقنت أنا بالهلاك، وأقبلت على الدعاء.

وما زالا يشربان، وهو يجامعها في خلال ذلك، إلى أن عدت أنه قد جامعها عشر دفعات، وسكر.

فقلت له: قد أخذ النبيذ منك يا سيدي، قم فافرغ من هذا الميشوم، حتى نتخلص منه.

فتشهدت حينئذ.

ففتح الباب، ودخل الأسود إليّ بسيف مسلول، فما زال يضربني موشحاً، وأنا أصيح، فلا يسمع أحد صياحي، إلى أن بردت، وانقطع صياحي، ولم يشك الأسود في موتي، فجدبني

وطرحني في البئر، وإذا تحتي فيها أشلاء ثلاثة، فصرت أنا قريبا من رأسها، فوق القوم، فخرج ولم يغلق الباب. فقالت له: ما عملت؟
قال: فرغت منه.

فنام إلى جانبها، وقامت العجوز، فجللتهم، ولم يكن في الدار غيرهم.
فلما كان بعد نصف الليل، حملتني حلاوة الحياة، على طلب الخلاص ففقت، فإذا البئر إلى صدري، وإذا أنا قويّ فتسلقت، وخرجت منها إلى البيت.
ووقفت أسمع، فلم أسمع لهم حساً، إلا غطيماً يدل على نومهم، فخرجت قليلاً قليلاً، حتى فتحت الباب، وخرجت من الدار، وما شعروا بي، فجنّت إلى بيتي قبل طلوع الشمس.
فقالوا: ما دهاك؟

فقلت: كنت البارحة عند صديق لي، وبكرت من عنده، فلقيني لص يستقي، فمنعته ثيابي، فأخذها، وعمل بي هذا.
فأقمت شهوراً أعالج، إلى أن عوفيت، فلما خرجت، وتصرفت، لم يكن لي هم إلا طلب المرأة في الطريق والأسواق.
فاجتزت يوماً بالكرخ، فرأيتها، فلم أكلّمها، وعدت إلى منزلي، وكنت قد غيرت زيي، وطولت لحيتي، حتى تغيرت هيأتي ومشيت ويدي مكتوفة إلى ظهري، على مذهب الخراسانية، وجنّت أطلبها، وصادفتها في الموضع.
فحين رأنتي العجوز، أقبلت عليّ، وبدأتني بالكلام، فأجبتها بالفارسية، وعلمت أنها لم تعرفني.

وجئت معها، فحملتني إلى الدار بعينها، وجزت القصة على الرسم الأول، إلى أن قالت: جاء أخي وغلّامه، قم لا يراك، فأقامتني إلى البيت بعينه، فدخلته، وأغلقت عليّ، ووقفت أسمع، وكان تحت ثيابي سيف لطيف ماضٍ.

فقال لها الأسود، بعد أن وطئها خمس عشر مرة: أيش جبّت اليوم؟
قالت: بطة سمينة، خرساني معه هميان ملآن.

قال: فأين هو؟

قالت في وسطه.

فقال: غاية.

فأخرجت أنا السيف، ووقفت خلف الباب أنتظره، فأكل، وشرب حتى سكر، وجاء، فدخل، فخالفت طريقه، ومضى يريد صدر البيت، فصرت خلفه، وضربته في ساقه ضربة محكمة، أجلسته منها، وثنيته بأخرى، فما قدر أن ينهض، وواليت ضربه، حتى قطعته، فلما برد، تقدّمت فحزرت رأسه، وفصلته عن بدنه، لتزول عني الشبهة في أمره، ووقفت موضعي.

فلما أبطأ خروجه على الجارية، قالت للعجوز: قومي انظري أيش خبره؟
فقامت العجوز المسماة صيد، تطلبه، وجاءت إلى البيت، تقول: يا سيدي، لم ليس تخرج؟
أين أنت؟

فما تكلمت.

فدخلت إلى البيت، فضربتها في ساقها أيضاً، فقعدت زمناً، فحين جلست، جررت
برجلها، فأخرجتها إلى برّاء، وقلت: مرحباً يا صيد، إلى كم تصطادين ولا تصادين؟ وقتلتها.
وخرجت إلى الدار، وتكلمت بلسان فصيح، وقد كنت أكلمهم بلسان الخراسانية، فأيقنت
الجارية بالهلاك.

ثم قلت لها: أنا الرجل الذي فعلت بي كذا وكذا.

قالت: فأين الأسود؟

فقلت: قتلته، وهذا رأسه.

قالت: سألتك بالله، إلا قتلتني بعده، فلا حاجة لي في الحياة.

فقلت: ليس تحتاجين إلى مسألتي في هذا، فإني أفعله، ولكن أين الأموال؟ وإلا عذبتك،
ولم أقتلك، وأخرجتك إلى السلطان، فحصلت في العقوبات.
فقالت: افتح ذلك البيت، وذلك البيت.

ففنحت أبواباً، فخرج عليّ منها أمر عظيم.

فقلت: الأموال.

وما زلت أقرّها، وكلّما امتنعت، ضربتها بالسيف، إلى أن عرقتني مواضع الدفائن،
وأوقفتني على جميع ما عندها من الذخائر، فقالت حينئذ.
وخرجت سحراً، وقد قلعت الدفائن، وأخذت منها ما أطق حمله من فاخر ما وجدته،
ولم أقرب الناحية إلى الآن، ولا أدري إلى أي شيء انتهى خبر القتلى والأسود والدار.
فكان ما وصل إليّ من ذلك ما قيمته ألوف كثيرة.

قصة (69) عمرو علام تجنبتني. (1)

أخبرنا القاضي أبو الحسن أحمد بن علي التوزي، وأبو القاسم علي ابن المحسن
التتوخي، قالوا: أخبرنا أبو عمر محمد بن العباس بن حيوية، قال: حدّثنا محمد بن خلف بن
المرزبان، قال: حدّثني محمد بن عبد الله ابن أبي مالك بن الهيثم الخراعي، عن إسحاق بن
ابراهيم الموصلي، قال: حدّثني ابراهيم بن ميمون، قال:

حججت في أيام الرشيد، فبينما أنا بمكة، أجول في سككها، إذا أنا بسوداء قائمة ساهية،
فأنكرت حالها، فوقفت أنظر إليها، فمكثت كذلك ساعة، ثم قالت:

أعمرُوا علام تجنبتني أخذت فؤادي فعذبتي
فلو كنت يا عمرو خبرتني أخذت حذاري فما نلتني

قال: فدنوت منها، فقلت: يا هذه، من عمرو؟

فارتاعت من قولي، وقالت: زوجي.

فقلت: وما شأنه؟

قالت: أخبرني أنه يهواني، وما زال يدسّ إليّ، ويعلق بي في كلّ طريق، ويشكو شدة وجده،
حتى تزوجيني، فلبث معي قليلاً، وكان له عندي من الحبّ، مثل الذي كان لي عنده، ثم مضى
إلى جدّة، وتركني.

قلت: فصفيه لي.

فقلت: أحسن من تراه، وهو أسمر، حلو، ظريف.

قال: فقلت: فخبّرني، أتحبين أن أجمع بينكما؟

قالت: فكيف لي بذلك، وظننتي أهزل بها.

قال: فركبت راحلتي، وصرت إلى جدّة، فوقفت في المرفأ، أتبصر من يعمل في السفن،
واصوت: يا عمرو، يا عمرو، فإذا أنا به خارج من سفينة، وعلى عنقه صن، فعرفته بالصفة.

فقلت: أعمرُوا علام تجنبتني؟

فقال: هيه، هيه، رأيتها، وسمعتة منها؟ ثم أطرق هنيهة، ثم اندفع يغنيه، فأخذته منه، وقلت له:

ألا ترجع؟

فقال: بأبي أنت، ومن لي بذلك؟ ذلك والله أحب الأشياء إليّ، ولكن منع منه طلب المعاش.

قلت: كم يكفيك كلّ سنة؟

قال: ثلاثمائة درهم.

فأعطيته ثلاثة آلاف درهم، وقلت: هذه لعشر سنين، ورددته إليها، وقلت له: إذا فنيت، أو قاربت

الفناء، قدمت عليّ فبررتك، وإلا وجهتُ إليك.

وكان ذلك أحب إليّ من حجّي.

قال محمد بن عبد الله، قال إسحاق: والناس ينسبون هذا الصوت إلى إبراهيم، وكان إبراهيم أخذه
من هذا الفتى.

قصة (70) أنت لنا شمس، وفتح لنا قمر⁽¹⁾

أنبأني غير واحد ممن تقدم ذكرهم في أول الكتاب، عن أبي اليمن، زيد بن الحسن الكندي، وأنبأني غير واحد، ممن تقدم ذكرهم، وأبو الفضل ابن أبي الحسين الدمشقي، وغيره، عن المؤيد بن محمد الطوسي، وأبو الفرج البغدادي، عن أبي أحمد بن علي الأمين، وأبو حفص بن القواس، وغيره، عن عبد الصمد الحدثاني، كلهم، عن أبي بكر بن أبي طاهر، عن أبي القاسم علي بن المحسن التتوخي، عن أبيه، عن أبي الفرج الأصبهاني، قال: حدثني أحمد بن خلف بن المرزبان، قال: حدثني أحمد بن سهل الكاتب، وكان أحد الكتاب لصاعد، قال: سمعت الحسن بن محمد يحدث:

إن رجلاً من أهل اليمامة، قدم بجاريتين، شاعرتين، من مولدات اليمامة، على المتوكل، فعرضهما عليه، من جهة الفتح، فنظر إلى أجملهما، فقال لها: ما اسمك؟

قالت: سعاد.

قال: أنت شاعرة؟

قالت: كذا يزعم مالكي.

قال: فقولني في مجلسنا هذا، شعراً، ترتجلينه، وتذكريني فيه، وتذكرين الفتح.

فتوقفت هنيهة ثم أنشدت:

أقول وقد أبصرت صورة جعفر
أشمس الضحى، أم شبيها وجه جعفر
فقال للأخرى: أنشدي أنت، فقالت:

أقول وقد أبصرت صورة جعفر
وأكمل نعماه بفتح ونصحه
فأمر بشراء الأولى، وردّ الأخرى.

فقالت الأخرى: لم رددتني؟

قال: لأن في وجهك نمشاً.

فقالت:

لم يسلم الطيبي على حسنه
الطيبي فيه خنس بينّ

يوماً ولا البدر الذي يوصف
والبدر فيه كلف يعرف

فأمر بشراء الثانية.

قصة (71) كلب يقتل زوجة سيده وخليتها⁽¹⁾

وذكر ابن دأب، قال:

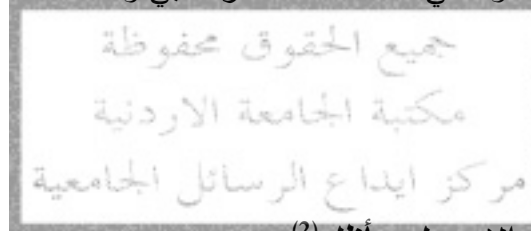
كان للحسن بن مالك الغنوي، أخوان، وندمان، فأفسد بعضهم محرماً له، وكان له على باب داره كلب قد رباه، فجاء الرجل يوماً إلى منزل الحسن، فدخل إلى امرأته. فقالت له: قد بعد، فهل لك في جلسة يسرّ بعضنا ببعض فيها؟ فقال: نعم.

فأكلا وشربا، ووقع عليها.

فلما علاها وثب الكلب عليهما، فقتلهما.

فلما جاء الحسن، ورأهما على تلك الحال، تبين ما فعلا فأنشأ يقول:

قد أضحي خليلي بعد صفو مودتي صريعاً بدار الذلّ أسلمه الغدر
يطا حرمتي بعد الإخاء وخانني فغادره كلبى وقد ضمه القبر



قصة (72) وما ظالم إلا سيئلي بأظلم⁽²⁾

أخبرنا محمد ناصر، قال: أنبأنا المبارك بن عبد الجبار، قال: أنبأنا الجوهرى.

وأخبرني ابن ناصر، قال: أخبرنا عبد المحسن بن محمد، قال: أخبرنا أبو القاسم

التتوخي، قال: أخبرنا ابن حيويه، قال: حدثنا محمد بن خلف.

قال: حدثني لص تائب، قال:

دخلت مدينة، فطلبت شيئاً أسرقه، فوقع عيني على صيرفي موسر، فما زلت أحتال،

حتى سرقت كيساً له، وانسلت.

فما جزت غير بعيد، إذ أنا بعجوز معها كلب، قد وقعت في صدري، تبوسني، وتلزمني،

وتقول: يا بني، فديتك، والكلب يبصبص، ويلوذ بي، ووقف الناس ينظرون إلينا.

وجعلت المرأة تقول: يا لله، انظروا إلى الكلب، قد عرفه، فعجب الناس من ذلك،

وتشككت أنا في نفسي، وقلت: لعلها أروضتني، وأنا لا أعرفها؟

وقالت: معي إلى البيت، أقم عندي اليوم، فلم تفارقني حتى مضيت معها إلى بيتها.

(1) التتوخي، النشوار، ج6، ص247

(2) التتوخي، النشوار، ج7، ص90.

وإذا عندها أحداث يشربون، وبين أيديهم من جميع الفواكه والرياحين، فرحبوا بي،
وقربوني، وأجلسوني معهم.
ورأيت لهم بزة حسنة، فوضعت عيني عليها، فجعلت أسقيهم وأرفق بنفسي، إلى أن
ناموا، ونام كل من في الدار.
فممت وكورت ما عندهم، وذهبت أخرج.
فوثب عليّ الكلب وثبة الأسد، وصاح، وجعل يتراجع وينبح، إلى أن انتبه كل نائم،
فخجلت، واستحييت.
فلما كان النهار، فعلوا مثل فعلهم بالأمس، وفعلت أنا بهم أيضاً مثل ذلك، وجعلت أوقع
الحيلة في أمر الكلب إلى الليل، فما أمكنتني فيه حيلة.
فلما ناموا، رمت الذي رمته، فإذا الكلب قد عارضني بمثل ما عارضني به.
فجعلت أحتال، ثلاث ليال، فلما أيست، طلبت الخلاص منهم بإذنهم، فقلت: أتأذنون لي،
فإنني على وفز.
فقالوا: الأمر إلى العجوز.
فاستأذنتها، فقالت: هات الذي أخذته من الصيرفي، وامض حيث شئت، ولا تقم في هذه
المدينة، فإنه لا يتهبأ لأحد فيها معي عمل.
فأخذت الكيس وأخرجتني، ووجدت مناي أن أسلم من يدها.
وكان قصاري أن أطلب منها نفقة، فدفعت إليّ، وخرجت معي، حتى أخرجتني عن
المدينة، والكلب معها، حتى جرت حدود المدينة.
ووقفت، ومضيت، والكلب يتبعني، حتى بعدت، ثم تراجع ينظر إليّ، ويلتفت، وأنا أنظر
إليه، حتى غاب عن عيني.

قصة (73) نكاء المنصور العباسي⁽¹⁾

ومن ذلك، ما روي عن منصور بني العباس، وهو أنه جلس يوماً في إحدى قباب
المدينة، فرأى رجلاً ملهوفاً، يجول في الطرقات، فأرسل إليه من أتاه به، فسأله عن حاله، فأخبره
أنه خرج في تجارة، فأفاد فيها مالاً كثيراً، وأنه رجع بها إلى زوجته، ودفع المال إليها، فذكرت
المرأة أن المال سُرِق من المنزل، ولم ير نقباً ولا تسلقاً.
فقال له المنصور: منذ كم تزوجتها؟
قال: منذ سنة.

(1) التتوخي، النشوار، ج7، ص276.

قال: تزوّجتها بكرةً أم ثيباً؟

قال: ثيباً.

قال: شابة أم مسنة.

قال: شابة.

فدعا المنصور بقارورة طيب، وقال: تطيب بهذا، فإنه يذهب همك. فأخذها.

وانقلب إلى أهله.

فقال المنصور لجماعة من نقبائه: اعدوا على أبواب المدينة، فمن مرّ بكم، وشمتم منه روائح هذا الطيب، فأتوني به.

ومضى الرجل بالطيب، إلى بيته، فدفعه إلى المرأة، وقال: هذا من طيب أمير المؤمنين.

فلما شمته، أعجبها إلى الغاية، فبعثت به إلى رجل، كانت تحبه، وهو الذي دفعت المال إليه، فقالت له: تطيب بهذا الطيب.

فتطيب به، ومرّ مجتازاً ببعض الأبواب، ففاحت منه روائح الطيب، فأخذ، وأتى به إلى المنصور.

فقال له: من أين استفتدت هذا الطيب؟

فتلجج في كلامه، فسلمه إلى صاحب شرطته، وقال له: إن أحضر كذا وكذا من الدنانير، فخذ منه، وإلا فاضربه ألف سوط.

فما هو إلا أن جرّد، وهدّد، حتى أذعن بردّ الدنانير، وأحضرها، كهبيئتها، ثم أعلم المنصور

بذلك، فدعى صاحب الدنانير، وقال له: رأيت إن رددت إليك الدنانير، أتحكمني في امرأتك؟

قال: نعم، يا أمير المؤمنين.

قال: ها هي دنانيرك، وقد طلّقت امرأتك.

وقصّ عليه الخبر.

قصة (74) أحمد بن أبي خالد، يبلغه أنّ جارية له توطئ فراشه غيره⁽¹⁾

قال محمد بن عبدوس في كتاب الوزراء: إنّ ابراهيم بن العباس الصولي قال:

كنت أكتب لأحمد بن أبي خالد. فدخلت عليه يوماً. فرأيتَه مطرقاً، مفكراً، مغموماً،

فسألته، عن الخبر.

فأخرج إليّ رقعة، فإذا فيها أنّ حظية من أعزّ جواريه عنده، يخالف إليها، وتوطئ

فراشه غيره، ويستشهد في الرقعة، بخادمين كانا ثقتين عنده.

(1) التتوخي، الفرج، ج1، ص243.

وقال لي: دعوت الخادمين، فسألتهما عن ذلك، فأنكرا، فتهددتهما، فأقاما على الإنكار، فضربتتهما، وأحضرت لهما آلة العذاب. فاعترفا بكل ما في الرقعة على الجارية، وإني لم أذق أمس ولا اليوم طعاماً، وقد هممت بقتل الجارية.

فوجدت بين يديه مصحفاً، ففتحته لأتفعل بما يخرج فيه، [فكان أول ما وقعت عيني عليه]: يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا. الآية، فشككت في صحة الحديث، وأريته ما خرج به الفأل.

وقلت: دعني أتلف في كشف هذا.

قال: افعل.

فخلوت بالخادمين منفردين، ورفقت بأحدهما، فقال: النار ولا العار، وذكر أن امرأة ابن أبي خالد، أعطته ألف دينار، وسألته الشهادة على الجارية، وأحضرتني الكيس مختوماً بخاتم المرأة، وأمرته أن لا يذكر شيئاً إلا بعد أن يوقع به المكروه، ليكون اثبت للخبر، ودعوت الآخر، فاعترف بمثل ذلك أيضاً.

فبادرت إلى أحمد بالبشارة، فما وصلت إليه، حتى جاءته رقعة الحرّة، تعلمه أن الرقعة الأولى كانت من فعلها، غيرة عليه من الجارية، وأن جميع ما فيها باطل، وأنها حملت الخادمين على ذلك، وأنها تائبة إلى الله تعالى من هذا الفعل وأمثاله.

فجاءته براءة الجارية من كل وجه فسّر بذلك، وزال عنه ما كان فيه، وأحسن إلى الجارية.

قصة (75) الباب الذي بين الله والناس، لا يغلق⁽¹⁾

وحدثني عبد الله بن أحمد بن داسة، المقرئ البصري، قال:

سمعت أن بعض الجند، اغتصب امرأة نفسها من الطريق، فعرض له الجيران يمنعونها، فقاتلهم هو وغلماؤه حتى تفرقوا، وأدخل المرأة إلى داره، وغلق الأبواب، ثم راودها عن نفسها، فامتنعت، فأكرهها، ولحقها منه شدة، حتى جلس منها مجلس الرجل من المرأة.

فقال له: يا هذا، اصبر حتى تغلق الباب الذي بقي عليك أن تغلقه.

قال: أي باب هو؟

قالت: الباب الذي بينك وبين الله.

فقام عنها، وقال: اخرجني، قد فرّج الله عنك.

فخرجت، ولم يتعرّض لها.

(1) التتوخي، الفرج، ج1، ص 35.

قصة (76) بين الأمين وإبراهيم بن المهدي⁽¹⁾

أخبرني أبو الفرج الأموي الأصبهاني، قال: أخبرني محمد بن خلف ابن المرزبان، قال: حدثنا حماد بن إسحاق، عن أبيه، ووجدت في بعض الكتب بإسناد غير هذا، ليس بسماع، فجمعت بين الخبرين، على أتم اللفظ، قال:

جرى بين الأمين، وبين عمه إبراهيم بن المهدي، كلام، وهما على النبيذ، فوجد الأمين على إبراهيم، وبانت لإبراهيم الوحشة منه، فانصرف إبراهيم إلى منزله قلقاً، وحجبه الأمين عنه.

وبلغ إبراهيم ذلك، فبعث إلى الأمين بالطف، ورقة يعتذر فيها، فردّ الأمين الهدية، ولم يجب إبراهيم عن الرقعة.

فوجه إبراهيم إليه وصيفة مليحة مغنّية، كان ربّاه، وعلمها الغناء، وبعث معها عوداً معمولاً من العود الهندي، مكللاً بالجواهر، وألبسها حلّة منسوجة بالذهب، وقال أبيتاً، وغنى فيها، وألقى عليها الأبيات حتى حفظتها، وأخذت الصوت، وأحكمت الصنعة فيه.

فوقفت الجارية بين يدي الأمين، وقالت: عمك وعبدك، يقول .. واندفعت تغني:

هتكت الضمير بردّ اللطف وكشفت هجرك لي فأنكشف

فإن كنت تنكر شيئاً جرى فهب للعمومة ما قد سلف

وجد لي بالصّحح عن زلّتي فبالفضل يأخذ أهل الشرف

فقال لها الأمين: أحسنت يا صبيّة، ما اسمك؟

قالت: هديّة.

قال: أفأنت كاسمك، أم عارية؟

قالت: أنا كاسمي، وبه سمّاني أنفأ، لما أهداني إلى أمير المؤمنين.

فسرّ بها الأمين، وبعث إلى إبراهيم، فأحضره، ورضي عنه، وأمر له بخمسين ألف دينار.

قصة (77) عبد الملك بن مروان يسقط حدّاً⁽²⁾

حكى الاصمعي، قال: أتى عبد الملك بن مروان، برجلٍ قد قامت عليه البيّنة بسرقة يقطع في مثلها، فأمر بقطع يده.

فأنشأ الرجل يقول:

يدي يا أمير المؤمنين أعيذها بعفوك من عار عليها يشينها

(1) التتوخي، الفرج، ج1، ص375.

(2) التتوخي، الفرج، ج1، ص375.

فلا خير في الدنيا ولا في نعيمها إذا ما شمال فارقتها يمينها
 فقال: هذا حدّ من حدود الله تعالى، ولا بدّ من إقامته عليك.
 فقالت أمّ له كبيرة السنّ: يا أمير المؤمنين، كادّي، وكاسبي، وابني، وواحدي، فهبة لي.
 فقال لها: بئس الكادّ كادّك، وبئس الكاسب كاسبك، لا بدّ من إقامة حدود الله عزّ وجلّ.
 فقالت: يا أمير المؤمنين، اجعله من ذنوبك التي تستغفر الله منها.
 فقال: خلّوه، فأطلق.

قصة (78) فتى ورث مالا فأتلفه ثم آل أمره إلى صلاح⁽¹⁾

حدّثني عبيد الله بن محمد الصرويّ، أيضاً، عن أبيه، قال:
 كان يجاورنا ببغداد فتى من أولاد الكتّاب، ورث مالا جليلاً، فأتلفه في القيان، وأكله
 إسرافاً، حتى لم يبق منه شيء، وأحتاج إلى نقض داره، فلم يبق منها غير بيت يكتنه.
 فحدّثني بعض من كان يعاشره وانقطع عنه لما افتقر، قال:
 قصدته يوماً بعد انقطاعي عنه نحو سنة، لأعرف خبره، فدخلت إليه، فوجدته نائماً في
 ذلك البيت، في يوم بارد، على حصير خلّق، قد توطأ قطناً كأنه حشو فراش، وتغطّى بقطن كان
 في لحاف، فهو بين ذلك القطن كأنه السفرجل.
 فقلت له: ويحك، بلغت إلى هذا الحدّ.
 فقال: هو ما ترى.
 فقلت: فهل لك حاجة.
 قال: أو تقضيها؟
 فظننت أنه يطلب منّي شيئاً أسعفه به، فقلت: إي والله.
 فقال: أشتهي أن تحملني إلى بيت فلانة المغنّية، حتى أراها، وهي التي كان يتعشقها،
 وأتلف ماله عليها.
 وبكى، فرحمته، فمضيت إلى منزلي، فأتيته من ثيابي بما لبسه، وأدخلته الحمام، وحملته
 إلى بيتي، فأطعمته، وبخّرتة، وذهبتنا إلى دار المغنّية.
 فلما رأتنا لم تشكّ أنّ حاله قد صلحت، وأنّه قد جاءها بدراهم، فبشت في وجهه، وسألته
 عن حاله، فصدقها عن حاله، حتى انتهى إلى ذكر الثياب، وأنّها لي.
 فقالت له في الحال: قم، قم.
 فقال: لم؟

(1) التتوخي، الفرج، ج2، ص382.

فقلت: لئلا تجيء ستي، فتراك، وليس معك شيء، فتحرد عليّ، لم أدخلتك، فاخرج برّاً، حتى أصدع فأكلمك من فوق، فخرج، وجلس ينتظر أن تخاطبه من روزنة في الدار، إلى الطريق، فأقلبت عليه مرفة سكباج فصيرته آية ونكالاً.

فبكي، وقال لي: بلغ أمري إلى هذا؟ أشهد الله، وأشهدك، أني تائب.

فضحكت منه، وقلت: أيّ شيء تنفعلك التوبة الآن وقد افتقرت؟

فرددته إلى بيته، ونزعت ثيابي عنه، وتركته بين القطن، كما كان أولاً، وحملت ثيابي فغسلتها وانقطعت عنه، فما عرفت له خبراً.

وبعد نحو ثلاث سنين، بينما أنا ذات يوم بباب الطاق، إذا أنا بغلام يطرق لرجل راكب، فرفعت رأسي، فإذا به على بردون فاره، بمركب فضة، خفيف، مليح، وثياب حسنة، وكان أولاً يركب من الدواب أفرها، ومن المراكب أثقلها.

فلما رأيته، قال لي: يا فلان، فعلمت أن حاله قد صلحت، فقبلت فحذه.

وقلت: سيدي أبو فلان. جميع الحقوق محفوظة.

قال: نعم، قد صنع الله تعالى، وله الحمد، البيت، البيت، فتبعته إلى منزله، فإذا بالدار الأولية، قد رمّها، وجصّصها، من غير بياض، وطبقها، وبنى فيها مجلسين متقابلين، وخزائن، ومستراح، وجعل باقي ما كان فيها، صحناً كبيراً، وقد صارت حسنة، غير أنها ليست بذلك الأمر الأول.

فأدخلني إلى حجرة منها، كان يخلو فيها قديماً، قد أعادها كأحسن ما كانت، وفيها فرش حسنة، وفي داره ثلاثة غلمان، قد جعل كلّ خدمتين إلى واحد منهم، وقد أقام على حرمه خادماً كان لأبيه، وله سائس هو شاكريه، وشيخ بواب كان يصحبه قديماً، ووكيل يتسوق له.

فجلس، وأجلسني، وأحضر فاكهة قليلة، في آلة مقتصدة مليحة، وجاءوا بعدها بطعام نظيف، كافٍ، غير مسرف ولا مقصر، فأكلنا، ثمّ نام، ولم تكن تلك عادته، ومدّت ستارة، وأحضرت مشامّ ورياحين، في صواني وزبديّات، والجميع متوسط مليح، غير مسرف، فانتبه، فصلّى، وتبخّر بقطعة ندّ، وبخّرني بقطعة عود مطرّى، وقدم بين يديه صينية فيها من مطبوخ العنب شيء حسن، وقدم بين يدي صينية فيها نبيذ التمر، جيّد.

فقلت: يا سيدي ما هذه الترتيبات التي لست أعرفها.

فقال: دع ما مضى، فإنّ الحال لا تحتمل الإسراف، فأقبل يشرب، وأنا أساعده، فتغنّى من وراء الستارة، ثلاث جوارى في نهاية طيب الغناء، كلّ واحدة منهنّ أطيّب من التي أنفق عليها ماله.

فلما طابت أنفسنا، قال لي: تذكر أيامنا الأولية؟

قلت: نعم.

قال: أنا الآن في نعمة متوسطة، وما قد أفدته من العقل، والعلم بأمر الدنيا وأهلها، يسليني عما ذهب مني، وهو ذا ترى فرشي، وألتي، ومركوبي، وإن لم يكن ذلك بالعظيم المفرط، ففيه جمال، وبلاغ، وتنعّم، وكفاية، وهو مغنٍ عن الإسراف، والتحرّق، والتبذير، وقد تخلّصت من تلك الشدّة، تذكر يوم عاملتي فلانة المغنية، بما عاملتني؟

قلت: نعم والحمد لله الذي كشف ذلك عنك، فمن أين هذه النعمة؟

قال: مات مولى لأبي، وابن عمّ لي، في يوم واحد بمصر، فحصل لي من تركتهما أربعون ألف دينار، فوصل أكثرها إليّ، وأنا بين القطن كما رأيتني، فحمدت الله، واعتقدت التوبة من التبذير، وأن أدبّر ما رزقته، فعمّرت هذه الدار بألف دينار، واشتريت الفرش، والآلة، والجواري بتسعة آلاف دينار، وسلّمت إلى بعض التجّار الثقات، ألفي دينار، يتجرّ لي بها، وأودعت بطن الأرض عشرة آلاف دينار، للحوادث، وابتعت بالباقي ضيعة تغلّ لي في كلّ سنة نفقتي هذه التي شاهدها، فما أحتاج إلى قرض، ولا استزادة، ولا تقبل غلّة، إلا وعندي بقية من الغلة الأولى، فأنا أتقلب في نعمة الله، عزّ وجلّ، كما ترى، ومن تمام النعمة، إنّي لا أعاشرك، ولا أحداً ممن كان يحسنّ لي السرف، يا غلمان، أخرجوه.

قال: فأخرجت، فوالله ما أذن لي بعدها في الدخول عليه.

قصة (79) إسحاق المصعبّي تحرّكه رفاع أصحاب الأرباع ببغداد⁽¹⁾

حدّثني عبد الله بن محمد بن داسه البصري رحمه الله، قال: حدّثني أبو يحيى بن مكرم،

القاضي البغدادي، قال: حدّثني أبي، قال:

كان في جواري، رجل يعرف بأبي عبيدة، حسن الأدب، كثير الرواية للأخبار، وكان قديماً ينادم إسحاق بن إبراهيم المصعبّي، فحدّثني: أن إسحاق استدعاه ذات ليلة، في نصف الليل. قال: فهالني ذلك، وأفزعني، لما كنت أعرفه منه، من زعارة الأخلاق، وشدّة الإسراع إلى القتل، وخفت أن يكون قد نعم عليّ شيئاً في العشرة، أو بلّغ عنيّ باطلاً، فأحفظه، فيسرع إلى قتلي، قبل كشف حالي.

فخرجت طائر العقل، حتى أتيت داره، فأدخلت إلى بعض دور الحرم، فاشتدّ جزعي،

وذهب عليّ أمري.

فانتهى بي إليه، وهو في حجرة لطيفة، فسمعت في دهليزها بكاء امرأة ونحيبها،

ودخلت، فإذا هو جالس على كرسي، وبيده سيف مسلول، وهو مطرق، فأيقنت بالقتل.

فسلّمت، ووقفت، فرفع رأسه وقال: اجلس أبا عبيدة، فسكن روعي، وجلست.

فرمى إليّ رقاعاً كانت بين يديه، وقال: اقرأ هذه فقرأت جميعها، فإذا رقاع أصحاب الشرط في الأرباع، يخبره كلّ واحد منهم بخبر يومه، وما جرى في عمله، وفي جميعها ذكر كبسات وقعت على نساء وجدن على فساد، من بنات الوزراء، والأمراء، والأجلاء، الذين بادوا، أو ذهبوا مراتبهم، ويستأذنون في أمرهنّ.

فقلت: قد وقعت على هذه الرقاع، فما يأمرني به الأمير أعزّه الله؟

فقال: ويحك يا أبا عبيدة، هؤلاء الناس الذين ورد ذكر حال بناتهم، كلّهم كانوا أجلّ مني، أو مثلي، وقد أفضى بهم الدهر في حرمهم إلى ما قد سمعت، وقد وقع لي أنّ بناتي بعدي، سيبلغن هذا المبلغ، وقد جمعتهنّ-وهنّ خمس-في هذه الحجرّة، لأقتلنّ الساعة، وأستريح، ثم أدركتني رقة البشريّة، والخوف من الله تعالى، فأردت أن أشاورك في إمضاء الرأي، أو شيء تشير به عليّ فيهنّ.

فقلت: أصلح الله الأمير، إن آباء هؤلاء النساء اللواتي قرأت رقاع أصحاب الأخبار بما جرى عليهنّ، أخطأوا في تدبيرهنّ، لأنهم خلّفوا عليهنّ النعم، ولم يحفظوهنّ بالأزواج، فخلون بأنفسهنّ، ونعمهنّ، ففسدن، ولو كانوا جعلوهنّ في أعناق الأكفاء، ما جرى منهنّ هذا. والذي أرى أن تستدعي فلاناً القائد، فله خمسة بنين، كلّهم جميل الوجه، حسن اللبس والنشوة، فتزوج كلّ واحدة من بناتك، واحداً منهم، فتكفي العار والنار، وتكون قد أخذت بأمر الله عزّ وجلّ، والحزم، ويراك الله تعالى قد أردت طاعته في حفظهنّ، فيحفظك فيهنّ.

فقال: امض الساعة إليه، فقرر معه ما يكون لنا فيه المصلحة، وافرغ لي معه من هذا الأمر.

قال: فمضيت إلى الرجل، وقررت الأمر معه، وأخذت الفتیان، وأباهم، وجئت إلى دار إسحاق بن إبراهيم، وعقدت النكاح لهم، على بنات إسحاق، في خطبة واحدة، وجعل إسحاق بين يدي كلّ واحد منهم، خمسة آلاف دينار عينا، وشيئاً كثيراً من الطيب، والثياب، وحمل كلّ منهم على فرس بمركب ذهب، وأعطاني كلّ واحد من الأزواج مالاّ مما دفع إليه، وأمر لي إسحاق بخمسمائة دينار، وخلعة، وطيب.

وأفند إليّ أمّهات البنات هدايا وأمواً جليلاً، وشكرتني على تخليص بناتهنّ من القتل، وانقلبت تلك الغمّة فرحاً.

فعدت إلى داري، ومعني ما قيمته ثلاثة آلاف دينار وأكثر.

قصة (80) أبو جعفر بن شيرزاد كان لداره أربعة عشر باباً (1)

حدثنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن شيرزاد، قال: حدثني خالي، وابن عمّ أبي، أبو جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد، قال:

لما سعي عليّ عند بجمك، حتى صرفني عن كتبته، ونكبتني، وألزمني بمائتي ألف دينار، فأديت أكثرها من غير أن أبيع شيئاً من أملاكي الظاهرة.

فلما قاربت وفاءها، استحضرنني أحمد بن عليّ الكوفي كاتبه وكانت له مروءة، وأخذ يخاطبني بكلام طويل، وهو تقدمه واعتذار لشيء يريد أن يخاطبني به.

فقلت له: يا سيدي ما تريد؟ وما بك حاجة إلى التسبب، فأني بمودتك واثق.

فقال: إنّ هذا الرجل -يعني بحكم- قد رجع عليك في صلحك، وطمع فيك، وطالبني أن أخذ منك مائتي ألف دينار أخرى، ووالله، ما هذا عن رأيي، ولا لي فيه مدخل، [ولا هو من فعلي] ولو قدرت على إزالته عنك لفعلت.

قال: فأخذت أحلف له أني لا أهتدي إليها، ولا إلى عشرها، وأن النكبة قد استنفدت مالي، ولم يبق لي شيء، إلاّ داري، وضيعتي، وأنا أسيهما، ولا أكتم شيئاً منهما، وأخرج له عنهما، ليهب لي روعي.

قال: فطال الخطاب بيننا، فلما قام في نفسه صدقي، فكر طويلاً.

ثم قال: يا سيدي، هذا رجل أعجمي، وعنده أن وراءك أضعاف هذا المال، وأنّ فيك من الفضل ما يصلح لقلب دولته عليه، وأنت -والله- معه في طريق القتل، إلا أن يكفيك الله عزّ وجلّ، ووالله، ما أحبّ أن يجري مثل هذا على يدي، ولا في أيامي، فيلزمني عاره إلى الأبد، وأجسره على قتل كتابه، فدبرّ خلاصك.

فتحيرت، ثم سكنت، وقلت له: تعطيني ميثاقك، وتحلف لي أن سرّك في محبة خلاصي كعلائيتك، حتى أقول لك ما عندي؟ ففعل.

فحلفت له أني قد صدقته، وأنني لا أمتنع مما يجريه عليّ من بعد هذا اليمين، ولو شاء مني أن أفتح دواتي، وأكتب بين يديه.

وقلت له: أنت وقتك مقبل، ووقتي مدبر، وأنت فارغ القلب، وأنا ذاهل بالمحنة، فدبر أمري الآن كيف شئت، فإنه يفتح لك بهاتين الخلتين، ما قد استبهم عليّ.

قال: ففكر، ثم قال: أنا إن آيست هذا الرجل من مالك، لم آمنه على دمك، وإن أطعمته في مالك، وليس لك ما تعلله به، أدت بك المطالبة إلى التلف، ولكن الصواب عندي أن أطعمه في ضيعتك، وأصف له جلالتها فأشترىها له منك، وأقول له: إنّ ضياع السواد الخراجية، قد

أجمع شيوخ الكتاب بالحضرة، قديماً وحديثاً، على أن كل ما كان منه غلته درهم، فقيمته أربعة دراهم، وأبو جعفر يقول: إن غلة الضيعة-بعد الخراج-خمسة وعشرون ألف دينار، وإنه يضمنها بذلك، حاصلًا، خالصًا، بعد الخراج والمؤن، ويقيم بذلك كفلاء، فاشترها منه بمائتي ألف دينار كمالاً، ويحصل لعقبك ملك جليل، وهو مع هذا يؤدي باقي المصادرة الأولى، وتصير ضامناً للضيعة، فأدفعها إليك، ومن ساعة إلى ساعة فرج، وأنا أحتال بحيلة في أن يكون الكتاب عندي، فلا أسلمه إليه، فعمل حادثه تحدث، وترجع إليك ضيعتك، وتكون بالعاجل قد تخلصت، وسلم دمك أربع سنين.

قال: فعلمت أنه نصحني، وآثر خلاصي، وأجبت.

فدخل إلى بجكم، ولم يزل معه في محادثات، إلى أن تقرر الأمر على ما قولني عليه، وأحضر اليهود، وكتب عليّ الكتاب بالابتياح، والكتاب الإجارة.

وقال لي: ألوجه أن تقيم كفلاء ببقية المصادرة الأولى، فقد استأذنته في صرفك إلى منزلك، وإذا انصرفت، فانضم، ولا يراك أحد، وكن متحذراً، ولا تظهر أنك مستتر، فتغريه بك.

قال: فشكرته، وأقمت الكفلاء بالمال، إلى أيام معلومة، فصرفني.

فعدت إلى داري، وكنت متحذراً، أجلس في كل يوم، فيدخل إليّ بعض الناس، بمقدار ما يعلم أي داري، فإذا كان نصف النهار، خرجت إلى منازل إخواني، وأقمت يوماً عند هذا، ويوماً عند الآخر، وراعت أخبار داري، أتوقع أن يجيئها من يكبسها، فأكون بحيث لا يعرف خبري، فأنجو.

فطال ذلك، والسلامة مستمرة، وانحدر بجكم إلى واسط، فأنست بالجلوس والاستقرار في داري.

فلما كان في بعض الأيام، ضاق صدري ضيقاً لا أعرف سببه، واستوحشت، وفكرت في أمري، وقلت: إن كبست على غفلة، فماذا أصنع؟

قال: وكان لداري أربعة عشر باباً، إلى أربعة عشر سكة، وشارعاً، وزقاقاً نافذاً، ومنها عدة أبواب لا يعرف جيرانها أنها تفضي إلى داري، وأكثرها عليه الأبواب الحديد.

قال: فتراءى لي، أن أرسلت إلى غلmani المقاتلة، وكانوا متفرقين عني، قد صرفتهم لئلا يصير لي حديث، فجاءوني، واجتمع منهم، ومن أولادهم، نحو ثلثمائة غلام.

فقلت لهم: إذا كان الليلة فاحضروا جميعاً بسلاحكم، وبيتوا عندي ليلاً، وأقيموا نهاراً، إلى أن أدبر أمري.

قال: ففعلوا ذلك، وفرقتهم في الحجر المقاربة للمجلس الذي كنت أجلس فيه، وقلت: إن كبست، فشاغلوا عني من يطلبني، لأنجو.

قال: وكنت أدبّر كيف أعمل في قلب الدولة، أو استصلاح بحكم، فلم يقع لي الرأي، ولا أجد إلى ذلك طريقاً.

وكنت أوصيت بوّابي، أن يغلق بابي المعلوم للناس، ولا يفتحه لأحد من خلق الله، إلا بأمرى.

وأجلست غلاماً كان يحببني في أيام الدولة، ومعه عشرون غلاماً بسلاح خلف الباب، وأمرته أن لا يفتح لأحد.

فما مضى لهذا إلا يومان أو ثلاثة، حتى جاءني حاجبي، وقال: دق الباب.

فقلت: من الطارق؟

فقال: أنا غلام محمد بن ينال الترجمان، وهو وأبو بكر النقيب بالباب، يستأذنان على سيّدنا بالدخول.

فقلت في نفسي: بليّة والله.

وأمرت الغلمان، فاجتمعوا بأسرهم، متسلّحين، في بيت له قبة كبيرة، كنت جالساً في أحد أروقتة، وأمرتهم أن لا ينبسوا بكلمة.

وقلت للحاجب: اصعد إلى السطح، فانظر ما ترى، وأخبرني به، ففعل.

وعاد، فقال: رأيت الشارع مملوءاً بالخيل والرجال، وقد أحاطوا بالدار من جنبات كثيرة، ولما رأوني أراقبهم تتحيّت.

فصاح بي الترجمان، قائلاً: كلّمني، وما عليك بأس.

فأخرجت رأسي، فقال: ويحك، ما جننا لمكروه، وما جننا إلا لبشارة، فعرف سيّدنا بذلك.

فقلت: ليس هو في الدار، ولكن أرسله، ثم أخبر الأمير أيّده الله، في غدٍ، برسول إلى

داره.

فقال: أنا هنا واقف ساعة، إلى أن يرى رأيه.

ففكرت، وقلت: هذه حيلة للقبض عليّ، لا شك في ذلك.

ثم رجعت، فقلت: يجوز أن يكون بحكم، قد تغيّر على الكوفي، ولا يجد لخدمته غيري،

واعترضني الطمع، وكاد أن يفسد رأبي.

ثم قلت للغلمان: إن قلت لكم اخرجوا، فضعوا على أبي بكر النقيب، والترجمان أيديكم،

فاخرجوا وخذوا رأسيهما، ولا تستأذنوا البيّنة، فأجابوا.

فقلت: احذروا أن تخالفوا فأهلك.

فقالوا: نعم.

ثم قلت للحاجب: اطلع السطح، وقل له: إني على حال من إختلال الفرش والكسوة، ولا أحب معه دخول أحد إليّ، فإن رضيت أن تدخل أنت وأبو بكر النقيب فقط، وإلا فأنا أصلح أمري وأجيء إلى دارك الليلة.

قال: فعاد الغلام، وقال: كلمته، فقال: رضينا بذلك.

فقلت: يا فلان، أخرج، واحذر أن يفتح الباب كله فتدخل الجماعة، وأرى أن تقول له، أن يتباعد عن الباب إلى الشارع قليلاً، [وينزل، ويقصده هو وأبو بكر النقيب فقط، واجعل في الدهليز نفسين يمسكان الباب من نقاوة الغلمان.

فقال: نعم.

ثم قمت بنفسي، فأغلقت باب حديد كان بين صحن الدار والدهليز، وجعلت خلفه جماعة غلمان بالسلاح.

وقلت: قل لهما أن يدخلوا، وافتح من الباب الذي على الشارع قليلاً فإن ازدحم الناس، وتكاثروا، فهي حيلة، فدعهم يدخلون، وصح: ما هذا؟ فأعلم أنها حيلة، فأخرج من بعض الأبواب، أما هم فيفضون إلى هذا الباب، وهو مقفل، ووراءه الغلمان.

وإن حضرا وحيدين، فقل لهما: الشرط أن أقفل الباب من وراء ظهريكما وبين أصحابكما، ثم افتح الباب الذي يلي الشارع، حتى يدخلان، ثم أقفله، وارم مفاتيحه من تحت الباب الثاني إلينا إلى الصحن، ودق هذا الباب، فإنني واقف وراءه، لأتقدّم بفتحه، فيدخلان.

ففعل الحاجب ذلك، وحصل أبو بكر النقيب والترجمان في الدهليز وحيدين.

فلما سمعت صوت قفل الباب الخارجي، وأنا عند الباب الداخلي، ودق الحاجب الباب الثاني، ورمى بالمفتاح، عدت إلى مجلسي، فجلست فيه، ونحيت من كنت أقمته وراء الباب الثاني بالسلاح، وأعدت عليهم الوصيّة بقتلها إن صحت: يا غلمان اخرجوا.

ثم تقدّمت إلى غلام لي كان واقفاً بلا سلاح، أن يفتح الباب، ويدخلهما، ففعل ذلك.

وألقيت نفسي على الفراش كأني عليل، ودخلا، فلم أوفهما الحق، وأخفيت كلام، كما يفعل العليل.

فقالا: أيش خبرك؟

فقلت: أنا منذ أيام عليل، وارتعت بحضوركما.

فأخذ الترجمان يحلف أنه ما حضر إلا ليردني إلى منزلتي، واستكتابي ليجكم، فشكرته على ذلك.

وقلت: أنا تائب من التصرف، ولا أصلح له.

فقال: قد أمرني الأمير بمخاطبتك في الخروج إليه، إلى واسط، لتقرير هذا الأمر، ولا يجوز أن أكتب إليه بمثل هذا عنك، ولكن إذا كنت زاهداً في الحقيقة، فأخرج إليه، وأحدث بخدمته عهداً، واستغفه، فإنه لا يجبرك.

فقلت: هل كاتيني بشيء توصله إليّ.

فقال: لا، ولكنه اقتصر على ما كتب به إليّ، لعلمه بمودّتي لك، ولئلا يفشو الخبر.

فقلت: تقفني على كتابه إليك.

فقال: لم أحمله معي.

فعلمت أنه قد كوتب بالقبض عليّ، وأنه يتوصل بالحيلة لتحصيلي.

فقلت: أنا عليل كما ترى، ولا فضل فيّ للسفر، ولكن تجيب الأمير أطل الله بقاءه

بالسمع والطاعة، وأني أخرج بعد اسبوع، إذا استقلت قليلاً.

فقال: يقبح هذا، والوجه أن تخرج.

فقلت: لا أقدر.

فراجعني، وراجعته، إلى أن قال: لا بدّ من خروجك.

فقلت: إنني لا أخرج.

فقال: تخرج طائعاً أو كارهاً.

فجلست، وظهر فيّ أثر الاحتداد مع القدرة، وقلت: إنني لا أخرج، ولا كرامة لك، فاجهد

جهدك، وذهبت لأصيح بالعلمان.

وكان أبو بكر النقيب خبيثاً، فقال: أسأل سيّدنا بالله العظيم أن لا يتكلم بحرف، ويدعني

وهذا الأمر.

ثم أخذ بيد المترجمان وقاما إلى ناحية في المجلس بعيدة، لا أسمع ما يجري بينهما،

فأطالا السرار، ثم جاء إليّ.

فأخذ أبو بكر يعتذر إليّ مما جرى، ويخاطبني باللين، ويقول: فبعد كم يخرج سيّدنا؟

حتى نقنتع بوعد، ونصرف.

فقلت: بعد عشرة أيّام.

فقال: قد رضينا.

فأخذ المترجمان ينزق عليّ في الكلام، وأبو بكر يغمزه، ويرفق به فلماً بلغا إلى قريب من

الدلهيز، رجع أبو بكر، وجرّ المترجمان، معه، وقال: هذا ليس يعرفك حق معرفتك، وعنده أنه

يقدر يستوفي عليك الحجّة، فبالله إلا ما عرّفته ما كان في نفسك أن تعمله بنا، لو استوفينا عليك

المطالبة، لئلا أقع في مكروه معه ومع الأمير.

فقلت في نفسي: أنا أريد الهرب الساعة، فما معنى مساترتي لهما ما أردت أن افعله، ولم لا أظهره ليكون أهيب في نفوسهما؟
فقلت للغلام الذي كان واقفاً على رأسي بلا سلاح: امض إلى أصحابنا، وقل لهم أن يخرجوا، ولا يعملوا ما كنت قلت لهم.
فمضى الغلام، وفتح الباب عليهم، وقال: أخرجوا، ولا تحدثوا على القوم حادثه، فخرج القوم بالسلاح.

فقلت: هؤلاء أعددتهم لدفعكما عن نفسي، إن رمتما قسري على ما لا أوثره.
قال: فمات الترجمان في جلده، واصفرّ وتحير.
فقال له أبو بكر: أنت تظن أنك بالجبل، وليس تعلم بين يدي من أنت الآن؟ عرفت أن الرأي كان في يدي، لا في يدك؟ والله، لو زدت في المعنى، لخرج هؤلاء فأخذوا راسك ورأسي.
فقلت: معاذ الله، ولكن كانوا يمنعوكما من أذائي.

ثم قلت للغلمان: كونوا معهما، إلى أن يخرجوا، وتغلقوا الأبواب خلفهما، ففعلوا.
وقمت في الحال فلبست خفاً وإزاراً على صورة النساء، واستصحبت جماعة من عجائز داري، وخرجت معهن من باب من تلك الأبواب الخفية، متحيراً، لا أدري أين أفصد.
فقصدت عدة مواضع، كلما قصدت موضعاً، علمت أنه لا يحملني، فأتجاوزه، إلى أن كدني المشي، وقربت من الرصافة، فعنّ لي أن أفصد خالة المقتدر وأطرح نفسي عليها.
فصرفت جميع من كان معي، إلا واحدة، وقصدت دار الخالة، ودخلت دهليزها.
فقام إليّ الخادم، وقال: من أقول؟
فقال العجوز: امرأة لا تحب أن تسمي نفسها، فدخل وإذا بالخالة قد خرجت إلى الدهليز.
فقلت لها المرأة: يا ستي، تأمرين الخادم بالانصراف، فأمرته، فانصرف.
فكشفت وجهي، وقلت: يا ستي، الله، الله في دمي، اشتريني، فقلت: يا أبا جعفر، ما

الخبر؟

فقلت: أدخليني، أحدثك؟

فقلت: كن مكانك، فإني قد علمت أنك ما جئتني إلا مستتراً.
ثم دخلت، فأبطأت، حتى قلت: قد كرهت دخولي، وستخرج إليّ من يصرفني، وتعتذر، وهممت بالانصراف.

وإذا بها قد خرجت، ثم قالت: أربعتك بالانتظار، وما كان ذلك إلا عن احتياط لك، فادخل.
فدخلت فإذا دارها الأولى-على عظمها-فارغة، ما فيها أحد.
فسلكت بي، وبالمراة العجوز، إلى موضع من الدار، فدخلت إلى حجرة، فأقفلتها بيدها، ومشيت بين أيدينا، حتى انتهت بنا إلى سرداب، فأنزلتنا فيه، ومشينا فيه طويلاً، وهي بين أيدينا، حتى

صعدت منه إلى درجة طويلة، أفضت بنا إلى دار في نهاية الحسن والسرو، وفيها من الفرش، والآلات، كل شيء حسن.

وقالت: إنما احتبست عنك، حتى أصلحت لك هذه الدار، وأخليت الأولى، حتى لا يراك الذين كانوا فيها، فيعرف خبرك، فعرفني قصتك. فذكرتها لها، من أولها إلى آخرها.

فقالت: اجلس ها هنا ما شئت، فإله، إنك تسرتني بذلك، فاحفظ نفسك من أن ينتشر خبرك من جهتك، فليس معي من جهتي من يدخل عليك أو يخرج منك، فتهلك نفسك، وتهلكني، فإنك تعلم أنّ هذا الرجل ظالم جاهل، لا يعرف حقّ مثلي.

فقلت: ما معي غير هذه العجوز، ولست أدعها تخرج.

فقالت: هذا هو الصواب.

فأقمت عندها مدة، فكانت تجيئني كلّ يوم، وتعرفني أخبار الدنيا، وتحادثني ساعة، وتتصرف، وتحمل إليّ كل شيء فاخر، من المأكول، والمشروب، والبخور، وأخدم بما لم أخدم بمثله في أيام دولتي.

فلما كان في غداة يوم بعد حصولي عندها، قالت: يا أبا جعفر، أنت وحدك، وليس يصلح أن يخدمك كلّ أحد، وقد حملت إليك هذه الجارية-وأومأت إلى وصيفة كانت معها، في نهاية الحسن والجمال- فاستخدمها، وإنها تقوم مقام فرأشة، وقد أهديتها لك، وإن احتجت إلى ما يحتاج إليه الرجال، صلحت لذلك أيضاً.

فقبلت ذلك، وشكرتها، ودعوت لها.

وتأملت الجارية، فإذا هي تغني أحسن غناء وأطيبه، فكان عيشي معها أطيب من عيشي أيام الدولة.

ومضى على استتاري نحو شهرين، لا يخرج من عندي أحد، ولا يدخل إليّ غير الجارية. فقلت لها يوماً: قد تطلعت نفسي إلى معرفة الأخبار، وإنفاذ هذه العجوز إلى من تتعرف ذلك منه.

فقالت: افعل، واحتفظ جهديك.

فكتبت مع العجوز كتاباً إلى وكيل لي أثق به، أمره أن يتعرف لي الأخبار، ويكتب إليّ بها مع العجوز.

ورسمت له أن ينفذ طيوراً مع غلام أسميته له وكنت به واثقاً من دون سائر غلماني، ويأمره بالمقام بواسطة، والمكاتبة على الطيور في كلّ يوم بالأخبار، وأن يكتب عني إلى جماعة بواسطة- كنت أثق بهم- بأن يمدوا الغلام بالأخبار.

ورسمت للعجوز أن لا تعرّف الوكيل موضعي، لئلا يظهر شيء من الأمر، ويقع الوكيل، ويطالب بي، فيدلّ عليّ.

فعاد الجواب إليّ، بما عنده من الأخبار، وأنه لا ينقضي يومه، حتى ينفذ الغلام والطيور. فأمهله عشرة أيام، ثم رددت العجوز، فأفخذ لي على يدها، كتباً وردت على الطيور، فقرأتها، ومضى على ذلك مدة.

فأصبحت يوماً وأنا على نهاية النشاط، والسرور، والانبساط، من غير سبب أعرفه، فقلت للعجوز: امضي إلى فلان، واعرفي هل ورد عليه كتاب من واسط؟ فمضت العجوز إلى الوكيل، فهي عنده، إذ سقط عليه طائر بكتاب، فحلّه، وسلّمه إليها، من غير أن يقف عليه.

فجاءتني به، فإذا هو من اللام المرتب بواسط، بتاريخ يومه، وأكثره رطب، كتب في الحال يذكر فيه ورود الأخبار إلى واسط، بقتل الأكراد لبجكم، وأنّ الناس قد اختلطوا وماجوا.

فقبلت الأرض شكراً لله عزّ وجلّ، وكتبت في الحال إلى الكوفي رقعةً أشكره فيها على جميلة، وأعرّفه أنني ما طويت خبري عنه إلى الآن، إلا إشفافاً عليه من أن يسأل عني، فيكون متى حلف أنه لا يعرف خبري، صادقاً، وأنّ أقلّ حقوق ما عاملني به، أن أعرّفه ما يجب أن يتحرز منه، وذكرت له ما ورد من الخبر، وأشرت عليه بالاستتار.

وأنفذت رقعتي إليه بذلك، طيّ رقعتي إلى الوكيل، وأمرته أن يمضي بها في الوقت إليه.

وقلت للعجوز: إذا مضى الوكيل فارجعي أنت، ولا تقعي في دار الوكيل.

فعدت، وعرفتني أنّ الوكيل توجّه إلى الكوفي.

فلما كان بين العشاءين من ذلك اليوم رددتها إلى الوكيل، وقلت لها: اطريقي بابي، فإن كان في بيته، على حال سلامة فادخلي، وإن بان لك أنّه معتقل، أو أنّ داره موكلّ بها، فانصرفي ولا تدخلي.

فعدت إليّ برقعة الوكيل، وطيّها رقعة من أبي عبد الله الكوفي.

وفي رقعة الوكيل: إنه حين أوصل الرقعة إلى الكوفي، بأن له في وجهه الاضطراب، وإنه ما صلّى العصر في ذلك اليوم، حتى امتلأ البلد بأنّ الكوفي قد استتر، وأنّ بجكم قد حدثت به حادثة لا ندري ما هي، وقد عدت بعد العصر إلى دار الكوفي، فوجدتها مغلقة، وليس عليها أحد، وإنّي قد أنفذت جواب الكوفيّ طيّ رقعتي.

وقرأت رقعة الكوفي، فإذا هو يشكرني، ويقول: قد علمت أن مثلك يا سيدي لا يفتعل مثل هذا الخبر، ولا يضيع مروءته، وأنّ مثله يجوز أن يكون صحيحاً، وقد تشاغل الذين مع الأمير بالهرب، عن أن يكتبوا لي بالحادث، وكتب به من رتبته أنت، كما ذكرت في رقعتك، فأوجب الرأي أن أستظهر لنفسي، فإن كان الخبر صحيحاً، وهو عندي صحيح، فالرأي معي، وإن كان

باطلاً، فلا يضرني ذلك عند صاحبي إن كان حياً، لأنه يتصورني جباناً لا غير، فيكون أسلم في العاجل.

وقد أنفذت إليك-يا سيدي- طيِّ رقعتي هذه، الكتابين اللذين كتبتهما عليك في ضيقتك بالابتياح والإجارة، ابتغاء إتمام مودتِك، ولتعلم صدقي فيما كنت توسّطته، ونصحي فيما عاملتك به، فإن كان موت الرجل صحيحاً، فقد رجعت إليك ضيقتك، وإن كان باطلاً فإنّه لا يسألني عنهما، ولا يذكرهما، وإن ذكرهما جحدت أني تسلّمتهما، وقضيت حقك بذلك، وأعدت نعمتك عليك.

قال: وإذا بالكتابين في طيِّ الرقعة، فمزقتهما في الحال.

ولبست من عند الخالة، خفاً، وإزاراً، بعد أن عرّقتها الصورة، وخرجت مع العجوز، وجئت إلى داري فدخلتها من بعض أبوابها الخفية.

فلما كان من الغد، قوي الخبر بقتل بكم، ففتحت بابي، وفرّج الله عني المحنة.

فلما كان العشاء، أتاني رسول الخالة، ومعه الجارية، وقال: سيدتي تقرئك السلام، وتقول لك: لم تدع جاريتك عندنا؟

قال: وإذا هي قد حملت معها، كل ما كانت قد أخدمتني من فرش، وآلة، وغير ذلك، من أشياء كثيرة جليلة المقدار.

وقالت: هذا جهاز الجارية، وأحب أن تقبله مني.

فقبلته، ورددت الرسول شاكراً، وقد منّ الله عليّ بالعود إلى أحسن حال.

قصة (81) مزنة امرأة مروان الجعديّ تلجأ إلى الخيزران جارية المهدي⁽¹⁾

حدّثني طلحة بن محمد بن جعفر، المقرئ، الشاهد، قال: حدّثني أبو عبد الله الحرّمي بن أبي العلاء، كاتب القاضي أبي عمر، قال: حدّثنا أبو علي الحسن بن محمّد بن طالب الديناري، قال: حدّثني الفضل بن العباس ابن يعقوب بن سعيد بن الوليد بن سنان بن نافع، مولى العباس بن عبد المطلّب، قال: حدّثني أبي، قال:

ما أتيت زينب بنت سليمان بن علي الهاشمي، قط، فانصرفت من عندها إلا بشيء وإن قلّ.

وكان لها وصيفة يقال لها: كتاب، فعلقتهما.

فقلت لأبي: أنا-والله-مشغول القلب بكتاب، جارية زينب.

فقال لي: يا بنيّ اطلبها منها، فإنّها لا تمنعك إيّاها.

فقلت: قد كنت أحبّ أن تكون حاضرّاً لتعينني عليها.

(1) التتوخي، الفرّج، ج4، ص75.

فقال: ليس بك إليّ، ولا إلى غيري من حاجة.

فغدوت إليها، فلما انقضى السلام، قلت: جعلني الله فداك، فكّرت في حاجة، فسالت أبي أن يحضر كلامي إياك فيها، لأستعين به، فاسلمني، فقالت: يا بني، إنّ حاجة لا تقضى لك حتى تحضر أباك فيها، لحاجة عظيمة القدر.

ثم قالت: ما هي؟

فقلت: كتاب، وصيفتك، أحبّ أن تهبها لي.

فقالت: أنت صبيّ أحمق، اقعدي، حتى أحدثك حديثاً، أحسن من كلّ كتاب على وجه الأرض، وأنت من كتاب على وعد.

فقلت: هاتي، جعلني الله فداك.

فقالت: كنتُ من أولّ أمس - عند الخيزران، ومجلسي ومجلسها - إذا اجتمعنا - في عتبة باب الرواق، والقرب منّا في صدر المكان، برذعة، ووسادتان، ومسانيد، عليها سبنيّة، لأمرير المؤمنين.

وهو كثير الدخول إليها والجلوس عندها، فإذا جاء جلس في ذلك الموضع، وإذا انصرف، طرحت عليه السبنيّة إلى وقت رجوعه، فإنّا لجلوس، إذ دخلت عليها إحدى جواربها، فقالت: يا ستّي، بالباب امرأة ما رأيت أحسن منها وجهاً، ولا أسوأ حالاً، عليها قميص ما يستر بعضه موضعاً من بدنّها، إلاّ انكشف منها موضع آخر غيره، تستأذن عليك.

فالتفتت إليّ، وقالت: ما ترين؟

فقلت: تسألين عن اسمها، وحالها، ثم تأذنين لها على علم، فقالت الجارية: قد والله جهدت بها كلّ الجهد، أن تفعل، فما فعلت، وأرادت الانصارف، فمنعتها.

فقلت للخيزران: وما عليك أن تأذني لها، فأنت منها بين ثواب ومكرمة، فأذنت لها.

فدخلت امرأة على أكثر مما وصفت الجارية، وهي مستخفية، حتى صارت إلى عضادة الباب، مما يليني، وكنت متكئة.

فقلت: السلام عليكم، فرددنا عليها السلام.

ثم قالت للخيزران: أنا مزنة امرأة مروان بن محمد.

قالت: فلما وقع اسمها في أذني، استويت جالسة، ثم قلت: مزنة؟

قالت: نعم.

قلت: لا حيّاك الله، ولا قرّبك، الحمد لله الذي أزال نعمتك، وأدال عزك، وصيرك نكالاّ وعبرة، أتذكرين يا عدوة الله، حين أتاك عجائز أهل بيتي يسألنك أن تكلمي صاحبك في إنزال ابراهيم بن محمد من خشبته، فلقيتيهن ذلك اللقاء، وأخرجتيهنّ ذلك الإخراج، الحمد لله الذي أزال نعمتك.

فضحكت-والله-المرأة، حتى كادت تفهقه، وبدا لها ثغر، وما رأيت أحسن منه قط.
وقالت: أي بنت عمّ، أي شيء أعجبك من حسن صنع الله بي على ذلك الفعل، حتى
أردت أن تتأسي بي، والله، لقد فعلتُ بنساء أهل بيتك، ما فعلتُ، فأسلمني الله إليك جائعة، ذليلة،
عريانة، فكان هذا مقدار شكرك لله تعالى على ما أولاك فيّ، ثم قالت: السلام عليكم.
ثم ولّت خارجة تمشي خلاف المشية التي دخلت بها.
فقلت للخيزران: إنّها مخبأة من الله عزّ وجلّ، وهدية منه إلينا، ووالله -يا خيزران- لا
تتولى إخراجها مما هي فيه أحد غيري.
ثم نهضت على أثرها، فلما أحست بي أسرع، وأسرع خلفها، حتى وافيتها عند
الستر، ولحقتني الخيزران، فتعلّقت بها.
وقلت: يا أخت، المعذرة إلى الله-عزّ وجلّ- وإليك، فإنّي ذكرت، بمكانك، ما نالنا من
المصيبة بصاحبنا، فكان منّي ما وددت أنّي غفلت عنه، ولم أملك نفسي.
وأردت معانفتها، فوضعت يدها في صدري، وقالت: لا تفعلي، يا أخت، فإنّي على حال،
أصونك من الدنو منها.
فرددناها، وقلت للجواري: أدخلن معها الحمّام.
وقلت للمواشط: اذهبن معها، حتى تصلحن حفافها، وما تحتاج إلى إصلاحه من وجهها.
فمضت، ومضين معها، ودعونا بكرسي، وجلسنا أنا والخيزران عليه، في صحن الدار،
ننتظر خروجها.
فخرجت إلينا إحدى المواشط وهي تضحك.
فقلت لها: ما يضحكك.
فقالت: يا ستّي، إنّنا لنرى من هذه المرأة عجباً.
فقلت: وما هو؟
فقالت: نحن معها في انتهار، وزجر، وخصومة، ما تفعلين أنت، ولا ستّنا، مثله إذا
خدمناكما.
فقلت للخيزران: حتى تعلمين-والله- يا أختي أنّها حرّة رئيسة، والحرّة لا تحتشم من
الأحرار.
وخرجت إلينا جارية أعلمتنا أنّها قد خرجت من الحمّام، فوجّهت إليها الخيزران أصناف
الخلع، فتخيّرت منها ما لبسته، وبعثنا إليها بطيب كثير، فتطيبت، ثم خرجت إلينا.
فقمنا جميعاً، فعانقناها، فقالت: الآن، نعم.
ثم جننا إلى الموضع الذي يجلس فيه أمير المؤمنين المهدي، فأقعدناها فيه.
ثم قالت الخيزران: إنّ غداءنا قد تأخر، فهل لك في الطعام؟

فقالت: والله ما فيكنّ من هي أحوج إليه منّي.
 فدعونا بالطعام، فجعلت تأكل، وتضع بين أيدينا، حتى كأنها في منزلها.
 فلما فرغنا من الأكل، قالت لها الخيزران: من لك ممن تعين به؟
 قالت؛ ما لي وراء هذا الحائط أحد من خلق الله تعالى.
 فقالت لها الخيزران: فهل لك في المقام عندنا، علي أن نخلي لك مقصورة من المقاصير،
 ويحوّل إليها جميع ما تحتاجين إليه، ويستمتع بعضنا ببعض؟
 فقالت: ما درت إلا على أقلّ من هذا الحال، وإذ قد تفضّل الله-عزّ وجلّ- عليّ بكما، وبهذه
 النعمة، فلا أقلّ من الشكر لأمير المؤمنين المهدي، لكلّ نعمة، ولكما، فافعلي ما بدالك، وما
 أحببت.
 فقامت الخيزران، وقمت معها، وأقمناها معنا، ودخلنا نطوف بالمقاصير، فاخترت-والله-
 أوسعها، وأحسنها.

فملأتها الخيزران، بالجواري، والوصائف، والخدم، والفرش، والآلات، ثم قالت: ننصرف عنك،
 وعليك بمنزلك، حتى تصلّحه، فخلقناها في المقصورة، وانصرفنا إلى موضعنا.
 فقالت الخيزران: إن هذه امرأة رئيسة، وقد عضّتها الفقر، وليس يملأ عينها إلا المال، ثم بعثت
 إليها بخمسة آلاف دينار، ومائة ألف درهم.
 وأرسلت إليها: تكون هذه في خزانتك، ووظيفتك، ووظيفة حشمك، قائم في كلّ يوم، مع وظيفتنا.
 ثم لم نلبث أن دخل علينا المهدي، فقلت له: يا سيّدي، لك-والله- عندي حديث طريف.
 فقال: ما هو؟ فحدّثته بالخبر.

فلما قلت له ما كان منّي، من الثوب عليها، وإسماعها، اقشعرّ، واصفرّ.
 ثم قال: يا زينب، هذا مقدار شركك لربك عزّ وجلّ، وقد أمكنك من عدوك، وأظفرك به، على
 هذا الحال الذي تصفين؟ والله، لولا مكانك منّي، لحلفت أن لا أكلمك أبداً، أين المرأة؟
 قالت: فوقيته خبرها، فالتفت إلى الخيزران، يصوّب فعلها، وجزاها خيراً.
 ثم قال لخدام بين يديه: احمل إليها عشرة آلاف دينار، ومائتي ألف درهم، وبلّغها سلامي،
 واعلمها أنه لولا خوفي من احتشامها لسرت إليها مسلماً عليها، ومخبراً لها بسروري بها، فقل
 لها: أنا أخوك، وجميع ما ينفذ فيه أمري، فأمرك فيه نافذ مقبول.
 قالت زينبت: فإذا هي قد وردت إلينا مع الخادم، وعلى رأسها دواج ملح، حتى جلست.
 فلقيتها المهدي أحسن لقاء، فأقعدتها عنده ساعة، تحدّثه، ثم انصرفت إلى مقصورتها.
 فهذا الحديث يا بنيّ، خير لك من كتاب.

قال: فأمسكتُ.

فقلت: لي: قد اغتممت؟

فقلت لها: ما أغتم، ما أبقاك الله عزّ وجلّ لي.

فقالت: الليلة توافيك كتاب.

فلما كان الليل، أنفذت بها إليّ، ومعها ما يساوي أضعاف ثمنها من كلّ صنف من الحلّي، والرقيق، وغير ذلك.

قصة (82) القرد وإمرأة القرّاد⁽¹⁾

حدّثني عليّ بن نظيف المتكلم، المعروف بشهدانجة وسعيد بن عبد الله السمرقندي الفقيه

الحنفي، عمّن حدّثهما:

إنه بات في سطح خان، في بعض الأسفار، ومعهم قرّاد، ومعهم قرد، وامرأته، فباتا في خان.

قال: فلما نام الناس، رأيت القرد قد قلع المسمار الذي في السلسلة، ومشى نحو المرأة،

فلم أعلم ما يريد.

فقمّت، فرآني القرد، فرجع إلى مكانه، فجلست، ففعل ذلك دفعات، وفعلته.

فلما طال عليه الامر، جاء إلى خرج القرّاد، ففتحه، وأخرج منه صرّة دراهم، خمت أن

فيها أكثر من مائة درهم، فرمى بها إليّ.

فعجبت من أمره، وقلت: أمسك، لأنظر ما يفعل، فأمسكت.

فجاء إلى المرأة، فمكنته من نفسها، فوطأها.

فاغتمت بتمكيني إياها من ذلك، وحفظت الصرّة.

فلما كان من غدٍ، صاح القرّاد، يطلب ما ذهب منه.

وقال لصاحب الخان: قردي يعرف من أخذ الصرّة، فاضبط باب الخان، واقعد أنا وأنت

والقرد، ويخرج الناس، فمن علق به القرد فهو خصمي، ففعل ذلك.

وأقبل الناس يخرجون والقرد ساكت لا يتكلم، وخرجت فما عرض لي، فوقف خارج

الخان أنظر ما يجري، فلما لم يبق إلا يهودي، فخرج، فعلق به القرد.

فقال القرّاد: هذا خصمي، وجذبه ليحمله إلى صاحب الشرطة، فلم أستحلّ السكوت.

فقلت: يا قوم ليس اليهودي صاحبكم، والصرّة معي، ولي قصة عجيبة في أخذها،

وأخرجتها، وقصصت عليهم القصة.

فحملنا إلى صاحب الشرطة، وحضرت الرفقة، فعرّفوا صاحب الشرطة محلّي، ومنزلتي،

ويساري، وأقبل القرّاد يحيد عن قرده.

(1) التتوخي، الفرج، ج4، ص146.

فما برحت حتى أمر صاحب الشرطة بقتل القرد، وطلبت المرأة، فهربت، وسلم اليهودي.

قصة (83) قصة ابن التمساح⁽¹⁾

وحكى أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر الكاتب المعروف بالحائمي، قال: رأيت بمصر رجلاً يعرف بابن التمساح، فسألت جماعة من أهل مصر، من العامة، عن ذلك.

فقالوا: هذا وطئ التمساح أمه، فولدته. فكذبت ذلك، وبحثت عن الخبر، فاخبرني جماعة من عقلاء مصر، أن التمساح بها يأخذ الناس من الماء فيفترسهم.

وربما أخذهم وهو شبعان، فيحمل المأخوذ بيده على صدره، حتى يجيء به إلى أجراف أسفل مصر بمسافة، وهي جبال حجارة فيها مغارات إلى النيل، لا يصل إليها الماشي ولا سالك الماء لبعدها عن الجهتين.

فيتسلق التمساح إلى بعض المغارات، فيودع بها الإنسان الذي أخذه، حياً أو ميتاً بحسب الإتفاق ويمضي.

فإذا جاع ولم يظفر بشيء، عاد إلى الموضع فيفترس الإنسان الذي خبأه هناك. قال: فكان قد قبض على امرأة في بعض الأوقات، فجعلها في المغارة، فذكرت المرأة: أنها حينما استقرت في المغارة، وانصرف التمساح، رأت هناك رجلاً حياً، وآثار جماعة قد افترسهم التمساح.

وأنها سألت الرجل عن أمره، فذكر أن التمساح تركه هناك منذ يومين.

قالت: وأخذ الرجل يؤانسني بالحديث، إلى أن طالبني بنفسي.

فقلت: يا هذا اتق الله.

فقال: التمساح قد مضى، ومن ساعة إلى ساعة فرج، ولعل أن تجتاز بنا سفينة قبل عودته فنطرح أنفسنا إليها.

فوعظته، فلم يلتفت إلى كلامي، واغتصمني نفسي، فواقعي.

وما نزل حتى جاء التمساح، فأخذه من فوق، ومضى، فبقيت كالميتة فزعاً.

(1) التتوخي، الفرج، ج4، ص168.

فانا كذلك، إذ سمعت وقع حوافر الخيل، وصوت أقدام كثيرين، فأخرجت رأسي من الغار، وصحت واستغثت، فاطلع أحدهم.

وقال: ما أنت؟

فقلت: حديثي طريف، أرمو لي حبلاً أتخلص به إليكم.

فرمو لي حبلاً، فشددت نفسي، واستظهرت جهدي، وأطراف الحبل في أيديهم.

فقلت: اجذبوني.

فجذبوني، فصرت معهم على ظهر المغارة، بعد أن توهنت، وتسَلَّخت يدي.

فسألوني عن خبري، فأخبرني، فأركبوني شيئاً، وأدخلوني البلد، فلما كان وقت عادة

حيضي، تأخرت عني، ثم ظهر الحمل، فولدت ابني هذا بعد تسعة أشهر.

وكرهت أن أخبر كل أحد بهذا الحديث، فنسبت ذلك إلى التمساح، واستتر أمري بذلك.

قصة (84) يا قديم الإحسان لك الحمد⁽¹⁾

حدثنا أبو الحسن أحمد بن يوسف بن يعقوب بن البهلول التنوخي، قال:

كان ينزل بباب الشام من الجانب الغربي من بغداد رجل مشهور بالزهد والعبادة، يقال

له: لبيب العابد، لا يعرف إلا بهذا.

وكان الناس ينتابونه، وكان صديقاً لأبي، فحدثني لبيب، قال:

كنت مملوكاً رومياً لبعض الجند، فربّاني، وعلمني العمل بالسلاح، حتى صرت رجلاً،

ومات مولاي بعد أن أعتقتي.

فتوصلت إلى أن حصلت رزقة لي، وتزوجت بإمرأته، وقد علم الله أنني لم أرد بذلك إلاّ

صيانتها، فأقمت معها مدة.

ثم أتفق أني رأيت يوماً حيّة داخلّة في جحرها، فأمسكت ذنبها، فانتشت عليّ، فنهشت

يدي، فشلت.

ومضى على ذلك زمان طويل، فشلت يدي الأخرى، لغير سبب أعرفه، ثم جفّت

رجلاي، ثم عميت، ثم خرس.

وكنت على ذلك الحال - ملقى - سنة كاملة، لم تبق لي جارحة صحيحة، إلا سمعي،

أسمع به ما أكره، وأنا طريح على ظهري، لا أقدر على الكلام، ولا على الحركة، وكننت أسقى

وأنا ريان، واترك وأنا عطشان، وأهمل وأنا جائع، وأطعم وأنا شبعان.

فلما كان بعد سنة، دخلت امرأة إلى زوجتي، فقالت: كيف أبو علي، لبيب؟

(1) التنوخي، الفرج، ج4، ص196.

فقال لها زوجتي: لا حي فيرجى، ولا ميت فيسلى.
فأفلقني ذلك، وآلمني ألماً شديداً، وبكيت، ورغبت إلى الله عزّ وجلّ في سري بالدعاء.
وكنت في جميع تلك العلل لا أجد ألماً في جسمي، فلما كان في بقية ذلك اليوم، ضرب
عليّ جسمي ضرباناً عظيماً كاد يتلفني، ولم أزل على ذلك الحال، إلى أن دخل الليل وانتصف،
فسكن الألم قليلاً، فنمت.
فما أحسست إلاّ وقد انتبعت وقت السحر، وإحدى يديّ على صدري، وقد كانت طول
هذه السنة مطروحة على الفراش لا تتشال أو تشال.
ثم وقع في قلبي أن أتعاظي تحريكها، فحركتها، ففركت، ففركت بذلك فركاً شديداً،
وقوي طمعي في تفضل الله عزّ وجلّ عليّ بالعافية.
فحركت الأخرى ففركت، فقبضت إحدى رجليّ فانقبضت، فرددتها فرجعت، ففعلت
مثل ذلك مراراً.
ثم رمت الانقلاب من غير أن يقابني أحد، كما كان يفعل بي أولاً، فانقلبت بنفسي،
وجلست.
ورمت القيام فأمكنني، ففقت ونزلت عن السرير الذي كنت مطروحاً عليه، وكان في
بيت من الدار.
فمشيت التمس الحائط في الظلمة، لأنه لم يكن هناك سراج، إلى أن وقعت على الباب،
وأنا لا أطمع في بصري.
فخرجت من البيت إلى صحن الدار، فرأيت السماء والكواكب تزهر، فكدت أموت فرحاً.
وانطلق لساني بأن قلت: يا قديم الإحسان، لك الحمد.
ثم صحت بزوجتي، فقالت: أبو عليّ؟
فقلت: الساعة صرت أبو عليّ؟ أسرجي، فأسرجت.
فقلت: جيئني بمقراض، فجاءت به، فقصصت شارباً لي كان بزّي الجنّد.
فقال زوجتي: ما تصنع. الساعة يعيبك رفاقؤك.
فقلت: بعد هذا لا أخدم أحداً غير ربي.
فانقطعت إلى الله عزّ وجلّ، وخرجت من الدار، وطلّقت الزوجة، ولزمت عبادة ربي.
وقال أبو الحسن: وخبر هذا الرجل معروف مشهور، وكانت هذه الكلمة: يا قديم
الإحسان لك الحمد، صارت عادته، يقولها في حشو كلامه.
وكان يقال إنّه مجاب الدعوة، فقلت له يوماً: إنّ الناس يقولون إنك رأيت النبي صلى الله
عليه وسلم في منامك، فمسح يده عليك، فبرئت.
فقال: ما كان لعافيتي سبب غير ما عرفتك.

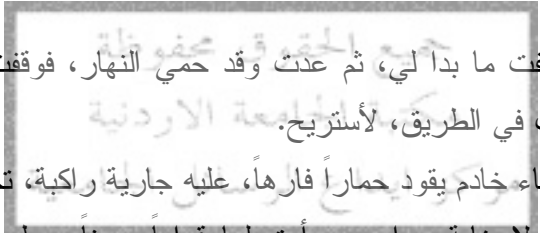
قصة (85) إسحاق الموصلي يتطفل ويقترح⁽¹⁾

حدّثني أبو الفرج المعروف بالأصبهاني رحمه الله تعالى، إملاء من حفظه، وكتبته عنه في أصول سماعاتي منه، ولم يحضرنني كتابي فأنقله منه، فأثبتته من حفظي، وتوخيت ألفاظه بجهدني، قال: حدّثني محمد بن مزيد بن أبي الأزهر، قال: حدّثنا حماد بن إسحاق بن إبراهيم الموصلي، قال: حدّثني أبي، قال:

غدوت يوماً، وأنا ضجر من ملازمة دار الخلافة، والخدمة فيها، فركبت بكرة، وعزمت على أن أطوف الصحراء، وأتفرج بها.

فقلت لغلماني: إن جاء رسول الخليفة، فعرفوه أنني بكرت في مهم لي، وأنكم لا تعرفون

أين توجّهت

ومضيت، وطفقت ما بدا لي، ثم عدت وقد حمي النهار، فوقف في شارع المخرم، في الظلّ، عند جناح رحب في الطريق، لأستريح.  فلم ألبث أن جاء خادم يقود حماراً فارهاً، عليه جارية راكبة، تحتها منديل ديبقيّ، وعليها من اللباس الفاخر ما لا غاية وراءه، ورأيت لها قواماً حسناً، وطرفاً فاتناً، وشمائل ظريفة، فحدست أنها مغنية.

فدخلت الدار التي كنت واقفاً عليها، وعلقها قلبي في الوقت علوقاً شديداً، لم أستطع معه

البراح.

فلم ألبث إلاّ يسيراً، حتى أقبل رجلان شابان جميلان، لهما هياة تدل على قدرهما، راكبان، فاستأذنا، فأذن لهما، فحملني حبّ الجارية على أن نزلت معهما، ودخلت بدخولهما، فظننا أنّ صاحب الدار دعاني، وظنّ صاحب الدار أنّي معهما.

فجلسنا، فأتي بالطعام فأكلنا، وبالشراب فوضع، وخرجت الجارية، وفي يدها عود، فرأيتها حسناء، وتمكّن ما في قلبي منها، وغنّت غناء صالحاً، وشرينا.

وقمت قومة للبول، فسأل صاحب المنزل من الفتيين عني، فأخبره أنّهما لا يعرفاني، فقال: هذا طفيلي، ولكنه ظريف، فأجملوا عشرته.

وجئت، فجلست، وغنّت الجارية في لحن لي:

أمام المطايا تستريب وتطمح
شعاع الضحى في منتها يتوضّح

ذكرتك إذ مررت بنا أمّ شادن
من المولعات الرمل أدماء حرّة

(1) التتوخي، الفرج، ج4، ص372.

فأدته أداءً صالحاً، ثم غنّت أصواتاً فيها من صنعتي:

الطلول الدوارس فارقتها الأوانس
أوحشت بعد أهلها فهي قفر بسابس

فكان أثرها فيه أصلح من الأول، ثم غنّت أصواتاً من القديم والمحدث، وغنّت في

أضعافها من صنعتي، في شعري:

قل لمن صدّ عاتبا ونأى عنك جانباً
قد بلغت الذي أرد ت وإن كنت لا عباً
واعترفنا بما ادّعي ت وإن كنت كاذباً

فكان أصلح ما غنّته، فاستعدته منها لأصححه لها، فأقبل عليّ رجل منهم، فقال: ما رأيت طفلياً أصفق منك وجهاً، لم ترض بالتطفيل حتى اقترحت، وهذا تصديق للمثل: طفيلي ويقترح، فأطرقت، ولم اجبه، وجعل صاحبه يكفّه عني، فلا يكف.

ثم قاموا إلى الصلاة، وتأخرت، فأخذت العود وشدت طبقته، وأصلحته إصلاحاً محكماً، وعدت إلى موضعي، فصلّيت، وعادوا، وأخذ الرجل في عربدته عليّ، وأنا صامت. وأخذت الجارية العود، وجسّته، فأنكرت حاله، وقالت: من مسّ عودي؟ فقالوا: ما مسّه أحد.

قالت: بلى، والله، قد مسّه حاذق متقدّم، وشدّ طبقته، وأصلحه إصلاح متمكن من صنعته.

فقلت لها: أنا أصلحته.

قالت: بالله عليك، خذه، فاضرب به.

فأخذته، وضربت به مبدأً عجبياً، فيه نقرات محرّكة، فما بقي في المجلس أحد إلا وثب فجلس بين يدي.

وقالوا: بالله عليك يا سيدنا، أتغني؟

قلت: نعم، وأعرفكم نفسي أيضاً، أنا إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وإني - والله - لأتية على الخليفة، وأنتم تشتموني اليوم، لأنني تملّحت معكم بسبب هذه الجارية، ووالله، لا نطق بحرف، ولا جلست معكم، أو تخرجوا هذا المعاند.

ونفضت لأخرج، فتعلّقوا بي، فلم أرجع، فلحقتني الجارية، فتعلّقت بي، فلنت، وقلت: لا

أجلس حتى تخرجوا هذا البغيض.

فقال له صاحبه: من هذا كنت أخاف عليك، فأخذ يعتذر.

فقلت: أجلس، ولكني، والله، لا أنطق بحرف وهو حاضر، فأخذوا بيده، فأخرجوه.

فبدأت أغني الأصوات التي غنّتها الجارية من صنعتي، فطرب صاحب البيت طرباً

شديداً، وقال: هل لك في أمر أعرضه عليك؟

فقلت: وما هو؟

قال: تقيم عندي شهراً، والجارية لك بما لها من كسوة.

فقلت: أفعل.

فأقمت عنده ثلاثين يوماً، لا يعرف أحد أين أنا، والمأمون يطلبني في كل موضع، فلا يعرف لي خبراً.

فلما كان بعد ذلك، سلم إليّ الجارية والخادم، وجئت بها إلى منزلي، وكان أهل منزلي في أقبح صورة لتأخري عنهم.

وركبت إلى المأمون من وقتي، فلما رأني، قال لي: يا إسحاق، ويحك، أين كنت؟ فأخبرته بخبري.

فقال: عليّ بالرجل الساعة، فدللتهم على بيته، فأحضر، فسأله المأمون عن القصة، فأخبره بها.

فقال: أنت ذو مروءة، وسبيلك أن تعان عليها، فأمر له بمائة ألف درهم.

وقال: لا تعاشر ذلك المعربرد السفيل.

فقال: معاذ الله يا أمير المؤمنين.

وأمر لي بخمسين ألف درهم، وقال لي: أحضر الجارية، فأحضرتها إياها، فغنته.

فقال لي: قد جعلت لها نوبة كل يوم ثلاثاء، تغنيني من وراء الستارة، مع الجواري،

وأمر لها بخمسين ألف درهم.

فربحت - والله - بتلك الركبة، وأربحت.

قصة (86) ما ثمانية وأربعة واثان⁽¹⁾

أخبرني أبو الفرج الأصفهاني، قال: أخبرني أبو بكر محمد بن القاسم بن بشر الأنباري،

قال: حدّثني أبي، قال: حدّثني أحمد بن عبيد، عن الهيثم بن عدّي، عن عبد الملك بن عمير، قال:

قدم علينا عمر بن هبيرة الكوفة، فأرسل إلى عشرة، أنا أحدهم، من وجوه أهل الكوفة،

فسمرنا عنده.

ثم قال: يحدّثني كل رجل منكم أحدثه، وأبدأ أنت يا أبا عمرو.

فقلت: أصلح الله الأمير، أحدث الحق، أم حديث الباطل؟

فقال: بل حديث الحق.

فقلت: إنّ امرء القيس بن حجر الكندي، آلي أليّة، أن لا يتزوج بامرأة حتى يسألها عن

ثمانية، وأربعة، واثنين، فجعل يخطب النساء، فإذا سألهنّ عنها، قلن: أربعة عشر.

(1) التتوخي، الفرج، ج4، ص378.

فبينما هو يسير في الليل، وإذا هو برجل يحمل ابنة له صغيرة، كأنها القمر لتمه، فأعجبته.

فقال لها: يا جارية، ما ثمانية، وأربعة، واثنان؟

فقالت: أمّا الثمانية: فأطباء الكلبة، وأمّا الأربعة: فأخلاف الناقة، وأمّا الإثنان: فنديا المرأة. فخطبها من أبيها، فزوجه منها، واشترطت هي عليه، أن تسأله ليلة يأتيها، عن ثلاث خصال، فجعل لها ذلك، على نفسه، وعلى أن يسوق لها مائة من الإبل، وعشرة أعبد، وعشر وصائف، وثلاثة أفراس، ففعل ذلك.

ثم إنه بعث عبداً له إلى المرأة، وأهدى إليها نحياً من سمن، ونحياً من عسل، وحلّة من قصب.

فنزّل العبد ببعض المياه، فنشر الحلّة، ولبسها، فتعلقت بشجرة فانشقت، وفتح النحيين، وأطعم أهل الماء منهما.

ثم قدم على حيّ المرأة وهم خلوف، فسألها عن أبيها، وأمها، وأخيها، ودفع إليها هديتها. فقالت: أعلم مولاك، أنّ أبي ذهب يقرب بعيداً، ويبعد قريباً، وأنّ أمي ذهبت تشق النفس نفسين، وأن أخي يراعي الشمس، وأن سماءكم انشقت، وأن وعائكما نضبا. فقدم الغلام على مولاها، وأخبره بما قالت.

فقال: أمّا قولها: ذهب أبي يقرب بعيداً، ويبعد قريباً، فإن أباهما ذهب يحالف قوماً على قومه.

وأما قولها: ذهبت أمي تشق النفس نفسين، فإن أمها ذهبت تقبل امرأة.

وأما قولها: أنّ أخي يراعي الشمس فإن أخاها في سرح له يرعاها فهو ينتظر وجوب الشمس ليروح.

وأما قولها: إن سماءكم انشقت، فإن الحلة التي بعثت بها معك انشقت.

وأما قولها: إن وعائكما نضبا، فإن النحيين الذين بعثت بهما نقصا، فأصدقني.

فقال: يا مولاي، إني نزلت بماء من مياه العرب، فسألوني عن نسبي، فأخبرتهم أنّي ابن عمك، ونشرت الحلة فلبستها، وتجملت بها، فعلقت بشجرة، فانشقت، وفتحت النحيين، فأطعمت منهما أهل الماء.

فقال: أولى لك.

ثم ساق مائة من الإبل، وخرج نحوها، ومعه الغلام، فنزلا منزلاً.

فقام الغلام ليسقي، فعجز، فأعانه امرؤ القيس، فرمى به الغلام في البئر، وانصرف حتى

أتى المرأة بالإبل، فأخبرهم أنّه زوجها.

فقبل لها: قد جاء زوجك.

فقالت: والله، لا أدري أهو زوجي أم لا، ولكن انحروا له جزوراً، وأطعموه كرشها وذنبها فأكل ما أطعموه فقالت: أسقوه لبناً حازراً، فأبى أن يشرب، وقال: أين الضرب والزيد؟
فقالت: افرشوا له عند الفرث والدم، فأبى أن ينام، وقال: افرشوا لي فوق التلعة الحمراء، واضربوا لي عليها خباء.

ثم أرسلت إليه تقول: هات شرطي عليك في المسائل الثلاث، فأرسل إليها سلي عمّا شئت.

فقال اسقوه لبناً حازراً وهو الحامض فشرب فقالت: افرشوا له عند الفرث والدم ففرشوا له فنام.
فلما: اصبحت ارسلت الية إني أريد أنم أسالك.

فقال: سلي عما بدا لك.

فقالت: مم تختلج شفتاك.

فقال: لتقبيلي فاك.

فقالت: مم يختلج كشحك.

قال: لالتزامي إياك.

فقالت: مم يختلج فخذاك.

فقال: لتوركي إياك.

فقالت: عليكم بالعبد فشدوا أيديكم به ففعلوا

قال: ومر قوم فاستخرجوا امراء القيس من البئر الى حيه، واستاق مائة من الابل، وأقبل الى امرأته.

فقيل لها: قد جاء زوجك.

فقالت: والله ما أدري أهو زوجي، أم لا ولكن انحروا له جزورا وأطعموه من كرشها وذنبها ففعلوا فلما أتوه بذلك فقال: اين الكبد والسنام والملحة وأبي أن ياكل.

فقالت: مم تختلج شفتاك؟

قال: لشربي المشعشات.

قالت: مم يختلج كشحك؟

قال: للبسي الحبرات.

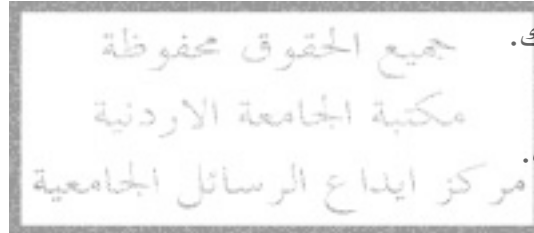
قالت: فمم يختلج فخذاك؟

قال: لركبي السابقات.

فقالت: هذا هو زوجي، فعليكم به، واقتلوا العبد، فقتلوه، وأقبل أمرؤ القيس على الجارية.

فقال ابن هبيرة: لا خير في سائر الحديث الليلة، بعد حديثك يا أبا عمرو، ولن يأتينا أحد

بأعجب منه، فقمنا، وانصرفنا، وأمر لي بجائزة.



قصة (87) أين اختبأ الأسد (1)

ووجدت في كتاب المتيمين للمدائني:

أن رجلاً من بني أسد، علق امرأة من همدان بالكوفة، وشاع أمرهما، فوضع قوم المرأة عليه عيوناً، حتى أخبروا أنه قد أتاها في منزلها، فأتوا دارها، واحتاطوا بها. فلما رأت ذلك، ولم تجد للرجل مهرباً، وكانت المرأة بادنة، فقالت له: ما أرى لك موضعاً أستر لك من أن أدخلك خلف ظهري، وتلزمني، فأدخلته بينها وبين القميص، ولزمها من خلفها.

ودخل القوم، فداروا في الدار، حتى لم يتركوا موضعاً إلا فتشوه، فلما لم يجدوا الرجل، استحبوا من فعلهم، وأغلظت المرأة عليهم، وعنفتهم، فخرجوا. وانشأ الرجل يقول:

فحبك أشهاني وحبك قادنني لمحمدان حتى أمسكوا بالمخنق
فجاشت إليّ النفس أول مرة فقلت لها لا تفرقي حين مفرقي
رويدك حتى تنظري عمّ تتجلي عمالية هذا العارض المتألق

قصة (88) (2)

حدث نمير الهلالي قال: كان من فتيان بني هلال فتى يقال له بشر بن عبد الله ويعرف بالأشتر، وكان من سادات بني هلال أحسنهم وجهاً، وأسخاهم كفاً، وكان معجباً بجارية من قومه تدعى جيداء وكانت بارعة الجمال والكمال، ثم اشتهر أمره وأمرها وظهر خبرها، ووقع الشر بين اهلها، إلى أن كانت بين الفريقين دماء، ثم افترقوا وابتعدت منازلهم، قال نمير: فلما طال على الأشتر الفراق، وتمادى به البعد، جاءني فقال: يا نمير هل من خير؟ قلت: عندي، فقل ما أحببت فقال: تساعدني على زيارة جيداء، فقد أذهب الشوق روحي، قلت: نعم، بالحب والكرامة، فانهض بنا إذا شئت، فركب وركبت معه وسرنا يوماً وليلتنا العشاء والغد، حتى إذا كان العشاء أنخنا رواحنا في شعب قريب من الفريق، فقال: يا نمير اذهب فتأنس بالناس، واذكر أن لقيت أحداً أنك طالب ضالة، ولا تعرض بذكري بين شفة ولسان، إلا أن تلقى جاريتها فلانة راعية غنمهم فأقرها مني السلام وسلها عن الخبر، وأعلمها موضعي. قال نمير: فخرجت لا أعده ما أمرني به حتى لقيت الجارية، فأبلغتها الرسالة وأعلمتها مكانه، وسألته عن الخبر، فقالت هي

(1) التتوخي، الفرج، ج4، ص422.

(2) المستجاد، ص49.

والله مشدد عليها محتفظ بها، ولكن موعدكم اولئك الشجرات اللواتي عند أعقاب البيوت مع صلاة العشاء الآخرة. قال: فانصرفت إلى صاحبي فأعلمته الخبر، ثم نهضت أنا وأياه نقود رواحلنا حتى أتينا الموزن في الوقت الموعود، فلم نلبث إلا قليلاً وإذا جيداء تمشي قريباً منا، فوثب الاشتر فصافحها وسلم عليها، وقمت أنا مولياً عنهما فقالا: نقسم عليك ألا رجعت، فوالله ما نحن في مكروه، ولا بيننا ما يستر عنك، فرجعت إليهما فجلست معهما. فقال لها الشتر ما فيك حيلة يا جيداء فتعلل الليلة. قالت: لا والله ما لي إلى ذلك من سبيل إلا ان يرجع الذي عرفت من البلاء والشر، فقال لها. لا بد من ذلك، ولو كان ماعسى أن يكون، قالت: فهل في صاحبك هذا من خير؟ قلت: قولي ما بدا لك، فإني أنتهي إلى رايك، ولو كان ذلك ذهاب نفسي، فلعلت ثيابها فقالت لي: ألبسها واعطني ثيابك، ففعلت، ثم قالت، اذهب إلى بيتي فأدخل في ستري فإن زوجي سيأتيك فيطلب منك القدح ليحلب فيه، ثم يأتيك بعد فراغه من الحلب والقدح ملآن فيقول: هاك غبوقك، فلا تأخذه منه حتى تطيل ذلك عليه، ثم خذه أو دعه حتى يضعه ويذهب، ولست تراه

حتى تصيح أن شاء الله تعالى. جميع الحقوق محفوظة

قال: فذهبت ففعلت ما أمرتني به، حتى إذا جاء بالقدح فلم أخذه منه حتى طال نكدي عليه، ثم أهويت لأخذه منه فأهوى هو ليضعه فاختلفت أيدينا على الإناء فانفك وانهرق اللبن فقال: هذا الطماح جيداء، وضرب بيده على مقدم البيت فاستخرج سوطاً ملوياً مثل الثعبان، ثم دخل فهنك الستر عليّ وأمتع السوط مني تمام عشرين سوطاً.

ثم جاءت أمه وأخته فانترعاني من يده، ولا والله ما فعلتا ذلك حتى زال عقلي وهمت أن أوجره السكين وأن كان فيها الموت، فلما خرجوا شددت ستري وقعدت كما كنت، فلم ألبث إلا قليلاً حتى دخلت أم جيداء، فكلمتني وهي لا تتك أي ابنتها، واندفعت في البكاء والنحيب فتغطيت بثوبي، ووليتها ظهري، فقالت: يا بنية اتق الله في نفسك، ولا تعرضي لمكروه زوجك، فذلك أولى بك، وأما الأشتر فقد هلك آخر الدهر. وخرجت من عندي وقالت: سأرسل إليك أختك تؤنسك الليلة، فلبثت غير كثير، وإذا بالجارية قد جاءت، فجعلت تبكي وتدعو على من ضربني، وأنا لا اكلها ثم أضجعت إلى جنبي، فلما استمكنت منها شددت يدي على فيها وقلت: يا هذه تلك أختك مع الأشتر عند الشجرات، وقد قطع ظهري الليلة بسببها، وأنت أولى بالستر عليها، فاختراري لنفسك ولها، فوالله لئن تكلمت بكلمة لأصيحن أنا بجهدتي حتى تكون الفضيحة شاملة، ثم رفعت يدي عن فيها، فاهترت كما تهتر القصبة، فلم أزل بها حتى أنست، فباتت والله معي أحسن رفيق رافقه قط، ولم نزل نتحدث وتضحك مني ومما نالني، وتمكنت منها تمكن من لو رام ريبة قدر عليها، ولكن الله عصم فله الحمد، ولم نزل كذلك حتى برق الفجر، وإذا جيداء قد دخلت علينا، فلما رأتنا ارتاعت وقالت: ويحك من هذه؟ قلت: أختك قالت: وما الخبر؟ قلت: هي تخبرك فإنها نعم الأخت، وأخذت ثيابي ومضيت إلى صاحبي فركبت أنا وهو، وحدثته ما

أصابني، وكشفت له عن ظهري، فإذا فيه ضرب رمى الله ضاربه بالنار الصيلم كل ضربة يخرج منها الدم، فلما رأى ذلك قال: قد عظم منيعك، ووجب شكرك، وطالت يدك، فلا حرمني الله مكافأتك، ولم يزل لي شاكراً معترفاً.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

**The Women in Al-Tanoukhi's literature
A study in Content and Form**

**By
Ahmad Abed Alkarem Almulqi**

**Supervisor
Yassen Kalel AISH**

ABSTRACT

The theme of this thesis is Al-Muhassen Ibn Ali Al-Tanoukhi, 327-384 in the Hijri Calendar. The research therein couched has been designed to construe the portrait of women as it appears in the chronicles collected by Al-Tanoukhi; the portrait thus construed is then to be set against a portrait construed in like manner from the works of Al-Jaheth, Ibn Qutaibah and Ibn Abdi Rabbih. Having achieved this purpose, the thesis goes on to define the compositional properties of Al-Tanokhi's works.

For the purposes of this thesis, the dimensions of a portrait include bodily characteristics, personal traits, social status and legal competence. Moreover, compositional properties include the stylistic properties of presentation, patterns of narration, of characterization interplay of characters, plot, denouement and finale.

The present thesis is comprised of an introduction, three chapters, concluding remarks and an appendix. Chapters one and two are jointly dedicated to the visualization part of the title, whereas compositional properties have been dealt with in chapter 3.

Chapter 1 construes the portrait of women as it appears in the works of the three selected predecessors of Al-Tanoukhi. From Al-Jaheth, three treatises have been selected: 'The discourse On female Slave Singers', 'The Discourse on The Rivalry in Intercourse Between Females And Males', 'The Discourse on Women'; from Ibn Qutaibah, a chapter has been selected entitled 'On The Nature of Women' occurring in his book known as 'Uyoun Al-Akhbar', or 'The Elite Chronicles'; from Ibn abdi Rabbih's 'Al-Iqd Al-Fareed', or 'The Unique Necklace', Coral Two has been selected in addition to the episodes of the women received in audience by Mu'awiyah.

Fifty chronicles from these works have been carefully selected and explored to elicit there from the portrait of women as visualized by the three authors. The chronicles have been selected so as to reflect the portrait of women as such, regardless of whether a woman happens to be a free woman or a slave, whether she be young or elderly, rich or poor, thus stunting all considerations that might offset femininity.

Chapter Two, elicits the portrait of women as visualized by Al-Tanoukhi. Thirty-eight chronicles have been selected from his works and explored according to the same methodology. The portrait thus construed is then set for comparison with the portrait elicited from the three authors mentioned above.

Chapter Three studies the compositional properties of Al-Tanoukhi's selected chronicles. The properties of his mode of writing have been studied and presented, The stylistics of his patterns of narration, characterization and interplay of characters, the properties of plot, denouements and finales have all been elaborately presented.

This chapter has shown that Al-Tanoukhi's chronicles fall in two categories; namely, those that seek to record and document genuine established episodes, and those that seek only to present an exciting event regardless of documenting their respective authenticity. The language and wording of those latter chronicles have been carefully defined.

The appendix presents the full text of all the chronicles selected eighty-eight in number. Fifty of them have been selected from Al-Tanoukhi's predecessors and thirty-eight from Al-Tanoukhi's own works.

The concluding remarks show that the portrait of women as visualized by Al-Tanoukhi, is entirely dissociated from any prescribed stereotype. A woman led her own life in her own way within her community fully enjoying her inherent rights, social status and legal competence. In composition and stylistics, Al-Tanoukhi could not disentangle himself from the rules, then prevalent, in presenting chronicles. He manifested, nonetheless, a genuine tendency to attempt writing the short story, even according to the modern rules governing this literary genre.